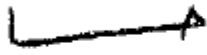


٩٥٦/٩٥٦٦



مكتبة الجامعة الأردنية	
٦	مزيات ١٩٩٨
رقم التسلسل	٤٩٣٩١٤
رقم التصنيف	

إهداء من الجامعة الأردنية



٩٨٠٢  
٢٢٦

نوقشت هذه الرسالة بتاريخ ١٨/٢/١٩٩٨ وأجيزت

التوقيع



أعضاء لجنة المناقشة

- ١- الأستاذ الدكتور مصطفى الحيارى / رئيساً
- ٢- الأستاذ الدكتور عبدالعزيز الدوري / عضواً
- ٣- الأستاذ الدكتور محمد خريصات / عضواً
- ٤- الأستاذ الدكتور محمد عيسى صالحية / عضواً



## الإهداء

إلى والديّ الحبيبين محاولة للوفاء لبعض ما قدّمنا

إلى زوجتي الحبيبة التي تحملت معي أعباء الدراسة

إلى ابنتي رشا

أهدي هذا الجهد المتواضع رمز محبة وتقدير وعرّفان

حسام محمد الناطور

## شكر وتقدير

يسعدني أن أتقدم بوافر الشكر والتقدير والاحترام إلى استاذي الدكتور مصطفى الحيارى الأب والأستاذ الذي أولاني جُلَّ اهتمامه ووقته واحترامه، حتى خرج هذا العمل على ما هو عليه الآن.

كما أتقدم بالشكر والتقدير إلى أعضاء لجنة المناقشة لتغضلم نحمل اعباء قراءة الرسالة ومناقشتها.

وأتقدم بالشكر والتقدير إلى زوجتي نهى أبو فريح التي تكبدت عناء الترجمة، وكذلك الدكتور سعيد صالح، وإلى الزملاء المهندسين نادر الغزاوي ورضوان الشلول، والعاملين في مكتبة الجامعة الأردنية واليرموك، وإلى الذين ساهموا في طباعة وإخراج هذه الرسالة على هذا النحو.

د  
ر  
خاتمة البحث

دولة المماليك في عهد السلطان الظاهر برقوق

الموضوع	الصفحة
- أسماء أعضاء لجنة المناقشة.	ب
- الإهداء.	ج
- شكر وتقدير.	د
- خطة البحث.	هـ
- قائمة الملاحق	ل
- ملخص الرسالة.	م
- عرض وتحليل للمصادر.	أ ج
- الفصل الأول.	١
الحياة السياسية في عهد السلطان برقوق	
- تمهيد: أوضاع السلطنة قبل تولي برقوق.	١
-١ برقوق ودوره في الصراع على السلطنة.	١٦
-٢ ولاية برقوق الأولى للسلطنة.	٢٦
-٣ الفتن والثورات:	٣١
أ- ثورة الطنبيغا الأشرفي.	٣١
ب- محاولة الخليفة المتوكل على الله الوصول إلى السلطنة.	٣٢
ج- حركة أحمد بن البرهان.	٣٣
د- ثورة منطاش وبلبغا الناصري.	٣٤
-٤ خلع السلطان برقوق من السلطنة وعودة الأمير حاجي.	٤٢
-٥ اختلاف منطاش والناصرى على السلطنة.	٤٥
-٦ عودة السلطان برقوق إلى السلطنة (سلطنته الثانية).	٤٨

الصفحة	الموضوع
٥٥	٧- حركات داخلية أخرى.
٦٣	٨- العلاقات الخارجية لدولة المماليك في عهد السلطان برقوق.
٧٥	- الفصل الثاني:
	تطور النظام الإداري في عهد السلطان برقوق
٧٧	أ- وظائف أرباب السيوف (الوظائف العسكرية).
٧٧	١- نيابة السلطنة.
٨١	٢- الأتابكية.
٨٣	٣- رأس نوبة.
٨٤	٤- إمرة سلاح.
٨٤	٥- إمرة مجلس.
٨٥	٦- إمرة أخورية.
٨٥	٧- الدوادارية.
٨٦	٨- الحجوية.
٨٦	٩- أمير جاندار.
٨٧	١٠- الاستادارية.
٨٧	١١- الجاشنكيرية.
٨٧	١٢- الخازندارية.
٨٨	- وظائف أخرى.
٩١	ب- الوظائف الديوانية (أرباب الأعلام):
٩١	١- الوزارة.
٩٥	٢- ديوان الإنشاء.
١٠٢	٣- نظر الخاص.
١٠٣	٤- نظر الجيش.
١٠٤	٥- نظر الدواوين.
١٠٤	- وظائف أخرى.

الصفحة	الموضوع
١٠٨	٦- الإدارة المحلية في نيابات السلطنة في مصر.
١٠٨	١- والي القاهرة.
١٠٩	٢- والي القرافة.
١١٠	٣- والي القلعة.
١١٠	٧- إدارة نيابات السلطنة في مصر.
١١٠	١- نيابة الاسكندرية.
١١١	٢- نيابة الوجه البحري ونيابة الوجه القبلي.
١١٢	أ- نيابة الوجه البحري.
١١٢	ب- نيابة الوجه القبلي.
١١٣	ج- الوظائف الدينية:
١١٤	١- قضاء القضاة.
١١٧	٢- الإفتاء.
١١٨	٣- وكالة بيت المال.
١١٨	٤- الحسبة.
١٢٠	- وظائف أخرى.
١٢٢	٨- الإدارة المحلية لنيابات السلطنة في بلاد الشام.
١٣١	د- بيع الوظائف في عهد السلطان برقوق.
١٣٦	هـ- الخلاصة.
١٤٠	- الفصل الثالث:
	<b>الجيش في عهد السلطان برقوق</b>
١٤٢	١- البنية البشرية.
١٤٥	٢- مصادر الحصول على المال:
١٤٥	أ- التجارة.
١٤٩	ب- الهدايا.

الصفحة	الموضوع
١٥٠	٣- عناصر الجيش:
١٥٠	أ- الجراكسة.
١٥٣	ب- الأتراك.
١٥٣	ج- الروم.
١٥٤	د- الأكراد والتركمان والعربان (عناصر محلية).
١٥٦	٤- فرق الجيش:
١٥٦	أ- المماليك السلطانية.
١٦٢	ب- مماليك الأمراء.
١٦٣	ج- أجناد الحلقة.
١٦٤	٥- الرتب العسكرية:
١٦٥	أ- إمرة مائة وتقدمة ألف.
١٦٧	ب- إمرة طبلخانة.
١٦٨	ج- إمرة عشرة.
١٦٩	د- إمرة خمسة.
١٧٠	٦- نظام الترقية والتقاعد.
١٨٠	٧- مخصصات الجيش:
١٨٣	أ- مخصصات نقدية:
١٨٣	١- نفقة البيعة (السلطنة).
١٨٥	٢- نفقة السفر.
١٨٧	٣- الجامكية.
١٨٧	ب- مخصصات عينية:
١٨٧	١- الخيول والجمال.
١٨٩	٢- الكسوة.
١٩٠	٣- مخصصات عينية أخرى.



الصفحة	الموضوع
١٩١	٨- الإدارة العسكرية:
١٩١	أ- ديوان الجيش (الإقطاع).
١٩٥	ب- ديوان المفرد.
١٩٧	ج- عرض الجيش.
١٩٩	د- قضاء العسكر.
١٩٩	٩- أسلحة الجيش.
٢٠١	- الخلاصة.
٢٠٥	- الفصل الرابع:
	<b>الحياة الاقتصادية في عهد السلطان برقوق</b>
٢٠٧	١- الزراعة:
٢٠٨	أ- الأراضي الزراعية.
٢٠٩	ب- الري.
٢١٤	ج- الانتاج الزراعي.
٢١٧	د- الثروة الحيوانية.
٢١٧	٢- الصناعة.
٢١٩	٣- التجارة.
٢٢٢	٤- الأسواق التجارية.
٢٢٧	٥- الأسعار والعوامل المؤثرة فيها.
٢٤١	٦- واردات الدولة (الضرائب):
٢٤١	أ- الخراج (ضريبة الأرض).
٢٤٥	ب- الجوالي.
٢٤٦	ج- ضريبة المراعي.
٢٤٦	د- المبادلات التجارية.
٢٤٧	هـ- ما يستخرج من المعادن.

الصفحة	الموضوع
٢٤٧	و- المواريث الحشرية.
٢٤٨	ز- ما يتحصل من النقود من دار الضرب.
٢٤٨	ح- المكوس.
٢٥١	٧- السياسة النقدية.
٢٥٨	٨- الأوزان والمكاييل والمقاييس.
٢٦٤	- الفصل الخامس:
	الحياة الاجتماعية في عهد السلطان برقوق
٢٦٥	أ- فئات السكان:
٢٦٦	١- الممالك.
٢٦٨	٢- المتعممين.
٢٧٤	٣- عامة الشعب.
٢٨٥	٤- الأقليات الدينية:
٢٨٥	أ- النصارى.
٢٩١	ب- اليهود.
٢٩٤	ب- وسائل التسلية.
٢٩٦	ج- المرأة في دولة المماليك.
٣٠٠	د- حفلات الزواج.
٣٠٣	هـ- الأعياد:
٣٠٣	١- وفاء النيل.
٣٠٥	٢- دوران المحمل.
٣٠٦	٣- المولد النبوي.
٣٠٨	٤- النيروز.
٣١٠	- الخلاصة.

الصفحة	الموضوع
٣١٥	- الفصل السادس:
	الحياة الثقافية والعمارة في عهد السلطان برقوق
٣١٦	أ- الحياة الثقافية:
٣١٦	١- العلوم اللغوية والدينية:
٣١٩	أ- في مجال الحديث.
٣٢٢	ب- في مجال علم القراءات.
٣٢٣	ج- في مجال الفقه.
٣٢٥	د- في مجال التصوف.
٣٢٦	هـ- القضاء.
٣٣٠	٢- الحركة الأدبية.
٣٣٨	٣- العلوم العقلية:
٣٣٩	أ- الطب.
٣٤١	ب- الحساب والميقات والهندسة.
٣٥٠	٤- العمارة:
٣٥٠	١- العمائر الدينية:
٣٥٠	أ- المدارس.
٣٥٣	ب- المساجد.
٣٥٥	ج- الخوانق.
٣٥٧	٢- العمائر العامة:
٣٥٧	أ- الجسور وأحواض المياه.
٣٥٨	ب- مراكز البريد.
٣٦٠	- قائمة المصادر والمراجع.
٣٨٠	- ملخص باللغة الإنجليزية.

ل

## قائمة الملاحق

الصفحة

الملاحق

ملحق رقم (١)

٢٥٩

مكاتبة بمنع العربان من الدخول إلى البلاد الشامية قبل فراغ الزرع.

## ٢ ملخص

### دولة المماليك في عهد السلطان الظاهر برقوق

٧٨٤-٨٠١هـ / ١٣٨٢-١٣٩٨م

#### إعداد

حسام محمد إسماعيل الناظور

#### إشرافها

الأستاذ الدكتور مصطفى الحيارى

يمثل موضوع دولة المماليك في عهد السلطان الظاهر برقوق خلال الفترة الممتدة من سنة ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م - ٨٠١هـ / ١٣٩٨م جانباً هاماً من تاريخ دولة المماليك في مصر وبلاد الشام، فدولة المماليك الجراكسة قامت على أسس تختلف عن الأسس التي قامت عليها دولة المماليك الأتراك، إذ استند السلطان برقوق على المماليك الجراكسة في سياسته الداخلية. فضلاً عن تركيز الدراسة على التغيرات التي حدثت بانتقال السلطة من المماليك الأتراك إلى المماليك الجراكسة، وأثر هذه التغيرات على النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعمران.

وتكمن أهمية دراسة الموضوع في السياسة الخارجية للسلطان برقوق التي نتج عنها احتلال دولة المماليك مركز الصدارة في فترة الدراسة وتبوئها زعامة العالم الإسلامي، فضلاً عن التركيز على النظم الإدارية والعسكرية وما طرأ عليها من تغيرات وتطورات باعتبار فترة الدراسة فترة تحولات وتغيرات جذرية في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعمران في مصر وبلاد الشام.

لذلك كان الهدف من اختيار موضوع دولة المماليك في عهد السلطان برقوق هو توضيح مدى استمرارية الحياة السياسية من فتن وثورات في فترة حكم دولة المماليك الأولى، والتغيرات التي طرأت عليها أثناء فترة حكم السلطان برقوق، وإبراز دور السلطان برقوق في التغيرات والتحويلات الجذرية في المؤسسة العسكرية، وتوضيح أثر هذه التغيرات العسكرية على الأوضاع الداخلية والخارجية، وإبراز الحياة الاقتصادية والاجتماعية من تطورات وتغيرات واضطرابات، وتوضيح التغيرات الاجتماعية، ودراسة الحياة الثقافية، وإبراز دور السلطان برقوق فيها، وإبراز الحياة العمرانية مثل المدارس، والمساجد، والجسور، ومدى اهتمام السلطان برقوق في إنشائها.

تقسم الدراسة إلى ستة فصول مع خلاصة لكل فصل، وتحليل للمصادر والمراجع وملحق، وقائمة بالمصادر والمراجع.

ففي الفصل الأول: تناولت أوضاع السلطنة قبل تولي برقوق السلطة، ودور برقوق في الصراع على السلطة، وولاية برقوق الأولى للسلطنة، والفتن والثورات مثل ثورة الطنبيغا الأشرفي، ومحاولة الخليفة المتوكل على الله الوصول إلى السلطنة، وحركة أحمد بن البرهان، وثورة منطاش ويليغا الناصري، وخلع السلطان برقوق من السلطنة وسلطنة الأمير حاجي، واختلاف منطاش والناصرى على السلطة، وعودة السلطان برقوق ثانية إلى السلطة، والثورات الداخلية كثورات العربان، والعلاقات الخارجية لدولة المماليك في عهد السلطان برقوق، مثل علاقة دولة المماليك مع تونس، والمغرب والجزائر وجنوه والبندقية وتبريز وغيرها.

أما الفصل الثاني: فقد عالجت فيه تطور النظام الإداري في الدولة، وبيّنت فيه التغييرات والتطورات التي طرأت على مختلف مؤسسات الدولة العسكرية (أرباب السيوف) مثل نيابة السلطنة والأتابكية، ورأس نوبة وغيرها. والديوانية (أرباب الأقلام) مثل الوزارة، وديوان الإنشاء، ونظر الخاص، ونظر الجيوش والإدارة المحلية في نيابات السلطنة في مصر مثل: ولاية القاهرة، وولاية القرافة، وولاية القلعة. وإدارة نيابات السلطنة في مصر مثل: نيابة الإسكندرية، ونيابة الوجه البحري، ونيابة الوجه القبلي. وكذلك الإدارة الدينية مثل قضاء القضاة، والإفتاء ووكالة بيت المال والحسبة، والإدارة المحلية لنيابات السلطنة في بلاد الشام. ثم عالجت قضية بيع الوظائف (البذل والبرطلة). وألحقت الفصل بخلاصة عامة بيّنت فيها التطورات والتغييرات التي طرأت على مختلف مؤسسات الدولة.

أما الفصل الثالث: فقد عالجت فيه المؤسسة العسكرية (الجيش) من حيث البنية البشرية، ومصادر الحصول على المعاليك، وعناصر الجيش، وفرق الجيش، والرتب العسكرية، ونظام الترقية والتقاعد، ومخصصات الجيش النقدية والعينية، والإدارة العسكرية. وجعلت في نهاية الفصل خلاصة أجملت فيها التطورات والتغييرات التي طرأت على المؤسسة العسكرية.

أما الفصل الرابع: فقد تناولت فيه الحياة الاقتصادية من حيث الزراعة، والصناعة، والتجارة، والأسواق التجارية، والأسعار والعوامل المؤثرة فيها، والضرائب، والنقود، والأوزان والمكاييل والمقاييس.

وعالجت في الفصل الخامس الحياة الاجتماعية من حيث فئات السكان، ووسائل التسلية، والمرأة في دولة المعاليك، وحفلات الزواج، والأعياد.

## أب

وتناولت في الفصل السادس الحياة الثقافية والعمران من حيث العلوم اللغوية والدينية مثل: الحديث، وعلم القراءات، والفقه، والتصوف، والقضاء، ثم عالجت الحركة الأدبية، والعلوم العقلية كالطب والحساب والميقات والهندسة، والتاريخ، وبينت مدى اهتمام السلطان برقوق في مختلف العلوم.

أما العمائر، فقد قسمتها إلى عمائر دينية مثل: المدارس والمساجد والخوانق، وعمائر عامة كالجسور والقنوات وأحواض المياه ومراكز البريد، وبينت مدى اهتمام السلطان برقوق فيها.



## عرض وتحليل للمصادر

إن دراسة تاريخ دولة المماليك من مختلف جوانبها السياسية والإدارية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعمران يتطلب الرجوع إلى العديد من المصادر الأولية المتنوعة التي تحاول أن تبرز مختلف هذه الجوانب، وتبين أهم التغيرات والتطورات التي طرأت عليها. وهذا يتطلب من الباحث التدقيق في مؤلفيها ومصادرها التي اعتمدوا عليها في تدوين الأحداث التاريخية، وثقافتهم، ومراكزهم الاجتماعية لبيان قيمة هذه المصادر وأهميتها.

ولما كان موضوع دراستنا هو عن دولة المماليك في عهد السلطان برقوق من سنة (٧٨٤-٨٠١هـ) من الناحية السياسية والإدارية، والعسكرية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، والعمران، فكان لا بد من تنوع المصادر الأولية التي اعتمدت عليه الدراسة لتشمل المصنفات الحولية (الحوليات)، والموسوعات التاريخية والإدارية، وكتب التراجم.

### ١- الحوليات:

تميزت فترة حكم سلاطين المماليك بظهور العديد من المؤرخين الذين اهتموا بتدوين الأحداث التاريخية حسب نظام الحوليات (السنين) اعتماداً على ترتيب السنوات والشهور والأيام مختتمين ذلك بقائمة وفيات أشهر أعيان الدولة؛ كابن

الفرات<sup>(١)</sup>، والمقرئزي<sup>(٢)</sup>، وابن حجر العسقلاني<sup>(٣)</sup>، وابن تغري بردي<sup>(٤)</sup>، وابن الصيرفي<sup>(٥)</sup>، وابن إياس<sup>(٦)</sup>.

ويعدّ ابن الفرّات في تاريخه من أبرز المؤرخين الذين عاصروا فترة حكم السلطان برقوق وجزءاً من فترة حكم ابنه السلطان الناصر فرج. حيث دون أغلب الأحداث التاريخية التي عاصرها في فترتهما. إذ انتهت أحداث كتابه التاريخ إلى سنة ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م<sup>(٧)</sup>.

وبالرغم من أن السمة العامة لألفاظ الكتاب تتصف بالعامية<sup>(٨)</sup>، إلا أنه أغنى الدراسة بمعلومات هامة في الفصل الأول عن الأوضاع السياسية في الدولة كثورات العربان في مصر وبلاد الشام<sup>(٩)</sup>. أما في الفصل الثالث فقد زدنا بإحصائية دقيقة لأعداد المعاليك الذين اشتراهم السلطان برقوق أثناء فترة حكمه،

- (١) ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن علي بن الفرّات (٧٣٥هـ / ١٣٣٤م - ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م). المقرئزي، المقفى الكبير، ج ٦، ص ٦٤. والسخاوي، الضوء اللامع، ج ٨، ص ٥١. والسخاوي، وجيز الكلام، ج ١، ص ٢٧٨-٢٧٩.
- (٢) تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقرئزي (٧٦٠هـ / ١٣٥٨م - ٨٤٥هـ / ١٤٤١م). ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ١، ص ٤١٥-٣٢٠.
- (٣) أحمد بن عبد الله بن محمد بن الكتاني العسقلاني (٧٨٣هـ / ١٣٨١م - ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م). السخاوي، ذيل رقع الأصر، ص ٧٥-٨٨. والشوكاني، البدر الطالع، ص ٨٧.
- (٤) جمال الدين أبو المحاسن يوسف بن تغري بردي اليشبغاوي (٨٧٤هـ / ١٤٦٠م). السخاوي، الضوء اللامع، ج ١٠، ص ٣٠٥. والسخاوي، وجيز الكلام، ج ٢، ص ٨١٧. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ٢، ص ٤٥-٤٦.
- (٥) نور الدين علي بن داود (٨١٩هـ / ١٤١٦م - ٩٠٠هـ / ١٤٩٤م). السخاوي، الضوء اللامع، ج ٥، ص ٢١٧. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ٢، ص ٢٠٩-٣١٠.
- (٦) محمد بن أحمد بن إياس الفخري (٨٥٢هـ / ١٤٤٨م - ٩٣٠هـ / ١٥٢٢م). ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٢، ص ١٤٤-١٤٥.
- (٧) ابن الفرّات، تاريخ، م ٩، ج ٢، ص ٣٤١-٣٤٢.
- (٨) السخاوي، أبناء الغمر، ج ٥، ص ٢٦٧. والضوء اللامع، ج ٨، ص ٥١. ووجيز الكلام، ج ١، ص ٢٧٨.
- (٩) ابن الفرّات، تاريخ، م ٩، ج ٢، ص ٢٤٨، ٢٦٣.

أو عن طريق الإهداء من السلاطين والأمراء. ومصادر الحصول على الممالك وعناصرهم<sup>(١)</sup>. كما وضع أسباب بعض الأحداث التاريخية كتقاعد الأمراء والممالك من الخدمة العسكرية<sup>(٢)</sup>. كما قدم معلومات اقتصادية هامة كالصناعة والتجارة والأسواق التجارية، والنقود<sup>(٣)</sup>.

ويعد كتاب «السلوك لمعرفة دول الملوك» لتقي الدين المقرئزي من المصادر الأساسية التي لا غنى للباحث عنها في دراسة تاريخ دولة المماليك. فالمقرئزي من المؤرخين البارزين الذين اهتموا بتدوين أدق التفاصيل عن دولة المماليك، والمعاصرين لفترة حكم السلطان برقوق، والمقربين إليه، وأحد موظفي الدولة، فقد تولى عدة وظائف هامة في الدولة كالقضاء، والحسبة<sup>(٤)</sup>.

وأفاد المقرئزي في تسجيل الأحداث التاريخية التي لم يعاصرها من كتابات غيره من المؤرخين كابن الفرات<sup>(٥)</sup>، أما الأحداث التي عاصرها فقد اعتمد فيها على السماع مباشرة حيث يذكر «ذكر العتائقي عن نفسه أنه أنفق من توريث (تبريز) إلى مصر مائتين وخمسين ألف درهم»<sup>(٦)</sup>. أو المشاهدة بنفسه إذ يذكر «وفي هذه الأيام شرع الأمير جركس الخليلي في عمل جسر بين الروضة وجزيرة أروي... حتى تم الجسر فلم يفد شيئاً»<sup>(٧)</sup>. كما تولى المقرئزي منصب الحسبة في القاهرة مما ساعده في نقل قوائم متكاملة عن حركة الأسعار في الدولة.

(١) ابن الفرات، تاريخ، م، ٩، ج ٢، ص ٢٢، ٨٩، ٥٥، ٤٥٦، ٤٥٩.

(٢) المصدر ذاته، م، ٩، ج ٢، ص ٣٩٩، ٤٠٠.

(٣) المصدر ذاته، م، ٩، ج ٢، ص ١٤٣، ٢٦٣، ٣٦٩، ٣٩٩، ٤٠٣، ٤١٠، ٤١١، ٤٢٧، ٤٣٢، ٤٣٥، ٤٣٩، ٤٦٤، ٤٧٠.

(٤) ابن مقرئزي، المنهل الصافي، ج ١، ص ٤١٥-٤٢٠. وابن حجر العسقلاني، أنباء الفهر، ج ١، ص ١٧٠. والسخاوي، التبر المسبوك، ص ٢١.

(٥) السخاوي، الضوء اللامع، ج ٨، ص ٥١.

(٦) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٤٤٤، ٥١٧.

(٧) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٤٦٩، ٤٧٠، ٥١٥، ٥٢١.

أو

لذلك قدم المقرئزي في كتابه السلوك معلومات ذات قيمة عالية عن دولة المماليك الأتراك التي سبقت فترة حكم السلطان برقوق والظروف التي ساعد برقوق في الوصول إلى السلطنة<sup>(١)</sup>. كما قدم في الفصل الثاني معلومات غاية في الأهمية حول تطور النظام الإداري في الدولة<sup>(٢)</sup>. وأفاد بمعلومات عامة هامة أُلقت الضوء على المؤسسة العسكرية والتغيرات والتطورات التي طرأت عليها مثل الحصول على المماليك، وعناصر الجيش والرتب العسكرية<sup>(٣)</sup>.

أما في الفصل الرابع فقد زُوِّدنا بمعلومات اقتصادية في مجال الصناعة، والتجارة، والأسواق التجارية، والأسعار والعوامل المؤثرة فيها، والضرائب<sup>(٤)</sup>. وتحدث في الفصل الخامس عن الحياة الاجتماعية كطبقات المجتمع، ووسائل التسلية<sup>(٥)</sup>.

وصنف ابن حجر العسقلاني كتاب أنباء الغمر بأبناء العمر، تميز فيه عن غيره من المؤرخين في أنه نهج في تأليفه أسلوب الحوليات وكتب التراجم معاً. ابتداءً فيه بذكر الأحداث التاريخية حسب السنوات بشكل مختصر، ثم أعطى الاهتمام لتراجم الوفيات في نهاية كل سنة وذكر خلالها أهم الأحداث التاريخية التي مرت بها.

(١) المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٤٠٤، ٤٣٤، ٤٤٨، ٦٥١، ٦٥٢، ٦٨٢، ٧٥٧، ٧٨٨، ٨٠٣، ٨٠٥، ٨٠٦.

(٢) المصدر ذاته، ج ٢، ق ٢، ص ٤٩٣، ٥١٣، ٥٢٤، ٧٥١، ٨٣٣، ٩١٦، ٥١٦، ٤٧٨.

(٣) المصدر ذاته، ج ٢، ق ١، ص ٤٠٢، ج ٢، ق ٢، ص ٨٩، ١٤٣، ٤٥٦، ٥٨٩، ٦٤٩، ٦٥١، ٩٠٧.

(٤) المصدر ذاته، ج ٢، ق ٢، ص ٥٢٢، ٥٤٧، ٨٩٩، ٥٠٨، ٥٠٩.

(٥) المصدر ذاته، ج ٢، ق ٢، ص ٤٢١، ٤٨٠، ٥٦٣، ٧٠٥، ٩٤٤، ٨٩١.

وجاء تصنيف ابن حجر العسقلاني في كتابه أنباء الغمر بأبناء العمر ليكون ذيلاً على كتاب البداية والنهاية لابن كثير<sup>(١)</sup>. تناول فيه تاريخ مصر وبلاد الشام في الفترة ما بين سنة ٧٧٣هـ / ١٣٧١م وسنة ٨٥٠هـ / ١٤٤٦م. وتبدو أهمية هذا الكتاب كمصدر أساسي لتاريخ دولة المماليك؛ لاعتماده على العديد من مؤلفات مشايخه ومعاصريه من المؤرخين كتاريخ ابن الفرات<sup>(٢)</sup>، وصارم الدين ابن دقمان<sup>(٣)</sup>، والمقرئزي<sup>(٤)</sup>. حيث أفاد هذا الكتاب في دراسة دور برقوق في الصراع على السلطة في فترة حكم السلطان حاجي بن شعبان<sup>(٥)</sup>. ودراسة الأوضاع السياسية الداخلية لدولة المماليك في عهد السلطان برقوق كالفتن والثورات<sup>(٦)</sup>. كما عرض معلومات اقتصادية هامة كالأسعار والعوامل المؤثرة فيها<sup>(٧)</sup>، والضرائب<sup>(٨)</sup>، ودراسة الحياة الاجتماعية مثل طبقات المجتمع، ودور المرأة<sup>(٩)</sup>، كما أفاد بدراسة الحياة العلمية حيث قدم تراجم عديدة لأبرز العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء الذين عاصروا حكم السلطان برقوق<sup>(١٠)</sup>.

- (١) ابن كثير إسماعيل بن عمر (٧٠١هـ / ١٣٠١م - ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م) البداية والنهاية، ج ١٤، ص ١٣٢-١٣٤. وابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ١، ص ٤٥-٤٧.
- (٢) ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ١، ص ٢.
- (٣) المصدر ذاته، ج ١، ص ٢-٣.
- (٤) المصدر ذاته، ج ١، ص ٣.
- (٥) المصدر ذاته، ج ١، ص ٧٤٥، ٧٥٣.
- (٦) المصدر ذاته، ج ٢، ص ٩٤، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٨٥، ٢٨٦، ٣٠٥، ص ٢٢٥، ٢٩٢، ٢٩٣.
- (٧) المصدر ذاته، ج ٢، ص ٩٣، ١٣٧، ١٩١، ٢٢١، ٢٥٢، ٣٠٣، ص ٢١٦، ٢٨١، ٢٨٢، ٢٢٩.
- (٨) المصدر ذاته، ج ٢، ص ٦٤، ٣٢٢.
- (٩) ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ١، ص ٢٧٥، ٥٢٦، ج ٢، ص ١٧٩، ١٨٠، ١٨١، ج ٣، ص ٢٩٠، ٢٩١، ٢٢٥.
- (١٠) المصدر ذاته، ج ٢، ص ٢٢٨، ٢٣٩، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٦٦، ٣٠٠، ٣٠١، ج ٣، ص ١٣٥، ١٣٦، ٢٥٧، ٣٩٨، ٤٠١، ج ٤، ص ٨٨.

## أ ح

ويعدّ كتاب ابن تغري بردي (ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٠م) «النجوم الزاهرة» من المصادر الأساسية باللغة الأهمية لفترة الدراسة، كونه من المعاصرين لفترة حكم السلطان الظاهر برقوق، واشتراك والده في الأحداث التاريخية كواحد من الأمراء المماليك.

بدأ ابن تغري بردي كتابه بالتأريخ لمصر من الفتح الإسلامي زمن عمرو بن العاص سنة ٢٠هـ / ٦٤٠م. وانتهى به حتى سنة ٨٧٢هـ / ١٤٦٧م. ثم قسم الكتاب على أساس حكم السلاطين لمصر بالترتيب، ثم أورد وفيات أهم الأعيان في سنوات حكم كل سلطان. واستفاد ابن تغري بردي من مؤلفات غيره من المؤرخين المعاصرين وغير المعاصرين كبيبرس الدواداري حيث يذكر «قال الأمير بيبرس الدواداري في تاريخه...»<sup>(١)</sup> وابن دقماق «وقال ابن دقماق في تاريخه»<sup>(٢)</sup> وصلاح الدين الصفدي<sup>(٣)</sup>. وبدر الدين العيني فيذكر «قال قاضي القضاة بدر الدين محمود العيني في تاريخه»<sup>(٤)</sup>. كما نقل بعض الأحداث عن المقرئ<sup>(٥)</sup>.

واعتمد في تدوين الأحداث التاريخية التي عاصرها على السماع مباشرة من بعض ثقات عصره كعلاء الدين علي القلقشندي فيذكر «حدثني العلامة علاء الدين القلقشندي»<sup>(٦)</sup>. كما نقل بعض الأحداث عن والده مباشرة فيذكر «وفي سابع عشرة قدّم الوالد تقدمة إلى السلطان وكانت نيفاً وعشرين مملوكاً»<sup>(٧)</sup>.

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٩، ص ٤.

(٢) المصدر ذاته، ج ٩، ص ٢٠.

(٣) المصدر ذاته، ج ٩، ص ١٥٢.

(٤) المصدر ذاته، ج ١١، ص ٨١.

(٥) المصدر ذاته، ج ١١، ص ٢٥٥.

(٦) المصدر ذاته، ج ١١، ص ٨١.

(٧) المصدر ذاته، ج ١٢، ص ٧٥، ٧٧.

لذلك تميز ابن تغري بردي بالدقة في نقل الأحداث وأغنى الدراسة في الفصل الأول بمعلومات هامة حول الظروف التي ساعدت السلطان برقوق في الوصول إلى السلطنة<sup>(١)</sup>. والعلاقات الخارجية لدولة المماليك مع الدول الأخرى<sup>(٢)</sup>.

كما أفاد الكتاب بشكل واضح في الأجزاء (١١-١٢) في توضيح تطور النظام الإداري<sup>(٣)</sup>، وتكوين البنية البشرية للجيش، وفرق الجيش، وعناصره، ورتبه<sup>(٤)</sup>. كما قدّم معلومات اقتصادية هامة كالضرائب والمكوس، والأسواق، والأسعار<sup>(٥)</sup>. وكذلك أفاد في دراسة الحياة الاجتماعية<sup>(٦)</sup>.

ويعدّ كتاب نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان لابن الصيرفي من المصادر الأساسية الحولية الهامة رغم عدم معاصرته لفترة الدراسة. فقد ابتدأ ابن الصيرفي كتابه هذا من بداية تأسيس السلطان الظاهر برقوق دولة المماليك الجراكسة سنة ٧٨٤هـ/ ١٢٨٢م وانتهى به إلى أحداث سنة ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م.

تميز ابن الصيرفي بالدقة في تدوين الأحداث التاريخية فقد تتلمذ على أيدي كبار المؤرخين في عصره واستفاد منهم كالمقريزي، وابن حجر العسقلاني والعيني وابن تغري بردي، والسخاوي والسيوطي. أما ثقافته فكانت هي ثقافة عصره المألوفة من حيث النظر في كتب الفقه واللغة والنحو والأدب وأصول الدين<sup>(٧)</sup>.

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٦٦، ٧٩، ١٤٨، ١٥٥، ١٦٠، ١٧٤، ١٧٥، ٢٠٧، ٢٢٤، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٣٤، ٢٤٠.

(٢) المصدر ذاته، ج ٢، ص ٤٣، ٤٤، ٤٥، ٤٩، ٦١.

(٣) المصدر ذاته، ج ١٢، ص ٨، ٣٠، ٣٧، ٧٩، ١٥١، ٢٢٧، ٢٢٩.

(٤) المصدر ذاته، ج ١١، ص ٩٤، ١٢٨، ١٥٦، ج ١٢، ص ٧٥، ١٠٧، ١٠٨، ١٦٨، ٢٢٥، ٢٣٥، ٢٣٧.

(٥) المصدر ذاته، ج ١١، ص ١١٠، ١١٢، ٢٦٩، ٢٧٠.

(٦) المصدر ذاته، ج ١١، ص ٢٧٠، ٢٧٦، ٣١٣، ٣٢٣، ٣٢٤، ج ١٢، ص ٣، ١٣١، ١٣١.

(٧) حسن حبشي، مقدمة نزهة النفوس، ج ١، ص ١.

أفاد كتاب نزهة النفوس في دراسة مواضيع مختلفة من الدراسة مثل دور برقوق في الصراع على السلطة، وخلعه من السلطنة والعودة إليها مرة أخرى<sup>(١)</sup>. والثورات الداخلية في الدولة كثورات العربان وتعدياتهم على مصر وبلاد الشام<sup>(٢)</sup>. ودراسة تطور النظام الإداري بشكل عام<sup>(٣)</sup>، ودراسة المؤسسة العسكرية مثل عناصر الجيش ونظام الترقية والتقاعد<sup>(٤)</sup>. كما أفاد الدراسة بمعلومات اقتصادية هامة تتعلق بحركة الأسعار والعوامل المؤثرة فيها والضرائب<sup>(٥)</sup>. ودراسة الحياة الاجتماعية ولا سيما فيما يتعلق بطبقات المجتمع<sup>(٦)</sup>.

وبالرغم من أن كتاب ابن إياس بدائع الزهور في وقائع الدهور من المصادر المتأخرة لفترة الدراسة؛ إلا أنه يعدّ من المصادر الأساسية التي عالجت تاريخ دولة المماليك منذ نشأتها وحتى سقوطها وانتقال السلطنة للدولة العثمانية. وقد أغنى هذا الكتاب الدراسة في مختلف الجوانب السياسية مثل دور برقوق في الصراع على السلطة، وتولي برقوق السلطنة، والفتن والثورات مثل ثورة الطنبيغا الأشرفي، ومحاولة الخليفة المتوكل على الله الوصول إلى السلطنة، وحركة أحمد ابن البرهان، وثورة منطاش وبلغا الناصري<sup>(٧)</sup>. كما أفاد في دراسة تطور النظام

(١) ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٢٧، ٢٨، ١٩٧، ٢١٤، ٢١٦، ٢٣٤، ٢٣٦، ٢٦٠، ٢٦٦، ٢٢٨.

(٢) المصدر ذاته، ج ١، ص ٧٢، ٧٣، ٧٦، ١٢١، ٢٧٨، ٣١٢، ٣٦٣، ٣٧٥، ٣٧٣.

(٣) المصدر ذاته، ج ١، ص ٤٨، ٤٩، ٩٧، ١٠٦، ١٦٨، ٢٨٧، ٣١٢، ٤٠٥، ٤٠٦، ٤٠٧، ٢٢٦، ٢٤٩، ٣١٠.

(٤) المصدر ذاته، ٤٩-٥٠، ١٧٦، ٢١٠، ٣١١، ٤٩٩، ج ٣، ص ١٦٣.

(٥) المصدر ذاته، ج ١، ص ١٢٣، ١٣٠، ١٦٧، ٣٣٣، ٤١٤، ٤٣٠، ٤٧٠.

(٦) المصدر ذاته، ج ١، ص ١٦١، ١٩٠، ١٩٤، ١٩٧، ٢٠٣، ٢٣٦، ٣١٧، ٣٣٥، ٤٢٦.

(٧) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ٢٧٥، ٤١٧، ج ١، ق ٢، ص ٢٨٠، ٢٢٢، ٢٣٥، ٤٣١، ٤٨٧، ٥٠٥، ٥٠٦، ٥٠٧، ج ٢، ص ٨١، ٨٢، ١٢٥، ١٩٩، ٢٠٠.



## أ ك

الإداري<sup>(١)</sup>، والمؤسسة العسكرية<sup>(٢)</sup>، ودراسة الأوضاع الاقتصادية كالأسعار والعوامل المؤثرة فيها، والأسواق، والضرائب<sup>(٣)</sup>. كما أفاد في دراسة الحياة الاجتماعية والعلمية<sup>(٤)</sup>. وقد انحصرت هذه الفائدة كلها في الجزء الأول بقسميه الأول والثاني والجزء الثاني لاقتصار هذه الأجزاء على فترة حكم السلطان الظاهر برقوق.

وهناك العديد من المصادر الحولية المعاصرة لفترة الدراسة التي ساهمت في بعض جوانب الدراسة كالدرّة المضيئة في الدولة الظاهرية (برقوق) لمؤلفه محمد ابن محمد بن صصري (ت ٨٠٠هـ / ١٣٩٧م). الذي أفاد في دراسة الأوضاع السياسية في عهد السلطان برقوق كثورة منطاش ويلبغا الناصري، والاختلاف على السلطنة سنة ٧٩٢هـ / ١٣٨٠م<sup>(٥)</sup>.

وكتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر (المعروف بالتاريخ الكبير) لمؤلفه عبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) الذي ساعد في دراسة جوانب متعددة من تاريخ دولة المماليك في عهد السلطان برقوق باعتباره معاصراً لفترة الدراسة، وأحد المقربين من السلطان برقوق ومشاركاً في الحياة السياسية. ويعد ابن خلدون من المؤرخين الذين ساهموا في حصول دولة المماليك على عدد كبير من الخيول العربية الأصيلة من دول المغرب مثل تونس والجزائر والمغرب بعد قدومه إلى مصر سنة ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م وطلبه إلى السلطان برقوق في التوسط إليه عند سلطان

(١) المصدر ذاته، ج ١، ق ٢، ص ٢٤٩، ٢٤٧، ٢٤٦، ٢٥١، ٤٥٣، ٦٠٦، ٨٠٧.

(٢) المصدر ذاته، ج ٢، ص ٢٠٤، ٢٠٩، ٣٢٣، ٣٢٤، ٤٨٤، ٧٢٣.

(٣) ابن إياس، بدائع السلوك، ج ١، ق ٢، ص ١٦٧، ٣٤٢، ٣٦٣، ٣٧٠، ٤٠٧، ٤٨٣، ٥٣٢.

(٤) المصدر ذاته، ج ١، ق ١، ص ٢٩٠، ٢٩٤، ٣٤٩، ٣٦٧، ٥٠١، ج ٢، ص ٢٣١، ٢٣٢.

(٥) ابن صصري، الدرّة المضيئة، ص ٤، ٥، ١٢، ١٨، ٢٠، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٣٨، ٦٠، ١٣٥، ١٣٦، ١٦٤.

تونس للسماح له باستقدام أولاده إلى مصر<sup>(١)</sup>. وكتاب الجوهر الثمين في سيرة الملوك والسلاطين لصارم الدين بن دقماق (ت ٨٠٩هـ/١٤٠٦م)<sup>(٢)</sup>.

#### ٤- الموسوعات التاريخية والمصنفات الإدارية:

تميزت الموسوعات التاريخية والمصنفات الإدارية بشمولها مواضيع مختلفة كالجغرافية والتاريخ والأدب. لذلك تعدّ هذه المصنفات ذات أهمية كبيرة في دراسة تكوين دولة المماليك ورسومهم في مصر وبلاد الشام لمعالجتها جوانب متعددة في الدراسة.

وتعدّ موسوعة النويري<sup>(٣)</sup> نهاية الأرب في فنون الأدب من الموسوعات الهامة والمصادر الأولية التي عالجت إدارة الجيش في دولة المماليك الأتراك، كما قدمت الموسوعة معلومات وضحت بنية ديوان الجيش (الإقطاع) والهيئة الإدارية التي تقوم بالإشراف عليه<sup>(٤)</sup>.

كما أفادت الموسوعة في دراسة بعض جوانب الحياة الاقتصادية مثل تقسيم الأراضي الزراعية في مصر وبلاد الشام، والضرائب<sup>(٥)</sup>.

وتعدّ موسوعة مسالك الأبحار في معالك الأمصار، لابن فضل الله العمري<sup>(٦)</sup> من المصادر الهامة في دراسة وتطور النظم الإدارية في دولة المماليك. فقد

(١) ابن خلدون، تاريخ، ج ٥، ص ٤٦٧، ٥٧٠، ٥٧١، ١٠٠٦، ١٠٠٩، ١٠١٠، ١٠١٦، ١٠٤٠، ١٠٤٢.

(٢) ابن دقماق، الجوهر الثمين، ج ٢، ص ٣٣٢، ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٥، ٣٧٦.

(٣) النويري، أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ/١٣٣٢م).

(٤) النويري، نهاية الأرب، ج ٨، ص ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢٠٨.

(٥) المصدر ذاته، ج ٨، ص ٢٤٧، ٢٥٦، ٢٥٠، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٢.

(٦) أحمد بن محيي الدين بن فضل الله العمري (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م). السخاوي، وجيز الكلام، ج ١، ص ٤٢.

ساهمت هذه الموسوعة في رسم الهيكل العام للنظام الإداري من دولة المماليك الأولى من حيث تقسيم وظائف الدولة الإدارية إلى وظائف عسكرية، وديوانية. كما ساهمت في دراسة الإدارة المحلية لنيابات السلطنة في مصر ونيابات بلاد الشام<sup>(١)</sup>.

أما كتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشاء لمؤلفه أحمد بن علي القلقشندي (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) فيعدّ من المصادر الأساسية التي اعتمدت عليها الدراسة في إبراز بعض التطورات والتغيرات في النظم الإدارية فالقلقشندي من المعاصرين لفترة حكم السلطان برقوق وأحد موظفي الدولة في عهده، فقد عمل كاتباً للسرّ في ديوان الإنشاء من سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٨م إلى سنة ٨٠١هـ / ١٣٩٨م<sup>(٢)</sup>. ومما يدلّل على ذلك رسالة التهنئة التي كتبها القلقشندي بخطه للمقر البدري محمود الكستاني المعروف بالسري (ت ٨٠١هـ / ١٣٩٨م) يهنئه فيها باستقراره في كتابه السر الشريف بالديار المصرية<sup>(٣)</sup>.

وقد أغنت موسوعة صبح الأعشى جوانب متعددة من الدراسة مثل مراسم التعيين: كتعيين السلطان بيبرس المستنصر بالله الخلافة في مصر<sup>(٤)</sup>. ومحاولة برقوق الوصول إلى السلطة، وثورات العربان، ونصوص تقليد بعض أمراء العربان، والعلاقات الخارجية لدولة المماليك أثناء فترة حكم السلطان برقوق<sup>(٥)</sup>.

(١) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبحار، ص ٢٧، ٤٧، ٥٦، ٥٧، ٥٨.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١، ص ٨-٩.

(٣) المصدر ذاته، ج ٩، ص ٢٢-٢٤.

(٤) المصدر ذاته، ج ٣، ص ٢٧٨.

(٥) المصدر ذاته، ج ٤، ص ٣٧، ٦٨، ٦٩، ٢١٠، ٤٢٢، ٤٥٨، ٧، ص ١٧٠، ١٧٦، ١٧٧، ١٧٨، ٢٢٢، ج ١٢، ص ٢٧٣، ٤٢١،



## ب أ

وقد أغنى المقرئ في مصنفه هذا دراسة النظم الإدارية وتطورها في عهد السلطان برقوق<sup>(١)</sup>. كما أفاد في دراسة البنية البشرية للجيش، ومخصصات الجيش<sup>(٢)</sup>، وأفاد الدراسة بمعلومات اقتصادية كالأراضي الزراعية، والمحاصيل الزراعية، والأسواق التجارية والضرائب<sup>(٣)</sup>.

ويعدُّ كتاب «زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك» لمؤلفه ابن شاهين (ت ٨٧٣ هـ / ١٤٦٨ م) من المصنفات الإدارية التي ساهمت في دراسة التنظيمات الإدارية وتطورها في مصر وبلاد الشام مثل الوظائف العسكرية، والديوانية، والإدارة المحلية لنيابات السلطنة في مصر وبلاد الشام<sup>(٤)</sup>. إذ يعدُّ ابن شاهين من المؤرخين الذين امتازوا بالثقة والأمانة في نقل المعلومات. فقد اعتمد في تدوين الأحداث التاريخية على مشاهدات ثقات بعض الناس، والأعيان فضلاً عن مؤلفات من سبقه من المؤرخين<sup>(٥)</sup>.

## ٢- كتب التراجم

تعدُّ كتب التراجم من المصادر الأساسية لدراسة تاريخ دولة المماليك لأنها نقلت الأخبار المتناثرة المتعلقة بأخبار الشخصيات الهامة التي كان لها أثر واضح في دولة المماليك. فقد أشارت كتب التراجم من خلال كتابه سير هذه الشخصيات إلى بعض التطورات السياسية والإدارية والاقتصادية والعسكرية الهامة. وأهم هذه الكتب «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» لابن حجر العسقلاني

(١) المصدر ذاته، ج ١، ص ١١١، ٢٥٧، ج ٢، ص ٢١٥، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٥، ٢٢٦، ٤٠٦.

(٢) المصدر ذاته، ج ١، ص ٩٥، ٣٧٤، ج ٢، ص ٩٢، ٢٠٠، ٢٠١، ٢١١، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٦، ٢١٧.

(٣) المصدر ذاته، ج ١، ص ٢٨، ٤٤، ٨٨، ج ٢، ص ٩٥، ٩٦، ٩٧، ١٠٢، ١٠٣.

(٤) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ٩٨، ١٠٠، ١١٢، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤.

(٥) المصدر ذاته، ص ٢٤، ١١١.

## ب ب

(ت ٨٥٢هـ / ١٤٨٤م) من المصادر الرئيسية التي أغنت الدراسة في عرض سير عدد من الأمراء والماليك والشخصيات الهامة في دولة الماليك<sup>(١)</sup>.

أما كتاب «المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي» لابن تغري بردي؛ فهو من أهم كتب التراجم التي أشارت بالتفصيل إلى دور برقوق في الصراع على السلطة، وحركة يلبغا الناصري ومنطاش، وعزل السلطان برقوق من السلطة والعودة إليها ثانية. كما أشار إلى بعض المعلومات الاقتصادية المتعلقة بارتفاع الأسعار والعوامل المؤثرة فيها، فضلاً عن عرض سير أشهر الفقهاء والعلماء والأدباء في دولة الماليك<sup>(٢)</sup>.

وثمة العديد من الدراسات الحديثة التي تناولت دولة الماليك من جوانب مختلفة وإن تركز أغلبها على دراسة دولة الماليك في مصر دون بلاد الشام. ومن أهم هذه الدراسات «قيام دولة الماليك الثانية» لحكيم أمين السيد الذي ساهم في دراسة الأوضاع السياسية لدولة الماليك قبل وبعد تولي برقوق السلطة ودوره في الصراع على السلطة<sup>(٣)</sup>. وكتاب عبد المنعم ماجد «نظم دولة سلاطين الماليك ورسومهم» الذي أفاد في معالجة تطور النظم الإدارية والعسكرية<sup>(٤)</sup>.

ويعدّ كتاب «مصر وسوريا تحت حكم سلاطين الجراكسة» لـ (Popper)، من المراجع الهامة التي أغنت الدراسة في معالجة التطورات التي طرأت على النظم الإدارية والعسكرية في دولة الماليك من خلال كتاب ابن تغري بردي النجوم الزاهرة<sup>(٥)</sup>.

(١) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج ٥، ص ٤٣٥، ٢١٧، ١٣٥، ج ٢، ص ١١٤، ١١٥، ج ١، ص ٢٤٦، ٢٤٥.

(٢) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ٢، ص ٢٩، ٢٠٢، ٢٨٦، ج ٤، ص ٩٤، ٩٧، ج ٣، ص ٣٣٩، ٢٤٠.

(٣) حكيم أمين السيد، قيام دولة الماليك، ص ٤٠، ٤١، ٤٣، ٤٤، ٦٢، ٦٣، ٦٩، ١١٣، ٧.

(٤) عبد المنعم ماجد، نظم دولة سلاطين الماليك، ص ٥٠، ٩٩، ١١، ١٢، ١٣.

(٥) Popper, Egypt and Syria, p. 96, 90, 95, 99.

## ب ج

وثمة بعض الدراسات الحديثة التي عالجت مواضيع اقتصادية مثل «التجارة الداخلية لدولة المماليك الثانية» لسعيد صالح. حيث ساهمت في دراسة الأسواق التجارية، والأسعار والعوامل المؤثرة فيها، والنقود<sup>(١)</sup>. وبعض الدراسات الحديثة عالجت المؤسسة العسكرية مثل «الجيش في العصر المملوكي الثاني، البنية، التنظيم، الإدارة» لمحمد عمارة. حيث عالجت هذه الدراسة تطور مؤسسة الجيش من حيث البنية البشرية، وفرق الجيش، والرتب والمرتبات، وإدارة الجيش<sup>(٢)</sup>.

(١) سعيد صالح، التجارة الداخلية، ص ١٢٨، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٧، ٢٩٠.

(٢) محمد عمارة، الجيش في العصر المملوكي الثاني، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، ١٩٩٤م.

## الفصل الأول

### الحياة السياسية في عهد السلطان برقوق

- تمهيد: أوضاع السلطنة قبل تولي برقوق.
- ١ برقوق ودوره في الصراع على السلطنة.
- ٢ ولاية برقوق الأولى للسلطنة.
- ٣ الفتن والثورات:
  - أ- ثورة الطنبيغا الأشرفي.
  - ب- محاولة الخليفة المتوكل على الله الوصول إلى السلطة.
  - ج- حركة أحمد بن البرهان.
  - د- ثورة منطاش ويليغا الناصري.
- ٤ خلع السلطان برقوق من السلطنة وعودة الأمير حاجي.
- ٥ اختلاف منطاش والناصرى على السلطة.
- ٦ عودة السلطان برقوق إلى السلطة (سلطنته الثانية).
- ٧ ثورات أخرى.
- ٨ العلاقات الخارجية لدولة المماليك في عهد السلطان برقوق.



## الحياة السياسية في عهد السلطان برقوق

- تهيد: أوضاع السلطنة قبل تولي برقوق.

بعد زوال حكم الدولة الأيوبية بمقتل السلطان تورانشاه وتولي شجر الدر السلطنة مكانه انتقل حكم مصر وبلاد الشام سنة ٦٤٨هـ / ١٢٦٩م إلى المماليك الأتراك بانتخاب الأمير عز الدين أيبك سلطاناً<sup>(١)</sup>.

وبعد خمسة أيام من تسلّم السلطان المعز أيبك منصب السلطنة وجد نفسه في موقف حرج حيث لم تلق سلطنته قبولاً في نفوس الناس. إذ أن اختياره لمنصب السلطنة لم يكن مبنياً على أساس قوته بين الأمراء المماليك، فقد كان من أواسط الأمراء مكانة، وليس من أعيانهم، حتى إذا بدا لهم أن المصلحة تقتضي عزله تمكنوا من ذلك دون عناء لضعفه وقلة أنصاره<sup>(٢)</sup>. وقد دفعه ذلك إلى الاتفاق مع بعض الأمراء سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٦٩م على إقامة سلطان آخر من بني أيوب يكون شريكاً له في الحكم، فاتفق رأي الأمراء على تعيين مظفر الدين موسى ابن الملك الناصر يوسف بن المسعود، فبايعوه بالسلطنة وعمره آنذاك ست سنوات، ولقبوه بالملك الأشرف<sup>(٣)</sup>.

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور، الأيوبيون والمماليك، ص ١٩٨-٢٠٢.

(٢) اليونيني، مرآة الزمان، ص ٥٤-٥٥. وبييرس المنصوري، التحفة المملوكية، ص ٢٧.

(٣) المصدر ذاته، ص ٢٨. وابن كثير، البداية والنهاية، ج ٢، ص ١٩٠.

وبتنصيب السلطان الأشرف موسى سلطاناً أصبح في دولة المماليك سلطانان في آن واحد تقام باسمهما الخطبة يوم الجمعة على المنابر<sup>(١)</sup>. وعندما حاول عدد من الأمراء والمماليك في ٤ جمادى الآخرة سنة ٦٤٨هـ / ١٢٦٩م / ٢١ كانون الأول تنصيب الملك المغيـث عمر بن العادل في السلطنة نكاية بالسلطان المعز أيبك لسيطرته على الحكم دون الأشرف موسى، أعلن السلطان المعز أيبك أن البلاد للخليفة العباسي المستعصم بالله، وأنه نائب عنه في الحكم، لكي يضيف الشرعية على حكمه، ويتخلص من معارضيـه<sup>(٢)</sup>. وعندما قوي مركز السلطان المعز أيبك في السلطة بانضمام عدد كبير من المماليك إليه، انتهز فرصة ازدياد خطر التتار على بلاد الشام، وتهديديهم مصر سنة ٦٥٠هـ / ١٣٥٢م، وخلع السلطان الأشرف موسى من السلطنة، وقطع اسمه من الخطبة يوم الجمعة، وسجنه بقلعة الجبل، وانفرد بالسلطنة<sup>(٣)</sup>. وما أن صفا له الجو، حتى ساءت العلاقة بينه وبين زوجته شجر الدر، بسبب إرساله إلى الملك بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل خاطباً ابنته<sup>(٤)</sup>، محاولاً بذلك التخلص من شجر الدر، إلا أنها فطنت إلى ما دبّر لها<sup>(٥)</sup>، ودبرت وسيلة لقتله عندما دخل إلى الحمام، إذ أعدت له خمسة من غلمانها وقتلوه<sup>(٦)</sup>. وقد اضطربت أحوال مصر على أثر مقتل السلطان المعز أيبك سنة ٦٥٥هـ / ١٣٥٧م وطمع الأمراء في السلطنة، واتفقوا مع من بقلعة الجبل من الأمراء على إقامة أتابك العساكر<sup>(٧)</sup> سنجر الحلبي في السلطنة، غير أن الأمور لم تتم لهم وقبض عليه. واختير لمنصب

(١) بيبرس المنصوري، التحفة المملوكية، ص ٣٢.

(٢) بيبرس المنصوري، التحفة المملوكية، ص ٣٢.

(٣) المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٣٧٠.

(٤) بيبرس المنصوري، التحفة المملوكية، ص ٢٩ وابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢٠٩.

(٥) علي إبراهيم حسن، المماليك البحرية، ص ٢٦.

(٦) بيبرس المنصوري، التحفة المملوكية، ص ٣٩. وأبو الفداء، المختصر، ج ٣، ص ١٩٣.

(٧) وهو أكبر الأمراء المقدمين في دولة المماليك بعد نائب السلطنة. راجع الفصل الثاني.

السلطنة علي بن المعز أيبك<sup>(١)</sup>، وعمره آنذاك حوالي إحدى عشرة سنة، ولقب بالملك المنصور، وعين الأمير سيف الدين قطز أتابكاً له<sup>(٢)</sup>. غير أن إقامة الأمراء المماليك ابن السلطان أيبك في منصب السلطنة لم يكن إيماناً بعبداً الوراثة أو احتراماً لأستاذهم، وإنما لتهدئة الأمور، وليتسنى للأقوى من الأمراء خلع الوريث والحلول مكانه ولا سيما أن الوريث كان صغير السن. فقد حاول عدد كبير من المماليك البحريةية الهاربين من مصر إلى بلاد الشام بقيادة بيبرس البندقداري التحالف مع الملك المغيـث عمر في الكرك والثورة على السلطان علي بن أيبك والاستيلاء على السلطة في ٢١ ربيع الآخرة سنة ٦٥٥هـ / ١٢٥٧م لكن الأمير قطز أتابك العساكر تمكن من هزيمة الملك المغيـث عمر والقبض على عدد من المماليك البحريةية وقتلهم<sup>(٣)</sup>. وازداد الأمر سوءاً بتقدم التتار بعد اجتياح بغداد سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م نحو مصر، وقتل الخليفة العباسي المستعصم بالله. فاستغل الأمير قطز الفرصة، وأعلن أن السلطان علي صغير السن لا يحسن تدبير الأمور في مثل هذه الظروف الصعبة، لأن الوقت يحتاج إلى سلطان ذي جرأة وسداد رأي ليتمكن من الوقوف في وجه الاجتياح التتاري الزاحف نحو مصر<sup>(٤)</sup>. وانتهز الأمير قطز فرصة خروج كبار الأمراء المماليك إلى الصيد سنة ٦٥٧هـ / ١٢٥٩م وقبض على السلطان علي وأخويه وأمهما، وسجنهم بقلعة الجبل، وأعلن نفسه سلطاناً على مصر، وتلقب بالملك المظفر<sup>(٥)</sup>. وبعد عودة الأمراء من الصيد أنكروا على الأمير قطز اغتصاب السلطنة، فاعتذر لهم بقوله: «إني ما قصدت إلا أن نجتمع على قتال المغول، ولا يتأتى ذلك بغير ملك، فإذا ما خرجنا وكسرنا العدو، فالأمر لكم. تقيمون في السلطنة من

(١) ابن تفردي بردي، المنهل الصافي، ج ١، ص ٢٧.

(٢) أبو الفداء، المختصر، ج ٢، ص ١٩٢، وابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٢٠٩.

(٣) ابن تفردي بردي، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٤٥-٤٦.

(٤) ابن بقمق، الجوهر الثمين، ج ٢، ص ٥٧.

(٥) المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٤١٨. وسعيد عاشور، الأيوبيون والمماليك، ص ٢١٥.

شنتم<sup>(١)</sup>. ثم أخذ السلطان قطز بتثبيت سلطنته بالإكثار من مماليكه، وزيادة إعطياتهم، للوقوف معه في مواجهة التتار.

وبعد انتصار السلطان قطز على التتار سنة ٦٥٨هـ / ١٢٥٩م في معركة عين جالوت<sup>(٢)</sup>، اتفق عدد من الأمراء المماليك بزعامة الأمير بيبرس البندقداري على قتل السلطان قطز بسبب خلاف حول ولاية بيبرس نيابة حلب<sup>(٣)</sup>، التي وعده بأن يكون نائباً عليها ثم أعطاها لصاحب الموصل<sup>(٤)</sup>. فقتلوه، وذلك في ١٧ ذي الحجة سنة ٦٥٨هـ / ١٢٥٩م<sup>(٥)</sup>.

وبمقتل السلطان قطز، انتقلت السلطنة إلى الأمير بيبرس، بعد أن امتنع عن قبولها أكثر أمراء المماليك<sup>(٦)</sup>، إذ بعد مقتل السلطان قطز صار كل واحد من الأمراء يخشى القتل<sup>(٧)</sup>.

وبعد اعتلاء السلطان بيبرس السلطنة اقتضت الظروف إلى التفكير في إحياء الخلافة العباسية بعد مقتل الخليفة المستعصم بالله على يد التتار في بغداد سنة ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م<sup>(٨)</sup>، لاضفاء الشرعية على حكمه<sup>(٩)</sup>. ولكي يحقق ذلك، استقدم

(١) أبو الفداء، المختصر، ج ٢، ص ١٩٩. وابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٢٩٩.

(٢) أكرم حسن العلي، معارك المغول، ص ٧٧.

(٣) أبو الفداء، المختصر، ج ٢، ص ٢٠٨. أكرم العلي، معارك المغول، ص ٧٧.

(٤) المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٤٢٤.

(٥) بيبرس المنصوري، التحفة الملوكية، ص ٤٥.

(٦) المصدر ذاته، ص ٤٥.

(٧) العيني، عقد الجمان، ج ١، ص ٢٦٢.

(٨) محمد مصطفى زيادة، ملاحظات جديدة، ص ٧٥-٧٦.

(٩) عبد المنعم ماجد، ١٩٧٩م. نظم سلاطين المماليك، ص ٣٦.

الأمير أحمد ابن الخليفة الظاهر أبي نصر محمد بن الناصر لدين الله أحمد بن المستضيء بالله العباسي<sup>(١)</sup>. وعندما وصل الأمير العباسي من دمشق سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م خرج السلطان بيبرس للقاءه، وسار به إلى باب النصر من أبواب القاهرة، ثم سار به حتى قلعة الجبل<sup>(٢)</sup>. وعقد السلطان بيبرس للأمير أحمد مجلساً في رجب سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م، بحضور قاضي القضاة ونواب الحكم والفقهاء، وأثبت صحة نسبه فهو الأمير أحمد ابن الخليفة الظاهر<sup>(٣)</sup>. وعندما بدأت مراسم البيعة للخليفة كان أول من بايعه قاضي القضاة، ومن بعده قام السلطان بيبرس وبايع الخليفة الجديد الذي تلقب بالمستنصر بالله على العمل بكتاب الله<sup>(٤)</sup>.

ولما أكمل السلطان بيبرس مراسم البيعة للخليفة سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م فوَّض الخليفة المستنصر بالله إلى السلطان بيبرس حكم البلاد الإسلامية، ولقبه قسيم أمير المؤمنين. وقام الناس، وبايعوا الخليفة، وكتب السلطان بيبرس إلى سائر الملوك والنواب والممالك بأخذ البيعة للخليفة، والدموية له على المنابر يوم الجمعة قبل السلطان بيبرس، وأن تنقش السكة باسمها<sup>(٥)</sup>.

وحين عزم السلطان بيبرس على إعادة الخليفة العباسي إلى بغداد -بناءً على طلب الأخير-، وشرع في إعداده للسفر، وجهز العسكر الذي سيرافقه، وجميع ما يلزمه<sup>(٦)</sup>. سار الخليفة المستنصر بالله نحو العراق، وفي الطريق إلى بغداد

(١) المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٤٤٨، سعيد عاشور، الأيوبيون والمماليك، ص ٢٢٧.

(٢) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج ٢، ص ٩٥.

(٣) بيبرس المنصوري، التحفة المملوكية، ص ٤٧.

(٤) ابن دقماق، الجوهر الثمين، ج ١، ص ٢٢٩-٢٣٠.

(٥) بيبرس المنصوري، التحفة المملوكية، ص ٤٧.

(٦) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج ٢، ص ٩٦، وابن دقماق، الجوهر الثمين، ج ١، ص ٢٢٩-٢٣٠. والمقرئزي، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٤٥٠.

تصدى له التتار، وحاربوه، وشتتوا عساكره، وانتهى أمره بالقتل<sup>(١)</sup>. ولما بلغ السلطان خبر مقتله حزن عليه<sup>(٢)</sup>.

غير أن السلطان بيبرس شعر بوجوب إكمال ما بدأ به من عمل إحياء الخلافة واستمرارها في مصر، فقرر سنة ٦٦١هـ/ ١٢٢١م تنصيب خليفة آخر وهو الأمير أبي العباس أحمد بن محمد بن الحسن ابن الخليفة الراشد بالله، واحتفل السلطان بيبرس بمقدمه، وأنزله في البرج الكبير داخل قلعة الجبل، ورتب له كل ما يحتاج إليه<sup>(٣)</sup>.

وتمّت مراسم استقبال الأمير أحمد بن علي ومبايعته وتحقيق السلطان بيبرس من نسبه على النحو الذي جرى للخليفة المستنصر بالله، وتلقب الحاكم بأمر الله<sup>(٤)</sup>، ولم يسمح للخليفة بالخروج، أو التصرف بشيء، وضيق عليه<sup>(٥)</sup>. مع إبقاء مهام الخليفة في حدها الضيق كمنح التفويض للسلطان، والصعود إلى قلعة الجبل مع القضاة الأربعة لتهنئة السلطان في بداية كل شهر<sup>(٦)</sup>.

وبعد أن ثبت السلطان بيبرس نظام السلطنة أصدر سنة ٦٦٢هـ/ ١٢٦٤م مرسوماً يقتضي تولية ابنه بركة خان سلطاناً من بعده، واتخذ الإجراءات والمراسيم المتممة لذلك، وكتب له بذلك تفويضاً<sup>(٧)</sup>. وبقي الأمير بركة في ولاية

(١) المقرئ، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٤٦٣.

(٢) علي إبراهيم حسن، مصر في العصور الوسطى، ص ٢١٠.

(٣) المقرئ، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٤٦٨. وابن إياس، جوهر السلوك، ورقة ٤٠٢.

(٤) اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج ١، ص ٣٠. وابن إياس، جوهر السلوك، ورقة ٤٠٢ ب.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٣، ص ٢٧٨.

(٦) إبراهيم بك جلال، ١٩٣٠، الخلافة العباسية، ص ٨١٨.

(٧) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٤٤.

العهد إلى أن توفي السلطان بيبرس في دمشق سنة ٦٧٦هـ / ١٢٧٧م<sup>(١)</sup>، فجدد كبار الأمراء المماليك، والأعيان، والقضاة، وسائر العسكر الإيمان في السلطنة ببركة خان<sup>(٢)</sup>، ولقب بالملك السعيد، وعمره تسع عشرة سنة. وقد بدأ حكمه باللهو والملذات والمجون وتقريب أمرائه بإجزال العطاء لهم وإبعاد أمراء والده الكبار، مما أثار هؤلاء عليه واتهموه بسوء الرأي والتدبير<sup>(٣)</sup>، وخرجوا عن طاعته وحاصروه بقلعة الجبل وأجبروه على خلع نفسه من السلطنة ومنحه قلعة الكرك للإقامة بها<sup>(٤)</sup>.

وقد فشل السلطان بيبرس من إقامة نظام ولاية العهد، وجعل السلطنة وراثية في أبنائه لصغر سن السلطان بركة خان<sup>(٥)</sup>.

وبخلع السلطان بركة خان من السلطنة عرض كبار الأمراء المماليك، والأعيان منصب السلطنة على الاتابك الأمير سيف الدين قلاوون<sup>(٦)</sup>، غير أنه امتنع عن قبول السلطنة لعدة عوامل أهمها: أن أغلب العساكر في الدولة من مماليك السلطان بيبرس، وغالبية نيابات السلطنة بيد أمراء السلطان بركة خان، فقصد من ذلك السيطرة على زمام الأمور، والتخلص من أمراء السلطان بركة خان في نيابات مصر وبلاد الشام للوصول لمنصب السلطنة<sup>(٧)</sup>.

- 
- (١) المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٦٤٢.
- (٢) المصدر ذاته، ج ١، ق ٢، ص ٦٤٢.
- (٣) أبو الفداء، المختصر، ج ٤، ص ١١، والمقرئزي، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٦٥١-٦٥٢.
- (٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٣، ص ٣٠٥. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٧٦٩.
- (٥) ابن عبد الظاهر، تشریف الأيام، ص ٤٣.
- (٦) أحد أمراء المماليك جكب من بلاد القيقان، اشتراه الأمير علاء الدين أقسنقر الساساني بألف دينار. الكتبي، فوات الوفيات، ج ٣، ص ٢٠٣، ٢٠٤.
- (٧) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٢٨٨.

عندئذٍ تحالف كبار أمراء المماليك وأعيان الدولة على عدم تمكين الأمير قلاوون من تولي منصب السلطنة لما عرف عنه من القوة، واتفقوا على تنصيب الأمير سلامش ابن السلطان بيبرس في السلطنة، وعمره سبع سنين، ولقب بالملك العادل، وعين الأمير قلاوون أتابك العساكر ومدبراً للسلطنة<sup>(١)</sup>. وعندما تمكن الأمير قلاوون من التخلص من المماليك الظاهرية، ونواب السلطان بركة خان بالنفي والقتل، واستأثر بالحكم ولم يبقَ للسلطان سلامش سوى الاسم ولقب السلطنة<sup>(٢)</sup>. جمع كبار الأمراء المماليك، وأعيان الدولة، والقضاة، واستشارهم في أمر صفر سن السلطان سلامش، وتمّ الاتفاق على عزل السلطان سلامش، ونفيه إلى الكرك<sup>(٣)</sup>، وتنصيب الأمير قلاوون في منصب السلطنة، فتم ذلك ولقب بالمنصور، وذلك سنة ٦٧٨هـ / ١٢٧٧م<sup>(٤)</sup>.

وحين تولى السلطان قلاوون السلطنة سلك طريق السلطان بيبرس في تعيين ولي العهد من بعده غير معتبر لما حدث لأبناء السلطان بيبرس على يده من العزل والنفي<sup>(٥)</sup>. وعهد بولاية العهد والسلطنة لولده علاء الدين في حياته سنة ٦٧٩هـ / ١٢٧٦م، ولقبه بالملك الصالح، وكتب له تقليداً بذلك، وخطب له يوم الجمعة على المنابر في مصر وبلاد الشام<sup>(٦)</sup>. ٤٩٣٩١٤

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٢، ص٣٠٥، وأبو الفداء، المختصر، ج٤، ص٢.

(٢) المقرئ، السلوك، ج١، ق٢، ص٦٥٨.

(٣) المصدر ذاته، ج١، ق٢، ص٦٥٨. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص٦٥٨.

(٤) أبو الفداء، المختصر، ج٤، ص١٢-١٣.

(٥) المقرئ، السلوك، ج١، ق٢، ص٦٨٢. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٨، ص٢.

(٦) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٣٥٧.



وبعد وفاة السلطان الناصر محمد بن قلاوون تولى منصب السلطنة بعهد منه ولده أبو بكر، ولقب بالملك المنصور كلقب جده، وعمره نحو عشرين عاماً<sup>(١)</sup>.

وقد أخذ السلطان الجديد يقرب أمراء ومعاليكه، وعكف على اللهو وشرب الخمر، والملذات تاركاً أمور الدولة لأمرائه، فأنكر كبار الأمراء والمماليك أفعاله، لكنه تمادى في لهوه ومجونه، وجاهر فيه، مما دفع الأمير قوصون<sup>(٢)</sup> القائم بتدبير الدولة توبيخ ندماء السلطان أبي بكر، وأخبرهم أن الأمراء أنكروا أفعالهم، فأخذ ندماء السلطان في إيقاع الفتنة بين السلطان المنصور أبي بكر والأمير قوصون، وحرضوا السلطان على القبض على الأمير قوصون.

لكن الأمير قوصون بدأ بالاستعداد لمواجهة السلطان وندمائه، وهم في غمرة لهوهم، وتمكن من إلقاء القبض على السلطان وندمائه الذين أفسدوه، وأرسله إلى سجن قوص<sup>(٣)</sup> ثم قتله<sup>(٤)</sup>. وأصبح الأمير قوصون بعد ذلك صاحب الكلمة النافذة في الدولة، إذ بايع الأمير كجك<sup>(٥)</sup> بالسلطنة سنة ٧٤٢هـ / ١٣٤١م وعمره آنذاك نحو خمس سنين. واستبد الأمير قوصون بالسلطنة، وتصرف بأمر الدولة، حتى أصبح السلطان المنصور معه «كالعصفور في يد النسور»<sup>(٦)</sup>. فناصره الأمراء العداء

- (١) المقرئزي، السلوك، ج٢، ق٢، ص٥٥١. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٢.
- (٢) أحد مماليك الناصر محمد بن قلاوون، رماه حتى صار أكبر أمرائه. قتل بسجن الاسكندرية. المقرئزي، السلوك، ج٢، ق٢، ص٦١٥.
- (٣) قوص، مدينة كبيرة في صعيد مصر. المقرئزي، الخطط، ج١، ص٢٣٦.
- (٤) المقرئزي، السلوك، ج٢، ق٢، ص٥٦٧-٥٧٠. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص١٢-١٥. وابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٤٨٨-٤٨٩.
- (٥) محمد جمال الدين سرور، نولة بني قلاوون، ص٥٢.
- (٦) المقرئزي، السلوك، ج٢، ق٢، ص٥٧١. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٢٢. وابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٤٩٠-٤٩١.

خاصة الأمير صرغتمش<sup>(١)</sup> الذي أمر العامة بنهب بيته، وأثار العساكر عليه وعلى جنده، حتى تمكن من القبض عليه. وخلع السلطان المنصور في أول شعبان وبعث يستدعي الناصر أحمد من الكرك لتعيينه سلطاناً<sup>(٢)</sup>، فبويع بالسلطنة بقلعة الكرك قبل خلع أخيه السلطان كجك<sup>(٣)</sup>، ودعي له على المنابر يوم الجمعة في القاهرة<sup>(٤)</sup>.

ورغم تسلم السلطان أحمد صلاحيات السلطنة إلا أنه ترك القاهرة مركز السلطنة وتوجه إلى الكرك، وبعث كتاباً إلى الأمراء يعرفهم فيه أن مصر والشام والكرك له، وأنه يقيم حيث يشاء<sup>(٥)</sup>، فاضطر الأمراء إلى خلعه من السلطنة في ٢١ شعبان سنة ٧٤٣هـ / ١٣٤٢م وعينوا أخاه إسماعيل الذي لم يخص بسلطنة هادئة، فقد ثار في وجهه أخوه السلطان الناصر أحمد الذي اعتصم بقلعة الكرك وقاتل جند أخيه السلطان الصالح إسماعيل، حتى تمكن السلطان الصالح إسماعيل من القبض عليه، وقتله سنة ٧٤٥هـ / ١٣٤٤م<sup>(٦)</sup>.

توفي السلطان الصالح إسماعيل في ٤ ربيع الأول سنة ٧٤٦هـ / ١٣٤٥م فآلت السلطنة إلى أخيه شعبان، ولقب بالملك الكامل، وحلف أولاً للأمراء على عدم التعرض لهم بالسجن أو النفي لتخوفهم منه على ما يبدو ثم حلفوا له<sup>(٧)</sup>، لكنه لم يكن بأحسن من سابقيه من السلاطين، فقد تنكر للأمراء، وقبض على بعضهم. مما

(١) الأمير الكبير سيف الدين صرغتمش الناصري، دبر أمور الدولة، له معرفة بالفقه على مذهب أبي حنيفة، يعرف العربية، قتل بسجن الاسكندرية سنة (٧٥٩هـ / ١٣٥٧م). المقرئ، السوك، ج ٢، ق ١، ص ٤٤.

(٢) المقرئ، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٥٩٣-٥٩٤. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ٥٠.

(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ٥٠.

(٤) ابن حبيب، تذكرة النبي، ج ٢، ص ٢٩. والمقرئ، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٥٩٥.

(٥) ابن خلدون، تاريخ، ج ٥، ق ٤، ص ٩٥٢. والمقرئ، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٦١٨.

(٦) محمد جمال الدين سرور، نولة بني قلاوون، ص ٥٥.

(٧) المقرئ، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٦٨١. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ١١٧.

أدى إلى خروجهم عن طاعته، وإجباره على خلع نفسه من السلطنة، وقام أمير حاجي بالسلطنة سنة ٧٤٧هـ / ١٣٤٦م مكانه<sup>(١)</sup>.

سار السلطان أمير حاجي على طريق سابقيه من السلاطين، وأظهر من الخلاعة والمجون الشيء الكثير، فقد انكبّ على الملهيات، وشغف بجارية سوداء تسمى (إتفاق العوادة). وأنكر الأمراء والمماليك تصرفاته<sup>(٢)</sup>. غير أنه ازداد في مجونه ولهوه، وأخذ يلهو بالحمام، ونطاح الكباش، ومناقرة الديون، وصار يجتمع بالأوباش ويلعب مع العوام بالعصي<sup>(٣)</sup>.

وحين علم السلطان حاجي ما ينكر الأمراء عليه من الأمور المذكورة، قال: «والله لأذبحنكم كما ذبحت الحمام»<sup>(٤)</sup>. فاتفق الأمراء على التخلص منه، فذبحوه في ١٢ رمضان سنة ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م<sup>(٥)</sup>. وحاول المماليك إقامة الأمير حسن بن الناصر محمد في السلطنة، غير أن الأمراء رفضوا ذلك لقوته، ورباطة جأشه، وكادت أن تقوم الفتنة بسبب ذلك. وخاف الأمراء تعيين سلطان، فاختاروا أخاه حسناً بالرغم من صغر سنّه، إذ كان يبلغ من العمر نحو إحدى عشرة سنة فسلطنوه، ولقب بالملك الناصر أبي المعالي<sup>(٦)</sup>.

(١) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٧١٢. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ١٢٧-١٢٨.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ١٥٤. وأكبخاري، جيز الكلام، ج ١، ص ٢٩.

(٣) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٧٣٩. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ١٦٨-١٦٧. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ٥١٦.

(٤) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٧٤١-٧٤٢. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ١٧٠. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ٥١٨. والسخاوي، جيز الكلام، ج ١، ص ٢٩.

(٥) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٧٤٤. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ١٧٢. وابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج ٢، ص ٨٣، ٨٥.

(٦) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٧٤٤-٧٤٥. وابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج ٢، ص ٨٥.

استأثر الأمراء بالحكم وصاروا أصحاب الكلمة المسموعة في الدولة عن طريق تدخلهم في تولية السلاطين وعزلهم، وجعلهم ألعوبة بين أيديهم. وبقي السلطان الناصر حسن أسير هذه السيطرة حتى تمكن في نهاية الأمر من التخلص من بعض الأمراء بالسجن. لكن سرعان ما أخذ الباقي منهم في التدبير للتخلص منه، فركبوا بسلاحهم خارج القاهرة في ٢٧ جمادى الآخرة عند قبة النصر معلنين الخروج عن طاعته، فخرج إليهم وبعث يسألهم عن سبب ركوبهم، فقالوا: «أنت اتفقت مع مماليكك على القبض علينا، ولا بدّ من إرسالهم إلينا، فلم يستطع رفض طلبهم لقوتهم، وتمكنهم من السلطنة فسلمهم إليهم وقيدوا وبعثوا إلى خزانة شمائل»<sup>(١)</sup>.

عظم الأمر على السلطان أمير حاجي وسير النمنجة إلى الأمراء<sup>(٢)</sup>، وخرج إلى دور الحريم فبعثوا إليه أحد الأمراء وجماعة من المماليك، فأخذوه وحبسوه<sup>(٣)</sup> في ٢٨ جمادى الآخرة سنة ٧٥٢هـ / ١٣٥١م، وعينوا مكانه أخاه الصالح ولقبوه بالملك الصالح<sup>(٤)</sup>. وكعادة الأمراء في كل مرة بدأوا في إثارة الفتنة، لأن السلطان الصالح صالح اختص بالأمير طان -أحد خواصه-<sup>(٥)</sup> فخلعوه من السلطنة، وحبسوه بقلعة الجبل، وأشهدوا عليه بأنه خلع نفسه، وطلبوا السلطان الناصر حسن وتولى منصب السلطنة وذلك في ٣ شوال سنة ٧٥٥هـ / ١٣٥٤م<sup>(٦)</sup>.

(١) خزانة شمائل، سجن يحبس فيه من يجب عليه القتل أو القطع وعرفت بذلك باسم علم الدين شمائل والي القاهرة. المقرئزي، الخطط، ج٢، ص١٨٨.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٢٣١.

(٣) المقرئزي، السلوك، ج٢، ق٣، ص٨٤١. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٢٣٠-٢٣١. وابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٥٢٧.

(٤) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٤، ص٢٥١.

(٥) المقرئزي، السلوك، ج٢، ق٣، ص٩٢٩. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٠، ص٢٨٦-٢٨٧.

(٦) ابن كثير، البداية والنهاية، ج١٤، ص٣٦٣. والمقرئزي، السلوك، ج٣، ق١، ص١.

وبدأ السلطان الناصر حسن حكمه بالقضاء على معارضيه من الأمراء والمماليك بالنفي والقتل حتى أصبح سلطان مصر بدون منافسة، وأخذ في تقريب مماليكه بالترقية، كالأمير يلبغا العمري<sup>(١)</sup> وطيبغا الطويل<sup>(٢)</sup>. حتى عظم أمرهم إلى الدرجة التي ثقلوا فيها على السلطان الناصر حسن، وأنكروا عليه إعطاء الإقطاعات الكبيرة للنساء والخدم، مما دفع السلطان إلى التفكير بالقبض على الأمير يلبغا العمري<sup>(٣)</sup>.

وفي ٨ جمادى الأولى سنة ٧٦٢هـ / ١٣٦٠م بدت الفرصة سانحة للسلطان الناصر حسن للقبض على الأمير يلبغا العمري عندما خرج مع أغلب أمرائه للصيد وعلم أن الأمير يلبغا العمري يريد قتله، فصبر السلطان الناصر حسن حتى يدخل الليل من غير استعداد ولا اكتراث، استخفافاً بالأمير يلبغا، فعلم الأمير يلبغا من بعض خواصه بما أضره السلطان الناصر حسن، واستعد لملاقاته وطلب المساعدة من أتباعه، ووعدهم بالإقطاعات، وحذّره من السلطان الناصر.

ولما دخل الليل قرب السلطان الناصر حسن من خيمة الأمير يلبغا الذي خرج إليه بمن معه وقاتله حتى كسره، فتوجّه السلطان إلى قلعة الجبل، وتزيّياً بزيّ الأعراب ليتوجه إلى بلاد الشام، غير أن الأمراء تداركوه، وقبضوا عليه وحملوه إلى الأمير يلبغا العمري، فقتله في ٩ جمادى الأولى سنة ٧٦٢هـ / ١٣٦٠م<sup>(٤)</sup>.

(١) يلبغا العمري الخاصكي قتل سنة ٧٦٨هـ / ١٣٦٦م. ابن قاضي تهبه، تاريخ. (حوادث ٧٥١-٧٨٠هـ)، ج ٢، ص ٣٩٣.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ٣٠٩.

(٣) المصدر ذاته، ج ١٠، ص ٣١٣.

(٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ٣١٢-٣١٤. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ٥٧٧.

وبعد مقتل السلطان الناصر، أصبح الأمير يلبغا العمري صاحب الكلمة النافذة في الدولة، حيث عين الأمير محمد بن حاجي سلطاناً، ولقبه بالملك المنصور وكان عمره نحو أربع عشرة سنة<sup>(١)</sup>، وصار الأمير يلبغا العمري مديراً لأمور السلطنة<sup>(٢)</sup>، يعزل من يريد ويولي من يريد، والسلطان المنصور منشغل في الملذات، حتى أشيع عنه الدخول بين نساء الأمراء، واللهو معهن، ويخل بالصلاة وغير ذلك، مما نفر قلوب الأمراء منه، واتفقوا على خلعه، فخلع في ١٥ شعبان سنة ٧٦٤هـ/ ١٣٦٢م<sup>(٣)</sup>.

وأقام الأشرف شعبان في منصب السلطنة بإشارة الأمير يلبغا العمري في اليوم الذي خلع فيه السلطان المنصور حاجي. واستمر الأمير يلبغا العمري مديراً لأمور السلطنة<sup>(٤)</sup>.

وبدت سيطرة الأمير يلبغا العمري واضحة، عندما رأى أن قوة السلطان تتزايد بتقريب مماليكه، فأقام سلطاناً آخر، نكاية في السلطان الأشرف شعبان، واستخفاً بأمره، وهو أنوك ابن الأجد حسين أخي الأشرف شعبان، ولقبه بالملك المنصور مما يدل على اختلال نظام حكم مصر في العصر المملوكي الأول، وسيطرة الأمراء على مقاليد الحكم، حتى صارت العامة تتندر بالسلطان أنوك: «سلطان الجزيرة ما يساوي شعيرة»<sup>(٥)</sup>، وتخلص الأمراء من الأمير يلبغا بسبب سياسته التي اتبعتها في السيطرة على السلطنة، بتعيين الأمير أنوك في الحكم<sup>(٦)</sup>.

(١) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ١٠، ص ٦٤. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ٥٨٠.

(٢) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ١، ص ٦٥. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٤.

(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٦-٧. والمقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ١، ص ٨٢. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ٥٩٢-٥٩٣.

(٤) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ١، ص ٦٤-٦٥. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٤.

(٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٧. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ٤٦-٤٧.

(٦) المصدر ذاته، ج ١١، ص ٤٠.

## ٢- برقوق ودره في الصراع على السلطنة.

استمرت فكرة السيطرة على السلاطين من قبل كبار الأمراء واتباعه العساكر حتى فترة حكم السلطان علي بن الأشرف شعبان بن قلاوون. وقد نتج عن استمرار فكرة السيطرة على السلطنة بسبب الصراعات المستمرة بين كبار أمراء المماليك تطلع مملوك من المماليك البرجية<sup>(١)</sup> لمنصب السلطنة. وهو برقوق بن أنس ابن عبد الله الجركسي العثماني<sup>(٢)</sup>، - وكان اسمه الطنبيغا، فسماه أستاذه يلبغا الكبير برقوق لجحوظ في عينيه-، ولد سنة ٧٤١هـ / ١٣٤٠م. وأصله من بلاد الجركس، الواقعة شمال القفقاس، ضمن منطقتين، تعرف إحداهما ببلاد الجركس الشمالية، وتقع ضمن حوض نهر ترك، وبلاد الجركس الجنوبية الواقعة على نهر قوبان، وقسم من الشاطئ الشرقي للبحر الأسود حتى بلاد الأبخاز جنوباً<sup>(٣)</sup>. من قبيلة «كسا» إحدى أشهر القبائل الجركسية<sup>(٤)</sup>.

ونشأة برقوق في بلاد الجركس غير معروفة كغيره من سلاطين دولة المماليك. فالمصادر العربية لم تُشر إلى طبيعة الحياة التي عاشها برقوق في بلاد الجركس. أما المصادر الأجنبية المعاصرة، فقد أشارت إلى أن برقوق كان يعيش في بلدة (Zicha) إحدى المقاطعات الروسية<sup>(٥)</sup> لوالدين مسيحيين، وكان برقوق مسؤولاً

(١) البرجية: كانت بداية ظهورهم في مصر سنة ٦٨١هـ / ١٢٨١م في سلطنة المنصور قلاوون حيث أكثر من شرائهم، ليكونوا حرسه الخاص. وقد سمعوا بذلك لأنه أسكنهم أبراج القلعة. أنظر المقرئ، الخطط، ج ٢، ص ٢١٢، ٢٤٦. وابن دقاق، الجواهر الثمين، ج ٢، ص ١٠٢. وسويرنهم، برجية، ج ٢، ص ٥٢٧.

(٢) النغاشي، تاريخ، ص ٣٤٨. وابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ٤، ص ٥٠. وسويرنهم، برقوق، م ٢، ص ٥٥٨-٥٥٩.

(٣) المقرئ، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٤٧٦. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٣١٩.

(٤) أدب الجراكسة، ج ٦، ص ٢٢٧. وشارل جورج، أطلس العالم، ص ١٩١-١٩٢. ويوسف عزت، تاريخ القوقاز، ص ٨.

(٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٢٢. والعيني، السيف المهند، ص ٤٧. والقبائل الجركسية هي: الجركس، والأركس، والأحس، والكسا.

(٦) Walter, Ascensus Barcoach, p. 46.

ويعد الاطلاع على أطالس الجغرافيا الحديثة لم أعتز على بلدة (Zicha).

عن إطعام الخنازير في إحدى المزارع، وأنه اختطف، وبيع لأحد تجار الرقيق الذي بدوره قام بجلبه إلى مدينة «كفاء» الواقعة على البحر الأسود بالقرب من القفقاس<sup>(١)</sup>. وعندما بلغ العشرين من عمره، بيع في إحدى أسواق الرقيق ببلاد القرم (وتعرف بسوداق)، واشتراه الخواجا عثمان بن مسافر الخوارزمي<sup>(٢)</sup>، وجلبه إلى مصر، ثم اشتراه الأمير يلبغا العمري الناصري الأتابك<sup>(٣)</sup>. وأعتقه وجعله من مماليكه الأجلاب<sup>(٤)</sup>. وبقي برقوق في خدمة الأمير يلبغا الناصري، إلى أن ثار عليه مماليكه اليلبغاوية سنة ٧٦٨هـ / ١٣٦٦م، وتمكنوا من قتله. فلما قتل الأمير يلبغا العمري وتفرقت مماليكه اليلبغاوية وحبس أكثرهم؛ حبس برقوق مع من حبس مدة طويلة مع رفيقه بركة الجوباني اليلبغاوي في قلعة الكرك<sup>(٥)</sup>. وعندما أفرج عن برقوق، توجه إلى بلاد الشام وخدم عند الأمير منجك اليوسفي<sup>(٦)</sup> نائب دمشق. ثم انتقل إلى خدمة الأمير علي وحاجي أولاد السلطان الأشرف شعبان في مصر<sup>(٧)</sup>.

وعندما توجه السلطان الأشرف شعبان إلى الحجاز سنة ٧٧٨هـ / ١٣٧٦م، اشترك برقوق مع الأمير أينبك البدري الأشرفي<sup>(٨)</sup>، واسندمر الصرغتمشي<sup>(٩)</sup>،

- (١) القلقشندي، صبح الأمشى، ج٤، ص٤٥٨، وراجع بدران، أطلس، خريطة الاتحاد السوفياتي، ص١٩١.
- (٢) وهو أحد تجار الرقيق المماليك المشهورين، حلب برقوق وأقاربه إلى مصر سنة ٧٨٣هـ / ١٢٨١م. العيني، عقد الجمان (حوادث ٨٢٤-٨٥٠هـ) ص١٠٠-١٠١.
- (٣) من كبار أمراء المماليك الأتراك، قتل سنة ٧٦٨هـ / ١٣٦٦م. وابن قاضي شهبه، تاريخ، ج٢، ص٢٩٢.
- (٤) الأجلاب: وهم المماليك الذين يشتريهم السلطان القائم في الحكم. ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص١١٦.
- (٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١١، ص٢٢٢. والغياثي، تاريخ، ص٣٤٨.
- (٦) توفي سنة ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م. ابن حجر العسقلاني، أنباء الغر، ج١، ص١٤٨.
- (٧) المقرئ، السلوك، ج٢، ق٢، ص٢٠٨. وابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٢، ص٢٨٦. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج١، ص٢٤. وابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق١، ص٢٠٤.
- (٨) سجن بالإسكندرية، وتوفي فيه سنة ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م؛ بسبب إثارة للفتن في الدولة. السخاوي، وجيز الكلام، ج١، ص٢٤٢.
- (٩) لم أعثر له على سنة وفاة.



وطشتمر اللغاف<sup>(١)</sup> في الثورة على السلطان الأشرف شعبان في القاهرة، وقرروا تعيين الأمير علي بن شعبان في السلطة<sup>(٢)</sup>. على أن يقوم الأمراء الذين توجهوا مع السلطان شعبان إلى الحجاز بالثورة في الطريق<sup>(٣)</sup>.

وبالفعل حين غادر السلطان شعبان القاهرة إلى الحجاز، في ٢ ذي القعدة سنة ٧٧٨هـ / ١٣٧٦م، قام الأمير أئيبك البدري، واسندمر الصرغتمشي، وطشتمر اللغاف، وعدد من المماليك السلطانية ومماليك الأمراء؛ بالثورة في القاهرة، وهاجموا قلعة الجبل، وأعلنوا موت السلطان شعبان، وأنزلوا الأمير علي من القلعة إلى الإسطبل السلطاني، وتولى السلطنة، ولقب بالملك المنصور<sup>(٤)</sup>.

أما الأمراء والمماليك الذين سافروا مع السلطان شعبان إلى الحجاز؛ فقد أثاروا الفتنة حين وصلوا إلى العقبة في ٧ ذي القعدة سنة ٧٧٨هـ / ١٣٧٦م<sup>(٥)</sup>، وطالبوا الأمير طشتمر الدوادر بمخصصاتهم من علف دوابهم، في وقت لم يكن يملك في يده شيئاً، فوعده السلطان شعبان بصرفها في منطقة الأزم<sup>(٦)</sup>. لكنهم

(١) طشتمر بن عبد الله العلاني، تولى نيابة الشام ثم أتابك المعسكر في مصر (ت ٧٨٦هـ / ١٣٨٤م)، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٣٠٤.

(٢) المقرئ، السلوك، ج ٣، ق ١، ص ٢٧٥-٢٧٦، وابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ٣، ص ٢٨٦، وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٢٥.

(٣) المقرئ، السلوك، ج ٣، ق ١، ص ٢٧٩.

(٤) المصدر ذاته، ج ٣، ق ١، ص ٢٧٧-٢٧٨، وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٧٢-٧٣.

(٥) المقرئ، السلوك، ج ٣، ق ١، ص ٢٧٩.

(٦) الأزم: أحد محطات طريق الحج الشامي بين العقبة ومكة المكرمة، يباع عندها الحشيش لغذاء الدواب، والسمن والأغنام. علي مبارك، الخطط التوقيفية، ج ٩، ص ٣٦.

رفضوا وطالبوا السلطان باستبدالها بالمال لإنفاقه على معاليكهم. غير أن السلطان شعبان رفض ذلك. فغضبت المماليك اليلبغاوية والأشرفية، واتفقوا على قتل السلطان شعبان، ولبسوا السلاح، وتوجهوا إلى الأمير طشتمر، وتوعده بالقتل، إن لم يوافقهم على قتل السلطان. فألبس الأمير طشتمر مماليكه السلاح؛ خوفاً على نفسه. ولما بلغ السلطان شعبان الأمر، هرب إلى القاهرة<sup>(١)</sup>. واختفى عند استادار الأمير يلبغا الناصري، لكنه خشي على نفسه، وتوجه إلى بيت امرأة تسمى أمنة، واختفى عندها. فخشي الأمراء الذين قاموا بالفتنة في القاهرة، من ظهور السلطان. إلا أن امرأة كشفت للأمراء عن مكانه، فأحضره إلى قلعة الجبل، بعد أن ألبس سلاحاً، وتسلمه الأمير أيوبك البدري، وعذبه حتى دله على ذخائره ثم قتله<sup>(٢)</sup>.

وعندما لم يتمكن الأمراء الذين أثاروا الفتنة في العقبة من اللحاق بالسلطان شعبان وقتله، اتجهوا إلى الخليفة المتوكل على الله- وكان مع السلطان في العقبة- وعرضوا عليه السلطة، لكن الخليفة رفض ذلك، فعاد الأمراء والمماليك إلى القاهرة، وعلّموا بمقتل السلطان شعبان، وسلطنة ابنه الأمير علي<sup>(٣)</sup>. اجتمع كبار الأمراء بالقلعة في ٨ ذي القعدة سنة ٧٧٨هـ / ١٣٧٦م، واستدعوا الخليفة، والقضاة، وجدّدوا البيعة للسلطان علي بالسلطنة<sup>(٤)</sup>، ووزع السلطان علي الوظائف

(١) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ١، ص ٢٧٩-٢٨٠. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٧٤-٧٥.

(٢) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ١، ص ٢٨٠-٢٨٢. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٧٥-٧٦.

(٣) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ١، ص ٢٨٢.

(٤) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ١، ص ٢٨٧. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ١٤٨.

المهمة في الدولة، فعين الأمير طشتمر اللغاف في منصب أتابك<sup>(١)</sup> العساكر في مصر، وتولى الأمير أينبك البدري منصب أمير آخور كبير<sup>(٢)</sup>، وتخلص من الأمير طشتمر الدوادار بتعيينه نائباً لدمشق، وأمره فوراً بالسفر إلى مقر نيابته<sup>(٣)</sup>. ثم أفرج عن عدد من السجناء بقلعة الجبل لتهدئة الأمور في الدولة، ثم أمر بالقبض عليهم وسجنوا بالاسكندرية<sup>(٤)</sup>. وفي ١٨ ذي القعدة، أجرى السلطان علي حملة تطهير أخرى، واعتقل عدد كبير من مباشري الدولة، وألزمهم بدفع مبالغ كبيرة، والنفقة على عدد من المماليك<sup>(٥)</sup>.

وبسبب سيطرة المماليك اليلبغاوية على المماليك الأشرفية، بدأ الانقسام بين المماليك اليلبغاوية أنفسهم في ٩ صفر سنة ٧٧٨هـ / ١٣٧٦م، بسبب التنافس على السلطة، واختلاف الأمير قرطاي الطازي<sup>(٦)</sup>، وصهره الأمير أينبك البدري أمير آخور، حين تولى الأمير قرطاي منصب أتابك العساكر، ونظر البيمارستان المنصوري بعد وفاة الأمير طشتمر اللغاف الأتابك<sup>(٧)</sup>. واستغل الأمير أينبك البدري مناسبة حفل زواج ابنته من قرطاي، واستمال عدد من المماليك اليلبغاوية، من

(١) أحد المناصب العسكرية في الدولة وتعني الأب أو أب الأمراء وهي وظيفة فخرية. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص١٨. وانظر فيما بعد تطور منصب أتابك العساكر.

(٢) من الوظائف العسكرية يشرف صاحبها على الخيول السلطانية يتولاها أمير مائة مقدم أف. المقرزي، الخطط، ج٢، ص٢٢٢.

(٣) المقرزي، السلوك، ج٢، ق١، ص٢٨٨. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ص١٤٩.

(٤) المقرزي، السلوك، ج٢، ق١، ص٢٩٠. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١١، ص١٥١.

(٥) المقرزي، السلوك، ج٢، ق١، ص٢٩٠. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١١، ص١٥١.

(٦) من كبار أمراء السلطان شعبان، تولى منصب أتابك العساكر، قتل في طرابلس سنة ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م. المقرزي، السلوك، ج٢، ق١، ص٢٢٦. وابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج١، ص٢٥٦. والسخاوي، وجزير الكلام، ج١، ص٢٣٧.

(٧) المقرزي، السلوك، ج٢، ق١، ص٣٠٤. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١١، ص١٥٢.

بينهم برقوق العثماني، وبركة الجوباني، ووعدهم بالترقية إلى إمرة طبخانة؛ لقتل الأمير قرطاي<sup>(١)</sup>. وأنزل السلطان علي من قصره إلى الإسطنبول السلطاني<sup>(٢)</sup>. حتى تجتمع الأمراء والمعاليك عند السلطان، ويتمكن من القبض على الأمير قرطاي، غير أن عدداً من أمراء ومعاليك الأمير قرطاي، تنبهوا لخطة أينبك، وأبلغوا الأمير قرطاي بذلك، وتمكن الأمير قرطاي من الفرار إلى سرياقوس، بعد أن أجيب إلى طلبه؛ بتعيينه نائباً على حلب<sup>(٣)</sup>.

وبعد فرار الأمير قرطاي، تمكن الأمير أينبك من تولي منصب أتابك العساكر، في ٢٤ صفر سنة ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م. ورقى كل من برقوق العثماني، وبركة الجوباني، إلى إمرة طبخانة دفعة واحدة، دون أن يكونا من أمراء العشرات<sup>(٤)</sup>. وسكن الأمير أينبك بالإسطنبول السلطاني<sup>(٥)</sup>، وأسكن عدداً من معاليكه في مدرسة السلطان حسن، ومدرسة السلطان الأشرف شعبان، ورقى ولديه الأمير أحمد وأبو بكر، إلى رتبة إمرة مائة مقدمة ألف<sup>(٦)</sup>. وأخذ الأمير أينبك بالاستعداد إلى نقل السلطة إلى الأمير أحمد بن الأمير يلبغا العمري الكبير؛ لصغر سن ابن زوجته تمهيداً لعزله، وتولي السلطة، واستدعى الخليفة المتوكل على الله، وطلب إليه تنصيب الأمير أحمد السلطنة، لكن الخليفة رفض الموافقة على هذه الخطوة؛ كون

(١) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ١، ص ٢٠٥. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ١٥٢.

(٢) مكان خاص لربط الخيول السلطانية ولها ناظر يسمى ناظر الاسطبلات السلطانية. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٣٢.

(٣) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ١، ص ٣٠٦. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ١٥٤.

(٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ١٥٥.

(٥) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ١، ص ٢٠٨.

(٦) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ١٥٥.

الأمير أحمد من غير «بيت الملك»، فعزل الأمير أيوب الخليفة من منصبه، وعين زكريا بن الواثق في الخلافة مكانه، في ٤ ربيع الأول سنة ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م<sup>(١)</sup>.

وعندما تخلص الأمير برقوق من كبار الأمراء اليلبغاوية المنافسين له في مصر، سعى إلى إحداث انقسام آخر بين الأمراء والمعاليك اليلبغاوية في مصر وبلاد الشام. ففي ١٧ ربيع الأول، سنة ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م تمكن برقوق من تحريض الأمراء اليلبغاوية في بلاد الشام، بزعامة الأمير طشتمر نائب دمشق، والأمير اشتقتمر نائب حلب، على الثورة، لتحكم الأمير أيوب في أمور الدولة<sup>(٢)</sup>.

وأشار على الأمير أيوب، بتجهيز حملة للتوجه إلى بلاد الشام؛ لقمع الثائرين فيها<sup>(٣)</sup>. وبدأ الأمير أيوب، الاستعداد إلى الخروج من القاهرة إلى بلاد الشام في ١٩ ربيع الأول سنة ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م، بإعادة الخليفة المتوكل على الله، إلى الخلافة<sup>(٤)</sup>. واصطحب معه السلطان علي، وعددًا من كبار الأمراء اليلبغاوية، مثل: قطلوخرجا أمير أخور كبير، والأمير يلبغا الناصري، والأمير برقوق، والأمير بركة الجوباني<sup>(٥)</sup>. وقاد كل من الأمير يلبغا الناصري، وبركة الجوباني الحملة، المتجهة إلى بلاد الشام، واضطر الأمير أيوب إلى الفرار، وعاد الأمراء بالعساكر

(١) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ١، ص ٣٠٩. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ١٥٥. وابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ١، ص ٢٣١.

(٢) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ١، ص ٣١٠. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ١٥٦.

(٣) حكيم أمين السيد، قيام دولة المعاليك، ص ٤٢.

(٤) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ١، ص ٣١٠. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ١٥٦. وابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ١، ص ٢٣٢.

(٥) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ١، ص ٣١١. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ١٥٧. وابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ١، ص ٢٣٠.

والسلطان إلى القاهرة في ٣ ربيع الآخر سنة ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م<sup>(١)</sup>. وألقي القبض على الأمير أينبك، وسجن بالإسكندرية، بعد أن طلب الأمان من الأمير يلبغا الناصري<sup>(٢)</sup>.

وبعد أن تخلص الأمير برقوق من الأمير أينبك البدري، أخذ في تدبير مؤامرة للتخلص من الأمير يلبغا الناصري، الذي أصبح يتحكم في أمور الدولة<sup>(٣)</sup>. حيث نجح الأمير برقوق بإقناع الأمير بركة الجوباني، باختيار الأمير يلبغا الناصري في منصب أتابك العساكر. رغبة في التخلص منه هو الآخر؛ لأن الأمير يلبغا لم يكن مع الفريق الثائر على سلطنة بيت قلاوون، ولذلك لم يكن محل طاعة الأمراء اليلبغاوية<sup>(٤)</sup>.

وفي ٢٣ ربيع الآخر سنة ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م تمكن الأمير برقوق من طرد الأمير يلبغا الناصري من الإسطنبول السلطاني، وعزله من منصبه، واستقر مكانه بالإسطنبول<sup>(٥)</sup>، لتلافي محاولة المماليك اليلبغاوية تولية سلطان كبير من بيت قلاوون. ثم حضر الأمير طشتمر الدوادار نائب الشام إلى مصر في ٢ جمادى الأولى سنة ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م، بطلب من الأمير يلبغا الناصري، الذي كان يتولى أمور الدولة، فخرج السلطان علي، وعدد كبير من الأمراء؛ لاستقباله، فاستقبلوه،

(١) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ١، ص ٣١٣.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ١٥٨. وابن حجر العسقلاني، أنباء الفهر، ج ١، ص ٢٢٢. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٢١٨.

(٣) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ١، ص ٢١٤. والسخاوي، وجيز الكلام، ج ١، ص ٢٢٢. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٢١١.

(٤) حكيم أمين السيد، قيام دولة المماليك، ص ٤٤.

(٥) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ١، ص ٣١٦.

أحسن استقبال<sup>(١)</sup>. وحين وزعت الوظائف، عين الأمير طشتمر أتابك العساكر، وعين الأمير برقوق أمير آخور، والأمير بركة الجوباني أمير مجلس<sup>(٢)</sup>.

ولما صار أمر تنفيذ شؤون الدولة بيد الأمير طشتمر الدوادار، اتفق الأمير برقوق، مع بركة الجوباني، على التخلص منه، والعمل على إضعاف قوته في الدولة، وذلك بمطالبتها المتكررة في نفي أنصار الأمير طشتمر، ثم طالباه في نهاية الأمر بالقبض على رأس نوبته، فلم يجد سبيلاً إلى ذلك، وأمر بالقبض عليه<sup>(٣)</sup>. وحين تخلى الأمير طشتمر عن ممالিকে في قتال برقوق وبركة؛ واجهت المماليك قوات برقوق وبركة، وانتهى الأمر إلى إجبار الأمير طشتمر على الاستسلام إلى برقوق، فقبض عليه وأرسله إلى سجن الإسكندرية<sup>(٤)</sup>.

وحين تمكن الأمير برقوق من القضاء على منافسه الأمير طشتمر، ومماليكه، ترقى الأمير برقوق إلى منصب أتابك العساكر، وتولى ايتمش البجاسي منصب أمير آخور، وأصبحت أمور الدولة بيد الأمير برقوق، وبركة، فإذا أراد أحد الأمراء ولاية منصب في الدولة، يسعى في ذلك عند الأمير بركة، ثم يبعث بذلك إلى الأمير برقوق، ثم يستقر فيما يقرره فيه من المناصب<sup>(٥)</sup>.

- (١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ١٦٠. وابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ١، ص ٢٢٢.
- (٢) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ١، ص ٣١٦-٣١٧. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ١٦١.
- (٣) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ١، ص ٢٢٢. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ١٦٢. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٢١٩.
- (٤) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ١، ص ٢٢٢. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ١٦٢. والسخاوي، وجيز الكلام، ج ١، ص ٢٢٢. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٢١٩.
- (٥) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ١، ص ٢٢٢-٢٢٤. وابن قاضي شهبة، تاريخ، ج ٢، م ٢، ص ٢٢. وابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ١، ص ٢٣٦.

ثم أصبح الأمير برقوق بعد ذلك صاحب السلطة الفعلية في الدولة يعزل ويولي من يريد، أما السلطان علي فكان ضعيفاً ليس له من السلطنة سوى الاسم<sup>(١)</sup>.  
 وحين تسلم الأمير برقوق منصب الأتابكية، بدأ الأمراء الأتراك يحيكون المؤامرات والدسائس ضده، واتفق عدد منهم على قتله. ولم يتم لهم ذلك، فأنكشف أمرهم، وألقى القبض عليهم، ونفى بعضهم، وسجن عدد آخر في سجن الإسكندرية<sup>(٢)</sup>.  
 وأظهر الأمير برقوق العداء للأمراء الأتراك لأول مرة<sup>(٣)</sup>. وأخذ يسعى إلى التخلص من كبار الأمراء الأتراك عن طريق الدسائس<sup>(٤)</sup>، فاستدعى الأمير يلبغا الناصري سنة ٧٧٩هـ / ١٣٧٨م إلى القلعة وأوهمه أنه يريد مشاورته في أمور الدولة، وعندما وصل إلى القلعة أمر بالقبض عليه وأرسله إلى سجن الإسكندرية<sup>(٥)</sup>.

## ٢- ولاية برقوق الأولى للسلطنة

بدأت محاولات الأمير برقوق للوصول إلى السلطنة سنة ٧٨٢هـ / ١٣٨١م نتيجة التنافس بينه وبين الأمير بركة الجوباني، حين أعلم الأمير بركة الجوباني برقوق بأن الأمير أيتمش<sup>(٦)</sup> يريد قتله، لكن برقوق تحقق من الأمر وعرف كذب بركة. ويبدو أن الأمير بركة أراد إيقاع الفتنة والخلاف بين الأمير برقوق وأيتمش

(١) إبراهيم طرخان، الجراكسة، ص ٢.

(٢) المقرئ، السلوك، ج ٢، ق ١، ص ٢٢٤-٢٢٥. وابن قاضي شهبه، تاريخ، ج ٢، م ٣، ص ٥٧١. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٦٦. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٢٢٤.

(٣) ابن قاضي شهبه، تاريخ، ج ٢، م ٣، ص ٥٧١. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٢٢٥.

(٤) محمد العمارة، الجيش، ص ٢٦.

(٥) المقرئ، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٢٢٥. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ١٦٣. والمذهل الصافي، ج ٣، ص ٥٦.

(٦) أيتمش الجاسي الجركسي كان أتابكاً للعساكر في فترة حكم السلطان الظاهر برقوق، الذي قربه وأدناه منه، قتل بقلعة دمشق. السخاوي، الضوء اللامع، ج ٢، ص ٢٢٤.



للوصول إلى السلطة. وتوسط الأمراء بينهما حتى وقع الصلح<sup>(١)</sup>. ثم وقع الخلاف بين الأميرين بعد مضي نحو اثني عشر يوماً على الصلح، بسبب قبض الأمير بركة على عدد من الأمراء الجراكسة أتباع الأمير برقوق، ولبس كل منهما السلاح، وفي هذا الموقف ظهر برقوق أكثر ذكاء من الأمير بركة، إذ طلب من القضاة الأربعة الحكم ببلوغ السلطان علي بن شعبان السن المناسب وإعلان قدرته على تولي الحكم بنفسه، والتصرف في أمور الدولة دون وصي، وقال: «نرشد السلطان فيتكلم في أمور الدولة، وأنكف أنا وغيري عن التكلم»<sup>(٢)</sup>، فأذن الأمير بركة لذلك، وخلع الأمير برقوق على القضاة الأربعة الخلع لسيرهم في الصلح<sup>(٣)</sup>. واستمر الأمر على ذلك حتى ربيع الأول من السنة نفسها، حين عاد الأمير بركة، وبعض أصدقائه من المماليك الأتراك إلى تدبير قتل الأمير برقوق ساعة الدخول إلى المسجد لصلاة الجمعة، غير أن برقوق كشف خطتهم، وبدأ يفكر بالتخلص من الأمير بركة. واستغل برقوق فرصة الاحتفال الذي أقامه بمناسبة المولود الذكر الذي رُزق به، وصعد أعيان أمراء الأمير بركة للمشاركة في هذا الاحتفال، وقبض عليهم، وأمر الأمير بزوار الناصري<sup>(٤)</sup> -أحد كبار أمراءه- الرمي بالنشاب على الأمير بركة، فنهب بيته، ولم يتمكن من منعهم لكثرة الرمي عليه<sup>(٥)</sup>.

(١) المقرئزي، السلوك، ج٢، ق١، ص٢٧٩. وابن قاضي شهبه، تاريخ، ج١، ص٢٣.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١١، ص١٧٤-١٧٥.

(٣) ابن خلدون، تاريخ، ج٥، ق٥، ص١٠٠٦. وصالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص٢٣١.

(٤) بزوار بن عبد الله العمري، نائب الشام، (ت ٧٩١هـ/١٢٨٨م). ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٢، ص٣٦١-٣٦٢. وابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٢، ص٩.

(٥) ابن خلدون، تاريخ، ج٥، ق٥، ص١٠٠٦. والمقرئزي، السلوك، ج٢، ق١، ص٣٨٠-٣٨١.

ووقع القتال بين برقوق وبركة، وتمكن الأمير بركة في بدايتها التغلب على خصمه مؤقتاً<sup>(١)</sup>، ثم وقعت بينهم وقعت أخرى متتالية استمال فيها الأمير برقوق السلطان المنصور علي إلى جانبه؛ لكن هذه الوقعات لم تؤدِ إلى نتيجة حاسمة. ولما رأى الأمير بركة ضعف موقفه، بعث إلى الأمير برقوق يقول له: « ما هذا العمل؟ أهكذا وقع الاتفاق؟ فقال برقوق: هكذا وقع<sup>(٢)</sup>».

وبدأت محاولات الأمير برقوق في إنهاء الفتنة، واقترح على الأمير بركة أن يعطيه نيابة أي بلد يشاء، لكن بركة رفض الاقتراح<sup>(٣)</sup>. فلما فشل الأمير برقوق في محاولة إنهاء الفتنة استأنف القتال، وتمكن هذه المرة من هزيمة الأمير بركة ومماليكه، وفرّ بركة إلى جامع المقس خارج القاهرة<sup>(٤)</sup>، وظلّ مختفياً فيه حتى تمكن الأمير برقوق من القبض عليه وسجنه في سجن الإسكندرية<sup>(٥)</sup>. ثم بعث إلى الأمير صلاح الدين بن عرّام نائب الإسكندرية سراً في سنة ٧٨٢هـ / ١٢٨٠م بقتل بركة، فقتله دون إذن منه، ثم تنكّر برقوق للأمير صلاح الدين بن عرّام وألقى القبض عليه خوفاً من إثارة مماليك بركة ضده، وسجنه في القاهرة بخزانة شمايل، وضربه بالمقارع، وسُمّر على جمل فأنزله جماعة من مماليك بركة وضربوه بالسيوف وقطعوه قطعاً عديدة<sup>(٦)</sup>.

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ١٧٦.

(٢) المصدر ذاته، ج ١١، ص ١٧٧.

(٣) ابن قاضي شهبه، تاريخ، ج ١، ص ٢٤. وابن حجر العسقلاني، أبناء القمر، ج ٢، ص ٢.

(٤) جامع المقس، أنشاء الحاكم بأمر الله على شاطئ النيل. راجع المقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٢٨٢.

(٥) القلقشندي، مآثر الانفاة، ج ٢، ص ٨٢. وابن قاضي شهبه، تاريخ، ج ١، ص ٢٦.

(٦) ابن خلدون، تاريخ، ج ٥، ق ٥، ص ١٠٠٩-١٠١٠. والمقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ١، ص ٢٩٦-٢٩٧. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ١٨٢، ١٨٤. والسخاوي، وجزيل الكلام، ج ١، ص ٢٤٩.

واستمرَّ الأمير برقوق في منصبه أتابكاً ومدبراً للدولة، حتى توفي السلطان المنصور علي سنة ٧٨٣هـ / ١٣٨١م<sup>(١)</sup>، فتكلم الناس بسلطنة الأمير برقوق، وأشيع ذلك وعظمت الإشاعة على أكابر الأمراء وعبروا عن ذلك: «لا نرض أن يتسلطن علينا مملوك يلبغاه»<sup>(٢)</sup>. وعندما علم برقوق بموقف الأمراء خاف ألا تتم له السلطنة، فجمع الأمراء والقضاة والخليفة بقلعة الجبل، وتحدث معهم في اختيار أحد أولاد السلطان الأشرف شعبان لمنصب السلطنة، فوافقوه على ذلك، ووقع الاختيار على أمير حاجي أكبر أولاد السلطان وبايعه الخليفة وحلف له الأمراء على الطاعة<sup>(٣)</sup>، واستقر برقوق أتابكاً له لصغر سنه، وكان عمره آنذاك نحو تسع سنوات<sup>(٤)</sup>، وصار برقوق مستبداً بأمور الدولة يولي ويعزل من يشاء<sup>(٥)</sup>.

وبدأ برقوق في التمهيد لنفسه للوصول إلى السلطة؛ بالتقرب من العامة، فألقى الفلوس الجدد التي صكها الأمير جركس الخليلي<sup>(٦)</sup> التي أدت إلى ارتفاع الأسعار<sup>(٧)</sup>. بالرغم من ذلك كله تعرّض برقوق لمحاولة اغتيال في العشر الأوسط من

(١) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ١، ص ٤٢١. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١، ص ١٨٨.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٢٠٧.

(٣) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ١، ص ٤٢٩. وابن قاضي شهبه، تاريخ، ج ١، ص ٥٨. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٢٨٥.

(٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٢٠٧.

(٥) المصدر ذاته، ج ١، ص ٢٠٨. والسخاوي، وجيز الكلام، ج ١، ص ٢٥٤.

Walter, Ascensus, Barcoach, part. 1, p. 70.

(٦) جركس الخليلي من مماليك السلطان برقوق قتل سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٨م في دمشق. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج ٢، ص ٧٠. والسخاوي، وجيز الكلام، ج ١، ص ٢٩٢.

(٧) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٤٥٤. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١، ص ٢١٠.

شعبان سنة ٧٨٢هـ / ١٢٨١م من بعض الامراء الأتراك بقيادة أيتمش الخاصكي وهو بسكنه في الإسطبل السلطاني، إلا أنه تمكّن من القبض عليهم، وحبس عدداً منهم في أبراج القلعة وآخرين في خزانة شمائل<sup>(١)</sup>.

وأخذ برقوق في زيادة أعداد الجراكسة، للتأثير على مكانة المماليك الأتراك في الدولة، فجلب نحو ألفي مملوك سنة ٧٨٢هـ / ١٢٨١م من بينهم والده وأقاربه، ووزع عليهم الوظائف، ومنحهم الإقطاعات، وبذلك أصبح أغلب عناصر الجيش من المماليك الجراكسة<sup>(٢)</sup>. ومع ذلك ظلّ الأمير برقوق متخوفاً من المماليك الأتراك، وأشار عليه بعض أصحابه، وأعيان أمراء الجراكسة أن يتولى السلطنة ويحتجب عن الناس «ويستريح من هذا الذي فيه من الاحتراز من قيامه وقعوده»، لكنه خشي أن يرفض من قبل الامراء الأقدم منه رتبة في بلاد الشام. ومر الأمير سودون الشيخوني<sup>(٣)</sup> نائب السلطنة على الامراء بمصر سراً واسترضاهم، «وهونوا عليه الامر وضمنوا له أصحابهم من أعيان النواب والامراء بالبلاد الشامية»<sup>(٤)</sup>، وتعهدوا له بإقناع أعيان النواب، والامراء في بلاد الشام. وساعده في ذلك موت أميرين من كبار الامراء الأتراك اليلبغاوية وهما: أقتمر عبد الغني، وأيدمر الشمسي في سنة واحدة، وهما أقدم منه استقداً إلى مصر، وأكبر منه رتبة.

(١) المصدر ذاته، ج ٢، ق ٢، ص ٤٧٢. وابن قاضي شهبه، تاريخ، ج ١، ص ٨٤-٨٥. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢١٢.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٣٠٩. ومحمد العميرة، الجيش، ص ٦٠-٦١.

(٣) سولون الشيخوني بن عبد الله الفخري، ولي نيابة السلطنة للسلطان برقوق سنة (٧٩٨هـ / ١٢٩٥م). ابن قاضي شهبه، تاريخ، ج ١، ص ٥٩٧. وابن الفرات، تاريخ، م ٩، ج ٢، ص ٤٤٧.

(٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ١٢٥.

وبذلك تمكّن الأمير برقوق من الوصول إلى السلطة سنة ١٩ رمضان ٧٨٤هـ/ ١٤٨١م وصعد الأمير قُطْلُوبُغا أمير سلاح إلى السلطان أمير حاجي، وأخذه من قاعة الدهيشة<sup>(١)</sup> وأدخله الدور السلطانية، وأخذ منه الزمنجاء<sup>(٢)</sup> التي تمثل شعار السلطنة، وأحضرها إلى الأمير برقوق؛ واستدعى بعض الأمراء الخليفة، وباع الأمير برقوق بالسلطنة<sup>(٣)</sup>، وفوض إليه أمر تسيير شؤون الدولة وألبسه خلعة السلطنة<sup>(٤)</sup>.

وقد تمتّ مراسم التعيين بحضور الخليفة المتوكل على الله، والقضاة. وأشار شيخ الإسلام عمر البلقيني أن يكون لقبه الملك الظاهر<sup>(٥)</sup>. وعندما انتهت مراسم التعيين، بدأ السلطان برقوق بتوزيع الوظائف على المماليك الجراكسة<sup>(٦)</sup>، وجرّد المماليك الأتراك من إقطاعاتهم، ورواتبهم، وطردهم من الخدمة، مبرراً عمله بأنهم خانوا أستاذهم السلطان الأشرف شعبان وأعانوا على قتله<sup>(٧)</sup>. وبذلك انتقلت السلطة من المماليك الأتراك إلى المماليك الجراكسة.

(١) قاعة الدهيشة، أنشأها السلطان عماد الدين إسماعيل بن قلاوون بالقصر بقلعة الجبل سنة ٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م. المقرئزي، الخطط، ج٢، ص٢١٢. والسخاوي، وجيز الكلام، ج١، ص٢٦٠.

(٢) من شعار الملك وهي سكين منحني الشكل تستخدم في الحرب. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٢، ص٢٠٧. حاشية رقم ٦.

(٣) ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج١، ص٢٧-٢٨. والقاضي عبد الباسط، نيل الأمل، ج١، ورقة ١٣٩ب. وصالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص٢٣٢.

Walter, Ascensus Barcoach, part. 1, p. 74.

(٤) وهي فرجية أو دراعة سوداء بتركيبة مزركشة يلبسها السلطان عند تولي السلطنة. راجع حسام الناطور، السلطنة، ص١٠٤.

(٥) المقرئزي، السلوك، ج٢، ق٢، ص٤٧٧. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١١، ص٢١٥.

(٦) ابن خلدون، تاريخ، ج٥، ق٥، ص١٠١٦. والمقرئزي، السلوك، ج٢، ق٢، ص٤٧٨.

(٧) المقرئزي، السلوك، ج٢، ق٢، ص٤٧٩. وابن حجر العسقلاني، أنباء القمر، ج٢، ص٩٢. والغيثي، تاريخ، ص٣٤٨.

Holt, The structure of government, p.45.

## ٣- الفتن والثورات:

تعرضت دولة المماليك في فترة حكم السلطان برقوق إلى العديد من الفتن والثورات التي كانت في معظمها موجهة ضد السلطان برقوق نفسه لاقتناعهم بعدم أحقيته بالسلطة، ولسياسته التي اتبعتها حين جعل أغلب عناصر الجيش من المماليك الجراكسة، والاضطهاد المستمر للمماليك الأتراك<sup>(١)</sup>. فالسلطان الظاهر برقوق حين تمكن من الوصول إلى السلطة وجد نفسه يواجه أكبر فرقتين من المماليك الأتراك: فرقة المماليك اليلبغاوية، وفرقة المماليك الأشرفية. ولتحقيق سياسته في جعل أغلب عناصر الجيش من الجراكسة كان لا بدّ له من التخلص من هذه الفرق، واتبع في ذلك تشتيت هذه الفرق بالنفي والقتل والسجن، فشتت فرقة المماليك الأشرفية وقطع رواتبهم وإقطاعاتهم وطردهم من الخدمة، لأنه لم يعد يأمن لهم بسبب خيانتهم لأستاذهم السلطان الأشرف شعبان<sup>(٢)</sup>. وأدت هذه السياسة إلى العديد من الفتن والثورات الداخلية التي قام بها المماليك والعربان ومنها:

## أ- ثورة الطنبغا الأشرفي:

تعدّ ثورة الأمير الطنبغا الأشرفي -أحد كبار المماليك الأتراك- نائب الأبلستين<sup>(٣)</sup>، أولى الثورات التي قامت ضد الجراكسة، حيث هاجم الأمير الطنبغا الأشرفي قلعة دارنده<sup>(٤)</sup>، المضافة إلى نيابته في نبي القعدة سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨١م، والقبض على بعض الأمراء الجراكسة الذين عينهم السلطان برقوق فيها. غير أن

(١) حكيم أمين السيد، قيام دولة المماليك، ص ٦٢.

(٢) المقرزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٤٧٩. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٤٩-٥٠.

(٣) الأبلستين من البلاد الرومية المتاخمة لبلاد الشام، نيابتها تقدمه ألف بمرسوم من السلطان. القلقشندي، صبح الأمشي، ج ٤، ص ٢٢٤. وحسين مؤنس، أطلس العالم الإسلامي، ص ٣١٢.

(٤) من بلاد النيابات الصغيرة في نيابة حلب المملوكية ونائبها أمير عشرة. القلقشندي، صبح الأمشي، ج ٤، ص ٢٢٤.

ممالك هؤلاء الأمراء تمكنوا من محاصرة الأمير الطنبغا الأشرفي، وأجبروه على طلب الأمان منهم، وألقوا القبض عليه، غير أنه تمكن من الفرار من القلعة والتوجه إلى مقر نيابته، والهرب منها إلى بلاد التتار في ذي القعدة سنة ٧٨٤هـ/ ١٢٨١م مصرحاً: «لا أكون في دولة حاكمها جركسي»<sup>(١)</sup>. ويعدّ تصريح الأمير الطنبغا الأشرفي بمثابة رفض قاطع لحكم المماليك الجراكسة بوجه عام، وحكم السلطان برقوق بوجه خاص.

#### ب- محاولة الخليفة المتوكل على الله الوصول إلى السلطة

لم تنته محاولات المماليك الأشرفية ضد السلطان الظاهر برقوق، فقد قامت ثورة أخرى في أوائل رجب سنة ٧٨٥هـ/ ١٢٨٢م، بالاتفاق مع الخليفة المتوكل على الله، وكان الاتفاق يتضمن قيام الأمير قُرط التركماني<sup>(٢)</sup> والأمير إبراهيم بن قَطْلُقْتَمُر العلاني<sup>(٣)</sup> مع جماعة من الأكراد والتركمان باغتيال السلطان برقوق عند نزوله إلى الميدان للعب الكرة، وتعيين الخليفة المتوكل في السلطنة. وحين علم السلطان برقوق بما تمّ الاتفاق عليه من أحد مماليكه، أدرك أن المماليك الأتراك وراء هذه المحاولة، وطلب الخليفة، والأمير قُرط، والأمير إبراهيم بن قَطْلُقْتَمُر، وهددهم بالقتل من أجل الكشف عن محاولة الاغتيال، فأنكروا باستثناء الأمير قُرط الذي اعترف مصرحاً: «أن الخليفة طلبني، وقال لي: هؤلاء ظلمة وقد استولوا على هذا الملك بغير رضائي، وإني لم أقتد برقوقاً السلطنة إلا غصباً، وقد أخذ أموال الناس بالباطل، وطلب مني أن أقوم معه وأنصر الحق فأجبتة إلى ذلك، ووعدته بالمساعدة»<sup>(٤)</sup>. وهذا دلالة واضحة على أن تقليد الخليفة للسلطان برقوق كان نتيجة عدم قدرة الخليفة المتوكل رفض الموافقة على تنصيب السلطان برقوق في السلطنة ومنحه تفويضاً بالتصرف في أمور الدولة.

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٢٩. وصالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٢٢٢.

(٢) قُرط التركماني عمل كاشفاً للصعيد قتل سنة ٧٨٥هـ/ ١٢٨٢م. المقرئ، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٤٩٥. وابن حجر العسقلاني، أنباء الفجر، ج ٢، ص ١٢٨.

(٣) وهو الأمير صارم الدين إبراهيم ابن الأمير قَطْلُقْتَمُر الخازندار. حبسه السلطان برقوق وعندما ثار الناصري على السلطان برقوق ثار مع من ثار عليه. فالقى القبض عليه وقتله بحلب سنة ٧٩١هـ/ ١٢٨٩م. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٨٢، ٢٨٣. وابن حجر العسقلاني، أنباء الفجر، ج ٢، ص ١٢٨.

(٤) المقرئ، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٤٩٢-٤٩٣. وابن قاضي شهبه، تاريخ، ج ١، ص ١٠٩، ١١٠. وابن حجر العسقلاني، أنباء الفجر، ج ٢، ص ٩٤.

وغضب السلطان برقوق من موقف الخليفة المتوكل، وأراد قتله، لكن الأمراء حالت دون ذلك، واستدعى السلطان برقوق القضاة الأربعة ليفتوا بقتل الخليفة، غير أنهم امتنعوا عن ذلك، فسجنه بموضع من قلعة الجبل وأمر بقتل الأمير قُرت، وسجن الأمير إبراهيم بن قُطْلُقْتُمُر<sup>(١)</sup>، وطلب السلطان برقوق زكريا وعمر ابني إبراهيم عم الخليفة المتوكل، لاختيار خليفة مكان الخليفة المتوكل، فوقع الاختيار على عمر فولاه الخلافة وتلقب بالوائق بالله<sup>(٢)</sup>.

وعلى أثر الحركة التي قام بها الخليفة المتوكل بالاشتراك مع الأمراء الأتراك، بدأ السلطان برقوق حكمه بالانتقام من المماليك الأتراك، بنفي عدد منهم إلى بلاد الشام وطردهم من الخدمة<sup>(٣)</sup>، كالأمير كُمشبُغا الأشرفي الخاصكي<sup>(٤)</sup>، وأحد أمراء الطبلخانة، ورأس نوبة طرابلس آنذاك<sup>(٥)</sup>.

#### ج- حركة أحمد بن البرهان:

ولم تكد محاولة الخليفة المتوكل على الله التي استهدفت القضاء على السلطان برقوق من الانتهاء حتى واجه حركة أخرى في ذي الحجة سنة ٧٨٨هـ/ ١٣٨٦م اشترك فيها أربعة من فقهاء بلاد الشام، بزعامة أحمد بن البرهان، بهدف التخلص من السلطان برقوق وإقامة إمام قرشي في السلطنة، لمخالفة السلطان

(١) المقرئزي، السلوك، ج٢، ق٢، ص٤٩٥. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١١، ص٢٢٢-٢٢٥. وابن قاضي شهبه، تاريخ، ج١، ص١٠٩، ١١٠.

Walter, Ascensus Barcoach, part. 1, p. 74.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١١، ص٢٢٥. وابن قاضي شهبه، تاريخ، ج١، ص١١٠. والقاضي عبد الباسط، نيل الأمل، ج١، ورقة ١٢٣ب.

(٣) حكيم أمين السيد، قيام دولة المماليك، ص٦٣.

(٤) الأمير كمشبغا الأشرفي الخاصكي من كبار المماليك الأتراك توفي بدمشق سنة ٧٩٥هـ/ ١٣٩٢م وكان له في نيابته أربعة أشهر. ابن حجر العسقلاني، أنباء الفهر، ج٢، ص١٥٢. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٣، ص٤٨. والسخاوي، وجيز الكلام، ج١، ص٣١٠.

(٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١١، ص٢٢٥. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج١، ص٧١.



برقوق أحكام الشرع وأخذ المكوس وعدم أهليته للقيام بأمر المسلمين، فأمر السلطان برقوق بتعذيبهم حتى يعترفوا عمن وافقهم من الأمراء المماليك، فلم يعترفوا، فأمر بسجنهم في خزانة شمائل<sup>(١)</sup>.

### د - ثورة منطاش وبلغا الناصري:

وحيث ازداد السلطان برقوق في اضطهاد المماليك الأشرفية سنة ٧٨٩هـ / ١٢٨٧م بدأ الأمير تمرينغا الأفضلي الأشرفي المعروف بمنطاش<sup>(٢)</sup> نائب ملطية<sup>(٣)</sup>، الاستعداد لإعلان العصيان على السلطان برقوق بالاشتراك مع المماليك الأشرفية الذين نفاهم السلطان برقوق إلى بلاد الشام<sup>(٤)</sup>. وأثناء استعداده للعصيان بعث أستاذاره إلى السلطان يعلمه أنه ما زال على طاعته حتى يدخل فصل الربيع وتذوب الثلوج ويصبح الطريق إلى مصر مفتوحاً. لكن السلطان برقوق شك في نوايا الأمير منطاش وأرسل دواذره الأمير سيف الدين تُلكتمر<sup>(٥)</sup> بعشرة آلاف دينار لينفقها على الأمراء الموجودين في حلب مقابل قيامهم بمراقبة تحركات الأمير منطاش<sup>(٦)</sup>. وحين أثبتت المعلومات التي جمعها الأمير تُلكتمر عدم صدق نية منطاش<sup>(٧)</sup>، سارع السلطان برقوق بالإفراج عن الأمير بلغا الناصري وأعادته إلى

- (١) المقرئزي، السلوك، ج٢، ق٢، ص٥٥٤. وابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج٢، ص٢٢١. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج١، ص١٤٤. وابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٢٧٩.
- (٢) تمرينغا بن عبد الله المعروف بمنطاش من المماليك الأشرفية ولي نيابة ملطية في عهد برقوق وأقام بها حتى سنة ٧٨٠هـ / ١٢٧٨م. ابن تفرج بردي، المنهل الصافي، ج٤، ص٩٤.
- (٣) من البلاد الرومية المتخامة لبلاد الشام شمال حلب. وهي بلدة ذات أشجار وفواكه يحيط بها سور. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص١٣٦. وياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٥، ص١٩٢.
- (٤) المقرئزي، السلوك، ج٢، ق٢، ص٦٥٧.
- (٥) الأمير تُلكتمر: تولى عدة وظائف في دولة المماليك كان آخرها صاحب الحجاب (ت٧٩٤هـ / ١٣٩١م). المقرئزي، السلوك، ج٢، ق٢، ص٧٧٦. وابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٢، ص٥٢.
- (٦) المقرئزي، السلوك، ج٢، ق٢، ص٥٧٢.
- (٧) المصدر ذاته، ج٢، ق٢، ص٥٨. وحكيم أمين السيد، قيام دولة المماليك، ص٦٥.

مقر نيابته في حلب بدلاً من الأمير سودون المظفري<sup>(١)</sup>، وذلك سنة ٧٩٠هـ / ١٣٨٨م<sup>(٢)</sup>، بقصد إيقاع الفتنة بين الأمراء الأتراك خاصة بين الأمير يلبغا الناصري، والأمير سودون المظفري<sup>(٣)</sup>، ليكون الأمير سودون عيناً للسلطان برقوق على يلبغا الناصري.

وبالفعل ما كاد أن يمضي ثلاثة أيام على مغادرة الأمير يلبغا الناصري القاهرة إلى مقر نيابته في حلب حتى وصل إلى السلطان برقوق نبأ عصيان الأمير منطاش في ٣ ذي القعدة سنة ٧٧٩هـ / ١٣٨١م بعد أن وافقه عدد كبير من المماليك الأشرفية<sup>(٤)</sup>.

ونجح السلطان برقوق في خطته التي استهدفت إيقاع الخلاف بين الأمير يلبغا الناصري وسودون المظفري، إذ أرسل الأمير سودون المظفري كتاباً إلى السلطان برقوق يعلمه فيه بخروج الأمير يلبغا الناصري عن طاعته<sup>(٥)</sup>. عندئذٍ تحقق السلطان برقوق من نوايا الأمير يلبغا الناصري، وبعث يستدعيه للحضور إلى مصر للتشاور في أمر عصيان منطاش، من أجل القبض عليه. ولكن الأمير يلبغا الناصري - لما أتاه رسول السلطان برقوق يعلمه بالحضور، خشي أن يفعل به كما فعل بالأمير الطنبغا الجوباني التركي<sup>(٦)</sup> نائب الشام من مسكه وحبسه

(١) سودون المظفري، من مماليك الأمير قتلوق المظفري، تولى عدة وظائف أهمها نيابة حلب، وحماة، وأتابك حلب، مات مقتولاً سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٨م. القرينزي، السلوك، ج٢، ق٢، ص٦٨٦.

(٢) ابن الخطيب الناصرية، الدر المنتخب، ج١، ص٢٤٢.

(٣) القرينزي، السلوك، ج٢، ق٢، ص٥٩٠. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١١، ص٢٥٥.

(٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١١، ص٢٥١.

(٥) ابن الخطيب الناصرية، الدر المنتخب، ج٢، ص٤٢٨. والقاضي عبد الباسط، نيل الأمل، ج١، ص١١٤٨.

(٦) الطنبغا الجوباني التركي أحد كبار الأمراء الأتراك، تنقل في عدة ولايات، قتل سنة ٧٧٣هـ / ١٣٨٩م. ابن حجر العسقلاني، الدر الكامنة، ج٥، ص٤٢٥.

بالإسكندرية، من أجل استكثاره في استخدام المماليك، فاعتذر الأمير يلبغا عن الحضور متعللاً بحركة التركمان، وعصيان منطاش، وتخوفه على البلاد الحلبية منهم<sup>(١)</sup>. عندها تيقن السلطان برقوق من خروج يلبغا الناصري عن الطاعة، وبدأ يدبر أمر القبض عليه، والتخلص منه<sup>(٢)</sup>. غير أنه لم يتمكن من ذلك<sup>(٣)</sup>. وسبب خروج الأمير يلبغا على طاعة السلطان برقوق هو رفض المماليك الأتراك الاعتراف بسلطة الجراكسة المتمثلة بالسلطان برقوق والأمراء والمماليك<sup>(٤)</sup>. وعزله عن نيابة حلب قبل ذلك، وتعين الأمير سودون المظفري مكانه<sup>(٥)</sup>، وتمكين سولي بن دلغادر أمير التركمان في الشام من الفرار حينما كان معتقلاً في قلعة حلب<sup>(٦)</sup>. ولأن يلبغا الناصري من كبار الأمراء اليلبغاوية والسلطان برقوق من صفار المماليك اليلبغاوية، فضلاً عن رغبة السلطان برقوق الحقيقية في إنهاء نفوذ الأمراء الأتراك ولا سيما يلبغا الناصري<sup>(٧)</sup>.

ونتيجة السياسة التي اتبعتها السلطان برقوق تجاه المماليك الأتراك عامة، ويلبغا الناصري خاصة، أعلن الأمير يلبغا الناصري خروجه عن طاعة السلطان في صفر سنة ٧٩١هـ / ١٢٨٨م. مصرحاً بعدم قبول حكم السلطان برقوق، وتخلص من بعض الأمراء الجراكسة، واتجه إلى قلعة حلب، واستولى عليها بمساعدة العربان

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٥٦. وابن الخطيب الناصرية، الدر المنتخب، ج ٢، ص ٤٢٨. والقاضي عبد الباسط، نيل الأمل، ج ١، ورقة ١١٤٨.

Walter, Ascensus Barcoach, part. 2, p. 152.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٥٦. وابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ٢، ص ٣١٢.

(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٥٨. وابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ٢، ص ٣١٢.

(٤) مصطفى الحيارى، ١٩٧٧، الإمارة الطائفة، ص ١١٣-١١٤.

(٥) ابن الخطيب الناصرية، الدر المنتخب، ج ٢، ص ٤٢٨.

(٦) ابن الخطيب الناصرية، الدر المنتخب، ج ٢، ص ٤٢٨.

(٧) زياد مدني، ١٩٨٣م، مملكة حلب، ص ٢٦. وإبراهيم طرخان، الجراكسة، ص ١٥.

والتركمان، وكتب إلى الأمير منطاش يدعموه إلى الإنضمام إليه، فسُرَّ منطاش لذلك، ووافق، «وتحالفوا على الموت والحياة»<sup>(١)</sup>.

وعندما علم السلطان برقوق بتحالف الأمير منطاش مع الناصري، كتب للأمير أينال اليوسفي الجركسي في ٨ صفر سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٨م يقلده نيابة حلب، وأمره بالقبض على الناصري<sup>(٢)</sup>. ولكن الأمير أينال اليوسفي تذكر ما حدث له على يد السلطان برقوق قبل ذلك من الامتقال والعزل عن نيابة دمشق<sup>(٣)</sup>، فلم ينفذ أوامر السلطان<sup>(٤)</sup>.

وحين ساء موقف السلطان برقوق في ١٨ صفر سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٨م، طلب الأمراء وشاورهم في أمر عصيان الناصري، فتم الإتفاق على إخراج قوة لقتاله<sup>(٥)</sup>، فلما رأى الأمراء الأتراك ضعف موقف السلطان برقوق في بلاد الشام، تكتلوا ضده، وقرروا الإنضمام إلى الأمير يلبغا الناصري، وانضم إليهم الأمير سولي بن دلغادر أمير التركمان، ونُعير بن حيار أمير العربان. وتمكن الناصري بمن انضم إليه من المماليك الأتراك والتركمان والعربات من الاستيلاء على جميع القلاع الشامية باستثناء قلعتي بعلبك والكرك، مما زاد في قوته<sup>(٦)</sup>.

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٥٨. وابن صمصري، الدرّة المضيئة، ص ٣-٤.

(٢) ابن صمصري، الدرّة المضيئة، ص ٥. والقاضي عبد الباسط، نيل الأمل، ج ١، ورقة ١١٤٨.

(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٥٨.

(٤) حكيم أمين عبد السيد، قيام دولة المماليك، ص ٦٩.

(٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٥٩.

(٦) المصدر ذاته، ج ١١، ص ٢٦٢. والقاضي عبد الباسط، نيل الأمل، ج ١، ورقة ١١٤٩.

وعندما ازدادت قوة المماليك الأتراك في الشام أخرج السلطان برقوق حملة أخرى في ١٤ ربيع الأول سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٨م إلى الريدانية<sup>(١)</sup> لملاقاة قوات الناصري هناك، كما حاول السلطان برقوق بعد خروجه من القاهرة استمالة العامة بإلغاء ضريبة البرسيم والشعير والقصب<sup>(٢)</sup>، لتدعيم موقفه<sup>(٣)</sup>. لكن عساكر السلطان برقوق التي اتجهت نحو دمشق أخذت فور وصولها إلى دمشق بالاعتداء على أهلها «حتى ضاق بهم أهل الشام كلها». وأثناء ذلك نزل الأمير يلبغا الناصري بقواته من المماليك الأتراك على خان لاجين بالقرب من دمشق، واشتبك مع عساكر السلطان برقوق الجراكسة، وتوالت الوقعات بين الطرفين، حتى تمكن الأمير يلبغا من هزيمة جيش السلطان برقوق، وقتل الأمير الكبير جركس الخليلي نتيجة تخلي عدد من الأمراء الجراكسة عن السلطان برقوق، كالأمير أحمد بن يلبغا أمير مجلس، والأمير فارس الصرغتمشي، والأمير شاهين بن حسين والانضمام إلى الأمير يلبغا الناصري<sup>(٤)</sup>.

لكن السلطان برقوق لم ييأس وأرسل قوة أخرى<sup>(٥)</sup>، واستدعى الخليفة المتوكل على الله- وكان قد عزله عن الخلافة قبل ذلك- وأكرمه، وحلف كل منهما للأخر على الموالاة والمناصحة، وأمر بإلغاء سائر المكوس من مصر<sup>(٦)</sup>، لاسترضاء العامة والوقوف إلى جانبه، وأمر السلطان برقوق الخليفة المتوكل على الله والأمير سودون الشبخوني نائب السلطنة، وقضاة القضاة، وشيخ الإسلام عمر البلقيني

(١) الريدانية، تقع في الجهة الشمالية لمدينة القاهرة خارج الأسوار.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٦٣. وابن حجر العسقلاني، أنباء الفهر، ج ٢، ص ٣١٦.

(٣) ايرا لايبوس، مدن إسلامية، ص ٢٧٨.

(٤) ابن صصري، الدرة المضيئة، ص ١٢. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٦٥. وابن تغري بردي، مورد اللطافة، ص ١٠.

(٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٦٦.

(٦) ابن دقاق، الجواهر الثمين، ج ٢، ص ٢٧٠.

في ٦ جمادى الأولى سنة ٧٩١هـ / ١٢٨٨م بالنزول إلى شوارع القاهرة، وأمامهم شخص يقرأ ورقة تتضمن إلغاء السلطان برقوق المظالم، ويأمر الناس بتقوى الله، ولزوم الطاعة، وإغلاق أبواب الدور، وإقامة الحواجز على الحارات، والاشتراك في قتال الناصري دفاعاً عن النفس<sup>(١)</sup>.

وحين سمع العامة ما تضمنه بلاغ السلطان برقوق، تحققوا من ضعف موقفه، وقوة مركز المماليك الأتراك. وتزايد خوف العامة وقلقها نتيجة عدم قدرة السلطان على مواجهة الأمير يلبغا الناصري، ورفض يلبغا الناصري الصلح مع السلطان برقوق، ومما زاد في سوء موقف السلطان برقوق إنضمام الأمير حسام الدين بن باكيش نائب غزة والأمير مأمور القلمطاوي نائب الكرك إلى جانب الناصري، وتسليمه قلعة الكرك بما فيها من المال والسلاح<sup>(٢)</sup>.

أما السلطان برقوق، فقد بدأ الاستعداد لملاقاة الناصري، وأمر بحفر خندق، وإغلاق أبواب القاهرة<sup>(٣)</sup>، وتحصين قلعة الجبل، وتخزين المؤن كما أمر بتزويد القلعة بالماء<sup>(٤)</sup>.

أما الأميران الناصري ومنطاش، فقد خرجا بعساكرهما والمتحالفين معهم من الأكراد والتركمان والعربان من دمشق إلى غزة في ١١ جمادى الأولى سنة ٧٩١هـ / ١٢٨٨م، بعد تعيين الأمير جنتمر المعروف بأخي طاز في نيابة دمشق<sup>(٥)</sup>، وفي غزة

(١) القريني، السلوك، ج٣، ق٢، ص٦٠٢، ٦٠٤. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١١، ص٢٦٩، ٢٧٠. وابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج٢، ص٢١٩. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج١، ص١٩٧.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١١، ص٢٧٠. وابن صمري، الدرّة المضيئة، ص١٨.

(٣) المصدر ذاته، ج١١، ص٢٧١.

(٤) ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج٢، ص٢١٩.

(٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١١، ص٢٧٥. وابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج٢، ص٢١٩.

التقى بنائبها الأمير حسام الدين بن باكيش وأعلمه بأن السلطان برقوق في موقف ضعف وقد استعدّ للحصار فنزل الناصري على قطيا<sup>(١)</sup>. حتى تستريح عساكره من عناء المسافة التي قطعها في الرمال<sup>(٢)</sup>.

وتخلى الأمراء الجراكسة عن السلطان برقوق حين أدركوا تفوق عساكر الناصري ومنطاش، ودخل عدد كبير منهم في طاعتها، واستولوا على الأموال التي كانت بحوزة الأمير عز الدين أيدير كاشف الوجه البحري<sup>(٣)</sup>، وأعلموا الناصري بسوء أوضاع السلطان برقوق، وعدم قدرته على ملاقاته<sup>(٤)</sup>. كما انضم عرب العائد<sup>(٥)</sup> إلى الناصري، وقدمت لهم الإقامات والشعير، فقويت الممالك الأتراك، وتابعت سيرها نحو القاهرة<sup>(٦)</sup>. وحاول السلطان برقوق عبثاً استجلاب الممالك الجراكسة إليه. وتحول عدد كبير منهم إلى الناصري<sup>(٧)</sup>، مما يؤكد خيانة بعض الأمراء الجراكسة وعدم إخلاصهم للسلطان برقوق<sup>(٨)</sup>.

- (١) قرية صغيرة قديمة من بلاد العريش، وهي مركز مهم على الحدود بين مصر وبلاد الشام، تبعد عن القاهرة نحو ١٩٢ كم. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٧٨.
- (٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٧٥.
- (٣) وهو المشرف على أحوال الأراضي الزراعية والجبور في الوجه البحري، ويسمى كاشف الجبور أو الترب، وكذلك جابي الضرائب. القلقشندي، صبح الأمشى، ج ٤، ص ٦٦.
- (٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٧٦. وابن قاضي شهبه، تاريخ، ج ١، ص ٢٧٦. والقاضي عبد الباسط، نيل الأمل، ج ١، ورقة ١٦٤٩.
- (٥) عرب العائد وهي من القبائل العربية التي كانت تقيم في مصر وتسمى عائد جذام. العمري، مسالك الأبصار، ص ١٧٥.
- (٦) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٧٦. وابن دقماق، الجوهر الثمين، ج ٢، ص ٢٧٢.
- (٧) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٧٨-٢٧٩. وابن قاضي شهبه، تاريخ، ج ١، ص ٢٧٢.
- (٨) حكيم أمين السيد، قيام دولة المماليك، ص ٧٤.

وأما السلطان برقوق، فقد حصن القاهرة، ورتب النفاطة على أبراج القلعة<sup>(١)</sup>. ودارت الحرب بين عساكر السلطان برقوق والناصرى، واستمرت الحرب حتى ٥ جمادى الآخرة. وقد انضم أكثر الأمراء والمماليك الجراكسة إلى الناصرى، ولم يبقَ عند السلطان برقوق سوى ابن عمه الأمير قجماس والأمير سودون الشيخونى نائب السلطنة، والأمير طرنطاي، وبعض أمرائه<sup>(٢)</sup>. وعندما رأى برقوق تخلي أمرائه ومماليكه عنه رغم إنفاقه عليهم، أغلق باب زويلة<sup>(٣)</sup>، وجميع الطرق المؤدية إلى القلعة، كما أغلقت الأسواق، وانتشر الزعر في القاهرة، حتى والى القاهرة خشي على نفسه من أذى الزعر واختفى في بيته<sup>(٤)</sup>.

وفي ٢ جمادى الآخرة سنة ٧٩١هـ / ١٢٨٨م أقبلت طليعة عساكر الناصرى مع عدد من الأمراء الأتراك، فتصدى لهم الأمير قرقماس ابن عم السلطان برقوق في عدد كبير من المماليك الجراكسة وقتلهم، وأكثر عليهم من الرمي من فوق أسوار القلعة بالسهم والحجارة، فلما شعر بقوة المماليك الأتراك، أدرك زوال دولة السلطان برقوق، وتفرقت عساكر السلطان برقوق، وانضم عدد منهم إلى الناصرى، واختفى بعضهم الآخر خوفاً على نفسه، ولم يبقَ مع السلطان برقوق سوى عدد قليل من الأمراء الجراكسة، وحين شاهد السلطان برقوق ذلك أراد أن يسلم نفسه للناصرى، غير أن بعض الأمراء منعتهم من ذلك وقالوا له: «نحن نقاتل بين يديك حتى نموت، وأنت تسلم نفسك بعد ذلك»<sup>(٥)</sup>. وحاول الأمير بطا الخاصكى

(١) القاضي عبد الباسط، نيل الأمل، ج ١، ورقة ١٤٩، ب.

(٢) ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٨١. وابن دقماق، الجواهر الثمين، ج ٢، ص ٢٧٢. وابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ٢، ص ٣٢٢.

(٣) باب زويلة، بناء بدر الدين الجمالى وزير الخليفة المستنصر بالله سنة ٦٨٥هـ / ١٠٩٢م. المقرئى، الخطط، ج ١، ص ٢٨٠.

(٤) ابن تغري بردى، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٨٢. وابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ٢، ص ٣٢٢.

(٥) المصدر ذاته، ج ١١، ص ٢٨٤. وابن دقماق، الجواهر الثمين، ج ٢، ص ٣٢٢.



كبار الأمراء الجراكسة الدفاع عن القلعة<sup>(١)</sup>، لكنه فشل، وأيقن السلطان برقوق انتهاء حكمه، وأرسل الأمير أبا بكر سنقر الحاجب والأمير بيدمر المنجكي شاد القصر في ٣ جمادى الآخرة لتسليم النمنجاة إلى الأمير يلبغا الناصري تعبيراً عن تنازله عن السلطنة، واعترافاً بالهزيمة وليأخذ الأمان له من الناصري، فوافق الناصري على ذلك وأمنه على نفسه، ولكن أمره أن يختفي السلطان برقوق حتى يدبر أمره فإن الفتن ما زالت مشتعلة بين المماليك وكلمتهم متفرقة. ففعل ذلك، وتفرقت الأمراء والماليك لينجو كل واحد بنفسه<sup>(٢)</sup>، وترتب على ذلك انتشار الزعر والتركان في القاهرة<sup>(٣)</sup>.

#### ٤- خلع السلطان برقوق من السلطنة وعودة الأمير حاجي.

وبعد اختفاء السلطان برقوق في ٥ جمادى الآخرة سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٨م أصبح الأمير يلبغا الناصري المتحكم في الدولة. واختار الأمير يلبغا الناصري الأمير منطاش في عدد كبير من الأمراء للتوجه إلى القلعة. وحين وصلوا إلى القلعة نزل الخليفة المتوكل على الله، وسار مع الأمير منطاش إلى الناصري بقبة النصر، فتلقاء الأخير مع عدد كبير من أمراء بلاد الشام اليلبغاوية، وبالغ في إكرامه<sup>(٤)</sup>، ثم جمع الأمراء وأعيان الدولة، وشاورهم فيمن يلي السلطنة، فأشار الأعيان وكبار

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٨٤. وابن دقماق، الجواهر الثمين، ج ٢، ص ٢٧٢.

(٢) ابن صمصري، الدرّة المضيئة، ص ١٨. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٨٤-٢٨٥. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٢١٤.

Walter, Ascensus Barcoach, part. 2, p. 153.

(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٨٦. وحكيم أمين السيد، قيام دولة المماليك، ص ٧٦.

(٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٨٦. وابن دقماق، الجواهر الثمين، ج ٢، ص ٢٧٢. وابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ٢، ص ٢٢٢. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٢١٦.

الأمراء اليلبغاوية بسلطنة الناصري، لكنه امتنع عن ذلك<sup>(١)</sup>، لإدراكه معارضة الأمير منطاش والماليك الأشرفية عليه، فاستقر الأمر على إعادة السلطان أمير حاجي ابن الأشرف شعبان إلى السلطنة، باعتباره صاحب الحق الشرعي في الدولة التي خلعه منها السلطان برقوق بغير حق. فاستدعوا السلطان أمير حاجي، وولي السلطنة، ولقب بالملك المنصور<sup>(٢)</sup>.

واستقر الأمير يلبغا الناصري أتاكاً ومدبراً للسلطنة<sup>(٣)</sup>، وبدأ في تتبع الماليك الجراكسة من أنصار السلطان برقوق، ونودي بالقاهرة «ومن ظهر من الماليك الظاهرية، فهو في حاله باق على إقطاعه، ومن اختفى منهم بعد ذلك حلّ ماله ودمه للسلطان»<sup>(٤)</sup>. وخصصت جائزة قيمة لمن يدل على مكان السلطان برقوق إن كان عامياً خلع عليه وأعطى ألف دينار، وإن كان جندياً يرقى إلى رتبة أمير عشرة في مصر، وإن كان أمير عشر يرقى إلى رتبة طبلخانة، وإن كان أمير طبلخانة يرقى إلى رتبة أمير مائة مقدم ألف. وهدد من أخفاه بالشنق<sup>(٥)</sup>.

وأخذت عساكر الأمير يلبغا الناصري من ماليك وتركمان في الاعتداء على العامة، والتعرض للنساء في الطرقات، وخطفهن من الحمامات، وسلب ثياب من انفردوا به، دون أن يتجاسر أحد على منعهم، وكثر اعتداء الزعر وإخافتهم

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٨٧. وابن دقماق، الجواهر الثمين، ج ٢، ص ٢٧٢. وصالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٢٣٢.

(٢) ابن خلدون، تاريخ، ج ٥، ق ٥٥، ص ١٤١٠. وابن الخطيب الناصرية، الدر المنتخب، ج ٢، ص ٤٢٠. وابن قاضي شهبه، تاريخ، ج ١، ص ٢٧٧. وابن حجر العسقلاني، الدر الكامنة، ج ٥، ص ٢١٧.

(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٣٢٠. والقاضي عبد الباسط، نيل الأمل، ج ١، ورقة ١٤٩ب.

(٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٣٢٠.

(٥) ابن مصري، الدرّة المضيئة، ص ١٩. وابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ٢، ص ٣٢٥.

للناس<sup>(١)</sup>. فأُسفت العامة على اختفاء السلطان برقوق وعبروا بقولهم: «راح برقوق وغزلانه، وجاء الناصري وثيرانه»<sup>(٢)</sup>، دلالة على سوء تصرفات الأمير يلبغا الناصري وأمرائه ومماليكه.

وجدُ الأمير منطاش في البحث عن السلطان برقوق الذي كان ما يزال يثير مخاوفه؛ فوجده عند رجل خياط في ١٣ جمادى الأولى سنة ٧٩١هـ / ١٢٨٨م، فأرسل إليه الجوباني، فأحضره وصعد به إلى القلعة وسجنه بقاعة الفضة<sup>(٣)</sup>. في حين جمع الأمير يلبغا الناصري كبار الأمراء وشاورهم في أمر السلطان برقوق، فاختلقت آراء الأمراء وانقسموا إلى فئتين: الفئة الأولى بزعامة الأمير منطاش - وهم الأكثرية - فاقترحوا قتل السلطان برقوق، أما الفئة الثانية التي يتزعمها الجوباني فقد أشاروا بحبسه. فاستحسن الناصري الرأي الثاني، غير أن الأمير منطاش اعترض على ذلك، وخوف الأمير يلبغا من خطورة إبقاء السلطان برقوق على قيد الحياة، فوافق على قتله، ولكن بعد أن يصل إلى الكرك ويحبس هناك، معللاً ذلك بأنه لم يفرق الإقطاعات والوظائف بسبب الاضطرابات، وتخوفه من الجراكسة التي انضمت إليه بعد الثورة على السلطان برقوق<sup>(٤)</sup>. واتفق كل من الناصري ومنطاش أن يكونا قوة واحدة، ويتولى السلطان أمير حاجي الحكم في الدولة دون تدخل من أحد الطرفين. ولكن الناصري لم يلتزم بما تمّ الاتفاق عليه مع منطاش واستبد بالحكم دون السلطان، ومنعه من الخروج، وقرب مماليكه اليلبغاوية، وأبعد المماليك الأشرفية<sup>(٥)</sup>.

(١) المقرئزي، السلوك، ج٢، ق٢، ص٦٢٨.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١١، ص٢٢٢.

(٣) ابن صمصري، الدرة المضيئة، ص٢٠. وابن بقماق، الجواهر الثمين، ج٢، ص٢٧٤. وابن حجر العسقلاني، أنباء الفجر، ج٢، ص٢٢٥.

Walter, Ascensus Barcoach, part. 2, p. 153.

(٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١١، ص٢٢٦-٢٢٧. وصالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص٢٢٢.

(٥) المصدر ذاته، ج١١، ص٢٢٦.

و حين أرسل الأمير يلبغا الناصري السلطان برقوق إلى الكرك في ٢٢ جمادى الآخرة، وسلمه إلى نائبها، أوصاه بالعناية بالسلطان برقوق والمحافظة عليه، واتفق معه على أنه إذا ثار منطاش عليه أن يفرج عن السلطان برقوق<sup>(١)</sup>. فلما وصل السلطان برقوق إلى الكرك أنزل بقاعة النحاس، وكان بالقلعة ابنه الأمير يلبغا الخاصكي - أستاذ السلطان برقوق - فقامت على خدمته، وتلطف به نائب الكرك حسب ما أوصاه الناصري، ووعده أن يخلصه<sup>(٢)</sup>، حسب تدبير الأمير الناصري الذي كان يتصرف في أمور الدولة فعلياً دون السلطان أمير حاجي الذي اكتفى من السلطنة باللقب فقط<sup>(٣)</sup>.

#### ٥ - اختلاف منطاش والناصرى على السلطة.

بدأت بوادر الخلاف بين الأمير منطاش ويلبغا الناصري على السلطة في شعبان ٧٩١هـ / ١٣٨٨م حين انقطع الأمير منطاش عن الصعود إلى القلعة متعللاً بالمرض<sup>(٤)</sup>. ولكن يبدو أن السبب الحقيقي في هذا التغير هو الطمع في الوصول إلى السلطة<sup>(٥)</sup>، ولاسيما بعد أن رأى منطاش عدم التزام الأمير يلبغا الناصري بما تم الاتفاق عليه من قبل واستبداده بالحكم، وتقريب معاليكه اليلبغاوية وإبعاد الممالك الأشرفية.

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٣٢٨.

(٢) ابن خلدون، تاريخ، ج ٥، ق ٥٥، ص ١٠٤١، ١٠٤٢. وابن قاضي شهبه، تاريخ، ج ١، ص ٢٧٨.

Walter, Ascensus Barcoach, part. 2, p. 153.

(٣) ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ٢، ص ٣٢١. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٢٣٢.

(٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٣٠. والقاضي عبد الباسط، نيل الأمل، ج ١، ورقة ١١٥٠.

(٥) ماير، تاريخ، ص ١١٢.

ولكن الأمير يلبغا الناصري تنبه إلى مكيدة منطاش ولم ينزل إلى عيادته، وبعث إليه الأمير الطُنْبُغا الجوباني - رأس نوبه كبير، فأساء منطاش التصرف وقبض على الجوباني، وضرب دواذره الأمير قرقماس ضرباً مبرحاً وعدداً من مماليكه<sup>(١)</sup>، وركب بعدد كبير من مماليكه إلى مدرسة السلطان حسن، ونهب الخيول التي على باب السلسلة، وأركبها لمماليكه الذين معه، وأمر الزعر بنهب بيت أقبغا الجوهري، واستولى على خيوله. وقد انضم إليه نحو خمسمائة مملوك من المماليك الأشرفية والظاهرية<sup>(٢)</sup>، وعدد كبير من العامة، وسمى معهم إلى تخليص برقوق<sup>(٣)</sup>. وشدّد الحصار على الاسطبل، ورمى عليهم بالنشاب<sup>(٤)</sup>.

عندئذ أمر الناصري والي القاهرة المنادة بالعامة بنهب مماليك الأمير منطاش، والقبض على من قدروا عليه، غير أن مماليك منطاش تمكنوا من التغلب على العامة، مما اضطر والي القاهرة إلى إغلاق أبواب القاهرة، واستمال منطاش العامة إلى جانبه بتوزيع الذهب عليهم مما جعلهم يتعصبون له، ويتفانون في خدمته بالتقاط النشاب الذي رماه أصحاب الناصري<sup>(٥)</sup>.

واستمر القتال بين منطاش، والناصرى، وأخذ أمراء الناصري بالإنضمام إلى منطاش، واحتفظ منطاش بكل أمير كان يأتيه في بيته، ويأخذ مماليكه ويقاوم بهم الناصري. فلما رأى والي القاهرة، ضعف موقف الناصري، خاف على نفسه واختفى. وفشلت محاولة أخرى للأمير يلبغا الناصري في نقب بيت منطاش،

(١) ابن مصري، الدرّة المضيئة، ص ٢٢-٢٤. وابن خلدون، تاريخ، ج ٥، ق ٥، ص ١٠٤٣.

(٢) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ٤، ص ٩٦. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٢٣٤، ٢٣٥.

(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٣٢.

(٤) حكيم أمين السيد، قيام دولة المماليك، ص ١٨.

(٥) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٦٤٢. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٣٢، ٢٣٤. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٢٣٦.

ومهاجمته من الخلف حين أرسل منطاش عدداً من مماليكه لقتال من حضر لذلك<sup>(١)</sup>. وساعد منطاش في السيطرة على القاهرة حسام الدين بن الكوراني<sup>(٢)</sup> الذي عينه الأمير منطاش والياً على القاهرة، وألزمه بجمع النشاب، فحمل إليه منه شيئاً كثيراً، ثم نادى في القاهرة بالأمان، والدعاء للأمير الكبير منطاش بالنصر، كما نادى بأن الأمير منطاش أبطل المكوس<sup>(٣)</sup>.

ولما ضعفت قوة الناصري، ولم يبقَ لديه إلا عدد قليل من المماليك، تغير الخليفة عليه، وبعث إلى منطاش يسأله في الصلح وإخماد الفتنة، فامتنع منطاش، وأظهر أنه في طاعة السلطان<sup>(٤)</sup>. وحين لم تُجد محاولات الخليفة في إقناع منطاش بالعدول عن محاربة الناصري<sup>(٥)</sup>، ركب الناصري بمماليكه لقتال منطاش، ولكن دون أن يسفر ذلك عن نصر أي من الطرفين<sup>(٦)</sup>. وتوالت الوقعات بينهما، وتمكنت عساكر منطاش من السيطرة على عساكر الناصري، وصارت العساكر تتحول عن الناصري إلى منطاش، والعامّة تمسك من تجده من مماليك الناصري، وترسله إلى الأمير منطاش بعد تجريد ما عليهم من الثياب<sup>(٧)</sup>.

(١) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٦٤٢.

(٢) حسام الدين بن الكوراني أحد أمراء الطليخانة، تولى منصب ولاية القاهرة. مات مخنوقاً بخزانة شمائل سنة ٧٩٣هـ/ ١٣٩٠م. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ١٢٣.

(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٣٥. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٢٣٧.

(٤) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٦٢٤. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٥٥. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٢٣٨، ٢٣٧.

(٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٣٦. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٢٣٨.

(٦) حكيم أمين السيد، قيام دولة المماليك، ص ٨٢.

(٧) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٦٤٦. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٣٨.

وتمكن الأمير منطاش من القبض على الأمير أحمد بن يلبغا وأصحابه، والأمير مأمور القلمطاوي، وسجنهما بقاعة الغضة بقلعة الجبل، ثم نقلهم إلى سجن الإسكندرية، وتتبع منطاش وأمراؤه الأمير يلبغا الناصري ومماليكه<sup>(١)</sup>. غير أن الناصري تمكن من الفرار، وملك منطاش الإسطبل السلطاني، وصعد إلى القلعة واجتمع بالسلطان أمير حاجي، وأظهر له الطاعة، فعينه السلطان حاجي أتابك للعساكر. وتمكن منطاش فيما بعد من الإمساك بالناصرى في سرىاقوس<sup>(٢)</sup>، وأرسله إلى سجن الإسكندرية<sup>(٣)</sup>.

#### ٦- عودة السلطان برقوق ثانية إلى السلطة.

بعد تخلص الأمير منطاش من الناصري في ٢٠ شعبان سنة ٧٩١هـ / ١٢٨٨م بتتبع المماليك الجراكسة بالقتل والنفي والسجن، وقرب مماليكه الأتراك، فأعاد الأمير حسام الدين بن الكوراني إلى ولاية القاهرة، وأمره بالتشديد على الجراكسة<sup>(٤)</sup>. وتزايدت مخاوف الأمير منطاش من المماليك الجراكسة حين أخلف عهده معهم في إطلاق سراح أستاذهم السلطان برقوق إن هو انتصر على الناصري، فضلاً عن توزيعه كل الإقطاعات في الدولة على مماليكه الأتراك، وقربهم إليه، ولم يوزع على أحد من المماليك الجراكسة الذين انضموا إليه إمرة أو إقطاعاً، مما أوغر صدورهم عليه<sup>(٥)</sup>. وليتمكن منطاش من التخلص من المماليك الجراكسة وتحركاتهم، فدبر مكيده لهم، وطلبهم إلى القلعة بحجة الإنفاق عليهم، وأغلق عليهم الباب.

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٤٠. وابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ٤، ص ٩٧.

(٢) سرىاقوس، بلدة في نواحي القاهرة، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ٣١٨.

(٣) ابن دقماق، الجواهر الثمين، ج ٢، ص ٢٧٥. وابن الخطيب الناصرية، الدر المنتخب، ج ١، ص ٢٨٩.

(٤) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٦٥٠. وابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ٢، ص ٣٣٥.

(٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٤٢. وابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ٢، ص ٣١٢. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٢٨٠.

وقبض على نحو مئتين منهم، واستولى على خيولهم، وقيدهم وسجنهم ببرج القلعة<sup>(١)</sup>، واستمر في تتبع المماليك الجراكسة بالنفي والسجن والقتل<sup>(٢)</sup>.

وحاول منطاش فرض الأمن والاستقرار في القاهرة، وأرسل يستدعي الأمراء الأشرافية من بلاد الشام إلى القاهرة. وأنعم على من وصل منهم بإمرة مائة وتقدمة ألف بمصر<sup>(٣)</sup>. غير أن ذلك لم يؤد إلى شيء من الأمن والاستقرار، بل ازدادت الحوادث في بلاد الشام بسبب اتفاق الأمير نعيم أمير العرب وسولي بن دلغادر على الخروج عن طاعة منطاش، ونهب حلب<sup>(٤)</sup>. بسبب تخلصه من الأمير يلبغا الناصري.

وعندما أحس منطاش باندلاع الثورة ضده من قبل المماليك الجراكسة والأتراك في بلاد الشام، حاول التخلص من السلطان برقوق سرأً، وأرسل شخصاً من أهل الكرك يدعى الشهابي أحمد البريدي<sup>(٥)</sup> إلى نائب الكرك، يأمره مشافهة بقتل السلطان برقوق، لكن نائب الكرك رفض تنفيذ الأمر، وكتب إلى منطاش يعتذر إليه من ذلك، وطلب منه إذناً خطياً من السلطان والخليفة. وحين حصل الأمير منطاش على إذن من السلطان والخليفة بقتل برقوق، ما طل نائب الكرك في قتله، وأنزل الشهابي أحمد البريدي في قاعة أخرى بالقلعة، وأعلم برقوق

(١) ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٢٤٢.

(٢) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٦٥٠. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٢٤٤.

(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٤٢.

(٤) المصدر ذاته، ج ١١، ص ٢٤٢. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٢٤٥.

(٥) الشهابي أحمد البريدي، أصله من الكرك قتل سنة ٧٩١هـ/١٣٨٨. وابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ٢، ص ٣١٢.

٢١٤. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٢٤٩.



بحضور رسول منطاش لقتله، وحلف نائب الكرك لبرقوق ألا يفعل به شيئاً<sup>(١)</sup>.  
 وحين تأكد الشهاب البريدي بان نائب الكرك يعاقل في قتل برقوق، قرر العودة  
 إلى مصر، غير أن كراهية أهل الكرك لشهاب البريدي، وحبهم لبرقوق. دفعهم إلى  
 قتل الشهاب البريدي أشنع قتلة وجروه إلى الباب وأخرجوا برقوق من السجن  
 وهم يدعون له بالنصر، وقالوا له: «دُسْ بقدمك عند رأس عدوك»<sup>(٢)</sup>. ثم بايعوه في  
 ٩ رمضان سنة ٥٧٩١هـ / ١٣٨٨م.

وبدأ برقوق عودته إلى السلطنة بتحسين الكرك فلما تسامع الأمراء  
 والماليك الجراكسة بخروج برقوق من السجن وتسلم الحكم بالكرك سارعوا  
 بالإنضمام إليه من مصر والشام مثل نائب صفد، ونائب حلب، كما انضم إليه عرب  
 نعيير، وعرب الكرك، وقدموا له الخيل والعساكر والمال<sup>(٣)</sup>. ويبدو أن بعض أعيان  
 الكرك خشوا من انتقام منطاش فاجتمعوا عند عماد الدين أحمد المقيري قاضي  
 الكرك، واتفقوا أن يقبضوا على برقوق، وأن يبلغوا مصر أنه لم يخرج إلا بإجماع  
 السفهاء، ليكون عذراً لهم عند السلطان أمير حاجي، وبعثوا ناصر الدين أحمد أخا  
 القاضي عماد الدين فأغلق باب المدينة<sup>(٤)</sup>. لكن برقوق تمكن من الخروج بمساعدة  
 علاء الدين أحد إخوة قاضي الكرك، واللاحق بمماليكه والعرب الذين انضموا  
 لنصرته خارج مدينة الكرك<sup>(٥)</sup>، وتوجه إلى غزة، حيث أوقع الهزيمة بنائبيها حسين

(١) ابن دقماق، الجواهر الثمين، ج ٢، ص ٢٧٦. وابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ٢، ص ٢٢٦. والغياثي، تاريخ، ص ٢٥٠.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٤٩، ٢٥٠. وابن قاضي شهبه، تاريخ، ج ١، ص ٢٨٥.

(٣) ابن مصري، الدرّة المضيئة، ص ٢٥. وابن دقماق، الجواهر الثمين، ج ٢، ص ٢٧٦. وابن قاضي شهبه، تاريخ، ج ١، ص ٢٨٦. وابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ٢، ص ٣١٢.

Walter, Ascensus Barcoach, part. 2, p. 159.

(٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٥٤. وابن الصيرفي، نزعة النفوس، ج ١، ص ٢٥٩.

(٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٥٥. وابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ٢، ص ٢٢٩. وابن الصيرفي، نزعة النفوس، ج ١، ص ٢٦٠.

ابن باكيش، والتقى بجنتمر نائب دمشق عند شقحب بالقرب من دمشق وألحق الهزيمة به<sup>(١)</sup>. ثم عاد والتقى بنائب غزة مرة أخرى، وتمكن من إلحاق الهزيمة به، والاستيلاء على ما بحوزته من السلاح والخيول والأثقال، ثم حاصر دمشق مرة أخرى، وتمكن من التغلب عليها رغم الإمدادات التي وصلتها<sup>(٢)</sup>.

وحين تواترت الأخبار الحقيقية عن موقف برقوق واستعداده لقتال الأمير منطاش في ١٥ ذي القعدة سنة ٧٩١هـ/ ١٢٨٨م اضطر منطاش إلى التجهيز مع السلطان أمير حاجي لقتال برقوق<sup>(٣)</sup>. وبسبب قلة توفر الأموال اللازمة للاستعداد للسفر؛ اضطر منطاش لمصادرة أموال الأيتام<sup>(٤)</sup>، وألزم بطريق النصاري في الإسكندرية بمائة ألف درهم، ورئيس اليهود بخمسين ألف درهم<sup>(٥)</sup>. وبسبب موت أعداد كبيرة من الخيول في الحرب وحاجة الأمير منطاش إليها للاستعداد للسفر، أمر بمنع الفقهاء والكتاب من ركوب الخيل والاستعاضة عنها بالبغال. واستولى على خيول وأكاديش الحمالين والطحانيين<sup>(٦)</sup>. للانتفاع بها في القتال.

وقبل مغادرة منطاش القاهرة استدعى الخليفة المتوكل على الله والعلماء واستصدر منهم فتياً لقتال برقوق تتضمن: «رجل خرج على الخليفة، والسلطان، وشق عصا الطاعة، وقتل شريفاً في الأشهر الحرام والبلد الحرام وهو محرم،

- (١) ابن دقماق، الجواهر الثمين، ج ٢، ص ٢٧٦. وابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج ٥، ص ٢١٧.
- (٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٥٦. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٢٦٠.
- (٣) ابن قاضي شهبه، تاريخ، ج ١، ص ٢٩٤. والسخاوي، ذيل دول الإسلام، ورقة ٩٧ب.
- (٤) ابن خلدون، تاريخ، ج ٥، ق ٥٥، ص ١٠٥٢، ١٠٥٣. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٣٦٢. وابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ٢، ص ٢١٤.
- (٥) ابن حجر العسقلاني، أبناء الفجر، ج ٢، ص ٢٤٤، ٢٤٥. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٣٥٩-٣٥٦. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٢٦٥.
- (٦) ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٢٦٥.

-يقصد صاحب مكة أحمد بن عجلان-، واستحل أخذ أموال الناس وقتل الأنفس»<sup>(١)</sup>،  
وأشياء أخرى، فكتب العلماء والقضاة بوجوب قتاله<sup>(٢)</sup>.

وتجهز منطاش، والسلطان المنصور حاجي والخليفة لقتال برقوق في ٢٢ ذي  
الحجة سنة ٧٩١هـ/١٣٨٨م، بعد أن قرر الأمير تكا الأشرفي<sup>(٣)</sup> والأمير قرادمرdash  
القشتمري<sup>(٤)</sup> في نيابة الغيبة في القاهرة<sup>(٥)</sup>، وعين الأمير صراي تمر بالإسطنبول،  
وجعل له أمر الولاية والعزل<sup>(٦)</sup>.

أما برقوق، فقد اتجه بعساكره إلى شقحب، وعندما تقدم منطاش بقواته  
والسلطان أمير حاجي والخليفة، رتب كل من برقوق ومنطاش قواتهما<sup>(٧)</sup>. والتقت  
العساكر الجركسية مع الأتراك في ١٤ محرم سنة ٧٩٢هـ/١٣٨٩م، وتمكن برقوق من  
أسر السلطان أمير حاجي، والخليفة المتوكل، والسيطرة على خزائن الأموال<sup>(٨)</sup>.  
والعصائب<sup>(٩)</sup> السلطانية والوقوف تحتها. واستخدم برقوق أسلوب الملاطفة مع  
السلطان أمير حاجي والخليفة ليجتذب أكبر عدد من عساكر منطاش. وحين رأى

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٣٥٩. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ٤١٧.

(٢) ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٢٦٦.

(٣) لم أشر له على ترجمة.

(٤) الأمير قرادمرdash القشتمري من كبار الأمراء اليلبغارية، مات مقتولاً بسحب قلعة الجبل سنة ٧٩٤هـ/١٣٩١م. ابن  
تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ١٢٤.

(٥) ابن خلدون، تاريخ، ج ٥، ق ٥، ص ١٠٥٢، ١٠٥٣. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٣٦٥.

(٦) ابن مصري، الدرّة المضيئة، ص ٢٦-٢٧. وابن قاضي شهبه، تاريخ، ج ١، ص ٢٩٥.

(٧) ابن خلدون، تاريخ، ج ٥، ق ٥، ص ١٠٥٢. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٣٦٧. وابن تغري بردي، المنهل  
الصابي، ج ٢، ص ٣١٤. والسخاوي، ذيل دول الإسلام، ورقة ١٩٩.

(٨) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٦٩٣.

(٩) العصائب هي راية كبيرة من الحرير الأصفر المطرز بالذهب عليها ألقاب السلطان واسمه. ترفع فوق رأس السلطان في  
الاحتفالات والمناسبات والحرب. القلقشندي، صبح الأمشي، ج ٤، ص ٧.

عساكر منطاش انضموا إلى برقوق تخلوا عن منطاش وانضموا إلى برقوق، حتى أصبح جيش برقوق نحو سبعة آلاف مملوك<sup>(١)</sup>. وبهذه الأعداد الكبيرة من المماليك تقدم برقوق نحو دمشق، وتمكن من إلحاق الهزيمة بالأمير منطاش<sup>(٢)</sup>.

وبعد أن انتصر برقوق على الأمير منطاش أقام في شقحب سبعة أيام ثم جمع من معه من الأمراء والأعيان بحضرة الخليفة والقضاة وأجبر السلطان أمير حاجي على التخلي عن السلطنة لعجزه عنها، وحكم القضاة بذلك، وبايعوا برقوق بالسلطنة. وبعد البيعة خلع السلطان برقوق الخلع على الخليفة والقضاة<sup>(٣)</sup>.

وبعد انتهاء السلطان برقوق من مراسم تسليم السلطة استعد للرحيل إلى القاهرة رغم بقاء حصار منطاش على دمشق؛ وذلك لعدة أسباب أهمها: تردي الأوضاع الاقتصادية وارتفاع الأسعار في دمشق<sup>(٤)</sup>، وانضمام عدد كبير من العرب إلى منطاش، ودعمهم له بعد زواجه من ابنة أمير العرب نعيم<sup>(٥)</sup>، فضلاً عن نصيحة كبار أمراء السلطان برقوق بعدم بقاءه في دمشق والتوجه إلى مصر باعتبارها مقر السلطنة حيث قالوا: «أنت سلطان مصر أم سلطان الشام؟ امض إلى مصر واجلس على تخت الملك، فتصير الشام وغيرها في قبضتك»<sup>(٦)</sup>. فتوجه السلطان برقوق إلى القاهرة وبصحبته المنصور أمير حاجي والخليفة والقضاة، وحين

- (١) المقرئ، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٦٩٤. وابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج ٥، ص ١٣٥.
- (٢) ابن حبيب، ذيل درة الأسلاك، ورقة ١٨٥. والإسحاق، أخبار الأول، ص ١٣٣.
- (٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٣٧١. وابن قاضي شهبه، تاريخ، ج ١، ص ٣٢٦.
- (٤) المقرئ، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٦٩٤-٦٩٥. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٣٧١.
- (٥) حكيم أمين السيد، قيام دولة المماليك، ص ٨٩.
- (٦) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٣٧١.

وصلوا قريباً من القاهرة في ١٤ صفر سنة ٧٩٢هـ / ١٣٨٩م، خرج الأعيان والعلماء للقائه<sup>(١)</sup>. وفرشت له شقق الحرير خارج التراب إلى باب السلسلة، فلما وصل السلطان برقوق إلى الشقق الحرير المفروشة، تنحى بفرسه عنها، وقدم المنصور حاجي، حتى مشى بفرسه عليها، ثم سار السلطان برقوق بجانبه خارجاً عن الشقق الحرير وكأن الموكب للمنصور حاجي، فوقع هذا من الناس موقعاً عظيماً، ورفعوا أصواتهم له بالدعاء لتواضعه في حال غلبته وقهره له وكون المنصور معه كالأسير، وصارت القبة والطير شعار السلطنة على رأس المنصور حاجي أيضاً، والخليفة أمامهما وقضاة القضاة بين يدي الخليفة. وعندما وصل السلطان برقوق إلى باب القلعة أدخل المنصور حاجي إلى داره بقلعة الجبل، وتفرغ السلطان برقوق بعد ذلك لشؤونه الخاصة<sup>(٢)</sup>. واستدعى السلطان برقوق الخليفة وقضاة القضاة وشيخ الإسلام سراج الدين البلقيني وكبار الأمراء، فجدد له الخليفة التفويض بالسلطنة، وشهد قضاة القضاة عليه بذلك وأقيمت التشاريف السلطانية على الخليفة، وكذلك ألبس الخليفة خلعة السلطنة للسلطان برقوق<sup>(٣)</sup>.

وحين استقر السلطان برقوق في السلطنة، أخذ في تثبيت سلطته في مصر والقاهرة بإعادة الأمن والهدوء والاستقرار إلى القلعة، واستدعى كبار الأمراء المسجونين في الإسكندرية ممن شاركوا في الثورة ضد السلطان برقوق كالأمير يلبغا الناصري، والطنبغا الجوباني، وعفا عنهم ووزع عليهم الوظائف لكسب ودّهم

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٢-٣. والسخاوي، ذيل نول الإسلام، ورقة ٢٩٩. والفيثاني، تاريخ، ص ٢٥٠. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٤٣١.

(٢) ابن صصري، الدرة المضيئة، ص ٦٠. السخاوي، ذيل نول الإسلام، ورقة ١٩٩. Pools. History of Egypt, p.p. 330-331.

(٣) المقرئ، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٧٠٥. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٤. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٢٩٥.

ولضمان عدم الانضمام إلى الأمير منطاش الذي ما زال ثائراً في دمشق<sup>(١)</sup>. كما قضى على الفتن والإشاعات الكاذبة التي كانت سبباً في إثارة الفرقة والخلاف بين الأمراء والمماليك، فسجن أحد معاليك الظاهرية بخزانة شمايل<sup>(٢)</sup>. وألقى القبض على الأمير يلبغا أحد أمراء العشرات وسمّره، ونودي عليه: «هذا جزاء من يرمي الفتن بين الأمراء»<sup>(٣)</sup>. وتخلص من المعارضين لحكمه، بالنفي والسجن والقتل<sup>(٤)</sup>، وقرب مماليكه الجراكسة<sup>(٥)</sup>. وبذلك عاد السلطان ثانية إلى الحكم يوم الإثنين سنة ٧٩٢هـ / ١٣٨٩م، وقامت دولة جديدة أغلب عناصر الجيش فيها من الأمراء والمماليك الجراكسة<sup>(٦)</sup>.

#### ٧- حركات أخرى:

لقد تعرضت دولة المماليك خلال فترة حكم السلطان برقوق الثانية للعديد من الفتن والثورات الداخلية. التي وجهت في غالبيتها ضد السلطان برقوق كحركة علي باي الخازندار<sup>(٧)</sup>، وثورات العربان.

(١) المقرئزي، السلوك، ج٢، ق٢، ص٧٠٦-٧٠٧، وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٢، ص٥-٦، وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج١، ص٢٩٦-٢٩٧.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٢، ص١٤.

(٣) المقرئزي، السلوك، ج٢، ق٢، ص٧١٩، وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٢، ص١٤.

(٤) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٤٣٦-٤٣٧.

(٥) ابن صصري، الدرّة المضيئة، ص٦٠، وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج١، ص٢٩٦.

(٦) حكيم أمين السيد، قيام دولة المماليك، ص٩٣.

Walter, Ascensus Barcoach, part. 2, p. 64.

(٧) علي باي الخازندار، أحد المماليك الجراكسة وهو أمير مائة مقدم ألف ورأس نوبة كبير في مصر خلال فترة حكم السلطان برقوق. مات مخنوقاً سنة ٨٠٠هـ / ١٣٩٧م. المقرئزي، السلوك، ج٢، ق٢، ص٩٠٧، وابن حجر العسقلاني، أنباء الفجر، ج٢، ص٣٨٥.

ففي ١٩ ذي القعدة سنة ٨٠٠هـ / ١٣٩٧م دبّر الأمير علي باي الخازندار لاغتيال السلطان برقوق بسبب اعتداء أحد خواص مماليك السلطان برقوق - وهو شاد شراب خاناته - على جارية من جواري الأمير أقباي الطرنطاي، وحين بلغ ذلك الأمير أقباي، قبض على المملوك وضربه ضرباً مبرحاً مما أغضب الأمير علي باي وشكاه للسلطان برقوق. ولكن السلطان برقوق لم يلتفت إلى شكايته<sup>(١)</sup>، وكان في اعتقاد الأمير علي باي الخازندار أن السلطان برقوق سوف يعاقبه. وحين لم يجد الأمير علي باي تجاوباً من السلطان برقوق، أظهر الأمير علي باي ما كان يخفيه من حقد على السلطان برقوق وقرر اغتياله بعد الانتهاء من فتح الخليج<sup>(٢)</sup> والعودة إلى القلعة. ولكن أحد مماليك السلطان برقوق اليلبغاوية اعترضه أثناء عودته إلى القلعة، وأعلمه أنه شاهد مماليك الأمير علي باي قد استعدوا للقتال، فكتم السلطان برقوق الخبر<sup>(٣)</sup>، وأرسل الأمير أرسطاي رأس نوبة إلى بيت الأمير علي باي يعلمه أن السلطان برقوق يريد زيارته، فلما أعلم الأمير علي باي بذلك اطمأن، ووقف أرسطاي على باب علي باي ينتظر قدوم السلطان برقوق. وحين بعث السلطان برقوق أرسطاي إلى الأمير علي باي أمر الجاويشية بالسكوت، وأنزل العصائب السلطانية التي كانت ترفع فوق رأس السلطان لإخفاء مكانه، وسار السلطان كأحد الأمراء حتى صار بينه وبين العصائب السلطانية مسافة كبيرة، ووصل بالقرب من دار الأمير علي باي، وأسرع في المسير مع الأمراء والمماليك باتجاه القلعة. وحين مر السلطان برقوق دون أن يشاهده الأمير علي باي<sup>(٤)</sup>، لتأخر العصائب السلطانية، والسنجق والجاويشية، اضطر الأمير علي باي للحاق

(١) المقرئزي، السلوك، ج٢، ق٢، ص٩٠٢-٩٠٤. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٢، ص٨٥. وابن قاضي شهبه، تاريخ، ج١، ص٦٦٣، ٦٦٥. وابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٥٠٥.

(٢) أنظر الفصل الخامس الحياة الاجتماعية (رفاء النيل).

(٣) المقرئزي، السلوك، ج٢، ق٢، ص٩٠٢-٩٠٤. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٢، ص٨٢-٨٣.

(٤) ابن حجر العسقلاني، أنباء الفجر، ج٢، ص٢٨٥-٢٨٦. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٢، ص٨٢-٨٤. والعيني، عقد الجمان (حوادث ٧٩٩-٨٢٠هـ)، ورقة ١١٠، ب، ١١١، ب.

بالسلطان برقوق ومعه نحو أربعين فارساً من مماليكه. ولكن السلطان برقوق دخل باب السلسلة وتحصن بالإسطبل السلطاني. فوقف الأمير علي باي بالقرب من الإسطبل تحت القلعة، ونزل إليه عدد من المماليك السلطانية لقاتلهم الأمير علي باي وقتل عدداً منهم، لكنه تمكن من الهرب بعد أن تفرق عنه مماليكه<sup>(١)</sup>. ثم ألقى القبض عليه وسجن بقاعة القصر في القلعة<sup>(٢)</sup>، ونهب العامة بيته<sup>(٣)</sup>. ثم أمر السلطان برقوق تشديد العقوبة على الأمير علي باي لمعرفة الأمراء والمماليك الذين شاركوا في محاولة اغتياله؛ غير أن الأمير علي باي لم يعترف على أحد ممن شارك من الأمراء والمماليك، فأخذ خارج القلعة وخنق هناك<sup>(٤)</sup>. وقد ترتب على قتل الأمير علي باي استياء من قبل الأمراء والمماليك الجراكسة، وكثر تخوفهم من السلطان برقوق خشية أن يكون الأمير علي باي قد ذكر أحداً من الأمراء أثناء التعذيب<sup>(٥)</sup>. وبذلك كشفت محاولة الأمير علي باي اغتيال السلطان برقوق عن موقف بعض الأمراء والمماليك الجراكسة من حكم السلطان برقوق وغيرت من سياسة السلطان برقوق الداخلية التي ركزت على الإكثار من المماليك الجراكسة في الدولة وجعل نواة البنية العسكرية من العنصر الجركسي بدليل عدم الالتفات إلى نصيحة زوجته - أرد - التي كانت دوماً تحذره من الإكثار من المماليك الجركسية وقوله: «الذي كنت أشرت به علي هو الصواب، ولكن هذا كان مقدراً ونرجو الله تعالى إصلاح الأمر من اليوم»<sup>(٦)</sup>. مدلاً بذلك على تغيير نهج سياسته الداخلية في عدم الاعتماد على عنصر معين في الدولة.

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٨٤-٨٥. والقاضي عبد الباسط، نيل الأمل، ج ١، ورقة ١٧٤ ب.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٥٠٥.

(٣) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٩٠٤-٩٠٥. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٨٥. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٥٠٦-٥٠٧.

(٤) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٩٠٧.

(٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٨٨. والسخاوي، وجيز الكلام، ج ١، ص ٢٢٠.

(٦) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٩٠٧. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٨٨.



كما تعرضت دولة المماليك للعديد من ثورات العربان في مصر وبلاد الشام، إما لدوافع سياسية أو اقتصادية، رغم اعتماد الدولة على العربان في حفظ الأمن والبلاد والقري<sup>(١)</sup>، وإقامة الجسور الخاصة بالري<sup>(٢)</sup>، وتزويد بعض مراكز البريد بالخيول في بداية كل شهر واستعادتها في آخر الشهر واستبدالها بغيرها<sup>(٣)</sup>. فالسلطان برقوق عين الأمير محمد بن عيسى شيخ عرب العائد وبرقة كاشفاً للجسور في الشرقية سنة ٧٨٨هـ / ١٢٨٦م بعد أن منحه إمرة طلخانة، وعين أخاه شيخاً على عرب العائد<sup>(٤)</sup>.

وحرصت دولة المماليك على تعيين أمراء للعربان في مختلف نيبات السلطنة في مصر، كالوجه القبلي في قوص والأشمونيين والبهنسي<sup>(٥)</sup>، وبلاد الشام كدمشق<sup>(٦)</sup>، وحلب<sup>(٧)</sup>، والكرك<sup>(٨)</sup>. وإشراكهم في الجيش المملوكي كقوة غير نظامية أثناء الحرب والفتن لكل فئة من العربان أمير. فكان أمير عرب الشرقية محمد بن عيسى<sup>(٩)</sup>، والوجه القبلي بزعامة هواره في الصعيد الأدنى، وبني عريب في الصعيد الأعلى<sup>(١٠)</sup>.

(١) علي طرخان، الجراكسة، ص ٧٦٧.

(٢) راجع الحياة الاقتصادية (الزراعة).

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٤٢٢.

(٤) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٥٤٤. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ١٢١.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٦٨، ٦٩.

Popper, Egypt and Syria, vol. 2, p. 75.

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢١٠.

(٧) المصدر ذاته، ج ٤، ص ٣٧.

(٨) المصدر ذاته، ج ٤، ص ٢٤٨.

(٩) المصدر ذاته، ج ٧، ص ١٧٦، ١٧٧.

(١٠) المقرئزي، البيان والإعراب، ص ٦٠. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٧، ص ١٧٨.

وجرت عادة سلاطين دولة المماليك تعيين أمراء العربان بتقليد شريف من السلطان في مصر<sup>(١)</sup>، بعد أن يخلع عليه تشریف أطلس، إذا كان حاضراً في مصر، أما إذا كان غائباً فيجهز التشریف إلى محل إقامته. كما يعين السلطان لكل طائفة من العربان كبيراً يقوم مقام الأمير في بقية نيابات السلطنة، تصدر إليه المكاتبات من قبل السلطان في مصر<sup>(٢)</sup>.

ورغم منح دولة المماليك الإقطاعات لبعض الأمراء العربان إلا أن ثوراتهم وتعدياتهم على مختلف أقاليم الدولة في مصر وبلاد الشام كانت شبه دائمة<sup>(٣)</sup>. ففي سنة ٧٨٥هـ / ١٢٨٧م أصدر السلطان برقوق مرسوماً يقضي فيه بعزل الأمير نعيم ابن حيار بن مهنا عن إمارة عرب آل مهنا، ومصادرة جميع أمواله وموجوداته بسبب كثرة الإغارة على نيابة حلب، وعين مكانه ابن أخيه عثمان بن قار<sup>(٤)</sup> في إمارة العرب. في حين طلب السلطان برقوق من الأمير يلغا الناصري نائب حلب آنذاك التوجه إلى الأمير نعيم والقبض عليه، لكن الأمير نعيم تمكن من الهرب، فاستولى الناصري على ثلاثين ألف بغير وسبى نساء نعيم<sup>(٥)</sup>.

أما في مصر فقد أغار سلام بن التركية وعدد كبير من العربان على نواحي الفيوم، وقاموا بنهبها. وانضم إليه إبراهيم بن البان وادعى أنه مبعوث من قبل الخليفة - وكان قد هرب من شكاوي الناس بسبب ظلمه- فجهز السلطان برقوق

(١) نص تقليد أحد أمراء العربان. ملحق رقم (١).

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٢، ص ٤٢١.

(٣) آشور، التاريخ الاقتصادي، ص ٢٧٢.

(٤) عثمان بن قار، أمير عرب آل فضل في الشام والعراق، (ت ٧٨٧هـ / ١٢٨٥م) شاباً. ابن حجر العسقلاني، أنباء الغر، ج ٢، ص ٢٠٤.

(٥) ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٧٢-٧٣.

أربعة من المماليك للقبض عليه. لكنه تمكّن من الهرب<sup>(١)</sup>. ولم تقتصر اعتداءات العربان في مصر وبلاد الشام على قتل الناس والاعتداء على أموالهم وأملاكهم وإنما تعدت السلطان برقوق نفسه حيث تمكّن أولاد الأمير عيسى بن مهنّا سنة ٧٩٥هـ/ ١٣٩١م من الاستيلاء على عدد كبير من جماله، وقتل نحو أربعة أشخاص<sup>(٢)</sup>، مما دفع عربان العيسوية إلى الهجوم على متولي قليوب في ١٨ ربيع الآخرة سنة ٧٩٦هـ/ ١٣٩٣م وجرح عدد من مماليكه انتقاماً لمقتل أولاد الأمير عيسى بن مهنّا<sup>(٣)</sup>.

أما أهم ثورات العربان التي هددت دولة المماليك في فترة حكم السلطان برقوق الثانية، فكانت ثورة الشريف جمال الدين محمود العنابي<sup>(٤)</sup> سنة ٧٩٦هـ/ ١٣٩٣م بالاشتراك مع شرف الدين محمود بن عيسى شيخ عرب العايد، وسبب هذه الثورة أن الشريف محمود العنابي أرسل كتاباً إلى الأمير موسى بن عيسى يطلب فيه أن يسمح لعربانه بالنزول قريباً من القاهرة، ليتمكن من الاستيلاء على السلطة بعد خروج السلطان برقوق إلى دمشق لمحاربة تيمورلنك، كما تضمن الكتاب اتفاق الشريف محمود العنابي مع عربان البحيرة والصعيد على الثورة ضد نواب السلطان برقوق وكشافه في مختلف مناطق مصر وقتلهم ونهب البلاد. وتمّ الاتفاق في حال نجاح الخطة أن يتولى الشريف محمود الخلافة<sup>(٥)</sup>. وأن يُعهد بالسلطنة إلى شخص يُتفق عليه<sup>(٦)</sup>.

(١) ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٧٦.

(٢) ابن قاضي شهبه، تاريخ، ج ٢، ص ٥١١.

(٣) ابن الفرات، تاريخ، ج ٩، ص ٢٨١.

Popper, Egypt and Syria, vol. 2, p.p. 75-76.

(٤) قدم مع السلطان برقوق من بلاد الشام بعد فراره من سجن الكرك، وقدمه على كثير من مماليكه، ورتب له ألف درهم في الشهر. ابن الفرات، تاريخ، ج ٩، ص ٢٧٦.

(٥) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٨٠٩، وابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ٢، ص ١٩٨.

(٦) ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ٢، ص ١٩٨.

ولكن كتاب الشريف محمود العنابي وقع بيد ابن الطبلابي والي القاهرة آنذاك، فأبلغ السلطان برقوق بالخطة، فأسرع السلطان بالقبض على الشريف محمود وشريكه، وأمر بعقوبتهما حتى يعترفا على من اشترك معهم في المؤامرة، فلم يعترفا بشيء سوى على عدد من المماليك الأتراك<sup>(١)</sup>. فأمر السلطان برقوق بقتل الشريف محمود العنابي وشريكه<sup>(٢)</sup>.

واستمرت تعديات العربان على مصر وبلاد الشام خلال سنة ٧٩٧هـ/١٣٩٤م بشكل دائم مهددة بذلك الأمن الداخلي للدولة. فقد ألقى السلطان برقوق القبض على عربان الفيوم وعشرين رجلاً ممن كانوا معه لقتلهم محمد وعمر ابني الأمير شادي في بلاد الشام<sup>(٣)</sup>، كما تمكن الأمراء والمماليك الذين توجهوا إلى الصعيد في ٢ رمضان سنة ٧٩٧هـ/١٣٩٤م من إلقاء القبض على نحو خمسمائة رجل من عربان الصعيد وسجنهم بخزانة شمائل<sup>(٤)</sup>. بسبب كثرة تعدياتهم على الناس.

وقبض الأمير أنواط اليوسفي كاشف الوجه البحري على حوالي سبعين رجلاً من عربان الزهور بسبب تعدياتهم الكثيرة على بعض مناطق الوجه القبلي في مصر، وتهديدهم أمن الطرق وسلامتها، وقيامهم بالإستيلاء على أموال التجار، والإعتداء على المسافرين، وقتل عدد كبير منهم، وقد أمر السلطان برقوق بتسميرهم على ألواح الخشب وقتلهم<sup>(٥)</sup>. وقد اتخذ السلطان برقوق اجراءات

(١) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٨١٠.

(٢) ابن الصيرفي، نزعة النفوس، ج ١، ص ٢٨٧.

(٣) ابن الصيرفي، نزعة النفوس، ج ١، ص ١٦٧.

(٤) المصدر ذاته، ج ١، ص ٤١١.

(٥) ابن القرات، تاريخ، م ٩، ج ٢، ص ٢٤٨.

متعددة لمنع اعتداءات العربان كتوزيع عدد كبير من أجناد الحلقة في مناطق الوجه البحري، والإقامة فيها. ويذكر ابن الفرات (ت ٨٠٧هـ/١٤٠٤م) : « أن الأمير كمُشْبِغا الحموي نائب الغيبة عرض حوالي مائتي جندي من اجناد الحلقة وأرسلهم إلى كاشف الوجه البحري ليقيموا عنده بسبب كثرة فساد العربان، فتوجهوا إلى الكاشف فقسّمهم إلى ثلاثة أماكن: فرقة في مُنية غمر في بنها، وفرقة في سنكلوم<sup>(١)</sup>. وأنشأ سوراً من اللُّبن حول دمنهور لحمايتها من تعديات العربان بعد فتنة عرب البحيرة<sup>(٢)</sup>. واتخذ السلطان برقوق إجراءات مماثلة في بلاد الشام وأصدر مرسوماً يقضي فيه بإبقاء العساكر في حماة حتى يتم تخزين الغلال في الأهراء<sup>(٣)</sup>، وأصدر بذلك مرسوماً شدد فيه على منع دخول العربان المناطق الزراعية قبل الانتهاء من جني المحاصيل بالقتل<sup>(٤)</sup>.

وبالرغم من الفتن والثورات المتعددة التي واجهت حكم السلطان برقوق البالغة نحو سبعة عشر عاماً إلا أنه تمكن من البقاء في الحكم والقضاء على مختلف هذه الثورات حتى اشتد عليه المرض في ١٣ شوال سنة ٨٠١هـ/١٣٩٨م. واستدعى الخليفة المتوكل على الله، وقضاة القضاة، وكبار الأمراء، وأعيان الدولة، وعهد بالسلطنة لأولاده من بعده، وهم: فرج وعبد العزيز وإبراهيم<sup>(٥)</sup>. وأوصى السلطان برقوق الخليفة وقضاة القضاة والأمراء، ألا يخالفوا أيّاً من تولى السلطنة من أولاده، وأن يكونوا كلهم معهم، وأن يظلّ جميع الأمراء في وظائفهم حسب

(١) المصدر ذاته، ٩م، ج ٢، ص ٢٦٢.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٧، ص ١٧٠.

(٣) ابن صصري، الدرّة المضيئة، ص ١٢٥-١٢٦. وابن قاضي شهبه، تاريخ، ج ٢، ص ٤٦٥.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٧، ص ٢٢٢. ولنظر ملحق رقم (١).

(٥) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٩٢٦-٩٢٧. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ١٠٢.

ترتيبه لهم، وأن يكون الأمير أيتمش البجاسي أتابك العساكر في الدولة لصغر سن الأمير فرج<sup>(١)</sup>.

وبعد وفاة السلطان برقوق في ١٥ شوال سنة ٨٠١هـ / ١٣٩٨م<sup>(٢)</sup>، بويع الأمير فرج بالسلطنة ولقب بالملك الناصر وعُقد له مجلس للوصاية برئاسة الأمير أيتمش البجاسي كما أوصى السلطان برقوق قبل وفاته، والأمير تغري بردي بن يشبغا أمير سلاح، والأمير بيبرس الدوادار ابن أخت السلطان برقوق، والأمير قطلوبغا الكركي، والأمير يلبغا السالمي، وسعد الدين إبراهيم بن غراب، وتقرر الخليفة المتوكل مسؤولاً عن جميع مجلس الوصاية<sup>(٣)</sup>.

#### ٨- العلاقات الخارجية لدولة المماليك في عهد السلطان برقوق.

تمتعت دولة المماليك في مصر وبلاد الشام في فترة حكم السلطان برقوق بمكانة متميزة، باعتبارها مركزاً للعالم الإسلامي، الذي يضم أغلب المقدسات الإسلامية في بلاد الشام والحجاز، فكثيراً من الدول المجاورة أخذت تطلب ود السلطان برقوق، رغبة في التمتع بحمايته. ففي سنة ٧٨٥هـ / ١٣٨٣م كتب نائب

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ١٠٤. وابن حجر العسقلاني، أنباء الفهر، ج ٤، ص ٢٦. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٤٩٤. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٥٢٥.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ١٦٨. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٤٩٥. والقاضي عبد الباسط، نيل الأمل، ج ١، ورقة ١١٧٧.

(٣) المقرئ، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٩٣٧. وابن حجر العسقلاني، أنباء الفهر، ج ٤، ص ٢٧-٢٨. والقاضي عبد الباسط، نيل الأمل، ج ١، ورقة ١١٧٧. وصالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٢٢٤.

سنجار<sup>(١)</sup>، ونائب تكريت<sup>(٢)</sup>، ونائب قيصرية<sup>(٣)</sup> إلى السلطان برقوق يطلبون منه أن يكونوا من مماليكه السلطانية، وأن يقرر لهم جوامك (رواتب) وعليق ولحم وكسوة وأضحية. رغبة في أن تكون نياباتهم تابعة للسلطنة المملوكية في مصر. فسارع السلطان برقوق إلى إعلان موافقته على مطالبهم، وبعث إليهم التقاليد والتشريف بذلك<sup>(٤)</sup>.

وعندما ازداد خطر تيمورلنك<sup>(٥)</sup> على الشرق سنة ٧٨٥هـ / ١٢٨٣م، واستولى على تبريز وسمرقند. وأرسل تيمورلنك إلى مجد الدين عيسى صاحب ماردين سنة ٧٩٥هـ / ١٢٩٣م يستدعيه عنده. اعتذر مجد الدين عيسى لتيمورلنك عن الحضور حتى يستشير السلطان برقوق، لكن تيمورلنك لم يقبل منه ذلك وقال: «ليس لصاحب مصر عليك حكم، ولأسلافك دهر بهذا الإقليم»، وأرسل إليه تيمورلنك خلعة وسكة ينقش بها الذهب والدنانير باسمه<sup>(٦)</sup>.

- (١) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٤٩٨. وابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ٢، ص ١٢٢. وابن الصيرفي، نزعة النفوس، ج ١، ص ٧٥.
- (٢) مدينة مشهورة من نواحي الجزيرة بالقرب من الموصل. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٣، ص ٢٦٢.
- (٣) بلدة مشهورة بين بغداد والموصل. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٨.
- (٤) وتسمى قيسارية وهي مدينة كبيرة في بلاد الروم، ومركز السلطنة السلجوقية. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص ٤٢٠. والقلقشندي، صبح الأعشى، ج ٥، ص ٣٢٤.
- (٥) تيمورلنك بن أيتمش بن زكلي بن طغريك، ولد سنة ٧٢٨هـ / ١٢٢٧م بقرية خواجا ايلغار منعمل كش أحد مدن ما وراء النهر. توفي سنة ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م. ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ٥، ص ٢٢١. والسخاوي، وجيز الكلام، ج ١، ص ٢٨٠.
- (٦) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٧٨٨. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٤٢. وابن الصيرفي، نزعة النفوس، ج ١، ص ٢٦٢-٢٦٣.

وحين بعث مجد الدين صاحب ماردين رسالة إلى السلطان برقوق يعلمه فيها بما جرى بينه وبين تيمورلنك، وصل أحد رسل البلاد الشرقية إلى مصر، وأخبر السلطان برقوق بأن تيمورلنك قتل صاحب شيراز شاه منصور، وبعث برأسه إلى بغداد، وأرسل إلى السلطان أحمد بن أويس خلعة وسكة<sup>(١)</sup>، ليسهل على تيمورلنك الاستيلاء على بغداد<sup>(٢)</sup>. فلبس السلطان أحمد بن أويس الخلعة وطاف بها في شوارع بغداد وضرب السكة باسم تيمورلنك<sup>(٣)</sup>.

لكن السلطان أحمد بن أويس فوجئ باقتراب تيمورلنك من الجهة الغربية لبغداد. فأسرع السلطان أحمد بقطع الجسر من هذه الناحية، وهرب من بغداد بأمواله وأولاده وقت السحر. فبعث تيمورلنك عساكره بقيادة ابنه لملاحقة ابن أويس فأدركه بالحلّة<sup>(٤)</sup> ونهب أمواله وسبى نسائه، وتمكن ابن أويس من الهرب واللجوء إلى نيابة حلب<sup>(٥)</sup>.

وحين علم السلطان برقوق من نائب حلب بهرب السلطان أحمد ولجوءه إلى حلب، كتب السلطان برقوق إلى نائب حلب بإكرامه، والقيام بما يليق به. وعندما طلب السلطان أحمد بن أويس إلى السلطان برقوق يستأذنه في الحضور إلى مصر. جمع السلطان برقوق كبار الأمراء لاستشارتهم في أمر ابن أويس، فاتفق على السماح لابن أويس بالحضور إلى مصر<sup>(٦)</sup>، ندب السلطان برقوق أحد الأمراء

(١) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٧٨٨. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٣٦٢.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٤٢.

(٣) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٧٨٨. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٣٦٢.

(٤) الحلّة: مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد كانت تسمى الجامعين. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٢، ص ٢٩٤.

(٥) ابن مصصري، الدرّة المضيئة، ص ١٤. والمقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٧٨٨. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٤٤.

(٦) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٤٦.



لاستقبال ابن أويس، وجهز معه نحو ثلاثمائة ألف درهم فضة؛ للنفقة على ابن أويس في الطريق إلى مصر<sup>(١)</sup>. وحين وصل ابن أويس إلى خارج القاهرة في ١٧ ربيع الأول سنة ٧٩٦هـ/ ١٣٩٣م خرج السلطان برقوق من قلعة الجبل لملاقاته واستقبله استقبالاً حاراً ووعده بالعودة إلى ملكه، ثم خلع عليه السلطان برقوق قباء حرير وقدم له فرساً من الخيول السلطانية بسرج ذهب<sup>(٢)</sup>.

أما تيمورلنك فقد أرسل هدية عن طريق رسله إلى السلطان برقوق، فلما وصلت الرسل إلى حدود الديار المصرية، أمر السلطان برقوق بقتل الرسل. وتبين أن هدية تيمورلنك تتضمن ابن وزير بغداد، وابن قاضيها، وابن محتسبها، وليس فيهم سوى مملوك واحد<sup>(٣)</sup>. حينئذ بدأ السلطان برقوق بالنفقة على المماليك في ٣ ربيع الآخر سنة ٧٩٦هـ/ ١٣٩٣م استعداداً لقتال تيمورلنك<sup>(٤)</sup>. وبينما السلطان برقوق في ذلك بعث تيمورلنك كتاباً إلى السلطان برقوق يتهدده ويتوعده إن لم يعلن تبعيته له، واتهمه بظلمه لرعيته وأخذ الرشوة من الحكام. كما أنكر على السلطان قتل رسله السابقين. وطالبه برد الجواب سريعاً<sup>(٥)</sup>.

- 
- (١) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٧٨٩. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٤٥. وابن الصيرفي، نزعة النفوس، ج ١، ص ٣٦٥.
- (٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٤٦.
- (٣) ابن الفسرات، تاريخ، ج ٢، ص ٣٦٢. والمقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٧٩٧. وابن الصيرفي، نزعة النفوس، ج ١، ص ٣٧٣.
- (٤) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٨٠٢. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٤٩.
- (٥) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٨٠٤-٨٠٥. وابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ٢، ص ٣٢٠-٣٢٢. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٥١-٥٢.

أما السلطان برقوق فكتب إلى تيمورلنك جواباً على رسالته بدأه بالبسملة، ثم أخذ في نقد ماجاء في كتاب تيمورلنك من تهديد واتهام له، واتهم تيمورلنك بالكفر، وأنه لن يعلن الطاعة له، كما قلّل من قوة تيمورلنك، ووصف عساكره بالأغنام الضعيفة<sup>(١)</sup>.

وحين انتهت استعدادات السلطان برقوق في ٣ ربيع الآخر سنة ٧٩٦هـ/ ١٢٩٣م رحل من القاهرة بعساكره متجهاً إلى دمشق لقتال تيمورلنك، فوصلها في ٢٨ ربيع الآخر، وأقام بها ينتظر قوات تيمورلنك. ومن هناك أرسل السلطان برقوق عساكره إلى البلاد الحلبية بقيادة الأمير كمشبغا الحموي وعدد من الأمراء لمواجهة أي هجوم محتمل من قبل تيمورلنك<sup>(٢)</sup>.

أما السلطان أحمد بن أويس فقد كتب له السلطان برقوق يأمره بالتوجه إلى مملكته ببغداد في أول شعبان سنة ٧٩٦هـ/ ١٢٩٣م وزوّده بجميع ما يحتاج إليه من المال والخيول والسلاح، وكتب له تقليداً بسلطنة بغداد<sup>(٣)</sup>. وأبدت الدول المجاورة لدولة المماليك استعدادها لتقديم العون للسلطان برقوق، فأرسل طقتمش صاحب بلاد القبجاق أن يكون عوناً للسلطان برقوق في حروبه مع تيمورلنك<sup>(٤)</sup>، كما أرسل بايزيد العثماني رسله يعرض رغبته بالتحالف مع السلطان في مواجهة المغول<sup>(٥)</sup>، كما قدمت رسل القاضي برهان الدين أحمد صاحب سيواس بأنه في طاعة السلطان برقوق وأنه يترقب ورود مرسوم سلطاني من السلطان برقوق يسمح به بالتوجه إلى جهة يعينها السلطان برقوق، عند قدوم تيمورلنك. فرد السلطان برقوق على الجميع بالشكر والثناء<sup>(٦)</sup>.

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٥٢. وابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ٢، ص ٢٢٥.

(٢) المصدر ذاته، ج ١٢، ص ٥٦.

(٣) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٨١٤-٨١٥. والخطيب، المغول، ص ٧٠.

(٤) ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٢٨٧.

(٥) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٨١٧.

(٦) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٨١٧. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٥٩.

ويبدو أن الاستعدادات الكبيرة التي قام بها السلطان برقوق وتحالف الدول المجاورة له، جعلت تيمورلنك يتراجع عن مهاجمة بلاد الشام والانسحاب شيئاً فشيئاً إلى بلاده. فلما تأكد السلطان برقوق من انسحاب تيمورلنك عن حدود بلاد الشام، عاد بعساكره من حلب في ٢٧ محرّم سنة ٧٩٧هـ / ١٣٩٤م إلى دمشق. ولم يبق بها إلا أياماً قليلة، ثم توجه إلى الديار المصرية<sup>(١)</sup>.

وقد ارتبطت دولة المماليك بعلاقات متميزة مع دول أفريقيا، مثل بلاد النوبة، والحبشة<sup>(٢)</sup>، ودولة الحفصية في تونس، ودولة بني عبد الواد في تلمسان، ودولة المرينيين بفاس. وقد توثقت العلاقات بين دولة المماليك ودولة المغرب بتبادل الهدايا في المناسبات المختلفة كالحج، لأن مصر واقعة على طريق الحج المغربي، فضلاً عن مكانة دولة المماليك، ودورها في الإشراف على الأراضي المقدسة في الحجاز، وارتباطها بعلاقات تجارية مع دول المغرب عبر ميناء الإسكندرية<sup>(٣)</sup>.

وتوطدت العلاقات بين دولة المماليك ودول المغرب منذ أن وصل ابن خلدون إلى مصر سنة ٧٨٤هـ / ١٢٨٢م قادماً من المغرب، إذ عمل على توثيق العلاقات بين دولة المماليك وبلاده. وحين احتاجت دولة المماليك للخيول العربية الأصيلة لتمييزها بالقوة وشدة التحمل في أوقات الحرب، كاتب ابن خلدون سلاطين بلاد المغرب لانتقاء أفضل الخيول وإرسالها إلى السلطان برقوق. إذ يذكر ابن خلدون: « ليس عندنا في المغرب تحفة تطرف بها ملوك الشرق إلا الجياد العربية »<sup>(٤)</sup>. وحين رغب ابن خلدون في جلب أولاده إلى مصر سنة ٧٨٨هـ / ١٣٨٦م، وتمسك سلطان تونس بأولاد ابن خلدون رغبة منه في عودة ابن خلدون إليه، أرسل إليه السلطان

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٦١. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٣٩٢.

(٢) ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ١٤٥. وإبراهيم طرخان، الجراكسة، ص ١٤٢.

(٣) ابن خلدون، تاريخ، ج ٥، ص ٥٧٠-٥٧١.

(٤) المصدر ذاته، ج ٥، ص ٥٧٠-٥٧١.

برقوق كتاباً يرجوه فيه أن يرسل أولاد ابن خلدون وهدية تتضمن عدداً كبيراً من الخيول العربية. غير أن السفينة التي كانت تقل أولاد ابن خلدون غرقت بالقرب من الإسكندرية، وغرق معها أولاد ابن خلدون والخيول العربية ونجا رسول سلطان تونس ليخبر بهذه الكارثة فأكرمه السلطان برقوق وأحسن إليه وأعادته إلى تونس بهدية من الثياب الفاخرة السكندرية<sup>(١)</sup>.

وحيث احتاج السلطان برقوق سنة ٨٠٠هـ / ١٣٩٧م إلى شراء عدد من الخيول العربية الأصيلة بسبب ازدياد خطر تيمورلنك على الحدود الشرقية لدولة المماليك. أرسل الأمير قطلوبغا الخليي أمير أخور إلى بلاد المغرب بهدية من قماش وطيب وقسي إلى سلطان فاس، وتلمسان، وتونس. وحين عاد الأمير قطلوبغا إلى مصر جلب معه نحو مائة وعشرين فرساً. فقد أرسل سلطان فاس ثلاثين فرساً، وبغلتين منهما ثمانية بقماش مذهب وثلاثين سيفاً مرصعاً بالذهب، وثلاثين مهمازاً وغير ذلك. وأرسل سلطان تلمسان أربعاً وعشرين فرساً، وبغلتين، وأربعة وعشرين سيفاً مذهباً، وأربعة عشر مهمازاً. وبعث سلطان تونس ست عشرة فرساً بسروجها<sup>(٢)</sup>.

أما الحجاز فقد استمرت تبعيتها لدولة المماليك بعد تولي السلطان برقوق السلطنة، إذ لقب السلطان برقوق بسلطان مصر والحجاز<sup>(٣)</sup>. وجرت العادة أن يولي سلطان مصر على مكة أمير من أهلها<sup>(٤)</sup>. يدين له بالولاء والطاعة حتى يضمن

(١) ابن خلدون، تاريخ، ج ٥، ص ٥٧٠-٥٧١. ويوسف غوانمة، ابن خلدون، ص ١٤٦-١٤٧.

(٢) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٨٩٩.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٦، ص ١٢٠.

(٤) المصدر ذاته، ج ٤، ص ٢٧٩-٢٨٠.

سلامة طرق التجارة في البحر الأحمر<sup>(١)</sup>. فحين امتدى كبيش بن عجلان على أبناء عمه وسمل أعينهم، عزله السلطان برقوق من منصب إمارة مكة، وعين الشريف عنان بن مغماس مكانه<sup>(٢)</sup>.

وفي سنة ٧٩٤هـ / ١٢٩١م استدعى السلطان برقوق الشريفان عنان بن مغماس وعلي بن عجلان أميراً مكة من الحجاز إلى القاهرة، وعين الأمير علي بن عجلان في منصب إمارة مكة دون شريك له<sup>(٣)</sup>. وأنعم عليه بأربعين فرساً، وعشرة مماليك أتراك، وثلاثة آلاف إردب قمح، وألف إردب شعير، وألف إردب فول، وفرس بسرج ذهب، وسمح له باستخدام مئة فارس من المماليك<sup>(٤)</sup>. ومنع الشريف عنان بن مغماس من السفر إلى مكة بعد أن خصص له ما يكفيه من النفقة<sup>(٥)</sup>. وحين قامت أحد القبائل في مكة بالثورة على الشريف علي بن عجلان وقتله سنة ٧٩٧هـ / ١٢٩٤م، ولي السلطان برقوق الشريف حسن بن عجلان إمارة مكة، وأرسل معه الأمير يلغا الساعي إلى مكة ليقلده الإمارة<sup>(٦)</sup>.

كما اتبع السلطان برقوق سياسة الودّ مع الدولة الرسولية في اليمن، لحرصه على تأمين الطرق التجارية والبرية والبحرية المؤدية إلى دولة المماليك عبر مصر وبلاد الشام. ووثقت أواصر هذه العلاقة بتبادل الهدايا بين الدولتين<sup>(٧)</sup>.

- (١) حكيم أمين السيد، قيام دولة المماليك، ص ١٥٥. وسعيد صالح، التجارة الداخلية، ص ١٢٤-١٢٥.
- (٢) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٥٥٠. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ١٣٩.
- (٣) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٥٥٠. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ١٣٩.
- (٤) ابن الفرات، تاريخ، ج ٢، ص ٣٠٨. والمقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٧٧٠.
- (٥) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٧٧٢.
- (٦) المصدر ذاته، ج ٢، ق ٢، ص ٨٤١. وانظر ابن الفرات، تاريخ، ج ٣، ص ٤١٢-٤١٤.
- (٧) محمد عبد العال، بنو رسول، ص ٤٣٠-٤٣١.

فبعث السلطان برقوق إلى السلطان الملك الأشرف ممهد الدين إسماعيل بن العباس بن رسول سنة ٧٨٩هـ / ١٢٨٧م هدية برفقة عدد من صناع الحرير السكندريين<sup>(١)</sup>، وبعث في السنة التالية هدية أخرى فيها من أصناف المأكولات والملبوسات، والتحف والخيول والبغال وكلاب الصيد<sup>(٢)</sup>. وفي صفر سنة ٨٠٠هـ / ١٣٩٩م أرسل السلطان برقوق إلى السلطان الملك الأشرف هدية استقبلها السلطان الأشرف بنفسه في مدينة زبيد، فكان يوم وصولها يوماً مشهوداً. وتضمنت الهدية ثلاثين مملوكاً واثنى عشر رأساً من الخيول، وعدة جوارٍ من الروميات والأرمنيات، وطبيباً ماهراً من يهود مصر<sup>(٣)</sup>. وقد عمل السلطان الأشرف ممهد الدين إسماعيل ابن العباس بن رسول على توطيد أواصر الصداقة والمودة مع السلطان برقوق، وتبادل معه الرسائل والهدايا تعبيراً عن الصلات الحسنة التي ترتبط بها الدولتان. فبعث السلطان الأشرف سنة ٧٩٩هـ / ١٣٩٦م بهدية إلى السلطان برقوق تحتوي على عشرة خدام طواشية وأربعة عبيد، وست جوارٍ، وسيف محلى بالذهب، وعدة رماح، وشطرنج، وألف مثقال مسك، وألف مثقال عنبر خام، وبهار وبلغ أخرى<sup>(٤)</sup>. وقد بلغ مكانه السلطان برقوق لدى السلطان الملك الأشرف ممهد الدين إسماعيل لما وصل الخبر إلى اليمن بوفاته سنة ٨٠٢هـ / ١٣٩٩م<sup>(٥)</sup> أقيمت صلاة الغائب على روحه بجامع مدينة زبيد يوم الجمعة وأمر السلطان الأشرف بقراءة القرآن على روح السلطان برقوق سبعة أيام في كل من مدينة زبيد وتعز وعدن<sup>(٦)</sup>.

إلا أن علاقات الود والصداقة هذه ارتهنت بين الدولتين ببقاء سلطان اليمن يعمل على ضبط التجارة في ميناء عدن الذي أصبح مركزاً تجارياً هاماً يربط بين الشرق والغرب<sup>(٧)</sup>.

- 
- (١) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج ٢، ص ١٨٦.
  - (٢) المصدر ذاته، ج ٢، ص ١٦٨.
  - (٣) المصدر ذاته، ج ٢، ص ٢٩٤-٢٩٥.
  - (٤) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٨٧٤-٨٧٥، وابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ٢، ص ٢٢٥، وابن إياس، بدائع الزمور، ج ١، ق ٢، ص ٤٨٧.
  - (٥) كانت وفاة السلطان برقوق سنة ٨٠١هـ / ١٣٩٩م.
  - (٦) الخزرجي، العقود اللؤلؤية، ج ٢، ص ٢٠٦.
  - (٧) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٩٦٠.

أما الحبشة فقد حرص السلطان برقوق على علاقات الود معها للهدف نفسه الذي حرص عليه في علاقاته مع اليمن وهو تأمين سلامة الطرق التجارية، بتبادل الهدايا، فقد بعث داود بن سيف بن أرعد هدية مع أحد مبعوثيه إلى السلطان برقوق يحتوي على واحد وعشرين جماً محملة بمختلف طرائف الحبشة من جملةها قدور ملئت بذهب صنع على هيئة حمص<sup>(١)</sup>.

كما حرصت الحبشة على توطيد علاقات الود مع دولة الماليك لارتباط الكنيسة الحبشية بالكنيسة القبطية في الإسكندرية. فقد اعتاد ملوك الحبشة إرسال الرسل والهدايا إلى السلطان المملوكي من أجل أن يبعث إليهم مطران من النصارى الأقباط اليعاقبة في الإسكندرية ليتولى رئاسة الكنيسة الحبشية؛ ولأن المطران الذي هو حاكم شريعتهم في جميع بلادهم من أهل النصرانية لا يقام إلا من الأقباط اليعاقبة بالديار المصرية<sup>(٢)</sup>.

في حين تميزت العلاقات بين دولة الماليك وبلاد النوبة الواقعة على جنوبي مصر<sup>(٣)</sup> بعلاقات مضطربة بعد أن سيطر بنو الكنوز على حكمها<sup>(٤)</sup>. ففي سنة ٧٨٧هـ / ١٣٨٥م هاجم أولاد الكنز أسوان، وقتلوا عدداً كبيراً من سكانها، وفر إليها، مما اضطر السلطان برقوق إلى تعيين حسين بن قرط التركماني والياً على أسوان<sup>(٥)</sup>. ولم يكتفِ بنو الكنز بالإغارة على أسوان، وإنما تحالفوا مع عربان الصعيد من هواره وابن غريب سنة ٧٩٨هـ / ١٣٩٤م وقاموا بنهبها<sup>(٦)</sup>.

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٤٦.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٥، ص ٢٠٩.

(٣) المصدر ذاته، ج ٥، ص ٢٦٤.

(٤) إبراهيم طرخان، الجراكسة، ص ١٤٨.

(٥) المقرئ، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٥٢٤. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ١١٩. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٣٦٢.

(٦) المقرئ، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٨٦٠. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٤٣١. وابن حجر العسقلاني، أنباء الفهر، ج ٢، ص ٢٩٢-٢٩٣.

كما ارتبطت دولة المماليك بعلاقات تجارية مع دول أوروبا، ولا سيما البندقية، التي تمكنت من احتكار تجارة البحر المتوسط، وطرد منافستها جنوه<sup>(١)</sup>. وقد تمكن السلطان برقوق من تحقيق أرباح كبيرة من خلال تحالفه مع البندقية، واحتكار التجارة في البحر المتوسط. وقد نتج عن ذلك تعرض سواحل البحر المتوسط إلى العديد من الهجمات من قبل جنوه وقبرص وقطلونيا ورودس<sup>(٢)</sup>. ففي سنة ٧٨٥هـ / ١٣٨٣م هاجم الجنويون سواحل صيدا وبيروت، ونزلوا على شواطئها<sup>(٣)</sup>. مما دفع السلطان برقوق إلى إرسال الأمير إينال اليوسفي أتابك دمشق لقتالهم. غير أن الجنويين تمكنوا من الهرب بمساعدة الفرنج المقيمين في بيروت<sup>(٤)</sup>.

كما جرت محاولات أخرى من قبل جنوه للإغارة على سواحل البحر المتوسط؛ ففي سنة ٧٨٥هـ / ١٣٨٣م حاول الجنويون تهريب البضائع في مراكبهم من ميناء الإسكندرية، والتخلص من دفع الضرائب المستحقة عليها، غير أن القوات المملوكية المقيمة في الإسكندرية تمكنت من إحباط محاولتهم وملاحقتهم في البحر المتوسط، لكنهم تمكنوا من الهرب، مما دفع نائب الإسكندرية إلى مصادرة أموال الفرنج في الإسكندرية<sup>(٥)</sup>. كما هاجم الفرنجة بلدة الطينة<sup>(٦)</sup> وقتلوا رجلاً واحداً وأسروا سبعة آخرين ثم باعوه في ميناء دمياط<sup>(٧)</sup>.

وعندما ازدادت هجمات الجنويين على سواحل البحر المتوسط أمر السلطان برقوق في ربيع الآخرة سنة ٧٨٧هـ / ١٣٨٥م بصناعة عدد من السفن الحربية لغزو جنوه. ولكن قبل أن تغادر هذه السفن إلى جنوة اشتبكت مع أحد المراكب الجنوبية على ساحل دمياط وتمكنت القوات المملوكية من قتل نحو عشرة جنويين وأسروا

(١) حكيم أمين السيد، قيام دولة المماليك، ص ١٤٩.

(٢) المرجع نفسه، ص ١٤٩.

(٣) صالح بن يحيى، تاريخ بيروت، ص ٢٢٩، والسخاوي، وجيز الكلام، ج ١، ص ٢٦٥.

(٤) ابن حجر العسقلاني، أنباء الفخر، ج ٢، ص ١٢٧، ١٢٨، والسخاوي، وجيز الكلام، ج ١، ص ٢٦٥.

(٥) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٤٨٧-٤٨٨، وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٦٢.

(٦) بليدة صغيرة بين الفرما وتنس، ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص ٥٦.

(٧) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٤٩٠، وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٦٥.



نحو ثلاثين منهم. وبعد الانتصار الذي حققه المماليك على الجنوبيين في دمياط وصلت السفن إلى ميناء بولاق في جمادى الآخرة سنة ٧٨٧هـ / ١٢٨٥م بالأسرى والغنائم، وعرضوا على السلطان برقوق في اليوم التالي<sup>(١)</sup>.

ورغم هجمات الجنوبيين المتكررة على سواحل البحر المتوسط غير أن العلاقات التجارية لم تنقطع مع دولة المماليك. فقد سمح السلطان الظاهر برقوق بإقامة قناصل تجارية للجنوبيين في الإسكندرية<sup>(٢)</sup>. لذا لجأ الجنوبيون إلى مصالحة السلطان برقوق وقدموا له الهدايا<sup>(٣)</sup>. ولم يتأخر السلطان برقوق في قبول الهدايا منهم حرصاً على استمرار العلاقات التجارية في البحر المتوسط<sup>(٤)</sup>.

على أن الجنوبيين عادوا وانتهزوا فرصة إنشغال السلطان في إخماد ثورة يلبغا الناصري ومنطاش سنة ٧٩٠هـ / ١٢٨٨م وهاجموا بعض السفن التي كانت تحمل أخت السلطان برقوق وجماعة من أقاربه من بلاد الجركس إلى الإسكندرية وأسروا من بها. مما أثار السلطان برقوق، وأمر بالقبض على جميع الجنوبيين في الإسكندرية وصادر أموالهم<sup>(٥)</sup>.

ثم جرت عدة مراسلات بين الجنوبيين والسلطان برقوق أسفرت في نهاية الأمر إلى إخلاء الجنوبيين سبيل جميع الأسرى المماليك، وقدم بالأسرى الجراكسة تاجر السلطان برقوق الخاص الخوaja علي بن مسافر في ٢٦ ذي الحجة سنة ٧٩٠هـ / ١٢٨٨م<sup>(٦)</sup>.

(١) ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ٢، ص ١٨٧. والسخاوي، وجيز الكلام، ج ١، ص ٢٧٢.

(٢) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٤٨٧-٤٨٨، ٥٨١.

(٣) المصدر ذاته، ج ٢، ق ٢، ص ٥٤٦. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ١٢٤.

(٤) حكيم أمين السيد، قيام دولة المماليك، ص ١٥٠.

(٥) ابن الغرات، تاريخ، م ٩، ج ٢، ص ٣٢. والمقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٥٨١. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ١٧٤.

(٦) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٥٨٥. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ١٧٨.

## الفصل الثاني

### تطور النظام الإداري في عهد السلطان برقوق

أ- وظائف أرباب السيوف (الوظائف العسكرية).

١- نيابة السلطنة.

٢- الأتابكية.

٤- إمرة مجلس.

٥- إمرة سلاح.

٦- إمرة أخورية.

٧- الدوادارية.

٨- الحجوبية.

٩- أمير جاندار.

١٠- الإستادارية.

١١- الجاشنكيرية.

١٢- الخازندارية.

- وظائف أخرى.

ب- وظائف أرباب الاقلام (الوظائف الديوانية).

١- الوزارة.

٢- ديوان الإنشاء.

- ٣- نظر الخاص.
- ٤- نظر الجيش.
- ٥- نظر الدواوين.
- وظائف أخرى.
- ٦- الإدارة المحلية في نيابات السلطنة في مصر.
  - أ- ولاية القاهرة.
  - ب- والي القرافة.
  - ج- والي القلعة.
- ٧- إدارة نيابات السلطنة في مصر.
  - أ- نيابة الإسكندرية.
  - ب- نيابة الوجه البحري.
  - ج- نيابة الوجه القبلي.
- ج- الوظائف الدينية.
  - ١- قضاء القضاة.
  - ٢- الإفتاء.
  - ٣- وكالة بيت المال.
  - ٤- الحسبة.
  - ٥- وظائف أخرى.
- ٦- الإدارة المحلية لنيابات السلطنة في بلاد الشام.
  - د- بيع الوظائف في عهد السلطان برقوق.
  - هـ- الخلاصة.

## تطور النظام الإداري في عهد السلطان برقوق

كانت الوظائف في دولة المماليك تقسم إلى ثلاثة أقسام : وظائف أرباب السيوف (العسكرية)، والوظائف الديوانية (أرباب الأقاليم)، والوظائف الدينية. ومع أنه قبل ذلك لم يكن هناك حد فاصل بين الوظائف الديوانية والدينية؛ لأن أغلب الموظفين سواء كانوا إداريين أو دينيين، كانوا يمارسون النوعين دون تفرقة؛ غير أنه في فترة حكم دولة المماليك أصبح هناك نوع من التمييز بين الوظائف الديوانية والدينية. فالتنظيمات الإدارية في دولة المماليك مقتبسة عن النظم الإدارية في الدولة الأيوبية التي جمعت بين التنظيمات الإدارية الفاطمية من جهة والسلجوقية من جهة أخرى.

فالنظام الإداري في دولة المماليك أصبح أكثر مركزية عما كان عليه من قبل، بسبب طبيعة سلاطين المماليك العسكرية. فقد عرفت دولة المماليك دواوين عرفت باسم الدواوين السلطانية. ومفردها ديوان، وهي كلمة فارسية تعني المكان الذي تحفظ فيه سجلات الدولة الرسمية التي أصبحت فيما بعد تدل على المكان الذي يعمل فيه أرباب الأقاليم، ثم أطلقت على جميع فروع الإدارة في الدولة<sup>(١)</sup>.

### أ- وظائف أرباب السيوف (العسكرية).

١- نيابة السلطنة: تعد نيابة السلطنة الوظيفة الأولى في دولة المماليك وتقسم إلى رتبتين: الأولى نائب السلطنة في مصر والأخرى نيابة الغيبة. ونائب السلطنة ينوب عن السلطان في جميع أمور الدولة<sup>(٢)</sup>. ويسمى بالنائب الكافل، وكافل الممالك الإسلامية تمييزاً له عن نواب الممالك الشامية<sup>(٣)</sup>.

(١) عبد المنعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك، ص ٥٠.

(٢) العمري، التعريف، ص ٦٥. والعمري، مسالك الأبصار، ص ٥٥.

(٣) العمري، مسالك الأبصار، ص ٥٥. والمقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٢١٥. والسيوطي، حسن المحاضر، ص ١٢.

ويتمتع نائب السلطنة بنفس الصلاحيات التي يقوم بها السلطان من تعليم على التقاليد والتواقيع<sup>(١)</sup> والمناشير<sup>(٢)</sup>، وغير ذلك من الأمور المتعلقة بالدولة. وكان يقيم بدار النيابة بقلعة الجبل التي بناها السلطان المنصور قلاوون سنة ٦٨٧هـ/١٢٨٨م<sup>(٣)</sup>.

وكان نائب السلطنة يلقب بنائب السلطنة المعظمة، وكافل الممالك الشريفة الإسلامية، الأميري الأمري. ويعلل العمري تلقيب نائب السلطنة بالأميري الأمري، وجمعه بين النيابة والكفالة، فيذكر «فأما كتابته في ألقابه الأميري والأمري» فليست بشيء سوى المبالغة في التعظيم، أما جمعه بين النيابة والكفالة فلأنه مسؤول عن كفالة الممالك في مصر وبلاد الشام ومختلف الممالك التابعة لدولة الممالك<sup>(٤)</sup>. لذلك فإن جميع نواب السلطنة في بلاد الشام تراجع نائب السلطنة في مصر في مختلف الأمور المتعلقة في نياباتهم كما يراجعون السلطان<sup>(٥)</sup>.

لذلك يسمى نائب السلطنة بالسلطان المختصر أو السلطان الثاني في الدولة<sup>(٦)</sup>.

- (١) التواقيع: خط الخليفة أو السلطان أو الوزير الذي يكتب في حواشي القمصن. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١١، ص ١١٤.
- (٢) المناشير: ما يكتب للأمرء والجند بما يجري في روايتهم من ديوان الإقطاع. العمري، التعريف، ص ٨٨.
- (٣) المقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٢١٤.
- (٤) العمري، التعريف، ص ٦٥-٦٦، ومسالك الأبحار، ص ٥٥. والقلقشندي، صبح الأعشى، ج ٦، ص ٥٠-٦٣.
- (٥) Popper, Egypt and Syria, vol. 1, p. 96.
- (٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١١، ص ١١٣. والخالدي، المقصد الرفيع، ورقة ١٣٧.

أما في دولة المماليك الثانية فلم يطرأ تغيير على منصب نائب السلطنة عما كان عليه في دولة المماليك الأولى، فحين تولى السلطان الظاهر برقوق منصب السلطنة سنة ٧٨٤هـ / ١٢٨٢م. عين الأمير سودون الشبخوني في منصب نائب السلطنة في مصر<sup>(١)</sup>. ومن تتبع المصادر التاريخية المعاصرة لفترة حكم السلطان برقوق يتبين اختفاء منصب نيابة السلطنة من مصر بعد استعفاء الأمير سودون الشبخوني من منصبه كنائب للسلطنة في صفر سنة ٧٩٧هـ / ١٢٩٤م<sup>(٢)</sup>. ويبدو أن السبب في تراجع السلطان برقوق عن إبقاء منصب نائب السلطنة هو عدم ثقته بالأمراء والمماليك، وسعيهم المستمر في الوصول إلى منصب السلطنة، وإطلاع السلطان على مختلف أمور الدولة. فكان نائب السلطنة يتمتع بصلاحيات إدارية متعددة، فهو يحكم في كل الأمور التي يحكم فيها السلطان، كالجلوس للحكم بين الناس<sup>(٣)</sup>، ومراجعة السلطان إذا أمر بشيء يخالف المصلحة العامة، وتفقد أحوال الرعية، والنظر في القرى والغلات، وتوصيل الحقوق إلى مستحقيها، وتولية المناصب، كالوزارة والقضاء وكتابة السر، ونظر الجيش<sup>(٤)</sup>، وتعيين فقيه في كل قرية لتعليم أهلها الأمور الدينية<sup>(٥)</sup>، والضرب على يد المفسدين من أصحاب البدع والخرافات وكف شرهم عن المسلمين<sup>(٦)</sup>. ومراقبة الدواوين<sup>(٧)</sup>، وتحديد الأسعار في فترات القحط والغلاء<sup>(٨)</sup>، وتطبيق الأحكام الشرعية ومعاونة حكام الشرع،

(١) المقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٢١٥. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ٢، ص ٢٢٢.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ١٥١.

Popper, Egypt and Syria, Vol. 1, p. 90.

(٣) السبكي، معيد النعم، ص ٢٥-٢٦. والقلقشندي، صبح الأعشى، ج ١١، ص ٧٦.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١١، ص ٣٣. والخالدي، المقصد الرفيع، ورقة ١٢٤ب.

(٥) ابن الغرات، تاريخ، م ٩، ج ٢، ص ٢٤٥. والقلقشندي، صبح الأعشى، ج ١١، ص ٩٠.

(٦) السبكي، معيد النعم، ص ٢٥-٢٦. والقلقشندي، صبح الأعشى، ج ١١، ص ٧٦.

(٧) المصدر ذاته، ص ٢٧. وابن شاهين، زبدة كشف المالك، ص ١١٢.

(٨) ابن الغرات، تاريخ، م ٩، ج ٢، ص ٣٨٧. والمقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٨١٨.

والإشراف على البلاد وعمارتها، ومساعدة محصلي أموال الدولة كالجزية والخراج والزكاة، وإقامة العدل، والنظر في إقطاع من مات من الجند وإقطاعه لولده إن كان يصلح لذلك، وتنفيذ ما يصدر إليه من مراسيم السلطان<sup>(١)</sup>، واستقبال الرسل الوافدة إلى الدولة<sup>(٢)</sup>، والنظر في أمور البريد<sup>(٣)</sup>.

ولنائب السلطنة صلاحيات عسكرية كاستخدام الجند للقضاء على الفتن<sup>(٤)</sup>، وتجهيز الجند للقتال<sup>(٥)</sup>، والخروج على رأس التجاريد<sup>(٦)</sup> لمحاربة الخارجين عن الطاعة<sup>(٧)</sup>، وكان له الحق في عقد المعاهدات وإبرامها<sup>(٨)</sup>.

أما منصب نيابة الغيبة، فهي من المناصب الهامة في الدولة. فنائب الغيبة يتولى الحكم في الدولة إذا غاب السلطان ونائب السلطنة عن مصر<sup>(٩)</sup>. حيث يقوم بمهام السلطان وصلاحياته عند خروج السلطان على رأس الجيش في مهمة خارج مصر، أو للصيد<sup>(١٠)</sup>. كتأديب الخارجين على الدولة<sup>(١١)</sup>، وحفظ الأمن، والدفاع عن قلعة

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١١، ص ٩٠. والمقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٤٩٢.

(٢) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٥٢٤. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ١٠٦.

(٣) المقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٢١٥.

(٤) المصدر ذاته، ج ٢، ص ٢١٦. والسيوطي، حسن المحاضرة، ص ١٢٠. وابن خلدون، تاريخ، ج ١، ص ٤٢٤.

(٥) ابن الفرات، تاريخ، ج ٩، ص ٢٠٠. والمقرئزي، السلوك، ج ٤، ق ١، ص ٤١.

(٦) التجاريد: القوات العسكرية التي ترسل لمحاربة الخارجين عن طاعة الدولة ولا يكون السلطان في مقدمتها.

(٧) المقرئزي، السلوك، ج ٤، ق ١، ص ١٤٨.

(٨) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٦، ص ٦١. وانظر كرافولسكي، العرب وإيران، ص ١٣٢.

(٩) المصدر ذاته، ج ٤، ص ٢٨-٢٩.

(١٠) المصدر ذاته، ج ٤، ص ٢٨.

الجبيل<sup>(١)</sup>، ومنع المفاسد. فقد منع الأمير كمشبغا سنة ٧٩٢هـ / ١٣٨٠م خروج النساء في مصر في الأعياد إلى الترب والخروج إلى المتنزهات إلى النيل من أجل الفرجة. وهدد من خرجت بالقتل<sup>(٢)</sup>.

وكذلك من صلاحيات نائب الغيبة الحكم بين الناس<sup>(٣)</sup>، وتعيين الأمراء في الوظائف<sup>(٤)</sup>، كتعيين والي القاهرة<sup>(٥)</sup>، والمحافظة على النظافة<sup>(٦)</sup>، وتحديد أسعار الفلوس<sup>(٧)</sup>.

٢- الأتابكية: إحدى وظائف أرباب السيوف، ويسمى صاحبها بأتابك العساكر، وهو مصطلح تركي مركب من لفظين: (أتا) ويعني الأب. (وبك) ويعني السيد أو الأمير، فيصبح معناها الأمير الأب أو أبو الأمراء، وهو أكبر الأمراء المقدمين في الدولة بعد نائب السلطنة في مصر<sup>(٨)</sup>. وهو لقب فخري. وأول من لقب به نظام الملك وزير ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي حين فوض إليه السلطان ملكشاه تدبير المملكة سنة ٤٦٥هـ / ١٠٧٢م<sup>(٩)</sup>. ومنصب أتابك العساكر ليس له وظيفة

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٣٠٠. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٨٠٧.

(٢) المقرئ، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٧٥١. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٣٠.

(٣) ابن حجر العسقلاني، أنباء الفهر، ج ٤، ص ٢٢٥. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ٢، ص ٣١٠. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٦٠٦.

(٤) ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ٢، ص ٢٢٦.

(٥) المصدر ذاته، ج ٢، ص ٣٦٢.

(٦) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٢٤٩.

(٧) ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ٢، ص ٢٤٩.

(٨) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٨. والخالدي، المقصد الرفيع، ورقة ١٢٤ب. وابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١١٢.

(٩) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٨.



رسمية في الدولة ترجع إلى حكم أو أمر أو نهي، وغايته رفعة المحل وعلو المقام<sup>(١)</sup>. ثم طرأ تغيير على منصب أتابك العساكر حين تولى الأمير شيخون العمري<sup>(٢)</sup> هذا المنصب سنة ٧٥٦هـ / ١٣٥٥م، وسمي (بالأمير الكبير)، وصار منصب أتابك العساكر وظيفه رسمية في الدولة يلبس متوليها خلعة من السلطان<sup>(٣)</sup>.

وحين أصبح منصب أتابك العساكر من الوظائف الرسمية في الدولة اتسعت صلاحيات أتابك العساكر وسيطر أغلب أتابكة العساكر على السلطة، واستأثروا بالحكم دون السلطان. ومن الشواهد التاريخية على ذلك: سيطرة الأمير شيخون العمري على السلطة دون السلطان الناصر حسن، حيث كان السلطان الناصر حسن لا يتصرف في أمور الدولة دون مشاورة الأمير شيخون العمري<sup>(٤)</sup>.

وبعد مقتل السلطان الناصر حسن، أصبح الأمير يلبغا العمري أتابك العساكر صاحب الكلمة في الدولة، حيث عين الأمير محمد بن المنصور حاجي سلطاناً، ولقبه بالملك المنصور وعمره نحو أربع عشرة سنة<sup>(٥)</sup>، وصار الأمير يلبغا العمري مدبراً لأمور السلطنة<sup>(٦)</sup>، يولي من يريد ويعزل من يريد، وذلك بسبب انغماس السلطان محمد بن حاجي بالملذات<sup>(٧)</sup>.

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٨. والخالدي، المقصد الرفيع، ورقة ١٢٤ب.

(٢) شيخون بن عبد الله الناصري أتابك العساكر، من كبار أمراء الناصر محمد بن قلاوون (٧٥٨هـ / ١٣٥٦م). ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ٣٢٤-٣٢٥.

(٣) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١١٤. والمقريزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٦٦١. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ٣٠٢.

(٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ١٦٤. والمقريزي، السلوك، ج ٣، ق ١، ص ٩.

(٥) المقريزي، السلوك، ج ٢، ق ١، ص ٦٤. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ٥٨٠.

(٦) المقريزي، السلوك، ج ٣، ق ١، ص ٦٥. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٤.

(٧) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٦-٧. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ١، ص ٥٩٢-٥٩٣.

وعندما تولى السلطان علي بن الأشرف شعبان السلطنة استأثر الأمير برقوق أتابك العساكر بالحكم دون السلطان علي بن شعبان حتى تمكن من الوصول إلى السلطنة<sup>(١)</sup>.

أما في فترة حكم السلطان الظاهر برقوق فقد حاول بعض أتابكة العساكر الوصول إلى السلطنة كالأمير يلبغا الناصري الذي ثار ضد السلطان برقوق سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٨م<sup>(٢)</sup>، وانضم إليه الأمير تمربغا الأفضلي المعروف بمنطاش بعد أن عينه السلطان برقوق أتابك للعساكر خلفاً للأمير يلبغا الناصري مما أدى إلى عزل السلطان الظاهر برقوق من السلطنة سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٨م<sup>(٣)</sup>.

وفي سنة ٨٠٠هـ / ١٣٩٧م طرأ تغيير آخر على منصب أتابك العساكر في مصر حين أضاف السلطان برقوق نظر البيمارستان المنصوري<sup>(٤)</sup> إلى أتابك العساكر. واستمر نظر البيمارستان مع كل من يلي الأتابكية في مصر<sup>(٥)</sup>.

٣- رأس نوبة: من وظائف أرباب السيوف، وموضوعها الإشراف على المماليك السلطانية، وفض المنازعات بينهم، وكان عدد أمراء رأس نوبة النوبة في دولة المماليك الأولى أربعة أمراء، واحد أمير مائة مقدمة ألف وثلاثة أمراء برتبة طبلخانة<sup>(٦)</sup>. أما في فترة حكم السلطان الظاهر برقوق وجزء من حكم السلطان

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٠، ص ١٩٤.

(٢) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٦٢٢.

(٣) المصدر ذاته، ج ٣، ق ٢، ص ٦٥٩.

(٤) بناء السلطان المنصور قلاوون بخط بين القصرين في القاهرة سنة ٦٨٣هـ / ١٢٨٤م. المقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٤٠٦.

(٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٧٩. والمقرئزي، السلوك، ج ٤، ق ٢، ص ٨٩٧. وابن الصيرفي، نزفة النفوس، ج ١، ص ٤٦٢.

(٦) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٦٦٠. والقلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٨-١٩.

الناصر فرج بن برقوق أطلق على رأس نوبة نوب الأمراء لقب أتابك؛ حتى يضاهاى منصب أتابك العساكر (الأمير الكبير) رتبة ومكانة. وزاد في إقطاعه حتى صار إقطاعه يساوي إقطاع أتابك العساكر<sup>(١)</sup>، وذلك للحد من سلطة أتابك العساكر في الدولة. أما في فترة حكم السلطان الناصر فرج فقد تزايد عدد رؤساء نوبة النوب إلى سبعة أمراء<sup>(٢)</sup>.

٤ - إمرة سلاح: إحدى وظائف أرباب السيوف. وأصل موضوعها حمل سلاح السلطان عند الخروج إلى القتال والاحتفالات والمناسبات، وهو مقدم على السلاح دارية من الممالك السلطانية، والمسؤول عن السلاح خانا السلطانية التي تحتوي على الأسلحة الخاصة بالسلطان، وما يستعمل منها من أسلحة أو يقدم إليها<sup>(٣)</sup>. لذلك أعطي أمير السلاح مرتبة ورتبة أعلى في فترة حكم السلطان برقوق، حيث كان قبل فترة السلطان الظاهر برقوق أقل مرتبة من أمير مجلس من حيث الرتبة والمكانة<sup>(٤)</sup>.

٥ - إمرة مجلس: ويتولاها أمير برتبة أمير مجلس، فهو يتولى أمور مجلس السلطان، ويشرف على الأطباء والكحالين (أطباء العيون)، وتولاها الأمير قُطْلِقْتَمَر<sup>(٥)</sup>.

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٣٧.

(٢) Popper, Egypt and Syria, vol. 1, p. 91.

(٣) السبكي، معيد النعم، ص ٢٤. والمقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٢٢٢. والقلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٩. والسيوطي، حسن المحاضرة، ج ٢، ص ١٢١.

(٤) Popper, Egypt and Syria, vol. 1, p. 91-92.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٩. والمقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ١٢-١٧.

٦- إمرة أخورية: من وظائف أرباب السيوف، وهي كلمة فارسية تعني المعلق أو المذود، وموضوعها الإشراف على الإسطبلات السلطانية والخيول. ويتولاها أمير مائة مقدمة ألف، ويساعده ثلاثة أمراء برتبة طبلخانة وعدد غير محدد من أمراء العشرات والجند. ونحو أربعين مملوكاً من الممالك الكتابية<sup>(١)</sup>، وتكون إقامة أمير أخور بالإسطبلات السلطانية<sup>(٢)</sup>.

٧- الدوادارية: إحدى الوظائف العسكرية في دولة المماليك، ويتولاها موظف يسمى الدوادار. والدوادارية لقب مركب من لفظين الأول عربي وهو (دواة) والثاني فارسي وهو (دار) وتعني الصاحب أو المسك، فيصبح معناها صاحب الدواة أو ممسك الدواة، وموضعها تبليغ الرسائل عن السلطان، وإبلاغ عامة الأمور، وتقديم القصص إليه، والمشاورة فيمن يحضر لمقابلته، فضلاً عن تقديم البريد، وأخذ توقيع السلطان على عامة المناشير والتواقيع والكتب الصادرة من السلطان<sup>(٣)</sup>، وتنفيذ أمر من يحكم عليه بالقتل بأمر من السلطان، والتوقيع على الوثائق الرسمية الصادرة عن دواوين الدولة<sup>(٤)</sup>.

وكان يتولى منصب الدوادارية في بداية حكم دولة المماليك الأولى أمير عشرة أو أمير طبلخانة، وفي بعض الأحيان أمير مائة مقدمة ألف. فلما تولى السلطان الأشرف شعبان بن حسين بن محمد بن قلاوون السلطنة، ولي الدوادارية

(١) المماليك الكتابية: وهم ممالك صفار السن يتم إدخالهم إلى الطباق لتعلم القراءة والشريعة الإسلامية والفروسية. أنظر البقلي، التعريف بمصطلحات الصبح، ص ٢٢٧.

(٢) المقريني، الخطط، ج ٢، ص ٢٢٢. والقلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٩. والخالدي، المقصد الرفيع، ورقة ١٢٥. Popper, Egypt and Syria, vol. 1, p. 92.

(٣) السبكي، معيد النعم، ص ٢٥. والمقريني، الخطط، ج ٢، ص ٢٢٢. والقلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٩. والسيوطي، حسن المحاضرة، ج ٢، ص ١٢١.

(٤) Popper, Egypt and Syria, vol. 1, p. 92.

أحد كبار أمراء المائة مقدمة ألف، وحين تولى السلطان برقوق السلطة اقتدى بالسلطان الأشرف شعبان وعيّن الأمير يونس الدوادار في منصب الدوادارية برتبة أمير مائة مقدمة ألف، وعندما عاد إلى السلطنة ثانية منح الدوادار صلاحيات أوسع كالإشراف على الشؤون المالية، والبريد، والحكم في المنازعات، وتعيين الموظفين وعزلهم<sup>(١)</sup>.

٨- الجوبية: وهي من وظائف أرباب السيوف، وموضوعها الحكم بين الأمراء والجند، تارة بنفسه، وتارة أخرى بمراجعة نائب السلطنة في مصر إن وجد، وعرض الجند، وتقديم من يزد إلى السلطان والاستئذان إليهم. وقد بلغ عدد الحجاب في فترة حكم السلطان برقوق خمسة حجاب بعد أن كانت أربعة حجاب<sup>(٢)</sup>. وأصبحت وظيفة الجوبية سنة ٧٨٤هـ/ ١٢٨٢م أرفع مكانة ورتبة من إمرة سلاح<sup>(٣)</sup>، وتقدم إمرة سلاح على إمرة مجلس كما تقدم في إمرة مجلس.

٩- أمير جاندار: من وظائف أرباب السيوف، وموضوعها الاستئذان على دخول الأمراء للخدمة عند السلطان، والدخول أمامهم إلى الديوان، وتقديم البريد مع الدوادار وكاتب السر، كما يتولى تغرير أو قتل من يأمر السلطان بتغريره أو قتله، والإشراف على الزردخاناه المخصصة للإعتقالات التي لا تطول مدة المعتقل فيها، إما بتعجيل قتله أو إخلاء سبيله، فضلاً عن مرافقة السلطان في السفر. وقد جرت العادة أن يتولى وظيفة أمير جاندار أميران: أحدهما أمير مائة مقدمة ألف، والآخر أمير طبليخانة<sup>(٤)</sup>.

- 
- (١) المقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٢٢٢. والمقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٧٠٦. والقلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٠.
- (٢) العمري، مسالك الأبحار، ص ٥٦. وابن قاضي شهبه، تاريخ، ج ٢، ص ٩١. والمقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٤٨٠. والقلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٠.
- (٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٢٧.
- (٤) العمري، مسالك الأبحار، ص ٥٧. والمقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٢٢٢. والقلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢١. والسيوطي، حسن المحاضرة، ج ٢، ص ١٢١. وعبد المنعم ماجد، نظم نولة سلاطين المالك، ص ٤٨-٤٩.

١٠- الاستادارية: إحدى وظائف أرباب السيوف، وموضوعها الإشراف على البيوت السلطانية من المطابخ والنشرب خاناة والحاشية والغلمان، والمشى في طلب السلطان، والحكم في غلمان السلطان وباب داره، وهو المسؤول عن الجاشنكيرية، والتصرف التام في استدعاء ما يحتاج إليه كل من في بيت السلطان من النفقات والكسوة، وكذلك الممالك السلطانية<sup>(١)</sup>.

وفي سنة ٧٩٧هـ/ ١٣٩٤م طرأ تطور على وظيفة الاستادارية أو ديوان المفرد، ويتولى الإشراف عليه موظف يسمى (الاستادار)، وناظر يسمى ناظر الاستادارية أو ناظر ديوان المفرد<sup>(٢)</sup>. ويتولى الإشراف على الشؤون المالية الخاصة بالسلطات، وعليق ورواتب ممالিকে. ويطلق عليه اسم استادار العالية<sup>(٣)</sup>.

١١- الجاشنكيرية: وهي من وظائف أرباب السيوف، وموضوعها الإشراف على طعام السلطان وتذوقه مع الاستادار، ويقف الجاشنكير على مائدة السلطان مع الاستادار، ويكون كبيرهم من الأمراء المقدمين في الدولة<sup>(٤)</sup>.

١٢- الخازندارية: وموضوعها الإشراف على خزائن الأموال السلطانية من نقد وقماش وغير ذلك، ويتولاها موظف يسمى خازندار برتبة أمير طبلخاناة، أو أمير مائة مقدمة ألف<sup>(٥)</sup>.

(١) السبكي، معيد النعم، ص ٢٦. والمعري، مسالك الأبحار، ص ٥٨. والمقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٢٢٢. والقلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٠. والسبوطي، حسن المحاضرة، ج ٢، ص ١٣١.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٢، ص ١٢٥.

(٣) Popper, Egypt and Syria, vol. 1, p. 93.

(٤) والمقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٤٧٨.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٢.

(٦) المقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٢٢٣.

وهناك مجموعة وظائف أخرى من أرباب السيوف مثل: شدّ الشراب خاناه التي تُعنى بالشراب خاناه السلطانية وما يعمل إليها من السكر والمشروب والفواكه وغير ذلك، ويديرها موظف يسمى شدّ الشراب خاناه برتبة أمير مائة تقدمة ألف أو أمير طبليخاناة واستادارية الصحبة التي تشرف على المطبخ السلطاني، والإشراف على الطعام، والمشي أمام السلطان، والوقوف معه على مائدة الطعام. ويتولى هذه المهمة أمير عشرة. وتقدمة الماليك للإشراف على الماليك السلطانية، ولا يكون متوليها إلا من الخدام، بإمرة طبليخاناة، وله نائب أمير عشرة. ومن الوظائف أيضاً زمام الدور السلطانية، وموضوعها التحدث بحفظ حريم السلطان وأولاده وجواريه، ويشرف عليها موظف يسمى (الزمام) برتبة أمير طبليخاناة، وهو أكبر الخدام الخصيان. وثمة نقابة الجيوش وتكون للإشراف على عرض الجند. فإذا طلب السلطان أو نائب السلطنة أو الحاجب أميراً أو غيره أحضره. وهو كأحد الحجاب الصغار<sup>(١)</sup>. ذكر المقرئزي أن نقابة الجيوش أصبحت من الوظائف التي انحط قدرها ورتبتها في دولة الماليك، وصار نقيب الجيش عبارة عن موظف كبير لترويع الناس، وإخافتهم وأخذ أموالهم بالباطل<sup>(٢)</sup>. ومن الوظائف أيضاً الهندارية ومهمة من يتولاها هو استقبال الرسل القادمين إلى الدولة من أمراء العربان وغيرهم ممن يريد القدوم إلى الدولة. ومنها شدّ الدواوين، ويكون صاحبها رفيقاً للوزير، ومتحدثاً في تحصيل الأموال وغير ذلك، ويتولى هذه الوظيفة إمرة عشرة. وإمرة طبر، ويتولاها موظف يسمى أمير طبر يحمل الطبر (الفأس) للسلطان في المواكب، ويكون مسؤولاً عن من دونه من الطيردارية. وإمرة علم، وموضوعها الإشراف على الطبليخاناة السلطانية، ومتصرفاً فيها، ويتولاها موظف يسمى أمير علم برتبة عشرة. وإمرة شكار، ويكون صاحبها متحدثاً في الطيور السلطانية من الجوارح وغيرها والصيد السلطانية وأحواش الطيور

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٢.

(٢) المقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٢٢٢.

وغيرها؛ وهي إمرة عشرة. وكذلك حراسة الطير ويتولى صاحبها حماية الأماكن التي تنزل بها الطيور من المزارع وغيرها؛ وهي إمرة عشرة. وشدة العمائر للإشراف على العمائر السلطانية من القصور والمنازل والأسوار؛ وهي إمرة عشرة<sup>(١)</sup>.

يتضح من خلال دراسة تطور المناصب الإدارية التي تولى إدارتها أرباب السيوف وجود عدة تطورات وتغييرات هامة على عدد من هذه الوظائف: كناية السلطنة حيث استناب السلطان برقوق حين تولى السلطنة سنة ١٢٨٢م / ١٢٨٤هـ الأمير سودون الشبخوني وظل نائباً للسلطنة في مصر حتى طلب من السلطان برقوق أن يعفيه من منصبه سنة ١٢٩٤م / ١٢٩٤هـ بسبب تقدمه في السن، وعدم القدرة على تحمل أعباء المنصب. ومن حينها لم يعين السلطان برقوق أي نائب للسلطنة، ولعلّ السبب في ذلك عائد إلى عدم ثقة السلطان برقوق في كبار الأمراء بسبب سعيهم المتواصل في الوصول إلى منصب السلطنة، فضلاً عن اطلاعه على مختلف أمور الدولة.

كما طرأ تغير واضح على منصب أتابك العساكر بعد سنة ١٢٥٦م / ١٢٥٥م. إذ كان يعدّ منصب أتابك العساكر قبل ذلك منصباً فخرياً ليس له وظيفة رسمية في الدولة. وحين أصبح هذا المنصب من المناصب الرسمية في الدولة وصار متوليه يلبس الخلعة من السلطان حين يلي الوظيفة اتسعت صلاحياته، وسيطر أغلب أتابكة العساكر على الحكم دون السلطان لصغر السن. ومن الشواهد التاريخية على ذلك سيطرة الأمير شيخون العمري على السلطنة دون الناصر حسن. وسيطرة السلطان برقوق على السلطنة حين كان أتابك للعساكر أثناء فترة حكم السلطان علي بن شعبان. وقد استمرت محاولات أتابكة العساكر التجرو على

(١) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١١٦، ١١٥، والقلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٢-٢٣.



السلطنة حين تولى السلطان برقوق الحكم سنة ٧٨٤هـ / ١٢٨٢م. فقد نجح الأمير يلبغا الناصري ومنطاش في عزل السلطان برقوق من السلطنة سنة ٧٩١هـ / ١٢٨٨م. وقد دفع هذا الأمر السلطان برقوق إلى رفع رتبة أمير مجلس من إمرة طبلخانة إلى إمرة مائة وتقدمة ألف وزيادة إقطاعه حتى أصبح يساوي إقطاع أتاك العساكر للحد من سلطة أتاك العساكر والقضاء على تمردهم.

كما طرأ تغير على وظيفة أمير سلاح، لأهمية هذه الوظيفة وخطورتها فأمر السلاح مسؤول عن حمل سلاح السلطان عند الخروج إلى القتال أو الاحتفالات الرسمية، وذلك من أجل حماية السلطان عند خروجه من القلعة. فعمل السلطان برقوق على تقديم أمير السلاح على أمير مجلس من حيث الرتبة والمكانة. كما منح السلطان برقوق بعد عودته ثانية إلى السلطنة صلاحيات أوسع للدوا دار لتشمل الشؤون المالية، والبريد، والحكم في المنازعات، وتعيين الموظفين وعزلهم.

ومن التغيرات التي طرأت على الوظائف العسكرية زيادة عدد الحجاب في الدولة من أربعة حجاب إلى خمسة أو ستة حجاب، وتقديم حاجب الحجاب من حيث الرتبة والمكانة على إمرة سلاح لأهمية حاجب الحجاب في حجب الأمراء والممالك عن السلطان ولا سيما بعد ازدياد محاولات الأمراء في القضاء على السلطان برقوق. كما منح السلطان برقوق الاستادار صلاحيات أوسع بعد استحداث ديوان المفرد الذي يتولى الإشراف على الشؤون المالية الخاصة بالسلطان، وعليق ورواتب ممالكه. بعد أن كانت صلاحياته محددة بالإشراف على المطابخ السلطانية والشراب خاناة والغلمان وغيرها.

## ب- الوظائف الديوانية (أرباب الأقسام).

١- الوزارة: تعدّ الوزارة من الوظائف الديوانية الهامة في الدولة وأرفعها رتبة. إذ يعدّ الوزير «سلطاناً ثانياً إذا أنصف وعرف حقه»، لكن التغييرات التي أحدثت على منصب الوزارة في فترة حكم دولة المماليك الأولى بعد استحداث نيابة السلطنة في مصر جعل نائب السلطنة يحل محل الوزير، ويأتي بعد السلطان مباشرة في الرتبة، ويتمتع بكل ما يتمتع به الوزير من قبل<sup>(١)</sup> ففي فترة حكم السلطان الناصر محمد بن قلاوون ضعف نفوذ الوزراء بسبب تقليص السلطان الناصر محمد بن قلاوون صلاحيات الوزراء، واقتصارها على تنفيذ أوامر السلطان ونائب السلطنة، والنظر في الشؤون المالية للدولة بالاشتراك مع ناظر الدولة<sup>(٢)</sup>. وقد أشار ابن خلدون إلى تراجع منصب الوزير في دولة المماليك بقوله: «ثم جاءت دولة الأتراك آخراً بمصر، فرأوا الوزارة قد ابتذلت بترفع الأمراء المماليك عنها، ودفعها لمن يقوم بها للخليفة المحجور، ونظره مع ذلك متعقب بنظر الأمير فصارت مرؤوسة ناقصة، فاستنكف أهل هذه الرتبة العالية من الأمراء المماليك من اسم الوزارة»؛ لأن نائب السلطنة أصبح يقوم بمهام الوزير وصار صاحب الحكم والنظر في الجند في الدولة. في حين أصبح منصب الوزير أدنى من نائب السلطنة رتبة ومكانة، لاختصاص الوزير في دولة المماليك بالنظر في جباية الأموال<sup>(٣)</sup>.

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٨. والمقريري، الخطط، ج ٢، ص ٢٢٢.

Carl Petry, Diwan officials in Cairo, vol. 21, part. 2, p. 171.

(٢) العمري، مسالك الأبحار، ص ٥٤.

Popper, Egypt and Syria, vol. 1, p. 96.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٦٤. والسخاوي، وجيز الكلام، ج ١، ص ٢٠٦.

ثم ألغي منصب الوزارة أثناء فترة حكم السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م، ووزعت مهام الوزير وصلاحياته بين ناظر المال وشاد الدواوين لتحصيل الأموال، وصرف النفقات، وناظر الخاص بتدبير الأمور العامة في الدولة عوضاً عن الوزير وتعيين المباشرين، وكاتب السر للتوقيع على ما كان يوقع عليه الوزير مشاوراً واستقلالاً<sup>(١)</sup>. وحين أعيدت الوزارة مرة أخرى في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٧٧هـ / ١٣٧٥م بقيت صلاحيات الوزير موزعة بين ناظر المال وشاد الدواوين وناظر الخاص وكاتب السر<sup>(٢)</sup>.

وحيث تولى السلطان برقوق السلطنة أعاد منصب الوزارة في الدولة، ولكن قلل من صلاحيات الوزير بحيث لا تتعدى الإشراف على الشؤون المالية<sup>(٣)</sup>، وتحصيل الضرائب من جهاتها المختلفة وصرفها في شراء اللحم ومستلزمات القصر السلطاني<sup>(٤)</sup>. وقد بلغ ضعف منصب الوزارة إلى درجة أن أحد وزراء السلطان برقوق - وهو سعد الدين نصر الله بن البقري<sup>(٥)</sup> - وصف الوزارة بأنها «عبارة عن وظيفة يهتم صاحبها (الوزير) بشراء ما يحتاج إليه القصر من اللحم والحطب وحوائح الطعام»<sup>(٦)</sup>. ويبدو أن السبب في تقليل صلاحيات الوزير عما كانت عليه في السابق هو استحداث السلطان برقوق ديوان المفرد، ونقل أغلب صلاحيات الوزير إلى الاستادار - أحد أرباب السيوف - الذي يتولى إدارة شؤون هذا

(١) المقرئ، السلوك، ج ٢، ق ١، ص ٢٤١. والقلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٨. والسخاوي، وجيز الكلام، ص ٢٠٦.

(٢) المصدر ذاته، ج ٢، ق ١، ص ٢٥٢، ٢٥٦. والقلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٨.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٨. والسيوطي، حسن المحاضرة، ج ٢، ص ٩٣.

(٤) المقرئ، الخطط، ج ٢، ص ٢٢٢-٢٢٣.

Popper, Egypt and Syria, vol. 1, p. 95.

(٥) سعد الدين نصر الله بن البقري (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) تحت العقوبة في سلطنة الناصر فرج بن برقوق. المقرئ، السلوك، ج ٤، ق ١، ص ٢٤. وابن حجر العسقلاني، أنباء الفجر، ج ٥، ص ٢١١. والسخاوي، الضوء اللامع، ج ١، ص ٦٥.

(٦) المقرئ، الخطط، ج ٢، ص ٢٢٣. والسيوطي، حسن المحاضرة، ج ٢، ص ١٢٧.

الديوان<sup>(١)</sup>. وربما كان يهدف السلطان برقوق من إضعاف الوزارة أو إلغائها هو إضعاف دور الفقهاء والعلماء والكتاب وأهل البلاد في مصر -في المشاركة في إدارة شؤون الدولة وتدبير أمورها. إذ أن منصب الوزارة كان في الأصل منصباً مدنياً؛ أي من حق أرباب الأقلام. وكان الوزير في أغلب الأحيان من المصريين أو ممن أقاموا في مصر مدة طويلة. وبذلك فإن إضعاف الوزارة أو إلغائها هو إضعاف لدور الفقهاء والعلماء والكتاب وأهل البلاد. ومنصب الوزارة الذي كان يتولاه أحد أرباب الأقلام، هو الذي كان يتعامل مع أهل البلاد على اختلاف فئاتهم بشكل مباشر<sup>(٢)</sup>. والدليل على ذلك قول المقرئزي: «ولقد صدق فيما قال فإن الأمر على هذا وما رأينا الوزارة من بعد انحطاط رتبتها يرتفع قدر متوليها إلا إذا إضيفت إلى الاستادارية كما وقع للأمير جمال الدين الأستاذار والأمير فخر الدين عبد الغني ابن أبي الفرج. وأما من ولي الوزارة بمفردها ولا سيما من أرباب الأقلام فإنما هو كاتب كبير يتردد ليلاً ونهاراً إلى باب الأستاذار ويتصرف بأمره ونهيه»<sup>(٣)</sup>.

أما في بلاد الشام فكان يتولى مهام الوزير موظف يسمى ناظر المملكة الشامية، أو (ناظر النظائر)، وتقتصر صلاحياته على الإشراف على إدارة الدواوين المختلفة في بلاد الشام، ولا يطلق عليه لقب وزير إلا إذا تولى منصب الوزارة، ويعين من قبل السلطان في مصر بتقليد شريف، وإن كان ناظر مملكة كُتِبَ له

(١) المقرئزي، الخطط، ج٢، ص٢٢٢-٢٢٤. والقلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٢٨-٢٩. والسيوطي، حشن المحاضرة، ج٢، ص١٣٧.

(٢) كرافولسكي، العرب وإيران، ص١٣٦.

(٣) المقرئزي، الخطط، ج٢، ص٢٢٢.

مرسوم شريف<sup>(١)</sup>. وعلى حد قول القلقشندي فإن الوزارة في بلاد الشام لا يتولاها أرباب السيوف، فإن تولاهما أحد أرباب السيوف احتاج معه إلى ناظر مملكة كما يكون ناظر الدولة مع الوزير في مصر من أرباب السيوف<sup>(٢)</sup>.

ويتبع للوزارة في دولة المماليك عدة دواوين مثل نظر الدولة، واستيفاء الصحبة، واستيفاء الدولة.

أما ناظر الدولة فإنه يعرف في مصطلح الدواوين في دولة المماليك بالصحبة الشريفة، فناظر الدولة يساعد الوزير في مختلف صلاحياته، كالإشراف على الشؤون المالية وما يتعلق بها في الدولة. أما إذا كان الوزير من أرباب السيوف (العسكريين)، فإن وظيفة الوزير تقتصر على النظر والإشراف على الشؤون المالية فقط<sup>(٣)</sup>.

أما استيفاء الصحبة، فهي من الوظائف الإدارية الجليلة رفيعة القدر، يتولاها موظف يسمى «مستوفي الصحبة» يشرف على إدارة جميع أمور الدولة في مصر وبلاد الشام، ويكتب المراسيم التي يوقع عليها السلطان، كما هو متبع في البلاد، كمنح قطعة أرض لأمير من الأمراء أو غيره معفاة من الضرائب<sup>(٤)</sup>، وتعيين بعض كبار الأمراء في منطقة صغيرة من مناطق الدولة<sup>(٥)</sup>. أو ما يجري مجراه. ويعتبر ديوان استيفاء الصحبة من أهم الدواوين في الدولة، لأن جميع

(١) الفرق بين التقليد الشريف والمرسوم الشريف بأنه يكتب للوزير في كتاب التولية إذا كان تقليداً «يفرض بالوزارة». في حين يكتب في كتاب التولية إذا كان مرسوماً شريفاً «يستقر بالوزارة». وبذلك يمنع الوزير بموجب التقليد الشريف صلاحيات أوسع. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١١، ص ١٠٧.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٩٥. والخالدي، المقصد الرفيع، ورقة ١١٤٧. ومحمد دهمان، ولاية دمشق، ص ٢٩.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٩.

(٤) المصدر ذاته، ج ٤، ص ٢٩.

(٥) المصدر ذاته، ج ٤، ص ٢٩. والخالدي، المقصد الرفيع، ورقة ١١٣٥.

مجراه. ويعتبر ديوان استيفاء الصحبة من أهم الدواوين في الدولة، لأن جميع الدواوين التي تشرف على الشؤون المالية في الدولة مرتبطة ارتباطاً مباشراً بديوان استيفاء الصحبة<sup>(١)</sup>.

ويعد ديوان استيفاء الدولة من الدواوين الرئيسية في الإدارة ومراقبة مختلف المؤسسات الإدارية الأخرى، حيث يتولى «مستوفي الدولة» مراقبة الشؤون المالية في الدولة ومعرفة أصولها، والجهات التي تنفق عليها. وهو أشبه بديوان المحاسبة والرقابة والتفتيش في الوقت الحاضر. ويساعد مستوفي الدولة في إداء مهمته موظفان أو أكثر<sup>(٢)</sup>.

٢- ديوان الإنشاء: ويختص بالمراسلات والمكاتبات العامة التي ترد إلى السلطان وتصدر عنه<sup>(٣)</sup>. ويتولى إدارته موظف يسمى «ناظر الإنشاء» أو «كاتب السر» أو «كاتب السر» أو «ناظر ديوان الإنشاء»<sup>(٤)</sup>. حيث يقوم ناظر ديوان الإنشاء بقراءة الكتب الواردة على السلطان والإجابة عنها وأخذ توقيعها عليها، ويقوم كذلك بتفسير الكتب الصادرة والواردة من وإلى السلطان. ويتولى ناظر ديوان الإنشاء التوقيع على الكتب الواردة إلى الدولة كما كان يوقع عليها الوزير بعد مراجعة السلطان فيما يحتاج إلى مراجعة فيه. كما يتولى تقديم البريد إلى السلطان وإرسال البريدية (حامل البريد) إلى الأماكن المختلفة في الدولة والرسول، ومشاركة الدواوين في أغلب الأمور السلطانية<sup>(٥)</sup>.

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٩.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٩. وابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١٠٢. والخالدي، المقصد الرفيع، ورقة ١١٣٦.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٣٠.

Carl Petry, Diwan official in Cairo, vol. 21, part. 2, p. 171.

(٤) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ٩٨.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٣٠. وابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ٣٠. والخالدي، المقصد الرفيع، ورقة ١٨٤، ١٠٩. ب. وليون الأفريقي، وصف أفريقيا، ص ٦٠٦.

ويساعد ناظر ديوان الإنشاء في إدارة ديوان الإنشاء عدد من الموظفين مثل كُتَّاب الدست، الذين يجلسون مع كاتب السر بدار العدل في الموكب كلاً حسب منزلته في الأقدمية والرتبة، يقرأون القصص على السلطان بعد قراءتها من قبل كاتب السر حسب ترتيب جلوسهم، ويوقعون عليها، كما يوقع عليها كاتب السر<sup>(١)</sup>. وقد أشار القلقشندي إلى التطورات التي طرأت على أعداد كُتَّاب الدست في ديوان الإنشاء في دولة المماليك الأولى والثانية. فقد بلغ عددهم في بداية حكم السلطان بيبرس وما بعده نحو ثلاثة كُتَّاب. في حين ازداد العدد فيما بعد حتى وصل في أواخر حكم السلطان الأشرف شعبان حوالي عشرة كتاب أو أكثر، ثم أخذت الأعداد بالتزايد شيئاً فشيئاً حتى بلغت في فترة حكم السلطان الظاهر برقوق وحكم ابنه السلطان فرج نحو عشرين كاتباً «وهم أخذون بالتزايد»<sup>(٢)</sup>.

والفئة الأخرى من كُتَّاب ديوان الإنشاء هم كُتَّاب الدرج، الذين يكتبون ما يوقع به كاتب السر أو كُتَّاب الدست أو نائب السلطنة أو الوزير، أو رسالة الدوادر وغير ذلك من المكاتبات والتواقيع والمناشير<sup>(٣)</sup>. وسُمُّوا كتاب الدرج لأنهم كانوا يكتبون المكاتبات في دروج من الورق مستطيلة الشكل مركبة من عدة أوصال، تقدر بعشرين وصلاً متلاصقاً<sup>(٤)</sup>.

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١، ص ١٧٢، وابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١٠٠. والخالدي، المقصد الرفيع، ورقة ١٨٤.

(٢) المصدر ذاته، ج ١، ص ١٧٢.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٣٠. وابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١٠٠. والخالدي، المقصد الرفيع، ورقة ١٠٩ ب.

(٤) المصدر ذاته، ج ١، ص ١٧٢-١٧٣.

أما أعداد كُتَّاب الدرج في ديوان الإنشاء فقد ارتبط بعدد كتاب الدست، فكلما ازداد عدد كُتَّاب الدست في الديوان زاد عدد كُتَّاب الدرج. فقد بلغوا في فترة حكم السلطان برقوق أكثر من مئة وثلاثين كاتباً وهو عدد كُتَّاب الدست في الفترة نفسها. ثم طرأ تراجع على وظيفة كُتَّاب الدرج «حتى لم يرضها إلا من لم يكن أهلاً لذلك»<sup>(١)</sup>. والسبب في ذلك أن كُتَّاب الدست صاروا يتولون الأمور الهامة التي كان كتاب الدرج يتولونها مثل البريد الخاص بالسلطان من مكاتبات وتقاليد وتواقيع وغيرها. وصارت صلاحيات كُتَّاب الدرج تقتصر في الأغلب على كتابة المكاتبات الخاصة في خلاص الحقوق، وما شابه ذلك<sup>(٢)</sup>. أما كتابة التذاكر والدفاتر<sup>(٣)</sup>، فقد كانت تكتب المكاتبات الصادرة والواردة من السلطان وإليه في دفاتر خاصة في ديوان الإنشاء حتى نهاية تولي القاضي بدر الدين محمد بن علي بن يحيى بن فضل الله العمري كتابه السر<sup>(٤)</sup> في فترة حكم السلطان برقوق، حيث ألغي ذلك، وصار يقتصر على ما يرد من المكاتبات وما يكتب من الملخصات وكتابة الموقع الذي يكتب الجواب. وأصبح يتولى دوا دار كاتب السر حفظ المكاتبات وإيداعها في أضيابير خاصة؛ وصار كاتب السر المسؤول عن الحجاب في ديوان الإنشاء. وصار لديوان الإنشاء عدد من الموظفين يساعدون كاتب السر في أخذ القصص، وعرضها على كاتب السر ومن دونه من كتاب الديوان ليكتب كل منهم ما يلزمه من متعلقاتها. أطلق عليهم اسم المدار (جمع مدير)<sup>(٥)</sup>.

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١، ص ١٧٢.

(٢) المصدر ذاته، ج ١، ص ١٧٢.

(٣) التذاكر والدفاتر: جمع تذكرة وهي تتضمن جمل الأموال التي يسافر فيها الرسول ليعود إليها أن أغفل شيئاً منها أو نسيه، وتكون حجة له فيما يورده ويصدره. أما الدفاتر فيذكر القلقشندي أن التذكرة تكتب في قطع الشامي، تكسر فيها الفرجة الكاملة نصفين، وتجعل دفتراً ورقة إلى جنب أخرى. راجع القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٢، ص ٨٤، ٨٥.

(٤) وهو كاتب السر الشريف في فترة حكم السلطان برقوق (ت ٧٩٦هـ / ١٣٩٢م) بدمشق. المقرئ، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٨٢١. والسخاوي، وجيز الكلام، ج ١، ص ١٢٢-١٢٣.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١، ص ١٧٤.



غير أن ديوان الإنشاء طرأ عليه تراجع واضح في فترة حكم السلطان الظاهر برقوق حين عزل عن السلطنة سنة ٧٩١هـ / ١٢٨٩م وعاد إلى السلطة مرة أخرى حيث ألغيت قاعة الصاحب التي كان يجلس فيها الوزير وكتّاب الدولة<sup>(١)</sup>، وأخذت الأوراق الرسمية التي كانت بديوان الإنشاء وبيعت بالقنطار<sup>(٢)</sup>.

واختلف ديوان الإنشاء في بلاد الشام عنه في مصر من حيث الحجم والتسمية. فقد كان يسمى كاتب السر في بلاد الشام (بصاحب ديوان الإنشاء بالشام المحروسة)، وهي وظيفة تماثل وظيفة كاتب السر في مصر من حيث الرفعة والقدرة، وموضوعها على نحو ما في مصر. ويتولى كاتب السر في بلاد الشام بتوقيع شريف من قبل السلطان في مصر، وكان السلطان يختار بعض خواصه لمنصب كاتب السر في بلاد الشام ممن يثق بهم حتى يتمكن من معرفة جميع التطورات التي تحدث في بلاد الشام وخشية من إخفاء نائب السلطنة في بلاد الشام أمراً مهماً على السلطان. كما يوجد في ديوان الإنشاء في بلاد الشام كتّاب دست وكتّاب درج كما في ديوان الإنشاء في مصر. يعينهم نائب السلطنة في الشام<sup>(٣)</sup>.

ويرتبط بديوان الإنشاء وبكاتب السر مباشرة مرفق هام في الدولة. وهو البريد، الذي يعد من أهم وسائل الاتصال بين دولة المماليك ومختلف نياباتها. وتعني كلمة بريد في اللغة مسافة معلومة تقدر بأثني عشر ميلاً<sup>(٤)</sup>. واستمر وجود البريد في فترات متقطعة. ففي فترة حكم الدولة البويهية قطع بنو بويه البريد حين سيطروا على الخلافة ليخفي على الخليفة ما يكون من أخبارهم وحركاتهم. وفي الفترة السلجوقية اقتصر

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص٤٢٤.

(٢) المقرئزي، الخطط، ج٢، ص٢٢٥-٢٢٦.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص١٩٥-١٩٦. والسبكي، معبد النعم، ص٣٠.

Carl Petry, Diawan officials, vol. 21, part. 2, p. 175.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج١٤، ص٤١٢.

البريد على استخدام الخيل والبغال. في حين أقيمت النجابة<sup>(١)</sup> في الدولة الزنكية، وأعدت لها النجب المنتخبة. واستمر البريد كوسيلة اتصال حتى بداية دولة المماليك الأولى، وتولى السلطان الظاهر بيبرس السلطنة<sup>(٢)</sup>. حيث نظم البريد تنظيماً دقيقاً وأولاه عنايته الخاصة، وصار الخبر ينقل من القاهرة إلى دمشق في أربعة أيام ويعود بمثلها<sup>(٣)</sup>.

واستمر البريد كوسيلة اتصال في مصر وبلاد الشام في فترة حكم السلطان برقوق وابنه الناصر فرج. فأقامت دولة المماليك مراكز خاصة للبريد، لاستبدال البريدي خيل البريد في هذه المراكز، وهي مراكز متفاوتة في المسافة، إما لبعده أماكن المياه، أو لتكون قريبة من إحدى القرى. فقد أنشأ السلطان برقوق سنة ٧٩٧هـ / ١٣٩٤م عدداً من مراكز البريد وعمل على تزويدها بالخيل، وألزم الأمراء المقدمين بتقديم عشرة اكديش، وكلاً من الوزير والأستادار وأرباب الوظائف المختلفة في الدولة وأمراء الطبلخانة اكديش، وأمراء العشريينات والعشرات اكديش واحد<sup>(٤)</sup>.

وارتبطت دولة المماليك في فترة حكم السلطان برقوق في مصر وبلاد الشام بأربعة مراكز رئيسية للبريد تتفرع لمختلف المناطق في الدولة، انطلاقاً من قلعة الجبل في القاهرة وهي: قوص في الوجه القبلي وما يتصل بذلك من إسوان وما يليها من بلاد النوبة، وعيذاب وما يليها من سواكن. والإسكندرية، ودمياط في الوجه البحري، وما يتفرع عنها من جهة غزة في بلاد الشام<sup>(٥)</sup>.

(١) وهي الإبل والخيل الخفيفة والسريعة، ابن منظور، معجم لسان العرب (مادة نجب)، ج ٢، ص ٥٨٠.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٤، ص ٤١٥، والخالدي، المقصد الرفيع، ورقة ١٠٢ ب.

(٣) الطراونة، مملكة صفد، ص ٢٤٧.

(٤) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٨٣٣، وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٤٠٥-٤٠٦.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٤، ص ٤١٨-٤١٩، وابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١١٨.

وعلى امتداد خطوط طرق البريد أقامت دولة المماليك مراكز على مسافات لا تزيد إحداها عن ثمانية وعشرين ميلاً (١٥٣ كم)؛ لتزويد الموظفين والخيول بالماء والعلف، كما أقامت مساكن خاصة لإقامة موظفي البريد. وفي كل مركز من مراكز البريد عدد معين من الخيول، يشرف عليها موظف كالبريدي الذي ينقل البريد، والسواق، وسوأس للعناية بالخيول<sup>(١)</sup>. ولم تسمح الدولة بركوب خيل البريد إلا بمرسوم سلطاني<sup>(٢)</sup>. لأهمية البريد في نقل رسائل السلطان الخاصة المتعلقة بأمر الدولة. وخشية استخدام البريد من قبل بعض الأمراء في نقل أخبار تهدف إلى إحداث الفتن والاضطرابات في الدولة.

كما استخدمت دولة المماليك في فترة حكم السلطان برقوق مكاربه الدواب الذين يعتاشون من مهنة تأجير الحمير الكبيرة والسعاة في نقل البريد في الحالات التي تقضي إيصال البريد لبعض المناطق التي تنقطع فيها خيل البريد من المراكز السلطانية أو لوجود العدو، كبديل للحمام الزاجل الذي كان مستخدماً في دولة المماليك الأولى في الحالات التي كانت تحتاج إلى إيصال البريد بأسرع وقت. فقد كان كاتب السر يندب بأمر السلطان من يعرف من السعاة أو مكاربه الدواب بسرعة المشي وسرعة العدو لإيصال الرسائل الهامة إلى بلاد الشام والعودة بالجواب<sup>(٣)</sup>. إذ أن السعاة كانت تقطع حوالي اثني عشر ميلاً (٩٦ كم) في اليوم سيراً على الأقدام<sup>(٤)</sup>. إشارة إلى اهتمام السلطان بمعرفة التطورات الهامة في مختلف نيابات الدولة.

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٤، ص ٤٢٢. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٢٨٧.

(٢) المقرئ، الخطط، ج ٢، ص ٢١١. وراجع السبكي، معبد النعم، ص ٣٢.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١، ص ١٦٢.

(٤) ليون الأفريقي، وصف أفريقيا، ص ٦٠٤.

ويتولى الدوادار في ديوان الإنشاء إخراج رسائل السلطان في الأمور السلطانية على يد بريدي مختص إلى كاتب السر في الديوان، وكان كاتب الدست يقوم بوضع الرسالة في ديوان الإنشاء، وحين يوجه البريد إلى بلاد الشام تكتب ورقة تتضمن «يرسم برسالة المخدم الفلاني أمير دوادار الظاهري أن يكتب ورقة طريق شريف- وهي بمثابة إذن رسمي لاستخدام خيل البريد- باسم فلان الفلاني المرسوم له بالتوجه إلى الجهة الفلانية». ثم يحمل على فرس أو فرسين أو أكثر من خيل البريد حسب ما تقتضيه الحاجة، ويكتب تاريخ الورقة. أما إذا كان البريد موجهاً إلى الوجهين القبلي أو البحري كتب: «أن يكتب ورقة فرس بريد باسم فلان الفلاني». وتؤرخ الورقة ويجهزها البريدي إلى صاحب ديوان الإنشاء لتحفظ الورقة في الديوان عند الدوادار في أظابير خاصة، ثم يكتب له ورقة صغيرة بالسماح له في استخدام خيل البريد ما مثاله «أمير أخور البريد المنصور، يحمل فلان الفلاني على فرس واحد أو أكثر من خيل البريد عند التوجه إلى الجهة الفلانية» ثم يؤرخ الورقة، ويرسل البريدي ليسلمها إلى أمير أخور البريد ليتم حفظها في الديوان، ويكتب أمير أخور البريد اسم البريدي الذي حمل الورقة في آخر الكتاب، ويقوم بعد ذلك بختم الكتاب<sup>(١)</sup>. خشية التزوير.

وكان للبريد ألواح خاصة من الفضة يستخدمها البريدي عند خروجه إلى جهة معينة حتى يتمكن من استخدام خيل البريد من مراكز البريد التي يمر بها. وهي عبارة عن ألواح منقوش على أحد وجهي اللوح «لا إله إلا الله محمد رسول الله، أرسله بالهدى ودين الحق، ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون». ومكتوب عليها ضربت بالقاهرة المحروسة. وعلى الوجه الآخر من اللوح «عز مولانا السلطان الظاهر برقوق- مثلاً- فلان الدين والدنيا». ويكون في الألواح ثقب معلق بها شُرابة من حرير أصفر ذات بندين، يجعلها البريدي في عنقه، ويجعل اللوح تحت ثيابه والشُرابة خلف ظهره تمييزاً له بأنه بريدي<sup>(٢)</sup>.

(١) الفلقشندي، صبح الأعشى، ج ١، ص ١٥٠ والسبكي، معيد النعم، ص ٢٢.

(٢) المصدر ذاته، ج ١٤، ص ٤١٦-٤١٧.

ولم يختلف البريد في بلاد الشام عن البريد في مصر باستثناء كتابة مكان ضرب اللوح، فإن كان في دمشق كتب عليه (ضرب بالشام) وفي حلب يكتب عليه (ضرب بحلب المحروسة)<sup>(١)</sup>.

وبقي البريد في دولة المماليك في مصر وبلاد الشام في فترة حكم السلطان برقوق دون إجراء تغييرات أو تطورات حتى دخل تيمورلنك دمشق في فترة حكم السلطان الناصر فرج وأحرقها سنة ٨٠٤هـ / ١٤٠١م مما كان سبباً في توقف البريد بين مصر وبلاد الشام واختفاء معاملة من سائر بلاد الشام. ثم أهمل بعد ذلك في مصر لعدم اهتمام الدولة بإعادة الإدارة بسبب كثرة الفتن والحروب والاضطرابات الداخلية، «فذهبت معالم البريد بين مصر وبلاد الشام وعمت آثاره»<sup>(٢)</sup>. وصار إذا عرض أمر من الأمور السلطانية في بعض نيابات مصر وبلاد الشام، ركب البريدي على فرس له، يسير بها ببطء شديد سير المسافر إلى المكان الذي يريده، ثم يعود بنفس الصورة<sup>(٣)</sup>. فكان ذلك سبباً رئيسياً في تأخير نقل البريد بين نيابات مصر وبلاد الشام.

٣- نظر الخاص: من الوظائف الديوانية في الدولة، استحدثها السلطان الناصر محمد بن قلاوون حين ألغى منصب الوزارة، وأصل موضوعها الإشراف على الأموال الخاصة بالسلطان وتعيين المباشرين في الديوان. ولناظر الخاص مساعدون من كُتاب ديوان الخاص، كمستوفي الخاص الذي يقوم بتحصيل الأموال من مباشري البلاد، وناظر خزانة الخاص، الذي يضبط ما بالخزانة من الطرز

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٤، ص ٤١٧.

(٢) المصدر ذاته، ج ١٤، ص ٤١٥-٤١٦، والخالدي، المقصد الرفيع، ورقة ١٠٢.ب.

(٣) المصدر ذاته، ج ١٤، ص ٤١٦.

والسيوف والأقمشة ونحو ذلك<sup>(١)</sup>. واستمرت وظيفة ناظر الخاص في فترة حكم السلطان برقوق كوظيفة مستقلة<sup>(٢)</sup>، ثم أضيفت إليها وظيفة أخرى وهي نظر الجيش، ونظر الذخيرة، واستيفاء الصحبة. فقد عين السلطان برقوق موفق الدين أبا فرج الأسلمي سنة ٧٨٦هـ / ١٢٨٤م في نظر الجيش مضافاً إلى نظر الخاص، ونظر الذخيرة واستيفاء الصحبة<sup>(٣)</sup>. ثم فصلت وظيفة نظر الخاص عن بقية الوظائف في سنة ٧٩٢هـ / ١٢٨٠م<sup>(٤)</sup>. وأصبحت وظيفة مستقلة. وقلص السلطان برقوق صلاحيات ناظر الخاص بعد أن استحدث ديوان المفرد سنة ٧٩٧هـ / ١٢٩٤م ونقل بعض صلاحياتها إلى الأستادارية<sup>(٥)</sup>.

٤- نظر الجيش: من الوظائف الهامة في دولة المماليك يتولاها موظف يسمى ناظر الجيش، يتولى الإشراف على إصدار الوثائق الخاصة بمنح الإقطاعات في مصر وبلاد الشام، وتدقيق الأوراق الخاصة بالإقطاعات ومقادير الإقطاع، وفحص هذه الأوراق بالديوان، وكتابة الوثائق المختلفة بمساعدة كُتّاب الجيش بأمر من السلطان. ولناظر الجيش مساعدون يعينهم السلطان، كصاحب ديوان الجيش، وكُتّابه وشهوده، وصاحب ديوان المماليك وشهود المماليك<sup>(٦)</sup>.

(١) القلقشندي، صبح الأعمش، ج ٤، ص ٢٠. وابن كنان، حدائق الياسمين، ص ١٧٢-١٧٤.

(٢) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٤٧٨.

(٣) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٥١٦، ٩١٦. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٢٩. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٩٧.

(٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٨.

(٥) Popper, Egypt and Syria, vol. 1, p. 95.

(٦) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٩١٦. والقلقشندي، صبح الأعمش، ج ٤، ص ٣١. وإبراهيم طرخان، النظم الإقطاعية، ص ١١٩.

٥ - نظر الدواوين والصحة الشريفة: وهي من الوظائف الديوانية، ويسمى متوليها بناظر الدولة<sup>(١)</sup>، ومهمته التحدث في كل ما يتحدث فيه الوزير من تحصيل الأموال، وصرف النفقات النقدية والعينية<sup>(٢)</sup>.

س

وهناك مجموعة وظائف ديوانية يذكرها القلقشندي في كتاب صبح الأعشى على أنها وظائف مستقلة، ويبدو أنها وظائف إدارية تتصل اتصالاً مباشراً بالقصر السلطاني مثل: نظر الخزانة، وكانت في السابق تحتوي على أموال السلطان من جواهر، وحرير، وذهب، والقماش المزركش، فلما استحدثت وظيفة ناظر الخاص تراجعت أهمية الخزانة<sup>(٣)</sup>، لاقتصار احتوائها على الخلع والتشارييف<sup>(٤)</sup> التي ينعم بها السلطان على الأمراء في المناسبات المختلفة كتولية السلطان السلطنة<sup>(٥)</sup>، وتقلد بعض الأمراء الوظائف، وعيد الفطر، وعند خروج السلطان للميادين للعب الكرة، ودوران محمل الحج في شهر شوال من كل عام<sup>(٦)</sup>. ويتولى إدارة نظر الخزانة أحد القضاة ويسمى ناظر الخزانة الكبرى، ويساعده موظف يسمى صاحب ديوان الخزانة<sup>(٧)</sup>. ونظر البيوت والحاشية للإشراف على المطابخ السلطانية والشراب خاناه، والسعي في طلب السلطان، والحكم في غلمان السلطان، كما يتولى أمر الجاشنكيرية، وإن كان كبيرهم نظيره في الإمرة من أمراء المثين، ويتصرف بشكل

(١) المقرئزي، الخطط، ج٢، ص٢٢٤.

(٢) المصدر ذاته، ج٢، ص٢٢٤. وانظر الوزارة.

Popper, Egypt and Syria, vol. 1, p. 97.

(٣) العمري، مسالك الأبيصار، ص٦١.

Popper, Egypt and Styria, vol. 1, p. 97.

(٤) التشارييف خلع مكونة من ملابس ثعينة ينعم بها السلطان على كبار الأمراء. ماير، الملابس الملوكية، ص١٠١-١٠٢.

(٥) ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج١، ص٤٨-٤٩.

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٥٢-٥٤. وماير، الملابس الملوكية، ص١٠٩-١١٠.

(٧) المصدر ذاته، ج٤، ص٣١. ابن كنان، حدائق الياسمين، ص١٧٤.

مطلق في استدعاء ما يحتاجه كل من في بيت السلطان من نفقات وكسوة<sup>(١)</sup>. أما ناظر البيوت والحاشية فإنه يشارك الأستادار في مختلف صلاحياته<sup>(٢)</sup>. ونظر بيت المال ويشرف على ما يرد من الأموال إلى الدولة كالبضائع الواردة عن طريق البر والبحر من قطيا إلى القاهرة. والمتحصل من المواريث الشرعية، وصرفه على علق الخاص ورسل السلطنة والعمائر، ودفع مرتبات المماليك السلطانية من اللحم، وكذلك الصدقات المترتبة على بيت المال<sup>(٣)</sup>.

ونظر الإسطبلات السلطانية للإشراف على الإسطبلات السلطانية، والتحدث في أنواع البغال والجمال، وعلفها، وعدتها، واستعمالاتها، وما يباع منها أو يُبتاع لها، ورواتب المستخدمين فيها<sup>(٤)</sup>. ونظر دار الضيافة والأسواق للإشراف على ما يتحصل من سوق الخيل والرقيق، وصرف ذلك في كلفة من يرد إلى الدولة من الرسل والملوك والسلاطين، وصرف المرتبات المقررة في كل شهر<sup>(٥)</sup>.

أما نظر خزائن السلاح فمهمتها الإشراف على ما يستعمل السلطان من الأسلحة، وجميع ما يتحصل من الأسلحة في كل سنة وإرسالها إلى خزائن السلاح بالقلعة في القاهرة<sup>(٦)</sup>، وأول من تولى نظر خزائن السلاح في فترة حكم السلطان برقوق موفق الدين أبو الفرج الأسلمي مضافاً إلى نظر الخاص، واستيفاء

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢١. ابن كنان، حدائق الياسمين، ص ١٧٥.

(٢) الخالدي، المقصد الرفيع، ورقة ١١٣٥. والسيوطي، حسن المحاضرة، ج ٢، ص ٩٤-٩٥. وانظر الاستادارية فيمالي من الجيش.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٢. وابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ٩٨. والسيوطي، حسن المحاضرة، ج ٢، ص ٩٥.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٢. والسيوطي، حسن المحاضرة، ج ٢، ص ٩٥.

(٥) المصدر ذاته، ج ٤، ص ٣٢. والخالدي، المقصد الرفيع، ورقة ١٢٥ب.

(٦) المصدر ذاته، ج ٤، ص ٣٢. وابن كنان، حدائق الياسمين، ص ١٧٢.



الصحبة<sup>(١)</sup>. ونظر الأملاك السلطانية. وتتولى إدارة الأملاك الخاصة بالسلطان، كالضياع والدور، ونظر البهار والكارم<sup>(٢)</sup>، وتشرف على ما يتحصل إلى الدولة من أصناف البهار من تجار الكارم<sup>(٣)</sup>، من اليمن. وهي مضافة من الناحية الإدارية إلى الوزارة، وفي بعض الأحيان إلى نظر الخاص. وربما تنفرد عن الوزارة ونظر الخاص حسب ما يقرره السلطان<sup>(٤)</sup>.

وأما نظر الأهراء أو شونة الغلال الخاصة بالسلطان. فيتولى إدارتها الوزير، ويكون مسؤولاً عما يصل إلى الأهراء من الغلال من مصر وبلاد الشام، ويُصرف فيها على الإسطبلات السلطانية<sup>(٥)</sup>. ونظر الموارد الحشرية، وتشرف على من يموت ولا وارث له، أو من يموت ولا وارث يستحق ميراثه<sup>(٦)</sup>. ينضاف إليها نظر الطواحين<sup>(٧)</sup>. ويعد نظر الموارد الحشرية من الناحية الإدارية فرعاً من ديوان الوزارة<sup>(٨)</sup>. ونظر الحاصلات أو نظر الجهات؛ وتشرف على ما يتحصل للوزارة من أموال كالضرائب والمصاريف وحملها إلى بيت المال<sup>(٩)</sup>، ونظر المرتجعات، ومهمتها الإشراف على ما يرتجع من إقطاعات من يموت من الأمراء أو ممن تخلى عنها

(١) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٥١٦. وابن تفرج، بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٢٩. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٩٧.

(٢) تجار الكارم، طائفة من التجار ظهرت في القرن السادس الهجري/ الثاني الميلادي. راجع سعيد صالح، التجارة الداخلية، ص ١٧٥.

(٣) الخالدي، المقصد الرفيع، ورقة ١٣٦ ب.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٢٣. والخالدي، المقصد الرفيع، ورقة ١٣٧ أ، ب.

(٥) المصدر ذاته، ج ٤، ص ٢٢.

Popper, Egypt and Syria, vol. 1, pp. 99.

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٣. والخالدي، المقصد الرفيع، ورقة ١٣٥ ب.

(٧) Popper, Egypt and Syria, vol. 1, p. 99.

(٨) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٤. والمقرئزي، الخطط، ج ١، ص ١١١.

أصحابها لحصولهم على إقطاع أكبر<sup>(١)</sup>. وقد خصصت دولة المماليك إدارة خاصة لاسترجاع الإقطاعات تسمى (ديوان المرتجع) أو ديوان السلطان، ويقوم بالإشراف عليه موظف يسمى مستوفي المرتجع، وكان يقوم على إدارة هذه الإقطاعات ديوان الذخيرة ريثما يقطعها السلطان من جديد<sup>(٢)</sup>. وثمة نظر الجيزة وموضوعها الإشراف على ما يتحصل من محاصيل وأموال من منطقة الجيزة؛ وهي من أملاك السلطان الخاصة<sup>(٣)</sup>، ويتولى الإشراف على إدارتها ديوان الوزارة. ولديه مستوفي، وشهود، وصيرفي<sup>(٤)</sup>. ونظر الوجهين القبلي والبحري، وموضوعها الإشراف على بلاد الصعيد والوجه البحري، وعلى الموارد التي تنقل إلى الدولة بعد موت صاحبها لعدم وجود وارث لها<sup>(٥)</sup>. وكذلك من وظائف أرباب الأقاليم الأخرى صحابة ديوان البيمارستان، وصحابة ديوان الأحباس، واستيفاء الصحبة، واستيفاء الدولة<sup>(٦)</sup>.

يتضح من خلال تتبع الوظائف الإدارية الأخرى التي كان يتولى إدارتها أرباب الأقاليم عدم حدوث تطورات أو تغييرات واضحة على هذه الوظائف؛ والسبب في ذلك أنها كانت وظائف إدارية صغيرة تابعة لوظائف إدارية أكبر منها، ويشرف عليها نظار تابعين لموظفين أعلى مرتبة منهم. وهؤلاء النظار بمثابة مساعدين لهم في إدارة هذه الوظائف ومثال ذلك تبعية نظر خزانة السلاح إلى ديوان الخاص، وإشراف الوزارة على نظر البهار والكارمي، وتبعية نظر الأهراء السلطانية

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٤. وابن كنان، حقائق الياسمين، ص ١٧٧.  
Popper, Egypt and Syria, vol. 1, p. 99.

(٢) أنطون ضومط، الدولة المملوكية، ص ٢٢. وإبراهيم طرخان، النظم الإقطاعية، ص ٢٨٤.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٤.

(٤) Popper, Egypt and Syria, vol. 1, p. 99.

(٥) Popper, Egypt and Syria, vol. 1, p. 99.

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٤.

لديوان الوزارة، واكتمال إدارة مثل هذه المؤسسات مما يغني عن الحاجة إلى إحداث تغييرات عليها لأنها تؤدي الغرض المطلوب في الدولة.

#### ٦- الإدارة المحلية في مصر:

اعتمدت التقسيمات الإدارية في دولة المماليك في مصر المتعلقة بالشؤون الداخلية للولايات على عدد من الولاة مثل: والي القاهرة، ووالي القرافة، ووالي القلعة.

#### ١- والي القاهرة:

يعتبر والي القاهرة أكبر الموظفين الإداريين في الإدارة المحلية في مصر، فقد كان والي القاهرة يستعلم مستجدات ولاياته من قتل أو حريق كبيراً أو غير ذلك في كل يوم من نوابه، ثم يكتب تقريراً يومياً يقدمه إلى السلطان<sup>(١)</sup>. ومن صلاحياته الإشراف على تنفيذ الأحكام، وإقامة الحدود، وتعقب المفسدين، ومثيري الفتن والمخمرين، ومراقبة أبواب القاهرة، والطواف بالأسواق. وتقتصر صلاحيات والي القاهرة على العاصمة (القاهرة) وضواحيها<sup>(٢)</sup>. فحين تعرض سوق الجمالين<sup>(٣)</sup>، في القاهرة إلى السرقة والنهب سنة ٧٨٨هـ / ١٢٨٦م تولى والي القاهرة ملاحقتهم، فقبض على ثلاثة من السارقين في بعض ضواحي القاهرة، وأعاد ما نهبوه من

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٦١.

(٢) المقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٢٢٢. والخالدي، المقصد الرفيع، ورقة ١١٢٨.

(٣) سوق الجمالين، يقع بالقرب من درب الفرحية، وفيه المدرسة الصيرامية، وباب زيارة الجامع الحاكمي. ويذكر المقرئزي أنه أدرك هذا السوق معمور الجانبين من أوله إلى آخره بالحوانيت. المقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ١٥١.

السوق<sup>(١)</sup>، وسمّر أيديهم في الخشب، وطاف بهم في القاهرة، ثم أمر بقتلهم<sup>(٢)</sup>. وعندما زاد اعتداء نائب غزة على حقوق الناس سنة ٧٩٢هـ / ١٣٩٠م أمر السلطان برقوق والي القاهرة بضربه وتخليص حقوق الناس منه<sup>(٣)</sup>.

## ٢- والي القَرَاة<sup>(٤)</sup>:

وحكمه يقتصر على القرافة. ومهمته الحفاظ على النظام والامن في القرافة. والقرافة أشبه بمدينة صغيرة تقع بالقرب من أسوار مدينة القاهرة. وتضم نحو أكثر من ألفي أسرة، وتحتوي على العديد من القبور كقبور الأمراء والمماليك. ولهذه القبور أبنية عالية ذات قباب مزينة من الداخل بنقوش ورسوم متنوعة. وأراضيها وجدرانها مغطاة بأجود أنواع القماش، ويأتي كثير من أهل مدينة القاهرة وضواحيها في صبيحة أيام الجمعة لزيارة هذه القبور تبركاً بها ويتركون صدقات عديدة<sup>(٥)</sup>. وكانت القرافة في فترة حكم دولة المماليك الأولى تابعة من الناحية الإدارية لوالي القاهرة حتى استحدث السلطان الظاهر برقوق منصب والي القرافة. وصار والي القرافة مستقلاً عن والي القاهرة ويتولى الإشراف على السكنى في المقابر<sup>(٦)</sup>.

(١) المقرئزي، السلوك، ج٢، ق٢، ص٥٤٢. وابن الصيرفي، نزعة النفوس، ج١، ص١٢٩.

(٢) المقرئزي، السلوك، ج٢، ق٢، ص٥٤٢. وابن الصيرفي، نزعة النفوس، ج١، ص١٣٠.

(٣) المقرئزي، السلوك، ج٢، ق٢، ص٧٢٤، ٧٣٩، ٧٦٨.

(٤) القَرَاة: من اسم قبيلة عربية كانت تعسكر عند جبل المقطم، ثم اتخذ هذا الاسم معنى المقبرة في القاهرة. ليون الأفريقي، وصف أفريقيا، ص٥٨٥.

(٥) المصدر ذاته، ص٥٨٥-٥٨٦.

(٦) الخالدي، المقصد الرفيع، ورقة ١٧. وابن الصيرفي، نزعة النفوس، ج١، ص١٠٦.

## ٣- والي القلعة:

ويسمى نائب القلعة، ويعين من قبل السلطان وهو من أمراء الطبليخانة<sup>(١)</sup>. ويشرف على فتح باب القلعة الكبير المخصص لدخول الجند وخروجهم وإغلاقه، ويتفقد أسوار القلعة ومنافذها، والعمل على إصلاحها<sup>(٢)</sup>.

## ٧- إدارة نيابات السلطنة في مصر:

تتمثل إدارة نيابات السلطنة في دولة المماليك بنواب السلطنة. وفي مصر ثلاث نيابات استحدثت بعضها في دولة المماليك الأولى كنيابة الإسكندرية، والبعض الآخر في دولة المماليك الثانية في فترة حكم السلطان برقوق كنيابة الوجه القبلي ونيابة الوجه البحري.

١- نيابة الإسكندرية: وهي من أكبر نيابات السلطنة في مصر، ويتولى إدارتها نائب السلطنة في الإسكندرية. وقد استحدثها السلطان الأشرف شعبان بن حسين سنة ٧٦٧هـ / ١٣٦٥م، عندما هاجم الفرنج مدينة الإسكندرية، وأسروا وقتلوا عدداً كبيراً من مدينة الإسكندرية. وكانت الإسكندرية قبل أن تصبح نيابة ولاية تابعة للوجه البحري يعين عليها أحد أمراء الطبليخانة<sup>(٣)</sup>. ثم أصبحت بعد ذلك نيابة يتولاها أمير مائة مقدمة ألف، يساعد نائب الإسكندرية حاجب برتبة أمير عشرة، وحاجب جندي، ووالي المدينة، كما يوجد في نيابة الإسكندرية عدد من أجناد الحلقة، يقدر عددهم بحوالي مائتي جندي لحمايتها من الاعتداءات. وقاضي قضاة مالكي-

(١) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١١٤. والقلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٤٢.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٢٥٦. والخالدي، المقصد الرفيع، ورقة ١٧.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٦٥. وانظر نص بولاية الإسكندرية. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١١، ص ٥٥-٥٨. وعلي إبراهيم، المماليك البحرية، ص ٢٢٤.

هو أكبر القضاة فيها- وأخر حنفي، وكاتب سر، وناظر للإشراف على الشؤون المالية في الديوان ومحتسب. ويعد وكيل بيت المال في نيابة الإسكندرية نائباً عن نائب بيت المال في القاهرة.

ونياحة الإسكندرية ليس لها أعمال تابعة لها، وإنما تقتصر على المدينة نفسها وضواحيها، وتختلف عن غيرها من نيابات السلطنة في مصر؛ بوجود مقر لنائب السلطنة وهو دار النيابة، وعادة الخدمة السلطانية في نيابة الإسكندرية في أيام المراكب أن يركب نائب السلطنة من دار النيابة وفي خدمته المالِك والأجناد<sup>(١)</sup>.

#### ٢- نيابة الوجه البحري ونيابة الوجه القبلي:

كان ثمة كاشفان بالوجهين البحري والقبلي يسمى كل منهما والي الولاية، وذلك قبل أن يستحدث السلطان برقوق النيابة بهذين الوجهين. وحين أصبح كل من الوجه البحري والوجه القبلي نيابة، جعل للوجه البحري كاشفاً من أمراء الطبليخانة، وهو تحت أمر نائب الوجه البحري، وجعل مقر نيابته منية غمر في الشرقية، وعين كاشفاً آخر للبهنسي، والفيوم، وألغى منصب والي من الفيوم، وأصبحت باقي بلاد الوجه القبلي تحت إمرة نائب الوجه القبلي، كما عين للجيزة كاشفاً يقوم بالإشراف على الجسور وسائر متعلقاتها. ولا تتعدى صلاحياته إلى نواح أخرى غيرها<sup>(٢)</sup>.

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٦٤-٦٥.

(٢) المصدر ذاته، ج ٤، ص ٦٧. والمقريني، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٥٢٠. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ١٦٧.

## ١- نيابة الوجه البحري:

وهي من النيابات التي استحدثت في عهد السلطان برقوق، ويتولاها نائب من الأمراء المقدمين (أمير مائة مقدمة ألف)، ومقر نيابتها مدينة دمنهور<sup>(١)</sup> بالبحيرة. ويتولى نائب الوجه البحري الحكم والإشراف على الولايات التابعة للوجه البحري وهي: ولاية الشرقية، ومقر ولايتها بلبيس، وولاية المنوفية، ومقر ولايتها مدينة منوف، وولاية الغربية، ومقر ولايتها المحلة الكبرى، وولاية الجيزة، ومقر ولايتها مدينة دمنهور بالبحيرة<sup>(٢)</sup>، وولاية اشموم، وولاية دمياط، وولاية قطيا<sup>(٣)</sup>. باستثناء نيابة الإسكندرية باعتبارها نيابة مستقلة<sup>(٤)</sup>.

أما صلاحيات نائب الوجه البحري فهي إقامة الشرع، وعمارة البلاد، وتنظيف القنوات والترع، وتوطين الفلاحين، وقمع الفساد، والفصل بين المتخاصمين<sup>(٥)</sup>.

## ب- نيابة الوجه القبلي:

وقد استحدثها السلطان الظاهر برقوق سنة ٧٨٤هـ / ١٢٨٢م. ومقر نيابتها مدينة أسيوط، وحكمه على جميع ولايات الوجه القبلي<sup>(٦)</sup>، وهي ولاية البهنسي، وولاية الأشمونين، وولاية قوص، وولاية أسوان وكانت قبل ذلك تابعة لوالي قوص الذي كان يعين نائباً عنه. وولاية الفيوم، وكانت قبل ذلك في دولة المماليك الأولى

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٦٧.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٦٦-٦٧، وابن شاهين، زبدة كشف المالك، ص ١٢٠.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٦٧-٦٨.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٦٥-٦٦، والمقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٨٥٠.

(٥) أنظر نص تقليد نائب الوجه البحري، القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١١، ص ٤٢٣-٤٢٤.

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٦٦، والخالدي، المقصد الرفيع، ورقة ١٨٤، والمقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٤٦٥.

إمرة طبليخانة، ثم أصبحت تحت إدارة أمير كاشف برتبة طبليخانة<sup>(١)</sup>. أما أسيوط فليس فيها وال باعتبارها مقر نائب الوجه القبلي<sup>(٢)</sup>.

ويتضح من خلال نص تقليد أحد نواب السلطنة في الوجه القبلي والوجه البحري أن سبب استحداث السلطان الظاهر برقوق هاتين النيابتين هو اتساع البلاد التابعة لها، وكثرة خيراتها، وازدياد عدد سكانها، وهما أفضل إقطاعات الأمراء<sup>(٣)</sup>، إضافة لضبط الأمن ومنع ثورات العربان.

### ج- الوظائف الدينية:

اتبعت دولة المماليك في فترة حكم السلطان برقوق التنظيمات الإدارية الدينية التي كانت متبعة في الدولة الأيوبية ودولة المماليك الأولى في مصر وبلاد الشام.

فقد قسّم المماليك الوظائف الدينية إلى أربعة أقسام وهي: قضاة القضاة، والإفتاء، ووكالة بيت المال والحسبة. ولم يختلف التنظيم الإداري للمؤسسة الدينية في مصر عن التنظيم القائم في بلاد الشام إلا بالحجم. وقد جعل المماليك على رأس كل وظيفة موظفاً من أرباب الأقاليم يعين من قبل السلطان. ولم تختلف الوظائف الدينية في العصر المملوكي الثاني عما كان عليه في العصر المملوكي الأول. باستثناء بعض التطورات التي طرأت على هذه الوظائف.

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٦، والمقريري، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٥١٢. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٩١.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٦٧.

(٣) أنظر نص تقليد أحد نواب السلطنة في الوجه القبلي والوجه البحري. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١١، ص ٤٢١، ٤٢٢، ٤٢٥.



١- قضاة القضاة: يعدّ منصب قضاء القضاة من أهم المناصب الدينية الرفيعة في دولة الماليك، لإشرافها على الأحكام الشرعية وتنفيذها، والفصل بين الخصوم، وتعين نواب الحكم<sup>(١)</sup>. والإشراف على أموال المحجور عليهم من المجانين واليتامى والمفلسين، ووصايا المسلمين، كالأيتام والغائبين<sup>(٢)</sup>، حيث أقرت سلطات الماليك مكاناً خاصاً في القاهرة يعرف باسم (مودع الحكم)<sup>(٣)</sup> يتولى الإشراف عليه موظفون متخصصون يعينهم القاضي ويسمون الأمناء أو أمناء الحكم<sup>(٤)</sup>.

وكان منصب قاضي القضاة في مصر وبلاد الشام في الدولة الفاطمية يقتصر على قاضي واحد. واستمر ذلك في دولة الماليك الأولى، ثم طرأ عليه بعض التطورات في فترة حكم السلطان بيبرس سنة ٦٦٣هـ / ١٢٦٤م. فأصبح لكل مذهب من المذاهب الأربعة: الشافعي، والمالكي، والحنفي، والحنبلي قاضي قضاة. ويبدو أن السلطان بيبرس أراد بذلك تحقيق مكاسب شخصية تمكنه من التصرف بأموال الأوقاف، ولا سيما بعد عجز بعض القضاة البت في إحدى قضايا الوقف. فحسن إليه أحد أمراء الماليك المقربين تعيين أربعة قضاة من المذاهب الأربعة<sup>(٥)</sup>. وربما كان ذلك زيادة في وعي السلطان بيبرس بأهمية توسيع قاعدة تمثل سائر الناس من اتباع مختلف المذاهب. واستمر ذلك في عهد السلطان برقوق<sup>(٦)</sup>.

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٣٥. وعبد المنعم ماجد، نظم نواة سلاطين الماليك، ص ٩٩.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٤٤-٢٤٥.

(٣) المقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ١٤٩.

(٤) عبد المنعم ماجد، نظم نواة سلاطين الماليك، ص ٩٩.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٣٥-٣٦. وعبد المنعم ماجد، نظم الفاطميين، ص ١٤٠.

(٦) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٤٤٧، ٤٧٨. وابن تفردي بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٢٧.

وكان لكل قاضي قضاة عدد من النواب يتولون القضاء نيابة عنه في مصر والقاهرة. ويسمون في بلاد الشام بنواب الحكم<sup>(١)</sup>. وصار من صلاحيات كل قاضي من القضاة الحق في أن ينيب من يشاء من النواب<sup>(٢)</sup>. شريطة أن يتصف النواب بالمعرفة والدراية بأمر الدين والقضاء<sup>(٣)</sup>. فاستكثر قضاة القضاة من النواب حتى ازداد عددهم عن الحد. فقد ذكر ابن الفرات أن عدد نواب الحكم وصل في عهد السلطان برقوق إلى أكثر من عشرين نائباً<sup>(٤)</sup>. مما دفع السلطان برقوق إلى تحديد عدد النواب، فجعل لكل قاض خمسة نواب<sup>(٥)</sup>، فنائب القاضي في غالب الأحيان كان يتولى إصدار الحكم النهائي في القضايا نيابة عن قاضي القضاة<sup>(٦)</sup>.

وقد حددت صلاحيات كل من القضاة الأربعة فيما يقتضيه مذهبهم بالقاهرة ومصر، وتعيين النواب في الأعمال، ويستقل قاضي قضاة الشافعية بتوليه النواب بنواحي الوجهين البحري والقبلي<sup>(٧)</sup>.

وثمة عدد من الشهود العدول يقومون بوظيفة من وظائف القضاء ولهم دكاكين ومصاطب خاصة يجلسون عليها، ويأتي إليهم أصحاب المعاملات للإشهاد<sup>(٨)</sup>.

(١) السيوطي، حسن المحاضرة، ج ٢، ص ٩٩. والقلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٣٦. وابن شاهين، زبدة كشف المعالك، ص ٩٢.

(٢) عبد المنعم ماجد، نظم نولة سلاطين المعاليك، ص ٩٩.

(٣) Carl Petry, Diwan officials, vol. 21, part. 2, p. 61.

(٤) ابن الفرات، تاريخ، ج ٩، ص ٢٩٨. والمقرئزي، السلوك، ج ٢، ص ٧٦٤.

(٥) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ص ٤٥١.

(٦) Carl Petry, Diwan officials, vol. 21, part. 2, p. 61.

(٧) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٣٧.

(٨) ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٤٨-٢٤٩.

Carl Petry, Diwan Officials, vol. 21, part. 2, p.p. 54-57.

وأغلب القضايا كانت تقدم إلى قاضي القضاة من خلال الشهود<sup>(١)</sup>. ومن المهام التي يقوم بها الشهود الشهادة بين الناس فيما لهم وعليهم وحل المنازعات، وكتابة الأحكام الصادرة من قاضي القضاة أو نواب القضاة في سجلات خاصة لحفظ حقوقهم، وأملاكهم وديونهم وسائر المعاملات<sup>(٢)</sup>. ويشترط فيمن يتولى الشهادة أن يتصف بالعدالة الشرعية، وحسن السيرة والعلم، والخبرة في مجال كتابة السجلات الرسمية والعقود من حيث عباراتها وإحكام شروطها الشرعية وعقودها<sup>(٣)</sup>. ويجب على القاضي مراقبة الشهود، والتأكد من سيرتهم، والتزامهم بالعدالة، والمعرفة وعدم إهمال ذلك لما يتعين عليه من حفظ حقوق الناس؛ إذ بتعيين الشهود في هذه الوظيفة تم الفائدة بسبب اضطرار القضاة إلى الفصل بين المتنازعين بالبيانات الموثقة اعتماداً على الشهود<sup>(٤)</sup>. وحين أخلّ القضاة في زيادة أعداد الشهود دون التأكد من عدالتهم ومعرفتهم لأمر الدين ومعرفة كتابة العقود والسجلات، أصدر السلطان الظاهر برقوق مرسوماً سنة ٨٠٠هـ / ١٣٩٧م يقضي بعزل جميع الشهود الذين عرفوا بسوء السيرة والجهالة، وعين مكانهم من يعرف بحسن السيرة والخبرة والمعرفة<sup>(٥)</sup>.

ويبدو أن القضاة لم يلقوا الاحترام والتقدير من قبل السلطان الظاهر برقوق ولا سيما في الفترة الثانية من حكمه. إذ كثيراً ما تعرض القضاة وغيرهم من الفقهاء إلى إذلال السلطان برقوق<sup>(٦)</sup> بسبب الفتوى التي كتبها عدد من القضاة

(١) Carl Petry, Diwan officials, vol. 21, part. 2, p. 61.

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٤٩. وعلي إبراهيم حسن، مصر في العصور الوسطى، ص ٤٠٤. وعبد المنعم ماجد، نظم سلاطين المماليك، ص ١٠٠-١٠٢.

(٣) ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٤٩. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٥٢٢.

(٤) ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٤٨.

(٥) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٥٢٢.

(٦) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٢٩١.

أثناء فتنة يلبغا الناصري ومنطاش وتقتضي بعزل السلطان برقوق وقتله، وإعادة السلطان أمير حاجي، فضلاً عن سعي بعض القضاة في الحصول على المناصب عن طريق الرشوة<sup>(١)</sup>.

ولم يختلف تنظيم مؤسسة القضاء في بلاد الشام عن التنظيم القائم في مصر إلا بالحجم واستحداث السلطان برقوق منصب قاضي للقضاة الحنفية في القدس وغزة<sup>(٢)</sup>.

وقد تعرضت مؤسسة القضاء في بلاد الشام إلى الإهمال وسوء الاختيار من قبل السلطان برقوق بسبب انتشار ظاهرة الرشوة في الحصول على منصب قاضي القضاة وعدم التأكد من حسن سيرتهم ومعرفتهم في الأمور الدينية بدليل عزل السلطان برقوق للقضاة الأربعة في يوم واحد بسبب خلافات نشبت بين القضاة وقذف أعراض بعضهم بالفسوق<sup>(٣)</sup>.

٢- الافتاء: وهي من الوظائف الدينية، وتعني توضيح نصوص الشريعة الإسلامية والقضايا الشرعية التي يستعصي على العامة، وهي من الوظائف الجلية في الدولة. فكان المفتي يجلس حيث يجلس السلطان لفصل الخصومات وترتيبها، والافتاء في المسائل التي تعرض عليه بدار العدل. وكان في مصر وبلاد الشام أربعة مفتين: شافعي ومالكي وحنفي وحنبلي<sup>(٤)</sup>.

(١) ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ٢، ص ٨٧-٨٨.

(٢) ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج ٢، ص ٩٢. والمقرئبي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٤٨٠. وابن إياس، ج ١، ق ٢، ص ٤٥٢.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٢٤٩.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٧، ج ١١، ص ٢٠٥. والسيوطي، حسن المحاضرة، ج ٢، ص ١٠٨. وانظر ابن جماعة، تحرير الأحكام، ص ٩٠.

٣- وكالة بيت المال: إحدى الوظائف الدينية في دولة المماليك، تتولى الإشراف على الشؤون المالية في بيت المال كالمبيعات والمشتريات من الأراضي والدور وغيرها، يتولى إدارتها موظف يسمى وكيل بيت المال. يتصف بالعلم والدين ويراعي حرمة الله<sup>(١)</sup>. ويكون مجلسه بدار العدل حسب مكانته في الدولة: إما فوق المحتسب أو دونه<sup>(٢)</sup>. واستقرت وكالة بيت المال على ماهية في فترة حكم السلطان برقوق.

٤- الحسبة: تعدّ وظيفة الحسبة من أهم الوظائف الدينية التي تعني الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والأخذ على يد الخارج عن طريق الصلاح في معيشته وصناعته<sup>(٣)</sup>. ويتولاها موظف من قبل السلطان يسمى المحتسب. ويوجد في مصر محتسبان: واحد في القاهرة يتصرف بالحكم والتولية بالوجه البحري باستثناء الإسكندرية لوجود محتسب فيها. والآخر في القسطنطينية وهو المسؤول عن الوجه القبلي، وهو أقل مكانة من محتسب القاهرة من حيث الرفعة لجلوس محتسب القاهرة بدار العدل في المواكب الرسمية في الدولة. ويكون مجلسه دون وكيل بيت المال وربما أعلى منه درجة<sup>(٤)</sup>. ويوجد في كل نيابة من نيابات بلاد الشام محتسب<sup>(٥)</sup>.

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٨. والمقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٤٧٨.

(٢) المصدر ذاته، ج ٤، ص ٣٨.

(٣) المصدر ذاته، ج ٤، ص ٣٨. والقلقشندي، مآثر الأنافة، ج ١، ص ٧٩. والخالدي، المقصد الرفيع، ورقة ١١٣٢.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٠٠، ٢٢٨، ٢٤٠. والمقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٦٣٤. والمقرئزي، الخطط، ج ١، ص ٤٦٢.

(٥) ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ٢، ص ٣٣١.

ويقوم المحتسب بمهام متعددة كالنظر في المكاييل والأوزان، والتحذير من الغش، ومراقبة الأسعار والأسواق، وحمل الناس على المصالح العامة في المدينة، ومنع مضايقة الناس في الطرقات، ومنع الحمالين وأصحاب السفن والمراكب من الإكثار في الأحمال، والحكم على أصحاب المباني المتداعية للسقوط بهدمها، وإزالة ما يتوقع من ضررها على المشاة، وضرب المعلمين الطلاب والمتعلمين في الكتاب، والإبلاغ عنها<sup>(١)</sup>.

ويجب أن يتصف المحتسب بمعرفة الأحكام من العبادات، ومعاملات البيع والشراء، والذبائح وشروطها، والشهادات والإقرار، والأحكام ليأخذ الناس بها، كما يحتاج إلى معرفة جيد الصنائع والنقود من رديئها، وخالصها من مفسوشها<sup>(٢)</sup>. ويشترط في المحتسب أن يكون من وجوه العدل وأعيانهم، لأنه مفوض من قبل السلطان، ولا يكون تعيينه إلا إذا خلع عليه وقرئ مرسوم تعيينه على المنابر يوم الجمعة في مصر والقاهرة<sup>(٣)</sup>.

وقد طرأت عدة تطورات على الحسبة في عهد السلطان برقوق. فقد اضطربت أمورها، ولم تعد وظيفة دينية تعني الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل أصبحت وظيفة تباع وتشترى، وصارت لمن يبذل مالا كثيرا<sup>(٤)</sup>. وكان هدف من يتولاها الاستفادة من صلاحيات منصب الحسبة لتحقيق منافع ذاتية<sup>(٥)</sup> لذلك ترتب على ولاية بعض الأشخاص ارتفاع الأسعار، ففي سنة ٧٩٩هـ / ١٣٩٦م ولي البهاء محمد

(١) ابن خلدون، المقدمة، ص ٢٤٩، والفلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٩٢، ٢٢١. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ١٦٨.

(٢) الميرد، الحسبة، ص ٢٨٥-٢٨٦.

(٣) المقرئ، الخطط، ج ١، ص ٤٦٣-٤٦٤.

(٤) المقرئ، السلوك، ج ٢، ص ٤٦٦، ٥٦٦. والمقرئ، إغاثة الأمة، ص ٤٢. وأحمد دراج، الحسبة، ص ١١٦. وأحمد عبد الرزاق، البذل والبرطلة، ص ١١٧.

(٥) سعيد صالح، التجارة الداخلية، ص ١٨٢.

ابن البرجي<sup>(١)</sup> الحسبة في القاهرة، ودفع في ذلك مالا فتشأه الناس بولايته، وارتفعت الأسعار<sup>(٢)</sup>.

كما تدخل العامة في تعيين المحتسب وعزله، وتقديم الشكاوى للسلطان. والتشكيك في أمانة المحتسب. ففي سنة ٥٧٩٩هـ / ١٣٩٦م طلب العامة من السلطان برفوق عزل المحتسب، وتعيين بدلاً منه<sup>(٣)</sup>. وفي سنة ٨٠٠هـ / ١٣٩٧م عزل شعبان بن محمد من حسبة القاهرة بعد توليته بأيام فقد حضر بعض العامة وشككوا في أمانته ونزاهته، فأهين إهانة بالغة<sup>(٤)</sup>.

وثمة وظائف دينية أخرى كمنقابة الأشراف وهي وظيفة شريفة، ومرتبة نفيسة، ويتناول موضوعها ولد علي بن أبي طالب كرم الله وجهه من فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم - وهم الأشراف - في الفحص عن أنسابهم والتحدث في أقاربهم والأخذ على يد المعتدي منهم ونحو ذلك. ومشيخة الشيوخ، ويقصد بها مشيخة الخانقاه التي أنشأها السلطان الناصر محمد بن قلاوون بسرياقوس إحدى ضواحي القاهرة؛ وخانقاه الصلاحية بالقاهرة المعروفة بسعيد السعداء<sup>(٥)</sup>. ونظر الأحباس المبرورة، وموضوعها الإشراف على أموال الجوامع والمساجد والرُّبُط والزوايا والمدارس من الأراضي المفردة لذلك من نواحي الديار المصرية خاصة وما هو من ذلك على سبيل البر والصدقة لأناس معينين. ويعود أصل وظيفة نظر الأحباس إلى الأمام المصري الليث بن سعد<sup>(٦)</sup> الذي اشترى عدة

(١) بهاء الدين محمد بن البرجي تولى عدة وظائف غير منصب الحسبة في القاهرة في عهد السلطان برفوق. مثل وكالة بيت المال وشاد العمائر السلطانية (ت ٨٢٤هـ / ١٤٢١م). ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ١، ص ٤١٨. والسخاوي، وجزير الكلام، ج ٢، ص ٢٧٠.

(٢) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٨٧٢. وابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ١، ص ٥٢٤. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٤٨٦.

(٣) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٢٧٥.

(٤) المصدر ذاته، ج ٢، ق ٢، ص ٩٠١. والعيني، عقد الجمان (حوادث ٨١٤-٨٢٣هـ)، ص ١٦٨.

(٥) القلقشندي، صيغ الأعيان، ج ٤، ص ٢٨-٢٩. وابن الصيرفي، نزعة النفوس، ج ١، ص ٤٦٤.

(٦) اشتغل بالفتوى والحديث توفي سنة (١٧٥هـ / ٧٩١م). ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٢، ص ٨٢.

أراضٍ من بيت المال في نواحٍ من البلدان وحبسها على وجوه البرّ، ثم أضيف إلى ذلك الدور المعروفة بالفسطاط، ينضاف إلى ذلك مرتبات عمال البريد وعلف خيولهم. وفي فترة حكم السلطان بيبرس اتسع ديوان الأعباس وازدادت الأراضي التابعة له، وظلت في ازدياد مستمر في فترة حكم السلطان الظاهر برقوق، وابنه الناصر فرج، وكان يتولى الإشراف عليها الدوادر<sup>(١)</sup>. ونظر البيمارستان والمقصود بذلك البيمارستان المنصوري الذي أنشأه السلطان المنصور قلاوون بين القصرين، وكان يتولى الإشراف عليه أحد كبار أمراء المماليك في مصر<sup>(٢)</sup>. ثم طرأ عليه تغيير في سنة ٨٠٠هـ / ١٣٩٧م وصار يتولى الإشراف عليه كل من يلي منصب أتابك العساكر في مصر<sup>(٣)</sup>.

أما الخطابة، فهي من أجلّ الوظائف الدينية وأعلىها مرتبة، حيث كان الرسول صلى الله عليه وسلم يتولى الخطابة بنفسه، ثم فعلها الخلفاء الراشدون من بعدهم، وكثرت أعداد الجوامع في مصر، وصار ما يتعلق بالسلطان قليل جداً، مثل جامع القلعة<sup>(٤)</sup>. والتدريس وهي على اختلاف أنواعها من الفقه والحديث والتفسير والنحو واللغة وغير ذلك لا يولي السلطان فيها إلا فيما يعظم خطره ويرتفع شأنه مما لا ناظر خاص له كالمدرسة الصلاحية<sup>(٥)</sup>، والزاوية الصلاحية<sup>(٦)</sup> بالجامع العتيق بالفسطاط<sup>(٧)</sup>.

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٩. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٤٦١.

(٢) المصدر ذاته، ج ٤، ص ٢٩-٤٠.

(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٧٩. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٤٦٣.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٤٠.

(٥) أنشأها صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٧٢هـ / ١١٧٦م). المقرئ، الخطط، ج ٢، ص ٤١٥.

(٦) وتعرف بزاوية الإمام الشافعي. المقرئ، الخطط، ج ٢، ص ٢٥٥.

(٧) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٤٠.



### ٣- الإدارة المحلية لنيابات السلطنة في بلاد الشام.

لقد طبقت دولة المماليك في فترة حكم السلطان برقوق نظاماً إدارياً واحداً في مصر ومختلف نيابات بلاد الشام، كدمشق، وحلب، وحماة، وطرابلس، وصفد، والكرك. باستثناء اقتصار بعض الوظائف العسكرية على مصر لاختصاصها بالسلطان مثل: رأس نوبة، وأمير مجلس، وأمير سلاح، وأمير أخور، وأمير جاندار، واستدار المباشرة، واستدار الصحبة، وشاد الشراب خاناه، والجاشنكير، ومقدم المماليك. ويذكر القلقشندي أن أغلب وظائف الأمراء الموجودة في مصر ليست موجودة في نيابات بلاد الشام. وإنما لنواب السلطنة في مختلف نيابات بلاد الشام كدمشق وحلب وغيرها مثلهم من أمراء نياباتهم<sup>(١)</sup>. ولا تختلف النظم الإدارية في بلاد الشام عن النظم الإدارية القائمة في مصر سوى بالحجم ويقسم إلى: وظائف عسكرية، ووظائف ديوانية، ووظائف دينية.

وفي هذه الدراسة سأكتفي باستعراض الوظائف العسكرية لوجود اختلاف بين نيابات بلاد الشام من جهة، ومصر من جهة أخرى من حيث موضوع الوظيفة ورتبة متوليها، وتشابه الوظائف الديوانية والدينية في مصر ونيابات بلاد الشام المختلفة.

#### ١- الوظائف العسكرية:

١- نيابة السلطنة: وهي أرفع الوظائف العسكرية في دمشق. ونائب السلطنة في دمشق يضاهي نائب السلطنة في مصر من حيث الرتبة والألقاب والمكاتبات، ويسمى نائب السلطنة بالشام المحروسة، ويتولى بتقليد شريف من قبل السلطان في مصر. حيث يقوم نائب السلطنة في دمشق مقام السلطان في الأمور التي تتعلق بناية دمشق. مثل كتابة التوقيع عن السلطان، وتوزيع الإقطاعات على الجند، وتجهيزها إلى السلطان ليوقع عليها. كما يوقع على المناشير والمراسيم المتعلقة بناية دمشق. كما يضاف إليه نظر البيمارستان النوري بدمشق والجامع الأموي<sup>(٢)</sup>.

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٩٥، ١٢٦.

(٢) المصدر ذاته، ج ٤، ص ١٩٠-١٩٢. وابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١٢٢. وسعيد عاشور، الأيوبيون والمماليك، ص ١١٢.

أما نيابة السلطنة في حلب، فتأتي في المرتبة الثانية بعد نيابة دمشق، ويسمى نائب السلطنة فيها بنائب السلطنة الشريفة، ويوقع نائب حلب على أكثر الوظائف في نيابة حلب وأعمالها، كما يكتب عنه المناشير الإقطاعية، ويوقع على كل ما يتعلق بنيابة حلب من المناشير والتواقيع والمراسيم الشريفة بالاعتماد على ما يكتب السلطان. ويزيد نائب حلب على نائب دمشق بأنه يخرج للصيد مرتين: الأولى في حلب في القسم الغربي للفرات يتصيد فيها الغزلان، ويقام فيها نحو عشرة أيام؛ والثانية وهي العظمى يعبر فيها الفرات إلى بر الجزيرة شرقي الفرات، ويتنقل في نواحيها مما هو داخل في الديار المصرية وما حولها، يتصيد فيها الغزلان وغيرها من سائر الوحوش، ويقام فيها نحو شهر<sup>(١)</sup>. أما نيابة حماة، فنائب السلطنة فيها يتولى منح الإمرة والإقطاعات، وتولية القضاة، والوزراء وكتاب السر، ويتولى الكتابة على المناشير، لكنه لا يستطيع أن يمنح إمرة أو وظيفة دون مشاورة نائب السلطنة في مصر. وربما يكتب نائب السلطنة في مصر لنائب السلطنة في حماة بالتصرف في نيابة حماة<sup>(٢)</sup>.

وتعد نيابة طرابلس<sup>(٣)</sup>، ونيابة صغد<sup>(٤)</sup>، ونيابة الكرك من النيابات الجليلة في بلاد الشام، ويتولى نياباتها أحد كبار الأمراء المقدمين في دولة المماليك، ويتصرفون في جميع أمور نيابة السلطنة، وكان لكل نيابة عسكريها الخاص ودواوينها<sup>(٥)</sup>. ولم تختلف التنظيمات المملوكية في نيابة طرابلس وصغد، والكرك في عهد السلطان برقوق عما كانت عليه في دولة المماليك الأولى.

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٢٤. وابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١٢٢.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٤٤-٢٤٤. وابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١٢٢.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٤٠. وابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١٢٢.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٤٦. وابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١٢٤.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٤٧. ويوسف غوانمة، التاريخ الحضاري، ص ٣٠.

٢- نيابة القلعة: إحدى وظائف أرباب السيوف، وهي نيابة مستقلة في مختلف نيابات بلاد الشام عن نائب السلطنة، وليس لنائب السلطنة من سلطة عليها. ويتولاها موظف يسمى نائب القلعة بمرسوم شريف من قبل السلطان في مصر. وقد كان يتولى نيابة القلعة في نيابات بلاد الشام في دولة المماليك الأولى أمير مائة مقدمة ألف، ثم استقرت في فترة حكم السلطان برقوق إمرة طبلخاناه<sup>(١)</sup>. قبل حركة يلبيغا الناصري نائب حلب سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٨م وبعد تلك الحركة غير السلطان برقوق رتبة نائب القلعة في مختلف نيابات بلاد الشام إلى رتبة أمير مائة مقدمة ألف<sup>(٢)</sup>. وربما قصد السلطان برقوق من هذا التغيير مساواة رتبة نائب القلعة برتبة نائب السلطنة نظراً لكثرة عصيان نواب السلطنة فقد أخذ السلاطين يعتمدون على نائب القلعة لحماية المدينة والقلعة من النواب الخارجين عن الطاعة. وكان نواب السلطنة قبل حركة يلبيغا الناصري ومنطاش يستولون على القلعة لأنهم اعتبروا أن رتبة نائب القلعة أقل من رتبتهم، ولكن بعد حركة يلبيغا الناصري ومنطاش وجد نواب السلطنة الخارجين عن الطاعة صعوبة في الاستيلاء على القلعة نظراً لأن رتبة نائبها أصبحت مساوية لرتبتهم.

أما اختصاصات نائب القلعة فهي حفظ القلعة وصونها<sup>(٣)</sup>، والإشراف على فتح باب القلعة وإغلاقه، والعمل على إصلاح ما تهدم من عمارتها<sup>(٤)</sup>. ولنائب القلعة أجناد من البحرية يقيمون في القلعة، ويتولون مهمة حفظها<sup>(٥)</sup>.

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص١٩١، ٢٢٤، ٢٢٥، ٢٤٦، ٢٤٨. وابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص١١٤.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص١٩١، ٢٢٤، ٢٢٧. وابن الشحنة، الدر المنتخب، ص٢٥٨. وابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص١٣٣.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص١٩١، ٢٢٤. غوانمة، التاريخ الحضاري، ص٢٣.

(٤) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٢٥٦.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص١٩١، ٢٢٥، ٢٤٨، ٢٤٦.

٢- الجيوبية: وهي من الوظائف الهامة في نيابات بلاد الشام، ويتولاها موظف يسمى أمير حاجب أو حاجب الحجاب. وقد كان في نيابة دمشق وحلب أربعة حجاب أحدهم برتبة أمير مائة مقدمة ألف وثلاثة أمراء طبلخاناه أو أمير طبلخاناه وأمير عشرون وأمير عشرة. ثم طرأ تغيير على عدد الحجاب في فترة حكم السلطان برقوق وأصبح خمسة أو ستة حجاب<sup>(١)</sup>. وفي طرابلس وصفد ثلاثة حجاب أكبرهم رتبة إمرة طبلخاناه، والآخران إمرة عشرة<sup>(٢)</sup>. وفي نيابة حماة والكرك حاجبان الأول أمير طبلخاناه والآخر أمير عشرة<sup>(٣)</sup>.

ويتولى حاجب الحجاب في مختلف نيابات بلاد الشام نيابة الغيبة عند خروج نائب السلطنة في مهم أو غيره، كما يتولى القبض على نائب السلطنة إذا أمر السلطان بذلك، وتنفيذ أمر السلطان به من السجن أو القتل. ويتولى حاجب الحجاب نيابة السلطنة حتى يعين السلطان نائباً آخر<sup>(٤)</sup>. ومن الشواهد التاريخية على ذلك أن السلطان برقوق أرسل رسالة إلى الأمير سودون المظفري<sup>(٥)</sup> حاجب الحجاب في حلب يطلب منه اعتقال الأمير يلبغا الناصري نائب حلب إلا أن يلبغا الناصري تمكن من قتل سودون المظفري<sup>(٦)</sup> كما طلب السلطان برقوق من الأمير قمش حاجب حجاب طرابلس أن يقتل نائب السلطنة بطرابلس الأمير يونس بلطا

(١) القلقشندي، صبح الأمشي، ج ٤، ص ١٩٢، ١٢٢٥. والمقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٤٨٠. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٢٨. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٥١.

(٢) القلقشندي، صبح الأمشي، ج ٤، ص ٢٤٠، ٢٤٦.

(٣) المصدر ذاته، ج ٤، ص ٢٤٤. وابن شاهين، زبدة كشف المالك، ص ١٣٢.

(٤) المصدر ذاته، ج ٤، ص ١٩٢، ٢٢٥، ٢٤٦. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٣٦.

(٥) تولى منصب الجيوبية في حلب ثم أصبح نائباً للسلطنة في حلب من سنة (٧٨٩هـ-٧٩٠هـ) إلى أن قتله يلبغا الناصري. ابن الخطيب الناصرية، الدر المنتخب، ج ٢، ص ٥٠١. وابن قاضي شهبة، تاريخ، ص ٣٠٩.

(٦) ابن الخطيب الناصرية، الدر المنتخب، ج ١، ص ٥٠١. وابن قاضي شهبة، تاريخ، ص ٢٥٥. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٨٥. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٣١٢.

الرماح لانضمامه إلى الأمير تنم الذي أعلن العصيان على السلطان، وأن يتولى نيابة السلطنة مكانه<sup>(١)</sup>. كما تولى اسندمر الحمدي حاجب الحجاب بطرابلس نيابة السلطنة سنة ٧٩٠هـ / ١٣٨٨م بعد عزل نائبها الأمير كمشبغا الحموي اليلبغاوي<sup>(٢)</sup>.

يلاحظ من تتبع دراسة تطور منصب حاجب الحجاب في مختلف نيابات بلاد الشام أن التغيير والتطور الذي طرأ على هذه الوظيفة في فترة حكم السلطان برقوق تبين أهمية منصب حاجب الحجاب ومساواتها بمنصب نائب السلطنة ومما يؤكد ذلك الصلاحيات التي منحها السلطان لحاجب الحجاب، فضلاً عن ذلك فإن التطور الذي طرأ على هذه الوظيفة له ارتباط واضح في التطورات السياسية في مختلف نيابات بلاد الشام والمحاولات المتكررة من قبل نواب السلطنة إعلان العصيان ومحاولة الوصول إلى السلطة كمحاولة يلبغا الناصري عزل السلطان برقوق وتولى السلطنة. لذلك استحدث السلطان برقوق منصب حاجب خامس في نيابة دمشق وحلب أكبر نيابات السلطنة في بلاد الشام. وربما قصد السلطان برقوق من زيادة عدد الحجاب في نيابة دمشق وحلب إلى خمسة أو ستة حجاب إتاحة الفرصة أمام حاجب الحجاب للقيام بمهام نائب السلطنة في حال غيابه عن السلطنة أو عزله حتى يتم تعيين نائباً آخر.

٤- والي المدينة: وهي إحدى وظائف أرباب السيوف ويتولاها موظف يسمى والي المدينة، ويقوم بتوقيع كريمة عن نائب السلطنة في النيابة. ومهمته حفظ الأمن والاستقرار والنظام في المدينة. وهي في نيابة دمشق وحلب برتبة أمير عشرة أو

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٢، ص١٨١، ٢١٠، ٢١٢، ٢١٣. والسخاوي، الضوء اللامع، ج٦، ص٢٢٠-٢٢١.

(٢) المقرئزي، السلوك، ج٢، ق٢، ص٥٨٤. وابن حبيب، درة الأسلاك، ج٣، ورقة ٢٢٤. والسخاوي، الضوء اللامع، ج٦، ص٢٢٠. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج١، ص١٧٦.

جندي حلقة<sup>(١)</sup>، كما يلي ولاية المدينة في طرابلس وحماة وصفد جندي حلقة<sup>(٢)</sup>. أما في نيابة الكرك فيطلق على والي المدينة اسم والي الشرطة<sup>(٣)</sup>.

٥- المهندارية: وهي من الوظائف العسكرية، ويتولاها أمير مائة مقدمة ألف كما في دمشق، ومهمته استقبال الرسل الوافدين إلى نيابة السلطنة، وقد يتولاها في أحيان أخرى أميران: أحدهما: أمير عشرة، والآخر جندي حلقة<sup>(٤)</sup>. أما نيابة حلب ففيها أميران إما برتبة أمير طبخاناة أو أمير عشرة، والآخر جندي حلقة<sup>(٥)</sup>.

أما نيابة طرابلس، فقد كان يتولى منصب المهندارية مهندار واحد<sup>(٦)</sup>، ونيابة الكرك مهندار واحد برتبة أمير مائة مقدمة ألف<sup>(٧)</sup>، ونيابة حماة مهنداران برتبة جندي حلقة<sup>(٨)</sup>.

٦- أمير آخور البريد: وتعني الإشراف على خيول البريد، وكان يتولى إدارتها في نيابة دمشق في دولة المماليك الأولى في فترة حكم السلطان الناصر محمد بن قلاوون أمير عشرة وظلت كذلك في فترة حكم السلطان الظاهر برقوق<sup>(٩)</sup>. أما نيابة

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص١٩٤، ١٢٦، والسبكي، معبد النعم، ص٤٢.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٢٤٠، ٢٤٤، ٢٤٦.

(٣) غوانمة، التاريخ الحضاري، ص٢٤.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٢٢٥.

(٥) السبكي، معبد النعم، ص٢١، وابن قاضي شهبه، تاريخ، ص٢٨٢.

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٢٤٠. وسليمان خرايشة، مملكة طرابلس، ص١٥١.

(٧) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٢٤٢. ومحمد عدنان البخيت، ١٩٧٦م، مملكة الكرك، ص٦١، وغوانمة، التاريخ الحضاري، ص٣٦.

(٨) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٢٤٤.

(٩) المصدر ذاته، ج٤، ص٢٤٠.

طرابلس، ونيابة حماة، ونيابة صفد، فقد أشار القلقشندي (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م) إلى وجود هذه الوظيفة إلا أنه لم يذكر رتبة متوليها<sup>(١)</sup>. وأما نيابة الكرك فلا يوجد فيها أمير أخور بريد لاختصاص صاحب البريد<sup>(٢)</sup> بالإشراف على جماعة البريدية في النيابة<sup>(٣)</sup>.

٧- مقدمة البريد: وهي من وظائف أرباب السيوف في بلاد الشام، ومهمتها الإشراف على جماعة البريدية، ذكر القلقشندي أن مقدمة البريد في فترة حكم السلطان الناصر قلاوون كان يتولاها واحد من جملة البريدية ثم استقرت في دولة المماليك الثانية فتولاها أميران: واحد أمير عشرة وآخر أمير خمسة وجندي حلقة. ويتولى مقدم البريد في مختلف نيابات بلاد الشام هذه الوظيفة من قبل نائب السلطنة بتوقيع كريم<sup>(٤)</sup>.

#### ب- الوظائف الديوانية:

تعد الوظائف الديوانية في بلاد متشابهة في مختلف النيابات كما تتشابه مع الوظائف الديوانية في مصر: وهي الوزارة، وكاتب السر<sup>(٥)</sup>، ونظر الجيش<sup>(٦)</sup>، ونظر المهمات الشريفة وهي من الوظائف التي يتولاها أرباب الأقاليم مشاركة مع شاد المهمات أحد موظفي أرباب السيوف. مثل نائب السلطنة أو حاجب الحجاب،

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٤٠، ٢٤٤، ٢٤٦.

(٢) ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٢٥١.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٤٨.

(٤) المصدر ذاته، ج ٤، ص ٢٢٦، ٢٤٠، ٢٤٤.

(٥) المصدر ذاته، ج ٤، ص ١٩٥، ٢٢٦.

(٦) المصدر ذاته، ج ٤، ص ١٩٦، ٢٢٦. والمقرئ، الخطط، ج ٢، ص ٢٢٧.

وتكون في بعض الأحيان مضافة إلى الوزارة، وأحياناً تكون مستقلة عن الوزارة حسب ما يراه السلطان<sup>(١)</sup>. ونظر الخاص للإشراف على ما يتعلق بالمستأجرات السلطانية وغيرها من الأغوار. وربما أضيف نظرها للوزير. ونظر الخزانة، ونظر البيمارستان، ونظر الجامع الأموي، ونظر خزائن السلاح، ونظر الخزانة، ونظر البيوت. ذكر القلقشندي قال: «وأخبرني بعض الدمشقيين أن هذه الوظيفة اسم على غير مسمى لا حقيقة لها ولا مباشرة، لعدم وجود بيوت سلطانية في دمشق»<sup>(٢)</sup>. ورغم ما يذكره القلقشندي فإن هذه الوظيفة كانت موجودة من حيث التنظيم الإداري في دمشق وموضوعها كما في مصر، ولايتها عن نائب السلطنة بتوقيع كريم<sup>(٣)</sup>. ونظر بيت المال، ونظر ديوان الأسرى للإشراف على الأوقاف المخصصة لافتداء الأسرى، ونظر الأسواق وموضوعها كما في مصر تشرف على سوق الرقيق والخيل وغيرها. ونظر مراكز البريد، ونظر الحوطات وهو مشابهة لاستيفاء الصحبة في مصر، ويتولى تحصيل الأموال السلطانية، ونظر المسابك. وينضم إلى كل وظيفة من هذه الوظائف مباشرون: من شهود وغيرهم، ويكتب لهم تواقع كريمة عن نائب السلطنة بوظائفهم<sup>(٤)</sup>.

### ج- الوظائف الدينية:

١- قضاة القضاة: وهي من الوظائف الدينية الهامة في دولة المماليك. إذ لا تخلو نيابة من نيابات السلطنة في بلاد الشام من أربعة قضاة. أعلاهم رتبة قاضي قضاة الشافعية، يليه الحنفي، ثم الحنبلي. على أن قرار تعيين الأربعة قضاة في نيابات بلاد الشام لم يطبق دفعة واحدة، بل كان على التدرج<sup>(٥)</sup>.

(١) القلقشندي، صبيح الأعيان، ج ٤، ص ١٩٧.

(٢) المصدر ذاته، ج ٤، ص ١٩٨، ٢٢٧. وابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١٢٤.

(٣) المصدر ذاته، ج ٤، ص ١٩٨.

(٤) المصدر ذاته، ج ٤، ص ٩٨، ٢٢٧، ٢٤٠، ٢٤٤، ٢٤٦.

(٥) المصدر ذاته، ج ٤، ص ١٩٩، ٢٢٧. غوانمة، التاريخ الحضاري، ص ٢٧.



٢- إفتاء دارالعدل: وهي كما في مصر، وبها مفتيان: أحدهما شافعي والآخر حنفي<sup>(١)</sup>.

وثمة وظائف دينية أخرى لا تختلف عن الوظائف الدينية في مصر كالحسبة، ونقابة الأشراف، ومشيخة الشيوخ، والخطابة، والتدريس<sup>(٢)</sup>.

إن تتبع دراسة تطور الوظائف الإدارية الدينية في مختلف نيابات بلاد الشام تبين عدم وجود تغيير على مختلف الوظائف الدينية باستثناء تعيين أربعة قضاة في جميع نيابات بلاد الشام، فضلاً عن تطبيق دولة المماليك، تنظيمياً إدارياً دينياً واحداً في مصر وبلاد الشام.

إن ثبات الإدارة وتطورها وتغييرها في مصر وبلاد الشام كان مبنياً على أساس منظم سارت عليه دولة المماليك في مختلف النواحي الإدارية والعسكرية، والديوانية، والقضائية. وليس لأحد من نواب السلطنة في مصر ممثلين بنائب السلطنة (النائب الكافل) أو نائب الاسكندرية، ونائب الوجه البحري أو نائب الوجه القبلي الحق في تعيين الولاة وعزلهم، لكن نائب السلطنة يكتب بعض الأمور والسلطان يباشر الكتابة على الولايات بنفسه، ونائب السلطنة يكتب بالاعتماد على ما يكتب عليه السلطان.

أما في نيابات السلطنة في بلاد الشام فإن نواب السلطنة يتصرفون في الولاية والعزل. من نيابات صغيرة، والوظائف الديوانية، والوظائف الدينية وغيرها. أما النيابات الصغيرة التي في أعمال النيابات الكبرى كنيابة دمشق،

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص١٩٩، ٢٨٨.

(٢) المصدر ذاته، ج٤، ص٢٠٠، ٢٢٨، ٢٤٠، ٢٤٤، ٢٤٦.

وحلب، وحماة، وطرابلس، وصفد، والكرك وغيرها، فمن كانت نيابته إمرة عشرة فأكثر يولي فيه نواب السلطنة، وربما يولي فيه السلطان، وما كانت نيابته إمرة طبخاناه فأكثر يولي فيه السلطان، وربما وُلِّي فيه النواب. وما كانت نيابته مقدمة ألف، فإن ولايته مختصة بالسلطان.

وأما الوظائف الديوانية، فما كان منها صغيراً مثل كتابة الدرج، فأكثر ما يوليها النواب. أما كُتَّاب السر، ونظر الجيش، ونظر المال، فتوليته مختصة بالسلطان. وما كان منها متوسطاً بين الطرفين مثل: كتابة الدست ونحوها: ففي دمشق كان السلطان يقوم بتوليبتها؛ وأحياناً نائب السلطنة. وفيما دونها من نيابات السلطنة في بلاد الشام فيولي فيها النواب، وقد يولي فيها السلطان.

أما الوظائف الدينية، فما كان منها صغيراً: كالتداريس الصفار، والخطابات بالجوامع الصغيرة، وأنظار المدارس والجوامع وغيرها، فإنه يولي فيها نواب السلطنة ولا يولي فيها السلطان إلا نادراً. أما قضاة القضاة فهي مختصة بالسلطان. وأما الحسبة، وإفتاء دار العدل، ووكالة بيت المال، ومشيخة الشيوخ فإن السلطان يولي فيها أحياناً، وحيناً آخر يولي فيها النواب. غير أن تولية السلطان في النيابات الكبرى كدمشق أكثر، وتولية النواب فيما دون ذلك أكثر<sup>(١)</sup>.

#### د- بيع الوظائف في عهد السلطان برقوق:

تعد ظاهرة بيع الوظائف أو البذل والبرطلة ظاهرة قديمة ترجع إلى القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي. إذ يذكر المقرئزي (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١م) «وأما البراطيل وهي الأموال التي تؤخذ من ولاية البلاد ومحتسبها وقضاتها وعمالها فأول من عمل ذلك بمصر الصالح بن رزك<sup>(٢)</sup> في ولاية النواحي فسقط ثم أبطل.

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٢، ص ٢، ٥.

(٢) الصالح بن ملاح بن رزك وزير الخليفة الظاهر الفاطمي قتل سنة ٥٤٩ هـ / ١١٥٤م. المقرئزي، الخطط، ج ١، ص ٢٥٧.

وإبن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٣١٥.

وعمل في أيام العزيز بن صلاح الدين أحياناً، وعمله شيخون في الولاية فقط»<sup>(١)</sup>. وفي فترة حكم السلطان الصالح إسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٤٢هـ/ ١٣٤٢م أنشأ ديواناً عرف بديوان البراطيل، وصار من يرغب في الوصول إلى أي منصب من مناصب الدولة يدفع مقابل ذلك على الوظيفة التي يسعى إليها بديوان البذل أو البرطلة<sup>(٢)</sup>.

وفي فترة حكم السلطان الظاهر برقوق أصبحت الرشوة (البرطلة) غير منكرة، وتجاهر الناس فيها. فلا يكاد يلي أحد وظيفة أو عملاً دون دفعه الرشوة. وترتب على ذلك وصول من لا يستحق إلى الوظائف الكبيرة في الدولة كنيابة السلطنة والوزارة والقضاء والحسبة وغيرها. واقتدى بذلك الولاة «حتى صار عرفاً غير منكر»<sup>(٣)</sup>. ومن الدلائل التي تشير إلى انتشار ظاهرة بيع الوظائف في فترة حكم السلطان برقوق ما جاء في رسالة تيمورلنك إلى السلطان برقوق سنة ٧٩٦هـ/ ١٣٩٤م «وكيف يسمع الله دعاءكم وقد أكلتم الحرام وضيعتم جميع الأنام، وأخذتم أموال الأيتام، وقبلتم الرشوة من الولاة»<sup>(٤)</sup>.

إن تتبع دراسة تطور النظم الإدارية في فترة حكم السلطان برقوق تبين سرعة تغير الموظفين في مختلف الوظائف الإدارية والعسكرية والدينية. ويبدو أن السبب في ذلك تحصيل أكبر قدر من الأموال. ففي سنة ٧٩٢هـ/ ١٣٨٠م عين السلطان الظاهر برقوق بدر الدين محمود بن الكلستاني في كتابة السر بعد معرفته جدارته وقدرته وترجمته رسالة من تيمورلنك كتبت بالفارسية عجز عن

(١) المقرئزي، الخطط، ج ١، ص ١١١. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ٢١٢.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ١٢٦-١٢٧. ج ١١، ص ٢٩٢.

(٣) المقرئزي، الخطط، ج ١، ص ١١١. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٢١٢. والسخاوي، وجيز الكلام، ج ١، ص ٣٣٦.

(٤) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٨٠٤. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٥٠. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٣٨٠.

ترجمتها بدر الدين محمد بن فضل الله<sup>(١)</sup>. ويذكر ابن تغري بردي أن ولاية الكليستاني في كتابة السر كانت رغبة من السلطان برقوق، واشترط فيمن يتولاها أن يكون صاحب لسان وقلم<sup>(٢)</sup>. غير أن بعض المصادر أشارت إلى أن ولايته كتابة السر لم تتم إلا بعد قيام أحد المحسنين بدفع المبلغ المطلوب عنه على أن يبقى دين عليه إلى حين يسره. فسعى إلى الثراء السريع بالطرق غير المشروعة، وخلف شيئاً كثيراً بعد أن كان في الفقر بمكان<sup>(٣)</sup>. فأصبحت وظيفة كتابة السر من الوظائف التي لا تنال بغير الرشوة والبذل لأنها مصدر إثراء لتوليها. وهذا يفسر تزايد الطلب على ولايتها، وسرعة تغير متوليها، وبذل الأموال للحصول عليها<sup>(٤)</sup>.

ومن الجدير بالذكر أن بيع الوظائف يكاد لا يقتصر على وظيفة معينة بل تعدى ذلك إلى مختلف الوظائف الإدارية. ففي ٢٥ رمضان سنة ٧٩٠هـ/ ١٣٨٨م عين السلطان برقوق نجم الدين الطنبدي<sup>(٥)</sup> وكيل بيت المال في حسبة القاهرة بمبلغ ألفي دينار<sup>(٦)</sup>. وقد ترتب على ذلك محاولة استرجاع المبلغ بشتى الطرق غير المشروعة سواء بالسرقة أو أخذ الرشوة. وفي سنة ٧٩٩هـ/ ١٣٩٦م استقر شرف الدين محمود بن الدماميني بعد وفاة جمال الدين محمود العجمي في نظر الجيش بعد أن بذل مبلغ (٤٠٠,٠٠٠) درهم فضة، وكان قبل ذلك قد دفع مبلغ يقدر بنحو (٥٠,٠٠٠) درهم فضة للحصول على منصب محتسب القاهرة، وقد حصل هذه المبالغ عن طريق السرقة من أموال جمال الدين محمود العجمي<sup>(٧)</sup>.

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٥٨. والسخاوي، وجيز الكلام، ج ١، ص ٢٢٦.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٥٨.

(٣) السخاوي، وجيز الكلام، ج ١، ص ٢٢٩. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٥٨.

(٤) أحمد عبد الرزاق، البذل والبرطلة، ص ٧٦-٧٧.

(٥) نجم الدين أحمد بن عمر الطنبدي، من أعيان الفقهاء العارفين بالأصول والتفسير (ت ٨٠٩هـ/ ١٤٠٦م) ولم يكن مرضي

الديانة. المقرئ، السلوك، ج ٤، ق ١، ص ٤٧-٤٨. والسخاوي، وجيز الكلام، ج ١، ص ٣٩٠.

(٦) ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ١٥٧.

(٧) المقرئ، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٨٧٢، ٨٥٢. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٤٨٦.

وقد ترتب على سعي بعض الأشخاص إلى الوظائف الهامة في الدولة كالحسبة بالرشوة والبذل إلى ارتفاع الأسعار. ففي سنة ٧٩٩هـ / ١٣٩٦م ولي بهاء الدين محمد بن البرجي حسبة القاهرة، وبذل في ذلك مالاً كثيراً فتشاءم الناس من ولايته، وارتفعت الأسعار. فاردب القمح كان يباع بثمانية وعشرين درهماً والبطّة<sup>(١)</sup> الدقيق بواحد وعشرين درهماً، والخبز كل ستة أرتال بدرهم. في حين ارتفع اردب القمح بعد ولايته إلى ستة وثلاثين درهماً، وبطة الدقيق بأربعة وعشرين درهماً والخبز دون خمسة أرتال بدرهم<sup>(٢)</sup>.

وعندما أعيد شمس الدين محمد الشاذلي إلى حسبة القاهرة سنة ٨٠٠هـ / ١٣٩٧م بذل في ذلك مالاً كثيراً إلى السلطان برقوق، استدانة من الناس<sup>(٣)</sup>.

كما تعرض القضاء إلى البذل والبرطلة رغم أهمية نزاهة القضاء في الحكم، وعدم صحة عقود وفسوخ المتعامل منهم بالرشوة<sup>(٤)</sup>. لتأثير ذلك على نزاهة حكم القضاة بدليل ما حصل مع القاضي برهان الدين بن جماعة<sup>(٥)</sup> حين امتنع عن الحكم في أحد قضايا الإرث لأنه أثبت أن للرجل المتوفى وارث، ومنع ناظر المواريث الحشوية من الإستيلاء على التركة، مما أغضب السلطان برقوق وعزله من منصبه. فأعيد القاضي بدر الدين بن أبي البقاء إلى منصب قاضي القضاة، وبذل في ذلك مالاً كثيراً للسلطان، وتعهد بعدم التعرض لقضية الإرث التي حكم فيها القاضي بدر الدين بن جماعة<sup>(٦)</sup>.

(١) الاردب والبطّة: أنظر الفصل الرابع.

(٢) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٨٧٢. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٤٦٢.

(٣) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٩٠١.

(٤) ابن طولون، نقد الطالب، ص ٤٥. والسخاوي، وجيز الكلام، ج ١، ص ٢٢٦.

(٥) إبراهيم بن عبد الرحمن بن البدرى محمد بن جماعة (ت ٧٩٠هـ / ١٣٨٨م) تولى منصب قاضي القضاة الشافعية في مصر وبلاد الشام. عزل نفسه مراراً ثم يسأل ويعاد. ابن حجر العسقلاني، أنباء الفهر، ج ٢، ص ٢٩٢. والسخاوي، وجيز الكلام، ج ١، ص ٢٨٦.

(٦) ابن حجر العسقلاني، أنباء الفهر، ج ٢، ص ٨٧-٨٨.

ولم يقتصر انتشار ظاهرة بيع الوظائف والبذل من أجلها على مصر بل وتعدت إلى أغلب نيايات بلاد الشام، ففي سنة ٨٠١هـ/ ١٣٩٨م لم يتم نقل الأمير علاء الدين أقبغا الجمالي<sup>(١)</sup> من نيابة طرابلس إلى نيابة حلب إلا بعد بذل ألف ألف درهم<sup>(٢)</sup>. وفي سنة ٨٠١هـ/ ١٣٩٨م تولى القاضي أصيل الدين الأسلمي<sup>(٣)</sup> قضاء القضاة الشافعية في دمشق مقابل دفع مائة ألف درهم، استدان أغلبها من الناس<sup>(٤)</sup>.

كما اتبع بعض الأمراء أسلوب المهادة للسلطان من أجل الحصول على وظائف في الدولة كنوع آخر من البذل والبرطلة. ففي سنة ٧٩٩هـ/ ١٣٩٦م قدم الأمير تنم الحسني نائب الشام إلى القاهرة -وهو ما يزال على رأس نيابته- وقدم للسلطان برقوق هدية رمزية تضم عشرة صقور، وعشرة ممالك صغار، وعشرة آلاف دينار، وثلاثمائة ألف درهم فضة، ومصحفاً وسيفاً مرصعاً بالذهب، وعصابة نسائية من ذهب مرصعة بالجواهر النفسية، وأربعة سروج ذهب، وبدلة فرس فيها أربعمائة دينار ذهب، وأجرة صياغتها ثلاثة آلاف درهم فضة، فضلاً عن مائة وخمسين بقجة تحتوي على مختلف أنواع الفرو، ومائة وخمسين فرساً، وخمسين جملاً، وثلاثين حملاً من الفواكه، واثنى عشرة علبه سكر نباتي<sup>(٥)</sup>.

(١) من الممالك الجراكسة تولى نيابة طرابلس ثم نيابة حلب في عهد السلطان برقوق مات مقتولاً سنة ٨٢٨هـ/ ١٤٢٢م. المقرئزي، السلوك، ج ٤، ق ٢، ص ٩٢٢.

(٢) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٩٢٢. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٤٨٤.

(٣) أصيل الدين الأسلمي، تولى القضاء مدة مائة يوم وتوفي السلطان برقوق وهو قاضي. المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٣، ص ٩٧٢.

(٤) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٩٣٤. والعيني، عقد الجمان، ورقة ١٥ب. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٤٨٧.

(٥) ابن تقي بريدي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٦٤-٦٥.

وعندما عزل السلطان برقوق الأمير تغري بردي اليشبغاوي من نيابة حلب سنة ٨٠٠هـ / ١٣٩٧م ولم يُعين في أية وظيفة، لجأ إلى مهادة السلطان وقدم إليه ما يزيد على عشرين مملوكاً، وخمسة طواشية بيض - كان من ضمنهم خشقدم اليشبكي<sup>(١)</sup>، وثلاثين ألف دينار، ومائة وخمسة وعشرين فرساً، وعدة جمال، وأحمالٍ من البقج فيها من مختلف أنواع الفرو والحير ما يزيد على مائة بقجة، فسُر السلطان لذلك، وولاه في ٢٩ جمادى الأولى سنة ٨٠٠هـ / ١٣٩٧م وظيفة إمرة سلاح<sup>(٢)</sup>.

#### هـ - الخلاصة:

يتضح من تتبع دراسة تطور النظام الإداري في فترة حكم السلطان الظاهر برقوق المتدة من سنة (٧٨٤هـ / ١٣٨٢م - ٨٠١هـ / ١٣٩٨م) عدم وجود حد فاصل أثناء هذه الفترة وفترات الحكم التي سبقتها. إلا أن بعض التطورات والتغيرات أُجريت على بعض النظم الإدارية في عهد السلطان برقوق مثل: تولي بعض الأشخاص أكثر من وظيفة في الوقت نفسه، ومحاولة إضعاف بعض الوظائف، وتوزيع مهامها على وظائف أخرى كالوزارة. فعندما تولى السلطان برقوق السلطنة عين موفق الدين أبو الفرج الأسلمي نظر الجيش سنة ٧٨٦هـ / ١٣٣٤م وأضاف إليه وظيفة نظر الخاص ونظر الذخيرة واستيفاء الصحبة<sup>(٣)</sup>، وحين عين الأمير محمود العجمي الاستادار<sup>(٤)</sup> مشيراً (مستشاراً) ومتحدثاً في مختلف أمور الدولة سنة ٧٩٠هـ /

(١) مقدم الممالك السلطانية في عهد السلطان برسباي، أنعم به السلطان برقوق على فارس الحاجب، ثم ملكه يشبك الشهباني بعده وأعتقه. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٧٥.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٧٥، ٧٦، ٧٨، والمقرئزي، السلوك، ج ٢، ص ٨٩٤.

(٣) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ص ٧٦٦. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٣٩. وابن الصيرفي، نزعة النفوس، ج ١، ص ٩٧. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ص ٢٤٧.

(٤) توفي سنة ٧٩٩هـ / ١٣٩٦م بخزانة تمايل بعد أن نكبه السلطان برقوق وصار جمع أمواله. المقرئزي، السلوك، ج ٢، ص ٨٨٥.

١٢٨٨م، ركز جميع أمور الدولة بيده<sup>(١)</sup>، وفي سنة ٧٩٤هـ / ١٣٩١م عين القاضي جمال الدين العجمي<sup>(٢)</sup> ناظراً للجيش، فضلاً عن منصبه كقاضي للقضاة الحنفية، ومشيخة المدرسة الشيخونية. ويعلق ابن الصيرفي (ت. ٩٠٠هـ / ١٤٩٤م) على ذلك مستغرباً «ولم يعهد مثل هذا في دولة من دول الملوك الأتراك بمصر»<sup>(٣)</sup>، إشارة إلى عدم حدوث هذا التطور في النظام الإداري خلال الفترات السابقة لحكم السلطان الظاهر برقوق. ولكن يبدو أن السلطان برقوق أراد بذلك التقليل من الرواتب والمخصصات الأخرى التي كانت تمنح لهؤلاء الموظفين بجعل موظف واحد يلي أكثر من منصب في الدولة. بدليل حين قبض على أحد مقدمي الدولة وأخذ منه مائة ألف درهم، وولي مكانه محمد بن عبد الرحمن في مقدمة الدولة، عين شريكاً له في نفس الوظيفة<sup>(٤)</sup>. وربما لسوء الأوضاع الاقتصادية والمالية التي كانت تعاني منها الدولة.

وفي سنة ٧٩٨هـ / ١٣٩٥م عين السلطان برقوق علاء الدين بن الطبلابي<sup>(٥)</sup> استاداراً خاصاً، وناظر كسوة الكعبة، ينضاف إليها الحجوبية، وولاية القاهرة، ودار الضرب والمتجر السلطاني<sup>(٦)</sup>. كما ولي القاضي كريم الدين بن شمس الدين سنة ٧٩٩هـ / ١٣٩٦م مستوفياً للدولة بالإضافة إلى منصبه ناظراً للوجه القبلي<sup>(٧)</sup>.

- (١) ابن تفردي بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٧. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ١٧٢. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٤٢٨.
- (٢) تولى عدة وظائف في دولة المعاليك توفي سنة (٧٩٩هـ / ١٣٩٦م). المقرئ، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٨٨٥.
- (٣) المقرئ، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٧١١. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٣٤٩.
- (٤) المقرئ، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٥٠٠، ٥٢١، ٥٦٧، ٧١١، ٧١٢. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٧٨.
- (٥) علاء الدين علي بن الطبلابي الحاجب، قبض عليه السلطان برقوق بحجة أنه أراد اغتياله فصادر جميع أمواله. ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٤٤-٤٦٥.
- (٦) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٤٧٧.
- (٧) ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٤٤٧.



وعلى أن هناك جوانب تمثل الجانب السلبي للإدارة في فترة حكم السلطان برقوق كتعيين بعض الأشخاص الذين تولوا مناصب رفيعة في الدولة في مناصب أقل منها. ففي سنة ٧٨٥هـ / ١٣٨٣م عيّن الأمير سن إبرة<sup>(١)</sup> في استيفاء الدولة بعد أن كان وزيراً. ويعلق ابن الصيرفي على ذلك ساخراً «وما كذب المثل بعد أن كان زوجها بقي طباخاً في عرسها»<sup>(٢)</sup>. كما عيّن صاحب كريم الدين عبد الكريم بن مكانس<sup>(٣)</sup> سنة ٧٨٨هـ / ١٣٨٥م في نظر الدولة، والأمير علم الدين سن إبرة مرة أخرى في جهات الأسواق بعد توليها الوزارة<sup>(٤)</sup>. رغم أن الوزير المنفصل عن الوزارة حسب النظم الإدارية في فترة حكم السلطان برقوق يعين ناظراً للدولة «طوعاً أم كرهاً»<sup>(٥)</sup>. لذا اعتبر ابن الصيرفي مثل هذا الإجراء من السلطان برقوق من النوادر الغربية التي حدثت في تاريخ دولة المماليك الثانية<sup>(٦)</sup>.

كما يمثل البذل والبرطلة الجانب السلبي الآخر للإدارة في عهد السلطان برقوق. فقد سعى بعض الأشخاص إلى مناصب رفيعة لتحقيق مكاسب ذاتية كتعيين بهاء الدين بن البرجي في حسبة القاهرة سنة ٧٩٩هـ / ١٣٩٦م بعد أن بذل مالأً كثيراً «فتشاءم الناس من ولايته، وارتفعت الأسعار»<sup>(٧)</sup>. فتمكن بعض الأشخاص من ولاية بعض المناصب دون الأخذ بعين الاعتبار القدرة والكفاءة على تولي المنصب

(١) لم أعثر له على ترجمة.

(٢) ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٦٢.

(٣) صاحب كريم الدين ابن مكانس (ت ٧٩٩هـ / ١٣٩٦م). ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٤٥١. وانظر الحياة العلمية الفصل السادس.

(٤) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٤٣٨.

(٥) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٧١١.

(٦) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٤٣٨.

(٧) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٨٧٢. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٤٦٢.

كتعيين أحد الأدباء في ديوان الأحباس<sup>(١)</sup>، وإصدار السلطان برقوق مرسوماً خاصاً في ٢٠ محرم سنة ٧٩٢هـ / ١٢٩٠م يقضي فيه بعزل أغلب ولاة الأعمال في مصر من مناصبهم وعدم تولية أحد ممن باشر الولاية قبل ذلك وتعيين عدد من مقدمي الحلقة<sup>(٢)</sup>.

أما الجهاز القضائي فلم يجد الاهتمام الكافي من قبل السلطان برقوق. وأصيب بالتراجع في أواخر فترة حكمه. فكثيراً ما كان السلطان برقوق يقع في حق القضاة والفقهاء، بما لا يليق، بعد أن كانت القضاة عند الأمراء وأعيان الدولة في غاية التعظيم والاحترام. كما انحط قدر العلماء في الفترة الثانية لحكم السلطان برقوق وما بعدها، حتى صار أقل الناس من الأراذل يخاطبهم بكل قبيح. وذلك بسبب الإقبال على الدنيا وحب المناصب<sup>(٣)</sup>. كما تعرضت المناصب القضائية كغيرها من المناصب الإدارية في مصر وبلاد الشام إلى البذل والبرطلة<sup>(٤)</sup>.

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٨.

(٢) المقرئ، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٥٢٩. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٩٢. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٢١٣.

(٣) المقرئ، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٧١١.

(٤) ابن حجر العسقلاني، أنباء الفجر، ج ٢، ص ٨٧-٨٨.

## الفصل الثامن

### الجيش في عهد السلطان برقوق

- ١- البنية البشرية.
- ٢- مصادر الحصول على المال:
  - أ- التجارة.
  - ب- الهدايا.
  - ٣- عناصر الجيش:
    - أ- الجراكسة.
    - ب- الأتراك.
    - ج- الروم.
    - د- الأكراد والتركمان والعربان (عناصر محلية).
  - ٤- فرق الجيش:
    - أ- المماليك السلطانية.
    - ب- مماليك الأمراء.
    - ج- أجناد الحلقة.
  - ٥- الرتب العسكرية:
    - أ- إمرة مائة مقدمة ألف.
    - ب- إمرة طبلخانة.

- ج- إمرة عشرة.
- د- إمرة خمسة.
- ٦- نظام الترقية والتقاعد.
- ٧- مخصصات الجيش:
- أ- مخصصات نقدية:
- ١- نفقة البيعة.
- ٢- نفقة السفر.
- ٣- الجامكية.
- ب- مخصصات عينية:
- ١- الخيول والجمال.
- ٢- الكسوة.
- ٣- مخصصات عينية أخرى.
- ٨- الإدارة العسكرية.
- أ- ديوان الجيش (الإقطاع).
- ب- ديوان المفرد.
- ج- عرض الجيش.
- د- قضاء العسكر.
- ٩- أسلحة الجيش.
- الخلاصة.

## الجيش في عهد السلطان برقوق

اهتم سلاطين المماليك بجلب عناصر للجيش لتكوين بنية بشرية عسكرية تمكنها من الحفاظ على الأمن والاستقرار في الدولة وتأمين حدودها مع الدول المجاورة، كما اهتم سلاطين المماليك بتنظيم الفرق العسكرية، وقسموا الجيش إلى ثلاث فرق أساسية هي المماليك السلطانية، ومماليك الأمراء، وأجناد الحلقة. كما حددوا اعتبارات خاصة للترقية والتقاعد والرتب والمرتبات وإدارة الجيش، والأسلحة.

### ١- البنية البشرية:

تميزت البنية البشرية التي كان يتكون منها الجيش في دولة المماليك الأولى بالتنوع. فقد اهتم سلاطين دولة المماليك الأولى بجلب عناصر جديدة للجيش استمرراً للسياسة التي اتبعتها سلاطين الدولة الأيوبية في الإكثار من جلب المماليك. فقد تمكن السلطان الصالح نجم الدين أيوب أثناء فترة حكمه (٦٣٧هـ / ١٢٣٩م - ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م) من جلب أعداد كبيرة من المماليك الأتراك وتأسيس فرقة المماليك البحرية بعد أن أدرك غدر القوات الخوارزمية والكردية في صراعه مع الأمراء الأيوبيين. وأسكنهم بجزيرة الروضة، إذ يقدر عدد أفراد هذه الفرقة بنحو ٨٠٠-١٠٠٠ مملوك<sup>(١)</sup>.

وبعد وفاة السلطان الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م تمكنت المماليك البحرية من القضاء على القوات الصليبية في دمياط. وأصبحت هذه الفرقة نواة الجيش المملوكي<sup>(٢)</sup>.

(١) ابن واصل، مفرج الكرب، ج ٥، ص ٢٧٤-٢٧٥. والمقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٢٣٦.

(٢) بيبرس المنصور، التحفة المملوكية، ص ٢٧. والمقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٢٣٧. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٦، ص ٣٤٦.

وحيث تولى المغرايبك أحد المماليك البحرية السلطنة سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م  
ازداد نفوذ الأمراء البحرية وكثر فسادهم في الدولة ونهبوا الأموال واعتدوا على  
النساء<sup>(١)</sup>. فأدرك السلطان المغرايبك ضرورة التخلص من كبار أمراء المماليك  
البحرية، فنفى عدداً منهم وقتل عدداً آخر، واضطر قسم آخر الفرار إلى بلاد  
الشام<sup>(٢)</sup>.

وأما السلطان بيبرس فقد عمل على تحسين علاقاته مع الامبراطورية  
البيزنطية عن طريق إرسال هدايا رمزية إلى الامبراطور ميخائيل باليولوج سنة  
٦٥٨هـ / ١٢٥٩م، مقابل الحصول على إذن منه بمرور سفينتين محملتين بالمماليك  
عبر البحر الأسود والبسفور<sup>(٣)</sup>.

وعندما تولى السلطان المنصور قلاوون السلطنة سنة ٦٧٨هـ / ١٢٧٩م-  
٦٨٩هـ / ١٢٩٠م حدث تطور مهم في البنية العسكرية لدولة المماليك الأولى حين  
أدخل العنصر الجركسي الذي توفر في أسواق الرقيق في بلاد القرم (سوداق)  
بأسعار رخيصة، وأسس فرقة جديدة عرفت بالمماليك البرجية مكونة من نحو ثلاثة  
آلاف وسبعمائة مملوك<sup>(٤)</sup> ليكونوا مماليكه الخاصية. فيقول: «كل الملوك عملوا  
شيئاً يذكرون فيه ما بين مال وعقار وأنا عمرت أسواراً، وعملت حصوناً منيعة لي  
ولولادي، وللمسلمين، وهم المماليك»<sup>(٥)</sup>، وأسكنهم في أبراج القلعة لا يخرجون منها

(١) المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ٢٠١، ص ٢٧٦، ٢٧٨. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ٦-٧. وسعيد عاشور،  
الأيوبيون والمماليك، ص ٢٠٩.

(٢) بيبرس المنصوري، التحفة المملوكية، ص ٤٢-٤٤. والمقرئزي، السلوك، ج ١، ق ٢٠١، ص ٤٢٦.

(٣) ابن عبد الظاهر، الروض الزاهر، ص ١٣٨. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٨٢، ٢٣٢.

(٤) المقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٢١٤. والعيني، عقد الجمان (حوادث ٦٨٩-٦٩٨هـ)، ص ١٦. وابن إياس، بدائع الزهور،  
ج ١، ق ١، ص ٣٦٢.

(٥) المقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٢١٢.

أبدأ<sup>(١)</sup>. ولما تسلطن الأشرف خليل بن قلاوون سمح لهم بمغادرة القلعة في النهار شريطة العودة إليها للمبيت. واشترى أثناء فترة حكمه القصيرة سنة ٦٨٨هـ/ ١٢٨٩م-٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م ألفي مملوك من أسواق ثغر كفا<sup>(٢)</sup> بالقرم الذي أصبح مورداً مهماً لجلبهم<sup>(٣)</sup>. وفي زمن السلطان الناصر محمد بن قلاوون سمح لهم بالنزول إلى الحمامات يوماً في الأسبوع<sup>(٤)</sup>، مما جعلهم يتعلقون به، ويتفانون في خدمته<sup>(٥)</sup>.

وفي عهد السلطان كتبغا (٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م- ٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م) طرأ تغير مهم في البنية العسكرية لدولة المماليك الأولى حين أدخل السلطان كتبغا عنصراً جديداً إلى الجيش المملوكي سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٩٥م وهي طائفة الأويراتية<sup>(٦)</sup>، مكونة من نحو عشرة آلاف فارس. ولو منهزمين نحو مصر على أثر اعتناق غازان محمود ملك المغول، الدين الإسلامي، ومنحهم الإقطاعات، وأجرى عليهم الأرزاق. وكان يرمي السلطان كتبغا من وراء ضمهم إلى الجيش أن يجعلهم عوناً له ضد منافسيه من الأمراء المماليك<sup>(٧)</sup>.

واهتمّ سلاطين دولة المماليك الثانية بجلب عناصر جديدة للجيش. فقد حرص السلطان الظاهر برقوق على جلب العنصر الجركسي كعنصر أساسي إلى جانب العناصر الأخرى كالأتراك والروم والتتار<sup>(٨)</sup>، والتركماني والأكراد والعربان<sup>(٩)</sup>.

- (١) المقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٢٤٦. والعيني، عقد الجمان، ج ٢، ص ١٦. وابن دقماق، الجوهر الثمين، ج ٢، ص ١٠٣. وسوبرنهم (البرجية)، دائرة المعارف الإسلامية، ج ٢، ص ٥٢٧.
- (٢) كفا: تقع على ساحل بحر القرم شرقي صوداق. أنظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٤٦٠-٤٦١.
- (٣) المقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٢٦٤. والعيني، عقد الجمان، ج ٢، ص ٢٠٨. وحكيم أمين السيد، قيام دولة المماليك، ص ١٢.
- (٤) المقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٢١٣.
- (٥) أنطون ضومط، الدولة المملوكية، ص ٣٦٣.
- (٦) اسم جنس يطلق على عدة قبائل من المغول تسكن الجزء الأعلى من نهر نيسي بأواسط آسيا. المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٧٠٨. حاشية رقم ٢.
- (٧) العيني، عقد الجمان، ج ٢، ص ٣٠٤. ومحمد جمال سرور، دولة بني قلاوون، ص ٣٧.
- (٨) العمري، مسالك الأبصار، ص ٢٧. والمقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٢١٢. والسلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٩٤٣.
- (٩) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢١٦.

## ٢- مصادر الحصول على الممالك:

تنوعت مصادر حصول سلاطين الممالك على الممالك في فترة حكم السلطان برقوق، فغالبية الممالك في هذه الفترة تم جلبهم عن طريق تجار اختصوا بتجارة الممالك، والقليل منهم عن طريق المهادة للسلطان من الأمراء والممالك. فضلاً عن عناصر محلية التحقت في الجيش المملوكي دون أن تتعرض للبيع أو الرق كالتركمان والأكراد والعربان وأبناء الممالك.

## أ- التجارة:

اعتمدت دولة الممالك في فترة حكم السلطان برقوق على جلب عناصر للجيش عن طريق تجار أجنبية كانت تربطهم صلة التجارة مع دولة الممالك في مصر وبلاد الشام، والبلاد التي كانوا يأتون منها بالممالك<sup>(١)</sup>. وقد حرصت دولة الممالك في هذه الفترة على تنشيط حركة تجارة الممالك واستمرارها. وقد ساعد في ذلك عدة عوامل أهمها ازدياد حاجة دولة الممالك إلى عناصر جديد لاستخدامهم في الجيش<sup>(٢)</sup>، وانتشار الأوبئة والطواعين والقحط والجفاف في المناطق التي يجلب منها الممالك، واعتقاد الأهالي بأن بيع أبنائهم لتجار الممالك أفضل من تركهم لتلك الأوبئة<sup>(٣)</sup>. إضافة إلى غارات الخوازمية على بلاد الجركس<sup>(٤)</sup>، وغزو تيمورلنك وغيره لشمال القوقاز<sup>(٥)</sup>.

(١) عبد المنعم ماجد، نظم دولة سلاطين الممالك، ج ١، ص ١١.

(٢) ليون الأفريقي، وصف أفريقيا، ص ٥٩٨. وعلي إبراهيم حسن، تاريخ الممالك البحرية، ص ٢٢.

(٣) أنطون ضومط الدولة المملوكية، ص ٢٥. وانظر كرافواسكي، العرب وإيران، ص ١٢٩.

(٤) المقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٢٤٤.

(٥) Glubb, Soldier, p. 200.



وكان أغلب تجار الممالك من الأوروبيين النصارى واليهود، والقلة من الإيرانيين<sup>(١)</sup>. واشتهر من هؤلاء الأوروبيين تجار البندقية وجنوه. وقد اضطر الكثير من ملوك أوروبا وبابواتها إلى اتخاذ إجراءات مشددة ضد هؤلاء التجار بما يقومون به من بيع الممالك. وكان تجار البندقية وجنوه يذهبون إلى مناطق عدة لجلب الممالك الشباب مثل ثغر كفا وبيعهم في مصر. وقدرت أعداد الممالك الذين جلبهم تجار البندقية وجنوه كل عام بنحو ألفي مملوك تقريباً<sup>(٢)</sup>. أغلبهم من الجورجين والآص<sup>(٣)</sup> والأرمن واليونان والصرب والألبان<sup>(٤)</sup>.

وكانت عملية بيع المملوك تتم عن طريق بيع الأب لابنه، والاخ لأخيه اعتقاداً منهم بأن الله سيرعى الأطفال أينما ذهبوا<sup>(٥)</sup>. وقد جرت العادة عند بيع المملوك سواء كان ذكراً أو أنثى أن يجرد من الثياب، ثم يطرح عليه عباءة من لباد. وحين يعلن عن ثمن المملوك، تزال العبء عنه، ويجعلونه يسير ذهاباً وإياباً، ليتأكد المشتري من خلو المملوك من أي عيب جسمي، كما يقطع تاجر المملوك عهداً على نفسه برد ثمن المملوك لمشتريه إن مات بالطاعون خلال ستين يوماً<sup>(٦)</sup>.

- 
- (١) عبد المنعم ماجد، نظم دولة سلاطين الممالك، ج ١، ص ١٢.
  - (٢) علي إبراهيم حسن، قيام دولة الممالك البحرية، ص ٢٣.
  - (٣) الآص وتسمى الآن وهي بلاد واسعة تقع بالقرب من أرمينية، أغلب سكانها من النصارى تجلب منهم الرقيق (الممالك). ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٥، ص ٩. والقلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٤٦٢-٤٦٣.
  - (٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٤٦٠، ٤٦١. وليون الأفريقي، وصف أفريقيا، ص ٥٩٧.
  - (٥) طافور، رحلة، ص ١٣٤.
  - (٦) المصدر ذاته، ص ١٣٤.

وكان التجار يأتون بالممالك من جورجيا وأرمينية واليونان والصرى وألبانيا إلى مصر والقاهرة عن طريق البحر إلى دمياط والإسكندرية<sup>(١)</sup>، ثم يباعون في أسواق خاصة مثل سوق خان الخليلى وخان مسرور الذى كان قبل بنائه ساحة يباع فيها الرقيق<sup>(٢)</sup>. ويجوار خان مسرور حجرتان خصصتا في فترة حكم السلطان برقوق لبيع الممالك الأتراك والروم<sup>(٣)</sup>، وكان للمحتسب «دكة» مكان مرتفع يجلس عليه في السوق لمراقبة ما يباع ويشترى من الممالك، ظلت قائمة حتى سنة ٨٤٩هـ / ١٤٤٥م<sup>(٤)</sup>.

وأطلق على تجار الممالك عدة ألقاب مثل الخواجا أو الخوجكى، وتعنى التجار الأجانب<sup>(٥)</sup>. وقد تمتع هؤلاء التجار بمكانة متميزة عند السلطان برقوق، ولقوا منه التكريم والاحترام. فحين قدمت رسل فرنج جنوه بالخواجا على أخى الخواجا عثمان بن مسافر أحد كبار تجار الممالك إلى الإسكندرية ومعه أقارب السلطان برقوق خلع عليه الخلع<sup>(٦)</sup>.

ويساعد تجار الممالك شخص يسمى «دلال الممالك»<sup>(٧)</sup> في البحث عن الممالك وجلبهم<sup>(٨)</sup>.

- 
- (١) المقرئى، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٦٢١. ولبون الأفرىقى، وصف أفريقيا، ص ٦٠٠. وأنطون ضومط، الدولة الملوكية، ص ٢٦. وعبد المنعم ماجد، نظم دولة سلاطين الممالك، ص ١٢.
- (٢) المقرئى، الخطط، ج ٢، ص ٩٢.
- (٣) المصدر ذاته، ج ١، ص ٣٧٤.
- (٤) العرىنى، دولة الممالك، ص ٨١.
- (٥) القلقشندى، صبح الأعشى، ج ٦، ص ١٢، ١٥. ولبون الأفرىقى، وصف أفريقيا، ص ٥٩٨. البقلى، مصطلحات الصبح، ص ٧٣، ١٢٤.
- (٦) المقرئى، السلوك، ج ٢، ق ١، ص ٤٠٣، ج ٢، ق ٢، ص ٥٨٩.
- (٧) ابن شاهين، زبدة كشف المالك، ص ١١٥.
- (٨) عبد المنعم ماجد، نظم دولة سلاطين الممالك، ص ١٢.

وقد ذكرت بعض المصادر العربية أسماء بعض تجار الماليك عند جلبهم بعض الماليك إلى مصر<sup>(١)</sup> مثل الخوaja عثمان بن مسافر الذي جلب السلطان برقوق من بلاد الجركس، وعمل لحسابه على جلب الماليك الجراكسة أثناء فترة توليه منصب أتابك العساكر في فترة حكم السلطان حاجي سنة ٧٨٣هـ / ١٢٨١م<sup>(٢)</sup>. والخوaja علي ابن مسافر الذي جلب عدداً كبيراً من الماليك من جنوه<sup>(٣)</sup> والخوaja الخليلي الذي جلب الأمير جركسي الخليلي<sup>(٤)</sup>، والخوaja كزلك<sup>(٥)</sup>، والخوaja إسماعيل<sup>(٦)</sup>.

واهتم السلطان برقوق اهتماماً كبيراً بشراء الماليك ولا سيما الماليك الجراكسة<sup>(٧)</sup>، فبلغ عدد مشترواته من الماليك عندما خلع من السلطنة سنة ٧٩١هـ / ١٢٨٨م نحو ألفي مملوك تقريباً<sup>(٨)</sup>، وبعد وفاته سنة ٨٠١هـ / ١٣٩٨م وجد له حوالي من ٤-٦ آلاف مملوك<sup>(٩)</sup>. ويقدر ابن الصيرفي أعداد الماليك الذين اشتراهم السلطان برقوق من مختلف الأجناس من الأتراك والجركس والروم والبلغار والأص (اللآن) وغيرهم أثناء فترة حكمه بدفعات متفرقة بأكثر من عشرين ألف مملوك<sup>(١٠)</sup> عدا عن الجراكسة الذين كانوا في جيش السلطنة قبل وصول برقوق إلى السلطنة.

- (١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ٢٢٠. وابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ٢، ص ٣٤٧. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ٢، ص ٤.
- (٢) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٤٧٦. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٢٠-٢٢٦. ومؤلف مجهول، تاريخ، ورقة ٦٣ب.
- (٣) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٥٨٥، ٥٨٩. والقاضي عبد الباسط، نيل الأمل، ج ١، ورقة ١٤٧ب.
- (٤) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ٤، ص ٢٠٥-٢٠٦.
- (٥) ابن تغري بردي، حوادث الدهور، ج ٢، ص ٤٦١. والمقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٧٣٨.
- (٦) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٦٩٢.
- (٧) المقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٢٤١. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ١٠٧-١٠٨.
- (٨) ابن القرات، تاريخ، م ٩، ج ٢، ص ٨٩. والمقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٦١٦. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٨٩.
- (٩) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٩٤٢. والمقرئزي، الخطط، ج ١، ص ٩٥. وابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ٣، ص ٣٨٨.
- (١٠) ابن الصيرفي، نزعة النفوس، ج ١، ص ٤٩٩.

## ب- الهدايا:

وتعد الهدايا من المصادر التي جلبت عن طريقها أعداد ليست قليلة من الممالك أثناء فترة حكم السلطان برقوق. فقد اعتاد الأمراء الممالك، وملوك وسلطين الدول المجاورة لدولة الممالك في هذه الفترة مهادة السلطان برقوق في مناسبات مختلفة، وتتضمن في أغلب الأحيان عدداً من الممالك والجواري. رغبة في توطيد علاقات الود والصداقة بين الدولتين. ومحاولة بعض الأمراء كسب ود ورضى السلطان عليهم. ففي ١٨ ربيع الأول سنة ٧٨٦هـ / ١٢٨٤م قدم الأمير بيدمر نائب الشام هدية للسلطان برقوق كان من ضمنها ممالك حسان الوجوه<sup>(١)</sup>، كما قدم الأمير تنم الحسني نائب الشام أيضاً سنة ٧٩٩هـ / ١٢٩٦م عشرة ممالك وعشر جوارٍ جراكسة<sup>(٢)</sup>، وقدم الأمير تغري بردي اليشبغاوي للسلطان برقوق سنة ٨٠٠هـ / ١٢٩٧م أكثر من عشرين مملوكاً، وخمسة طواشية (خصيان) بيض من بينهم خشقدم اليشبكي<sup>(٣)</sup> الذي صار سلطاناً سنة ٨٦٥هـ / ١٤٦٠م<sup>(٤)</sup>. وقدم الأمير دقماق الحمودي نائب ملطية ثمانية عشر مملوكاً<sup>(٥)</sup>. وقدم الأمير قلمطاوي الدوادر في السنة نفسها للسلطان برقوق هدية رمزية من ضمنها مملوك من الأتراك بديع الحسن<sup>(٦)</sup>. وأرسل ملك اليمن الأشرف محمد بن الأفضل عباس بن رسول هدية مع برهان الدين المحلي الكارمي تاجر السلطان برقوق عشرين مملوكاً وعشرة خدام، وأربعة عبيد، وست جوارٍ<sup>(٧)</sup>.

(١) ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٩٥. وكرافوسكي، العرب وإيران، ص ١٢٤.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٦٤. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ٢، ص ٤٨٤.

(٣) المصدر ذاته، ج ١٢، ص ٧٥.

(٤) السخاوي، الضوء اللامع، ج ٢، ص ١٧٦. وابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ٤، ص ٢٩٤.

(٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٧٥. وابن تغري بردي، حوادث الدهور، ج ٢، ص ٣٩٤.

(٦) المصدر ذاته، ج ١٦، ص ٨٠.

(٧) ابن الفرات، تاريخ، م ٩، ج ٢، ص ٤٥٦-٤٥٩.

يتضح من خلال تتبع دراسة تطور مصادر الحصول على الممالك أن المورد الأساسي للممالك كان من خلال الشراء من الأسواق الخارجية. أما الأسواق الداخلية فليس لدينا شواهد تاريخية كافية تبين حجم أعداد الممالك الذين تم شراؤهم من هذه الأسواق باستثناء شاهد تاريخي واحد وهو شراء السلطان برقوق للأمير ايتمش البجاسي سنة ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م بمائة ألف درهم من ورثة الأمير جرجي الإدريسي نائب حلب<sup>(١)</sup>. وهذا لا يعني أنه لم يتم الشراء من الأسواق الداخلية.

وتأتي الهدايا كمصدر ثانوي للحصول على الممالك إذ يقدر إعداد الممالك الذين قدموا للسلطان برقوق على سبيل الإهداء قرابة ثمانية وثمانين مملوكاً. وهذه الأعداد من الممالك قليلة جداً إذا اعتبرنا أن هذا العدد من الممالك هو عدد حقيقي.

### ٣- عناصر الجيش:

وقد ضمّ الجيش المملوكي أثناء فترة حكم السلطان برقوق عناصر من مختلف الجنسيات كالجركسية، والتركية، والرومية، والتتارية، والبلغارية، والأص، وعناصر محلية أخرى مثل التركمان والأكراد والعربان.

ويمثل العنصر الجركسي أهم عناصر الجيش في فترة حكم السلطان برقوق، فقد عمل على جلب أعداد كبيرة من الممالك الجراكسة عندما تولى منصب أتابك العساكر أثناء فترة حكم السلطان حاجي تقدر بحوالي ألفي مملوك. وكان يفضلهم على بقية العناصر المملوكية الأخرى<sup>(٢)</sup>، ولا سيما الممالك الأتراك والروم<sup>(٣)</sup>، وقد تميزت فترة حكمه بجلب الممالك والأقارب من بلاد الجركس حتى شمل عجائز

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٢٧.

(٢) المقرئ، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٩٤٣، وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ١٠٧-١٠٨. وكرافولسكي، العرب وإيران، ص ١٢٤.

(٣) المصدر ذاته، ج ٣، ق ٢، ص ٩٤٣.

الجراكسة والنساء من مختلف الأعمار<sup>(١)</sup>. ففي سنة ٧٨٢هـ / ١٢٨٠م جلب والده من بلاد الجركس<sup>(٢)</sup>، وفي سنة ٧٩٠هـ / ١٢٨٨م وصلت سفينة من بلاد الجركس إلى ميناء الإسكندرية تحمل معاليك جراكسة من بينهم أقارب السلطان برقوق<sup>(٣)</sup>. وعندما تولى السلطنة سنة ٧٨٤هـ / ١٢٨٢م أصبح غالبية الجيش من المماليك الجراكسة البالغ عددهم نحو ٤-٦ آلاف مملوك فضلاً عن المماليك الجراكسة الذين كانوا في الجيش قبل وصوله إلى السلطنة<sup>(٤)</sup>. وقد حاول السلطان برقوق التخلص من المماليك الأتراك، ولا سيما بعد قيام ثورة منطاش والناصرى سنة ٧٩١هـ / ١٢٨٨م التي تعد أخطر الثورات التي قام بها المماليك الأتراك في هذه الفترة. وكانت سبباً في خلعه من السلطة وإعادة الأمير حاجي إليها<sup>(٥)</sup>.

واعتمد السلطان برقوق على العنصر الجركسي في إخماد ثورة منطاش والناصرى، واستعادة سلطته مرة ثانية سنة ٧٩٢هـ / ١٢٨٩م<sup>(٦)</sup>. وظل العنصر الجركسي الركيزة الأساسية للجيش في الدولة. إذ ارتفع عددهم في نهاية حكمه حسب تقدير ابن الصيرفي بنحو عشرين ألف مملوك<sup>(٧)</sup>. وظل كذلك حتى ثار الأمير علي باي الخازندار -رأس نوبة الأمراء وأحد المماليك الجراكسة الذي امتاز بهم السلطان برقوق- ودبر مؤامرة لخلع السلطان برقوق سنة ٨٠٠هـ / ١٢٩٧م وهو في طريقه إلى حفل فتح الخليج. ولكن أخبار المؤامرة تواترت إلى السلطان برقوق فأخذ حذره وعمل على إفشال خطة الأمير علي باي، ثم قبض عليه وخنقه<sup>(٨)</sup>.

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٢٥. وابن الفرات، تاريخ، ج ٩، ص ٢٢. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ١٧٤.

(٢) ابن الفرات، تاريخ، ج ٩، ص ٢٢. والمقرئزي، السلوك، ج ٢، ص ٥٨١. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ١٧٤.

(٣) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ص ١٠٢. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ص ٢٠٩.

(٤) المصدر ذاته، ج ٢، ص ٨٩. والمقرئزي، الخطط، ج ١، ص ٩٥. وابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ٣، ص ٢٨٨.

(٥) أنظر الفصل الأول حركة منطاش ويليغا الناصري.

(٦) ابن الفرات، تاريخ، ج ٩، ص ١٢٠. والمقرئزي، السلوك، ج ٢، ص ٦٤٩-٦٥١. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٤٣-٢٤٤. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٢٤٣-٢٤٤.

(٧) ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٤٩٩.

(٨) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ص ٩٠٣-٩٠٧. والعيني، عقد الجمان (حوادث ٧٩٩هـ / ١٢٩٦م - ٨٣٠هـ / ١٤٢٦م) ورقة ٩ - ١١، ب. وأنظر الفصل الأول حركة علي باي الخازندار.

وعلى أثر خيانة الأمير علي باي الخازندار ندم السلطان برقوق على الإكثار من المماليك الجراكسة والإعتماد عليهم في الجيش، وعدم الإلتفات إلى نصيحة زوجته خوند أزد التي حذرت من الإكثار منهم. وجعل عسكريه من أربعة أجناس بنسب متساوية تتر، وجركس، وروم، وتركمان<sup>(١)</sup>. ويبدو أن السلطان برقوق اقتنع بهذه النصيحة بعد ثورة علي باي حتى أنه قال لزوجته «الذي كنت أشرت به عليّ هو الصواب، ولكن كان مقدراً ونرجو الله تعالى إصلاح الأمر من اليوم»<sup>(٢)</sup>.

وبرغم أن السلطان برقوق وعد زوجته بأن يغير من سياسته نحو مشترواته الجراكسة، وأخذ في ترقية بعض العناصر مثل الأرمن والروم<sup>(٣)</sup>، ولكن هذه العناصر لم يكن لها الغلبة في الدولة لعاملين: أولهما أن عدول السلطان برقوق عن إعتماده على العناصر الجركسية جاء في أواخر سلطنته، وثانيهما أن الدولة امتلأت بالمماليك الجراكسة من مشترواته الذين شغلوا الوظائف الكبرى في الجيش المملوكي حتى صار أكثر الأمراء والجنود من الجراكسة<sup>(٤)</sup>. وهؤلاء بدورهم شجعوا الهجرة من بلادهم الأصلية إلى دولة المماليك الثانية<sup>(٥)</sup>.

وقد تابع السلطان الناصر فرج سياسة والده السلطان الظاهر برقوق في عدم الاعتماد على المماليك الجراكسة وقرب المماليك الروم لأن أمه خوند شرين كانت رومية<sup>(٦)</sup>. وتزوج ابنة الأمير تغري بردي اليشبغاوي الرومي، وأبعد المماليك

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٨٨، ١٠٨.

(٢) المصدر ذاته، ج ١٢، ص ٨٨.

(٣) المصدر ذاته، ج ١٢، ص ٩٨.

(٤) ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٥٠٠.

(٥) حكيم أمين السيد، قيام دولة المماليك، ص ١١٢.

(٦) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ١٦٨. السخاوي، وجيز الكلام، ج ١، ص ٢٨١.

الجراكسة<sup>(١)</sup>. وترتب على ذلك انقسام الجيش إلى طائفتين جراكسة وروم، مما أدى بالسلطان الناصر فرج التخلي عن الحكم نتيجة ازدياد كراهية المماليك الجراكسة له<sup>(٢)</sup>.

أما العنصر التركي فكان العنصر الأساسي الذي اعتمد عليه سلاطين دولة المماليك الأولى، واستمر كعنصر ثان في دولة المماليك الثانية الجراكسة. وبالرغم من محاولات السلطان برقوق للتخلص من العناصر التركية بعد القضاء على ثورة الناصري ومنطاش بالنفي والقتل والاعتقال، إلا أن ذلك لا يُعني اندثار أو زوال العنصر التركي نهائياً من الجيش<sup>(٣)</sup>، وإنما ساعدت هذه المحاولات في تقليص أعداد العناصر التركية في الجيش، بدليل ما يذكره القلقشندي (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م): «أما في زماننا هذا فإنه منذ قام السلطان برقوق من جنس الشركسي، رغب في المماليك من جنسه وأكثر من المماليك الجراكسة حتى صار أكثر الأمراء والجنود منهم وقتل المماليك الترك من الديار المصرية حتى لم يبق منهم إلا القليل من بقياهم وأولادهم»<sup>(٤)</sup>.

ويبدو أن أعداد العنصر الرومي في الجيش لم يكن كثيراً. فالمصادر المعاصرة لفترة حكم السلطان برقوق لم تذكر أنهم قاموا بأي نشاط سياسي أو عسكري في الدولة، إلا بعد وفاة السلطان برقوق واعتلاء السلطان الناصر فرج بن برقوق السلطنة سنة ٨٠٢ هـ / ١٣٩٩ م. بسبب ميل السلطان الناصر فرج إلى المماليك

(١) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٣، ص ١١٧٤، وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٢٢٥.

(٢) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٣، ص ١١٧٧-١١٧٦. وحكيم أمين السيد، قيام دولة المماليك، ص ١١٣.

(٣) حكيم أمين السيد، قيام دولة المماليك، ص ٧.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٤٥٦، ٤٥٩.



الروم<sup>(١)</sup>. وفي سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٥م تأزمت الأمور بين السلطان الناصر فرج والماليك الجراكسة عندما طالب الأمراء الجراكسة السلطان فرج تسليمهم بعض الأمراء والماليك الروم<sup>(٢)</sup>. ولأنهم خشو من تقدم الماليك الروم عليهم<sup>(٣)</sup>، وحاول أحد الماليك الجراكسة إغراق السلطان فرج في الماء سنة ٨٠٨هـ/١٤٠٥م لولا أن أنقذه أحد الماليك الروم<sup>(٤)</sup>. فأعلن بعد ذلك السلطان الناصر فرج ميله للروم ودم الماليك الجراكسة<sup>(٥)</sup>.

وأوردت بعض المصادر المعاصرة لفترة حكم السلطان برقوق عرضاً أسماء عدد من الماليك الروم أثناء الترجمة لهم عند توليهم بعض المناصب الإدارية والعسكرية مثل: الطواشي بهادر الرومي<sup>(٦)</sup>، وتفري بردي اليشبغاوي الرومي<sup>(٧)</sup>.

أما العناصر الكردية والتركمانية والعربان، فهي عناصر محلية شاركت في الجيش المملوكي أثناء فترة حكم السلطان برقوق كعناصر مساندة للعناصر الأخرى الجركسية والرومية والتركية أثناء الفتن والثورات والاضطرابات الداخلية<sup>(٨)</sup>.

- 
- (١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ١٦٨.
  - (٢) المقرئ، السلوك، ج ٢، ق ٣، ص ١١٧٤. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٢٢٥.
  - (٣) المصدر ذاته، ج ٢، ق ٣، ص ١١٧٤. والسخاوي، وجيز الكلام، ج ٢، ص ٢٨١.
  - (٤) المقرئ، السلوك، ج ٢، ق ٣، ص ١١٧٧.
  - (٥) المصدر ذاته، ج ٢، ق ٣، ص ١١٧٧. وابن اياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٧٢٢.
  - (٦) بهادر بن عبد الله الشهيد سيف الدين الطواشي الرومي (ت ٨٠٢ هـ / ١٣٩٩ م). ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ٣، ص ٤٣٦. وابن حجر العسقلاني، أنباء الفهر، ج ٢، ص ١١٩.
  - (٧) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ٤، ص ٣٤.
  - (٨) ابن نعتاق، الجواهر الثمين، ج ٢، ص ٢٩٢.

وأطلق عليها أكراد الطاعة وتركمان الطاعة<sup>(١)</sup>، وعربان الطاعة<sup>(٢)</sup>، تميزاً لها عن بقية العناصر الكردية والتركمانية الخارجة عن حكم السلطان برقوق في أوقات مختلفة كعرب آل مهنا بزعامة الأمير نعيم آل مهنا<sup>(٣)</sup>، وسولي بن دلغادر أمير التركمان<sup>(٤)</sup>.

ففي سنة ٧٨٥هـ / ١٢٨٣م شارك أكراد الطاعة وتركمان الطاعة المقيمة في نيابات بلاد الشام كدمشق وطرابلس وحماة في قتال العناصر التركمانية الخارجة عن الطاعة بزعامة الأمير صارم الدين بن رمضان نائب أذنة<sup>(٥)</sup>، وبني أوزر وابن برنص لاعتدائهم على حجاج بيزنطة ونهبهم<sup>(٦)</sup>. كما ساهمت العناصر الكردية في بلاد الشام في صد الهجمات الفرنجية عن المدن الساحلية على البحر المتوسط كمدينة بيروت واللاذقية<sup>(٧)</sup>. وعندما أعلن الأمير منطاش والأمير نعيم آل مهنا خروجهما على السلطان برقوق سنة ٧٩١هـ / ١٢٨٨م استعان السلطان برقوق بتركمان وعربان الطاعة في قتالهما، وتمكنوا من قتل عدد كبير من عساكرهما، واستولوا على ما معهما من الأموال<sup>(٨)</sup>. كما ساندت العناصر التركمانية المماليك الجراكسة سنة ٧٩٧هـ / ١٤٩١م في القضاء على تمرد عرب آل مهنا بزعامة الأمير نعيم وقتل نحو آلاف من عربائه<sup>(٩)</sup>.

(١) ابن الفرات، تاريخ، ٩م، ج ١، ص ٥٠. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٩٤.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٤، ص ٢٢١. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ٣، ص ١٦٢.

(٣) ابن قاضي شهبه، تاريخ، ج ٢، ص ٤٦٥.

(٤) ابن مسيري، الدرّة المضيئة، ص ١٢٥-١٢٧. والمقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٨٢٤. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٥٠٢.

(٥) أذنة من المدن الأرمنية الواقعة على الحدود الشمالية للأعمال الطبية. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٢٤.

(٦) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٥٠٤.

(٧) المصدر ذاته، ج ٣، ق ٢، ص ٤٩٩. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٢٨٦.

(٨) المصدر ذاته، ج ٢، ق ٢، ص ٥٨٩.

(٩) المصدر ذاته، ج ٢، ق ٢، ص ٨٣٢. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٤٠٦.

## ٤- فرق الجيش:

تألف الجيش في دولة المماليك من ثلاث فئات رئيسية هي: المماليك السلطانية، وأجناد الحلقة، ومماليك الأمراء<sup>(١)</sup>.

## ١- المماليك السلطانية:

تعدّ المماليك السلطانية من أهم فرق الجيش في دولة المماليك وأعظمها شأنًا وأرفعها مكانة، وأكثرها إقطاعاً<sup>(٢)</sup> وتقسم المماليك السلطانية إلى ثلاث فئات:

١- المماليك المشتروات: وهم المماليك الذين يشتريهم السلطان القائم في الحكم لتدعيم مركزه في السلطة. ويطلق عليهم المماليك الأجلاب أو الجلبان<sup>(٣)</sup>. وهؤلاء هم الأصل في تكوين فرقة المماليك السلطانية لما تميزت به هذه الفئة من المماليك من التدريب والتعليم في الطباق<sup>(٤)</sup>. التي أنشئت في فترة حكم السلطان الظاهر بيبرس سنة ٦٥٩هـ / ١٢٦٠م بقلعة الجبل في القاهرة لإقامة المماليك السلطانية<sup>(٥)</sup>. كما بنيت طباق أخرى في فترة حكم السلطان الناصر محمد بن قلاوون في ساحة الإيوان سنة ٧١٥هـ / ١٣١٥م، وسنة ٧٢٩هـ / ١٣٤٨م<sup>(٦)</sup>. وتتألف الطباق من اثنتي عشرة طبقة، تشتمل على عدة مساكن تتسع لألف مملوك<sup>(٧)</sup>. واستمرت هذه الطباق طوال فترة حكم دولة المماليك الثانية<sup>(٨)</sup>.

(١) المقرئزي، السلوك، ج٤، ق١، ص٤٦٢.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص١٥-١٦. والبقلي، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، ص١٦.

(٣) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص١١٦. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج١، ص٩٢. ولبنون الإفريقي، وصف أفريقيا، ص٦٠٥.

(٤) الباز العريني، المماليك، ص٨٤. وانظر الباز العريني، الفارس المملوكي، ص٥٠.

(٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج٧، ص١٩١. والقلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص٤٢٦.

(٦) المقرئزي، الخطط، ج٢، ص٢١٢.

(٧) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص٢٧. والمقرئزي، الخطط، ج٢، ص٢١٢-٢١٤. وابن الفرات، تاريخ، م٩، ج١، ص٨٨.

(٨) ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج١، ص٢١٠. والباز العريني، الفارس المملوكي، ص٥١.

ويجري تعليم المماليك في الطباق في دولة المماليك بشكل عام بعد أن يشتري السلطان مماليكه من تاجر المماليك (الخواجا)، حيث ينزل كل منهم في طبقة جنسه<sup>(١)</sup>، ويطلق على هؤلاء المماليك (المماليك الكتابية)<sup>(٢)</sup>. ويقسم تعليم المماليك في الطباق إلى قسمين: الأول ديني، والآخر عسكري أو حربي. فيتعلم المملوك في القسم الأول قبل سن البلوغ القرآن الكريم وأداب الشريعة الإسلامية والصلاة والخط وبعض الفقه. وعندما يبلغ المملوك سن البلوغ يتعلم الفنون العسكرية على يد معلمين من المماليك المتخصصين مثل لعب الرمح ورمي السهام وغير ذلك من الفنون العسكرية<sup>(٣)</sup>.

وأجرى سلاطين المماليك على المماليك الكتابية في الطباق مخصصات من اللحم والأطعمة والحلاوات والفواكه والكسوة والرواتب من الذهب والفضة<sup>(٤)</sup>. وحرص الطواشية<sup>(٥)</sup> في مراحل تعليم المماليك الكتابية في الطباق على فصل المماليك صغار السن عن المماليك البالغين تفادياً لانتشار الفساد بين المماليك<sup>(٦)</sup>.

وعندما تولى السلطان برقوق السلطنة سنة ٧٨٤هـ / ١٢٨٢م حرص على استمرار تعليم المماليك الكتابية حسب ما كان متبعاً في دولة المماليك الأتراك الأولى إلى أن عزل من السلطنة سنة ٧٩١هـ / ١٢٨٨م. حيث حدثت تطورات وتغيرات على تربية المماليك في الطباق بعد عودته إلى السلطنة مرة ثانية. إذ

(١) أنطون ضومط، النولة المملوكية، ص ٢٨. والياز العريني، الفارس المملوكي، ص ٥١.

(٢) المقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٢١٢. والمقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٦٠١.

(٣) المصدر ذاته، ج ٢، ص ٢١٢. والياز العريني، المماليك، ص ٨٤-٨٥.

(٤) المصدر ذاته، ج ٢، ص ٢١٤. وعلي إبراهيم حسن، المماليك البحرية، ص ٢٧-٢٨.

(٥) الطواشية، وهم الذين يتولون إدارة المماليك السلطانية. ابن شاهين، زبدة كشف المالك، ص ١٢٢.

(٦) المقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٢١٤.

سمح السلطان برقوق للمماليك بعد التعليم والتدريب بالنزول من الطباقي من قلعة الجبل والإقامة في القاهرة، والزواج من نساء القاهرة وغيرها<sup>(١)</sup>. وفي فترة حكم السلطان الناصر فرج بن برقوق تلاشت النظم التي كانت متبعة في تعليم المماليك في الطباقي نهائياً وانقطعت مخصصاتهم من اللحم وغيرها، وخصص لهم بدلاً من ذلك مبلغ عشرة دراهم. وصار غذاؤهم في الغالب من الفول المسلوق لعجزهم عن شراء اللحم<sup>(٢)</sup>.

وكان يقضي المملوك في الطباقي في فترة حكم السلطان برقوق مدة سنتين على العادة التي جرى عليها سلاطين دولة المماليك الأتراك الأولى<sup>(٣)</sup>.

وبعد انقضاء المدة المقررة لإقامة المماليك في الطباقي والانهاء من التعليم والتدريب يجري تخريج المماليك من الطباقي بعد سن البلوغ بعثتهم. والعنائة التي يحصل عليها المماليك هي عبارة عن شهادة تمنح للمملوك، وتعني أنه أصبح حراً وجندياً مدرباً<sup>(٤)</sup>. يحصل بعدها المملوك على الخيل والقماش من قبل السلطان<sup>(٥)</sup> من اسطبل الجوق الذي اختص بصرف خيول المماليك الكتابية المتخرجين من الطباقي<sup>(٦)</sup>. وقد يحدث أن يتوفى السلطان أو بعض الأمراء ولديه بعض المماليك الكتابية في الطباقي دون عتق. ففي مثل هذه الحالة يتولى السلطان الجديد إعادة شراء هؤلاء المماليك من بيت المال ثم يعتقهم. فالسلطان الظاهر برقوق اشترى

(١) المقرئزي، الخطط، ج٢، ص٢١٤.

(٢) المصدر ذاته، ج٢، ص٢١٤.

(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٤، ص١٩٩.

(٤) الباز العريني، المماليك، ص١٣٢. والباز العريني، الفارس المملوكي، ص٥٧.

(٥) القاضي عبد الباسط، نيل الأمل، ج٢، ورقة ١٠٢٢٢. والقفشندي، صبح الأعشى، ج١١، ص١٧٠.

(٦) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص١٢٥.

الأمير أيتمش البجاسي سنة ٧٨٤هـ / ١٢٨٢م - وهو يوم ذاك رأس نوبة الأمراء وكبير أمراء مصر - من ورثة الأمير جرجي الأديسي نائب حلب بحكم أن الأمير جرجي لما مات لم يكن أيتمش ممن أعتق من الممالك، فأخذه بعد موته الأمير بجاس وأعتقه من غير أن يثبت قضية البيع والعتق. فعندئذ اشتراه السلطان برقوق بمائة ألف درهم وأعتقه وأنعم عليه بأربعة آلاف درهم وبإقطاع، ثم خلع السلطان برقوق على القضاة والموقعين الذين سجلوا قضية البيع والعتق<sup>(١)</sup>.

وطراً تطور وتغير على جلب الممالك وتعليمهم في الطباق ولا سيما في فترة حكم دولة الممالك الثانية. فالسلطان برقوق جلب أهله وأقاربه من كبار السن وضمهم إلى الممالك السلطانية دون التعليم في الطباق لتجاوزهم سن التعليم<sup>(٢)</sup>.

ومن الممالك المشتروات يختار السلطان من يقوم على خدمته بالقصر السلطاني ويطلق عليهم (الممالك الخاصكية) وتوكل إليهم مهمة حمل التقاليد إلى نواب بلاد الشام، وتولي إمرة بعض المناطق في بلاد الشام<sup>(٣)</sup>. كما يتمتع الممالك الخاصكية بامتيازات عديدة، كالدخول على السلطان في أوقات خلوته<sup>(٤)</sup>، والحصول على العطايا الجزيلة<sup>(٥)</sup>، والترقية السريعة<sup>(٦)</sup>.

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٣٧.

(٢) المقرئ، السلوك، ج ٢، ق ١، ص ٤٠٢. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٣٠٩.

(٣) آشور، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ص ٢٧١. والبايزع، الفارس المملوكي، ص ٥٧.

(٤) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١٦٢.

(٥) المقرئ، الخطط، ج ٢، ص ٢١٦. وليون الأفريقي، وصف أفريقيا، ص ٦٠٥.

(٦) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٦٨.

أما أعداد الممالك الخاصكية فقد تعرضت إلى الزيادة والنقصان. فبلغت أثناء فترة حكم الناصر محمد بن قلاوون أربعين خاصكياً<sup>(١)</sup>. في حين ارتفعت في فترة حكم السلطان برقوق إلى ثمانين خاصكياً، ثم ارتفعت إلى نحو ألفي خاصكي أثناء فترة حكم السلطان الناصر فرج بن برقوق، ثم خفضها السلطان المؤيد شيخ إلى ما كانت عليه في فترة حكم السلطان برقوق<sup>(٢)</sup>.

٢- الممالك القرانيس: يطلق مصطلح الممالك القرانيس أو القرانصة على ممالك السلطان المعزول أو المتوفى الذين انتقلوا إلى خدمة السلطان الجديد، وهم يعدون من ضمن أمراء الخمسات، ويسمون أيضاً بالممالك «قديموا الهجرة»<sup>(٣)</sup>.

نشأت فئة الممالك القرانصة نتيجة تحول الممالك الأجلاب أو المشتروات لسلطان ما بعد وفاته أو عزله عن السلطنة إلى ممالك قدامى تميزاً لهم عن الممالك الجدد الذين يشتريهم السلطان الجديد، وتعد الممالك القرانيس أشد خطراً وقوة، لأنهم كانوا يشكلون في بداية عهد السلطان الجديد القوة الحقيقية له. والقرانيس لا يشكلون فرقة عسكرية واحدة، وذلك لانتساب كل فئة منهم إلى السلطان الذي أعتقهم، وهي فئات منفصلة يغلب عليها العداء، وكان لا يجمعهم سوى عامل مشترك واحد هو عداؤهم للممالك الأجلاب<sup>(٤)</sup>.

(١) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١٦٢.

(٢) ابن تقي بري، النجوم الزاهرة، ج ١٤، ص ١١١-١١٢.

(٣) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١١٥.

Popper, Egypt and Syria, vol. 1, p. 88.

(٤) أنطون ضومط، دولة الممالك، ص ٣٢.

Ayalon, Studies, p.p. 217-220.

وانظر كرافولسكي، العرب وإيران، ص ١٢٤-١٢٥.

وتعد فرقة المماليك الظاهرية التابعة للسلطان برقوق والمماليك الذين ورثهم أول فئات المماليك القرانيس التي نشأت في دولة المماليك الثانية، وتميّزت بصراعها مع السلطان الناصر فرج بن برقوق طوال فترة حكمه<sup>(١)</sup>. ونظراً لكثرة تهديد المماليك الأشرفية الأتراك (القرانيس) للسلطان برقوق فقد لجأ إلى التخلص منهم بوسائل متعددة كالقتل والحبس والنفي، وإرسال بعضهم إلى القتال في الأقاليم وبلاد الشام<sup>(٢)</sup>.

٣- المماليك السيغية او (مماليك الأمراء): وهم مماليك الأمراء الذين يستولي عليهم السلطان نتيجة وفاة أساتذتهم، أو مصادرتهم أو تقاعدهم، أو تولي أحد هؤلاء الأساتذة السلطنة<sup>(٣)</sup>. ومن هؤلاء المماليك، مماليك الأمير منطاش الذي قبض عليهم السلطان برقوق ثم عرضهم وأفرج عنهم، بعد إعلان الأمير منطاش العصيان عليه والفرار من مصر سنة ٧٩٣هـ / ١٢٩٠م<sup>(٤)</sup>. ومماليك الأمير كمشبغا الحموي<sup>(٥)</sup> الذين استولى عليهم السلطان برقوق سنة ٨٠٠هـ / ١٣٩٧م بعد اعتقاله الأمير كمشبغا الحموي في أواخر محرم من السنة نفسها. واختار عدداً منهم لنفسه وفرّق البقية على الأمراء<sup>(٦)</sup>.

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ١٨٣-١٨٤، ٢٣٠. والمقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٣، ص ٩٨٧-٩٨٩، ١٠٦٣-١٠٦٠.

(٢) المقرئزي، السلوك، ج ٤، ق ١، ص ٤٥١-٤٥٢.

(٣) ابن شاهين، زبدة كشف المالك، ص ١١٦. ومبد النعم ماجد، نظم دولة سلاطين المماليك، ص ١٤٨. والبارز العريضي، المماليك، ص ١٢٠-١٢١.

Popper, Egypt and Syria, vol. 1, p. 87.

(٤) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٧٤١.

(٥) تولي بسجن الإسكندرية بعد أن اعتقله السلطان برقوق سنة ٨٠١هـ / ١٣٩٨م. المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٩٧٥.

(٦) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٨٨٩. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٤٩٣.



أما أعداد المماليك السلطانية فقد اختلفت من وقت لآخر كغيرهم من عناصر الجيش المملوكي، غير أنهم بصفة عامة كانوا أقل عدداً في دولة المماليك الثانية عنهم في دولة المماليك الأولى، فبلغت في فترة حكم السلطان برقوق نحو خمسة آلاف إلى ستة آلاف مملوك<sup>(١)</sup>، وقل هذا العدد في عهد السلطان الناصر قرج بن برقوق<sup>(٢)</sup>.

### ب- مماليك الأمراء:

وتأتي فرقة المماليك الأمراء في المرتبة الثانية في الجيش، ويطلق عليهم أجناد الأمراء أو مماليك الأمراء، وهم يتبعون لأمرائهم الذين يتولون الإنفاق عليهم وتجهيزهم والاشتراك بهم في القتال والحملات العسكرية إلى جانب السلطان<sup>(٣)</sup>، ويمتلك الأمير من المماليك ما تسمح به رتبته العسكرية وثروته وقوته في الدولة<sup>(٤)</sup>. ويذكر ابن شاهين (ت ٨٧٣هـ / ١٤٦٨م): «أن عدد مماليك الأمراء في مصر ثلاثة آلاف مملوك، وفي دمشق ثلاثة آلاف مملوك، وفي كل من حلب وطرابلس وصفد وغزة ألف مملوك»<sup>(٥)</sup>. وهذا يشير إلى عدم التزام الأمراء باقتناء العدد المسموح به من المماليك الذي تنص عليه رتبته العسكرية<sup>(٦)</sup>. فعلى سبيل المثال يستطيع أمير مائة مقدمة ألف أن يمتلك مئة مملوك كحد أدنى، يشتريهم من أمواله الخاصة. أما الحد الأعلى لامتلاك الأمراء للمماليك فكان مرتبطاً بالأوضاع السياسية في الدولة، وقوة الأمراء وراثتهم<sup>(٧)</sup>. فالسلطان الظاهر برقوق كان يخشى الأمير يلبغا الناصري لمعرفته بقوته وكثرة مماليكه وقدرته على تهديده ومنافسته على

(١) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٩٣٨. والمقرئزي، الخطط، ج ١، ص ٩٥. وابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ٣، ص ٢٨٨.

(٢) إبراهيم طرخان، المماليك الجراكسة، ص ٢٢٦.

(٣) Popper, Egypt and Syria, vol. 1, p. 85.

(٤) Ayalon, The system of payment in Mamluk, p. 44.

(٥) القلقشندي، صبيح الأعراس، ج ٤، ص ٦١-٦٢.

(٦) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ٤-١٠.

(٧) إبراهيم طرخان، النظم الإقطاعية، ص ١٥٤.

(٨) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٤، ص ١٢٩.

السلطة<sup>(١)</sup>. وعندما استكثر الأمير الطنبيغا الجوباني نائب دمشق من شراء المالك واستخدمهم سنة ٧٩٠هـ / ١٣٨٨م اعتقله السلطان برقوق وسجنه بالإسكندرية لأنه أعلن العصيان على السلطان وضرب حاجب حجاب دمشق<sup>(٢)</sup>.

واهتم الأمراء بتربية مماليتهم، وعززوا ولاء هؤلاء المالك لهم بإغداق الأموال عليهم. فالسلطان برقوق عندما عرض المالك الأشرفية -ممالك الأشرف شعبان- سنة ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م وعزلهم عن وظائفهم، وقطع رواتبهم، وعين عوضهم من مماليتهم الذين اشتراهم ورباهم؛ علل ذلك بأنهم قد خانوا أستاذهم الملك الأشرف، وأعانوا على قتله بشيء يسير أخذوه من المال، بعدما عاشوا في نعمته دهرًا طويلًا. «فلا خير فيهم»<sup>(٣)</sup>.

#### ج- أجناد الحلقة؛

تعد فرقة أجناد الحلقة من أهم فرق الجيش، وقد أنشأها السلطان صلاح الدين الأيوبي، وتميزت عن غيرها من الفرق العسكرية الأخرى من حيث المكانة الاجتماعية والعسكرية في الدولة، وكانت في بعض الأحيان مساوية للممالك السلطانية من حيث المكانة العسكرية<sup>(٤)</sup>. غير أن هذه الفرقة أخذت بالتراجع في فترة حكم دولة الممالك الثانية وأصبحت أقل فرق الجيش أهمية<sup>(٥)</sup>، بسبب دخول عناصر من غير الجند من المتعممين وغيرهم بواسطة النزول عن الإقطاعات<sup>(٦)</sup>.

(١) ابن تقي بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٥٧.

(٢) المقرئ، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٥٨٤. وابن تقي بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٥٣.

(٣) المقرئ، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٤٧٩.

(٤) Ayalon, The system of payment in Mamluk, p. 45.

(٥) Ayalon, The system of payment in Mamluk, p. 45.

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٦. وأحمد صادق، تاريخ مصر، ص ٤٠٦. وكرافولسكي، العرب وإيران، ص ١٢٩.

فالسُلطان الظاهر برقوق اعتمد على أجناد الحلقة كقوة ثانوية إلى جانب المماليك السلطانية في صد هجمات تيمورلنك على بلاد الشام سنة ٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م. فقد اختار نحو ثلاثمائة فارس لمساعدة الأمير سودون المظفري<sup>(١)</sup> نائب حلب<sup>(٢)</sup>. وعندما زاد تهديد تيمورلنك لبلاد الشام سنة ٧٩٦هـ/ ١٣٩٣م عرض أجناد الحلقة لاختيار عدد منهم للسفر لقتال تيمورلنك، وأجبر أصحاب الإقطاعات الكبيرة من أجناد الحلقة على السفر<sup>(٣)</sup>. وفي ربيع الآخر من السنة نفسها عرض السلطان برقوق أجناد الحلقة الذين عينوا للسفر، واختار منهم نحو أربعمئة فارس للسفر معه، وعندما عرض رأس نوبة أجناد الحلقة مرة أخرى، اختار منهم نحو مائتي فارس وترك عدداً آخر في القاهرة لحمايتها<sup>(٤)</sup>.

وتقدر أعداد أجناد الحلقة في مصر بنحو أربعة وعشرين ألف جندي موزعين على الأمراء مقدمي الألوف لكل أمير ألف جندي. وفي دمشق اثنا عشر ألف، وحلب ستة آلاف، وفي طرابلس وصفد وغزة ألف جندي مهمتهم الرئيسية الحفاظ على القلاع<sup>(٥)</sup>.

#### ٥- الرتب العسكرية:

اقتبست دولة المماليك نظام رتبها العسكرية عن المغول الذين قسموا رتبهم إلى أمراء ألوف وأمراء مائة. وأمراء عشرات<sup>(٦)</sup>، وقسمت دولة المماليك رتبها العسكرية إلى أربعة أقسام رئيسية هي إمرة مائة مقدمة ألف، وإمرة طبلخانة، وإمرة عشرة، وإمرة خمسة. واستمر هذا التقسيم طوال فترة حكم دولة المماليك الأولى والثانية وجزء من فترة حكم الدولة العثمانية.

(١) من ممالك الأمير قطلووغا المظفري. تولى عدة وظائف أثناء حكم السلطان برقوق أهمها: نائب حماة، ونائب حلب، وأتابك حلب. قتل سنة ٧٩١هـ/ ١٣٨٨م. المقرئ، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٦٨٦. وابن حجر العسقلاني، أنباء الفهر، ج ٢، ص ٣٦٨.

(٢) ابن دقماق، الجوهر الثمين، ج ٢، ص ٢٨٩. والمقرئ، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٥٦٤.

(٣) المقرئ، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٧٩٧.

(٤) المصدر ذاته، ج ٢، ق ٢، ص ٨٠٧. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٥٢.

(٥) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١٠٤-١٠٥.

(٦) المقرئ، الخطط، ج ٢، ص ٢٢١.

## ١- إمرة مائة تقدمة ألف:

تعد رتبة إمرة مائة وتقدمة ألف من أعلى الرتب العسكرية في دولة المماليك. ويسمى أصحاب هذه الرتبة أمراء المثين مقدمي الألواف. ويكون في خدمته مائة مملوك، وربما زاد الواحد عشرة أو عشرين مملوك، ويتقدم صاحب هذه الرتبة على ألف جندي من أجناد الحلقة في أوقات الحرب<sup>(١)</sup>. ويتميز أمراء المثين مقدمو الألواف بدق الطبول على أبوابهم وهي عبارة عن أحمال طبلخانة<sup>(٢)</sup>، وطبلين كبيرين وزمرين وأربعة أنفرة<sup>(٣)</sup>.

ومن أمراء المثين مقدمي الألواف يختار السلطان كبار موظفي الدولة، كنواب السلطنة في مصر وبلاد الشام<sup>(٤)</sup>، وأتابك العساكر<sup>(٥)</sup>.

ويولي أتابك العساكر في الرتبة أمير مجلس الذي يتولى حمل سلاح السلطان في القتال، ويشرف على السلاح خاناه، وأمير مجلس، ويتولى الإشراف على مجلس السلطان والأطباء والكحالين (أطباء العيون)، وأمير دوا دار كبير الذي يبلغ الرسائل عن السلطان، وأمير أخور كبير الذي يشرف على الإسطبلات السلطانية. ورأس نوبة النوب- وكانت قبل ذلك أقل رفعة من الحجوبية<sup>(٦)</sup>، وحاجب الحجاب وهي من الوظائف التي طرأ عليها التغييرات في فترة حكم السلطان برقوق،

(١) المقرئ، الخطط، ج ٢، ص ٢١٥. والقلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٤. وليون الإفريقي، وصف أفريقيا، ص ٦٠٢. وابن كنان، حدائق الياسمين، ص ١٠٤.

(٢) مجموعة طبول وأوراق ومزامير مختلفة الأصوات تنق في القلعة وقت القتال. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٨-٩.

(٣) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١١٢.

(٤) المصدر ذاته، ص ١١٣. والقلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٤.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٨. وابن كنان، حدائق الياسمين، ص ١١٥.

(٦) الخالدي، المقصد الرفيع، ورقة ١١٢٥. والسيوطي، حسن المحاضرة، ج ٢، ص ٩٥.

وأصبح في الدولة خمسة حجاب بدلاً من أربعة حجاب<sup>(١)</sup>. وشاد الشراب خاناه الذي يتولى الإشراف على أطعمة وأشربة السلطان<sup>(٢)</sup>، وأمير جاندار الذي يستأذن على دخول الأمراء للخدمة عند السلطان، ويقدم البريد مع الدوادار وكاتب السر، وينفذ أمر السلطان في تعزير أو قتل أحد الأمراء المماليك، والمسؤول عن الزردخانة<sup>(٣)</sup>. ورأس نوبة الأمراء، الذي كان له الأمر والنهي على المماليك السلطانية والبالغ عددهم أربعة أمراء: واحد مقدم ألف، وثلاثة طبخانة<sup>(٤)</sup>.

واختلفت أعداد من يحملون رتبة أمير مائة تقديماً ألف من وقت إلى آخر، فقد بلغت في فترة حكم دولة المماليك الأولى الأتراك أربع وعشرين أميراً في حين خُفض العدد في فترة حكم السلطان الظاهر برقوق إلى ١٨ أو ٢٠<sup>(٥)</sup> أميراً بسبب تخصيص السلطان برقوق عدة إقطاعات لديوان المفرد الذي يتولى صرف رواتب ومخصصات مماليكه المشتروات<sup>(٦)</sup>.

أما في نيابات بلاد الشام، فقد بلغت أعداد أمراء المثين كالتالي: دمشق ١٢ أميراً، وحلب ما بين ٣ - ٦ أمراء، وطرابلس وحمص ٢ أمير. والإسكندرية ٣ أمراء<sup>(٧)</sup>.

- (١) المقرئ، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٤٨٠. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٢٧. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٣٢٣-٣٢٤. وابن كنان، حدائق الياسمين، ص ١١٩.
- (٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢١. وابن كنان، حدائق الياسمين، ص ١٢٥.
- (٣) المصدر ذاته، ج ٤، ص ٢٠-٢١.
- (٤) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١١٢. وابن كنان، حدائق الياسمين، ص ١١٨-١١٩.
- (٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٤. والخاندي، المقصد الرفيع، ورقة ١٢ب. وانظر كرافولسكي، العرب وإيران، ص ١٤٢.
- (٦) ابن كنان، حدائق الياسمين، ص ١٢١.
- (٧) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١١٢-١١٣.

وقد امتازت رتبة أمراء المثين مقدمي الألو في فترة حكم السلطان برقوق باستقرار نسبي، ولم يطرأ على هذه الرتبة سوى تطورات وتغيرات ضئيلة جداً؛ كارتفاع عدد الحجاب من ثلاثة حجاب إلى خمسة حجاب. وانخفاض أعداد من يحملون رتبة أمير مائة تقدمه ألف إلى ١٨ - ٢٠ أميراً.

#### ب- إمرة طبخانة:

وتأتي في الدرجة الثانية من حيث الرتبة، إذ يكون تحت إمرة طبخانة أربعون فارساً كحد أدنى، ويندرج تحت رتبة أمير طبخانة من تأمر ستين أو سبعين أو ثمانين فارساً<sup>(١)</sup>. ولا تكون هذه الرتبة لأقل من أربعين فارساً<sup>(٢)</sup>.

وأطلق مصطلح إمرة طبخانة على أصحاب هذه الرتبة من الأمراء، لأحقيتهم في دق الطبول أمام بيوتهم<sup>(٣)</sup>. إذ يدق أمام بيت كل أمير طبخانة ثلاثة أحمال طبخانة ومزماران، ثم صارت طبخين وزمرين<sup>(٤)</sup>.

ومن أمراء الطبخانة تكون الرتبة الثانية من أرباب الوظائف والكشاف، وولاية الأعمال وأكابر الولاية في مصر<sup>(٥)</sup> مثل دوادار ثان، أمير أخور ثاني، ورأس نوبة ثاني، وحاجب ثان، وخازندار ثان فضلاً عن شاد الشراب خاناه، وأمير جاندار<sup>(٦)</sup>، ومقدم الممالك والزرديكاش<sup>(٧)</sup>، وأمير شكار، ونائب القلعة في القاهرة وغيرها<sup>(٨)</sup>.

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٥. والمقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٢١٥. والخالدي، المقصد الرفيع، ورقة ١٢٣ ب.

(٢) المصدر ذاته، ج ٤، ص ١٥. وابن كنان، حدائق الياسمين، ص ١٠٨.

(٣) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١١٣. وابن كنان، حدائق الياسمين، ص ١٠٨.

(٤) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١١٣.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٥.

(٦) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١١٤.

(٧) الزردكاش: الذين يصنعون الأسلحة. ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١٢٢.

(٨) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢١، ٢٣، ٢٦، ٢٧. والخالدي، المقصد الرفيع، ورقة ١٢٧ ب، ١٢٨. وابن كنان،

حدائق الياسمين، ص ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠.

أما أعداد أمراء الطبليخانة فقد تراوحت بين الزيادة والنقص<sup>(١)</sup>، فقد تراوحت أعدادهم في مصر أربعين أميراً. في خدمة كل أمير من أصحاب هذه الرتبة أربعون فارساً<sup>(٢)</sup>. أما نيابات بلاد الشام فهي كالتالي: ٢٠ أميراً في دمشق، ١٠ أمراء في حلب، ١٠ أمراء في طرابلس، ٤ أمراء في حماة<sup>(٣)</sup>. وفي صغد ٢ أمراء، وفي غزة ٢ أمير<sup>(٤)</sup>.

### ج- أسرة عشرة:

وهي الرتبة الثالثة في جيش دولة المماليك ويكون في خدمة صاحب هذه الرتبة عشرة فرسان من المماليك، وربما كان منهم من له عشرون فارساً، ويعتبر من أمراء العشرات<sup>(٥)</sup>.

ومن أمراء هذه الرتبة يكون موظفو الطبقة الثالثة في دولة المماليك، مثل دوا دار ثالث، وأمير أخور ثالث، ورأس نوبة ثالث، والحاجب الثالث، واستدار الصحية، وسبعة حجاب، وعشرة رؤوس نوبة<sup>(٦)</sup>.

وليس ثمة ضابط لعدد أفراد أمراء هذه الفئة، بل تتفاوت زيادة ونقصاناً كما في أمراء الطبليخانة<sup>(٧)</sup>. أما في نيابات بلاد الشام فقد تراوحت أعداد أمراء

(١) القلقشندي، صبيح الأعيان، ج ٤، ص ١٥. والمقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٢١٥. والخاندي، المقصد الرفيع، ورقة ١٢٢ ب.

(٢) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١١٣.

(٣) المصدر ذاته، ص ١٣١-١٣٤.

(٤) المصدر ذاته، ص ١٣٢-١٣٣.

(٥) القلقشندي، صبيح الأعيان، ج ٤، ص ١٥.

Ayalon, The system of payment in Mamluk, p. 46.

(٦) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١١٥.

(٧) القلقشندي، صبيح الأعيان، ج ٤، ص ١٥.

العشرات والعشرينات<sup>(١)</sup> كما يلي: دمشق ٦٠ أميراً، حلب ٢٠ أميراً، طرابلس ٣٠ أميراً، حماة ٢٠ أميراً. وفي مصر ٥٠ أميراً، وفي الإسكندرية ٢٠ أميراً مع أمراء العشرات والخمسات<sup>(٢)</sup>.

#### د- إهرة خمسة:

وهي الرتبة الرابعة في جيش دولة المماليك، وينبغي أن يكون في خدمة صاحب هذه الرتبة خمسة مماليك. وأعداد الأمراء الذين يحملون هذه الرتبة في مصر قليلة جداً، وغالبيتهم من أولاد الأمراء المتوفين. وذلك رعاية لسلفهم<sup>(٣)</sup>.

ومن أصحاب هذه الرتبة يكون صفار الولاة وموظفي الدولة، مثل: نقيب الجيش، الذي يشرف على عرض الجند وإحضار من يطلب منهم، والنظر نيابة عن السلطان في الخصوم، وأمير طبر الذي يشرف على فئة الطيردارية من المماليك السلطانية، وأمير علم الذي يشرف على الطبول السلطانية، وأمير مشوى الذي يشرف على ما يشوى من اللحم والطيور للسلطان، وأمير منزل الذي يشرف على الفراشين، والخازن الذي يشرف على الأشربة من السكر والحلوى، وحمل سجادة الصلاة وفرشها للسلطان وقت الصلاة<sup>(٤)</sup>.

أما أعداد أفراد هذه الرتبة فهي كالتالي: في مصر ٣٠ أميراً<sup>(٥)</sup>، وفي نيابات بلاد الشام ٦٠ أميراً، يضاف إليها أمراء العشرات<sup>(٦)</sup>.

(١) المقرئ، الخطط، ج ٢، ص ٢١٥-٢١٦. والخالدي، المقصد الرفيع، ورقة ١٢٢ ب.

(٢) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١٢١-١٢٣.

Popper, Egypt and Syria, vol. 1, p.p. 86-87.

(٣) القلقشندي، صبح الأمشى، ج ٤، ص ١٥. وابن كنان، حدائق الياسمين، ص ١٠٨.

(٤) الخالدي، المقصد الرفيع، ورقة ١٢٩ أ. وابن كنان، حدائق الياسمين، ص ١٣٤-١٣٥.

(٥) إبراهيم طرخان، المماليك الجراكسة، ص ٢٢٢. والبياز العريني، المماليك، ص ١٤٠. والبياز العريني، الفارس المملوكي، ص ٥٨.

(٦) البياز العريني، المماليك، ص ١٣٩. والبياز العريني، الفارس المملوكي، ص ٥٨.



ويتضح من خلال تتبع دراسة تطور الرتب العسكرية في دولة المماليك عدم إحداث أي تغيير على الرتب العسكرية طوال فترة حكم دولة المماليك الثانية.

## ٦- نظام الترقية والتقاعد.

### ١- الترقية:

يخضع نظام ترقية المماليك في وظائف الدولة وما يتبعها من الانتقال من رتبة إلى أخرى لاعتبارات مختلفة. ويستفاد من تتبع دراسة ترقية أمراء السلطان برقوق أن التدرج الطبيعي في الرتب من اعتبارات الترقية، وتبدأ من إمرة خمسة وفيها يكون المملوك قد قضى قبلها مدة في الطباقي، حيث يتلقى التدريب على الفروسية والرمي بالنشاب واللعب بالرمح وركوب الخيل على يد مقدم المماليك فضلاً عن تعلم الفقه والأدب والحسنة. فإذا بلغ المملوك سن البلوغ أعتقه السلطان، ومنحه خيلاً وقماشاً وإقطاعاً. ثم يبدأ المملوك بالترقية من رتبة إلى أخرى حسب سلم الرتب العسكرية في الدولة (من إمرة خمسة إلى إمرة عشرة، ثم إمرة طبلخانة، ثم إمرة مائة مقدمة ألف) وربما يتمكن من الوصول إلى السلطنة<sup>(١)</sup>.

ويشترك المماليك السلطانية ومماليك الأمراء في الترقية إلى رتب الإمرة. غير أن المماليك السلطانية أسرع في الترقية من مماليك الأمراء لقرب المماليك السلطانية من السلطان. وتعد المماليك الخاصكية أسرع فئات المماليك السلطانية ترقية<sup>(٢)</sup>.

(١) إبراهيم طرخان، المماليك الجراكسة، ص ٢٢٢. والباز العريني، المماليك، ص ١٤٠. والباز العريني، الفارس المملوكي، ص ٥٨.

(٢) الباز العريني، المماليك، ص ١٣٩. والباز العريني، الفارس المملوكي، ص ٥٨.

وكثيراً من السلاطين الذين لم يرثوا السلطة عن آبائهم، جاؤوا عن هذا الطريق، ومثال ذلك المؤيد شيخ الحمودي الجركسي<sup>(١)</sup> الذي تولى السلطنة سنة ٨١٥هـ/ ١٤١٢م، فقد اشتراه السلطان برقوق من التاجر الخواجا محمود شاه الجركسي بمبلغ ٣٠٠٠ درهم، ورقاه إلى رتبة أمير خمسة، وجعله في خدمته، ثم أنعم عليه بإمرة عشرة، ثم إمرة طبلخانة، وعينه بوظيفة رأس نوبة، وصار من أمراء الألف، وولي نيابة السلطنة في طرابلس، والشام، وبعد وفاة السلطان الظاهر برقوق سنة ٨٠١هـ/ ١٣٩٩م اشترك في قتال السلطان الناصر فرج بن برقوق إلى أن قتل. وقدم المؤيد شيخ بعد مقتل الناصر فرج صحبة الخليفة المستعين بالله من دمشق إلى مصر، وفوض إليه الخليفة جميع أمور الدولة «من ولاية وعزل وأخذ وعطاء» ثم تولى السلطنة سنة ٨١٥هـ/ ١٤١٢م<sup>(٢)</sup>.

ومن الأمراء المشهورين الأمير برسبائي<sup>(٣)</sup> الذي بعثه الأمير دقماق نائب ملطية هدية للسلطان برقوق الذي أنزله بالطباق من القلعة حتى بلغ سن البلوغ، وأعتقه وأخرج له خيلاً وقماشاً، وأصبح من المماليك الجمدارية<sup>(٤)</sup>، ثم من المماليك الخاصكية. وبعد أن انضم إلى الأمير نوروز الحافظي<sup>(٥)</sup> والأمير المؤيد شيخ في قتال السلطان الناصر فرج، وقتله، وتولى المؤيد شيخ السلطنة، أنعم عليه السلطان المؤيد بإمرة عشرة، ثم بإمرة طبلخانة، ثم بإمرة مائة مقدمة ألف، وتولى عدة مناصب مثل كاشف الجسور، ونيابة طرابلس. وعندما قام بعض الأمراء بالثورة

(١) أبو النصر سيف الدين شيخ بن عبد الله الحمودي الظاهري (ت ٨٢٤هـ/ ١٤٢١م). ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٢، ص ٥٩. والحتبلي، شذرات الذهب، ج ٧، ص ١٦٤.

(٢) المقرئ، السلوك، ج ٤، ق ١، ص ٢٤٣. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ٢، ص ٤. حياة الحجي، المؤيد شيخ، ص ١٠-١١.

(٣) برسبائي بن عبد الله أخذ صغيراً من بلاد الجركس (ت ٨٤١هـ/ ١٤٣٧م). ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٢، ص ١٨٨-١٨٩. والنهروالي، الأعلام في بيت الله الحرام، ص ١٣٩. والسخاوي، وجيز الكلام، ج ٢، ص ٥٥٤.

(٤) مجموعة من المماليك تسيير أمام السلطان في المواكب. المقرئ، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٩٠٤.

(٥) قتل على يد المؤيد شيخ سنة (٨١٧هـ/ ١٤١٤م) أصله من مماليك السلطان برقوق. ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٢، ص ١٤.

على السلطان المؤيد شيخ سنة ٨٢٦هـ / ١٤١٨م في نيابة طرابلس غضب السلطان عليه وسجنه مدة طويلة، ثم أطلق سراحه وأنعم عليه بتقدمة ألف بدمشق؛ فلما توفي السلطان ططر، وتولى إبنه الصالح السلطنة سنة ٨٢٤هـ / ١٤٢١م خلع الأمير برسبای الصالح من السلطنة سنة ٨٢٥هـ / ١٤٢٢م وتولى السلطنة مكانه<sup>(١)</sup>.

وأما الأمير جقمق، فقد سبى صغيراً من بلاد الجركس، وجلبه التاجر الخواجا كزل، واشتراه منه العلای علي بن الأتابك إينال اليوسفي، وأهداه إلى السلطان برقوق، فأنزله بالطبقة وصار من الممالیک السلطانية، ثم من الخاصكية. وفي فترة حكم السلطان الناصر فرج قبض عليه وسجنه حتى تولى المؤيد شيخ السلطنة وأمر بالإفراج عنه وأنعم عليه بإمرة عشرة، ثم أنعم عليه بإمرة طبليخانة. وعندما تولى الأمير ططر السلطنة أنعم عليه بإمرة مائة تقدمة ألف. وفي فترة حكم السلطان برسبای تولى عدة وظائف كحاجب الحجاب، وأمير آخور، وأمير سلاح. وفي أواخر حكم السلطان برسبای تولى منصب أتابك العساكر، وأصبح نظام الملك<sup>(٢)</sup> للسلطان العزيز بن برسبای بسبب صغر سن الأخير، ثم عزله وتولى السلطنة مكانه<sup>(٣)</sup>.

والإعتبار الثاني للترقية الانتقال السريع من رتبة إلى أخرى دفعة واحدة كالانتقال من رتبة جندي إلى رتبة أمير مائة تقدمة ألف. ويعد السلطان الظاهر برقوق من الممالیک الذين ارتقوا بهذه الطريقة، إذ ارتقى من الجندي إلى إمرة طبليخانة دفعة واحدة لاشتراكه في الثورة ضد السلطان الأشرف شعبان، دون الانتقال إلى رتبة إمرة خمسة ثم إمرة عشرة<sup>(٤)</sup>.

(١) المقرئزي، السلوك، ج ٤، ق ٢، ص ٥٨٢-٥٨٠. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ٢، ص ٨١-٨٢. والسخاوي، وجيز الكلام، ج ٢، ص ٥٥٥.

(٢) نظام الملك من الأتقاب التي تطلق على كبار أمراء الدولة مثل أنوزير وكاتب السر، وأتابك العساكر. ويقصد بذلك أنه يكون به انتظام الدولة والتنامها. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٦، ص ٣٣. والبقلي، مصطلحات صبح الأعشى، ص ٣٤٨.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٢، ص ١٩٩-٢٠٠. والسخاوي، وجيز الكلام، ج ٢، ص ٥٦٢.

(٤) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٤٧٦-٤٧٧. وابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ٢، ص ٢٨٦. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ٢، ق ١، ص ٢٠٤.

وعندما استولى الأمير منطاش على الحكم سنة ٧٩١هـ / ١٢٨٨م ارتقى الأمير إبراهيم بن قطلقتمر من إمرة عشرة إلى رتبة أمير مائة دفعة واحدة<sup>(١)</sup>. كما أنعم على عدة من أمراء بلاد الشام بإمرة مائة دون المرور بإمرة عشرة. وأنعم على الأمير أينبك بإمرة طبليخانة دفعة واحدة، ثم رقيه إلى إمرة مائة مقدمة ألف<sup>(٢)</sup>. لوقوفهم إلى جانبه في الثورة ضد السلطان برقوق.

ومن الاعتبارات الأخرى التي لها أهمية في الترقية أيضاً ما يرتبط به الممالك معاً من صلات الزمالة في الرق والعتق والعمل والخدمة. ويطلق على هؤلاء الممالك الخشداش أو الخشداشية إذ يعمل السلطان على ترقية ممالكه الذين ساعدوه في الوصول إلى السلطنة بدلاً من ممالك السلطان المعزول أو الذين قتلوا. ويوزع عليهم الإمرة والإقطاعات والوظائف المختلفة<sup>(٣)</sup>. فالأمير كمشيفا بن عبد الله الحموي لم يصل إلى وظيفة أتابك العساكر في مصر أثناء حكم السلطان برقوق إلا لكونه خشداشة. فكلاهما كان مملوكاً للأمير يلبغا العمري أتابك العساكر في سلطنة الأشرف حسين بن شعبان<sup>(٤)</sup>. وترقى مأمور بن عبد الله القلمطاوي إلى إمرة مائة مقدمة ألف في مصر لأنه خشداش السلطان برقوق كذلك<sup>(٥)</sup>.

وثمة اعتبار آخر يتم فيه الترقية كالفتن والثورات بعد موت أو قتل أوسجن عدد من الأمراء؛ وما ينتج عن ذلك من وجود إمرات شاغرة في الدولة. ففي سنة ٧٨٨هـ / ١٣٨٦م رقى السلطان برقوق الأمير أحمد بن هُمز التركماني

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٤٣.

(٢) المصدر ذاته، ج ١١، ص ٢٢٣.

(٣) الباز العريني، الممالك، ص ٥٩. والباز العريني، الفارس المملوكي، ص ٥٩.

(٤) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ٢، ص ٥٧. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٣٧.

(٥) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ٢، ص ٧٤.

إلى رتبة أمير طبليخانة عوضاً عن الأمير علي بن الأمير منجك بسبب وفاته<sup>(١)</sup>. ورقى عدد آخر من الأمراء إلى رتبة إمرة مائة مقدمة ألف عوضاً عن قتل أو سجن من الأمراء في بلاد الشام بعد ثورة يلبغا الناصري سنة ٧٩١هـ / ١٢٨٨م<sup>(٢)</sup>.

ورغم ذلك فإن رتب بعض الأمراء توقفت عند حد معين، كالأمير ركن الدين بيبرس بن عبد الله التمان تمري<sup>(٣)</sup>، وأحد الأمراء المقربين من السلطان برقوق وندمانه. واستنكر ابن تغري بردي على السلطان برقوق في عدم ترقيته، وعلل ذلك مشككاً، «ولعله كان راضياً بما هو فيه»<sup>(٤)</sup>. وربما بسبب عدم قدرته على تحمل أعباء الخدمة العسكرية لقربه من بلاط السلطان ومناذمته له.

أما عدد السنوات التي يقضيها المملوك لارتقائه من رتبة إلى أخرى، فغير محدودة. فمثلاً بعد أن أتم المؤيد شيخ تعليمه بالطباق، وأخرج له السلطان برقوق خيلاً وقماشاً، وجعله من المماليك الجمدارية، ثم نقله بعد مدة قصيرة إلى الخاصكية وبعد مدة أخرى أصبح ساقياً، وصارت له مكانة عند السلطان برقوق. ثم صار أمير عشرة سنة ٧٩٤هـ / ١٢٩١م، ثم أمير عشرين ثم أمير أربعين وبذلك أصبح أمير طبليخانة. ولما تعين الأمير أيتمش البجاسي للوصاية على السلطنة بعد وفاة السلطان برقوق، أعطي للأمير شيخ سنة ٨٠١هـ / ١٢٩٨م إمرة مائة مقدمة ألف، وهي أعلى الرتب العسكرية في دولة المماليك. وهذا يعني أن الأمير شيخ الحمودي استغرق في سلم الرتب العسكرية المملوكية بعد تأميره نحو ثماني سنوات<sup>(٥)</sup>.

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٠١. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ١٣٧.

(٢) المقرئ، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٥٤٨. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٢٠٠.

(٣) الأمير ركن الدين بيبرس بن عبد الله التمان تمري، وهو من أول الأمر إلى آخره كان إلى جانب السلطان برقوق وعن ندمانه (ت ٧٩٩هـ / ١٢٩٦م) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ١٥٦. وابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ٢، ص ٤٨٥.

(٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ١٥٦.

(٥) المقرئ، السلوك، ج ٤، ق ١، ص ٢٤٢. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ٢، ص ٤٠.

## ب- التقاعد:

لفظة التقاعد من الألفاظ التي لم تكن تستخدم في دولة المماليك الأولى أو الثانية، وهي لفظة حديثة. ولكن هناك عدة ألفاظ استخدمت في دولة المماليك للدلالة على التقاعد من الجيش مثل (الطرخان) وهي لفظ تركي أطلقه المغول على الأشخاص الذين يعفون من الخدمة في الجيش<sup>(١)</sup>. كما أطلقت لفظة (بطل) على الأشخاص الذين أعفوا من الخدمة العسكرية وأخرجت عنهم إقطاعاتهم ووظائفهم لسبب من الأسباب<sup>(٢)</sup>. كما أطلقت لفظة (تعطل عن الخدمة) للدلالة على التقاعد من الخدمة العسكرية. ذكر المقرئزي قال: «وفي سنة خمس وسبعين وسبعمائة، استقر الأمير تلتكتمر حاجب الحجاب مدة لطيفة، ثم تعطل ولزم داره، حتى مات في حادي عشرين ربيع الآخر»، سنة ٧٩٤هـ / ١٣٩١م<sup>(٣)</sup>.

والتقاعد عن الخدمة في الجيش لم يحدد بفترة زمنية وإنما يخضع لاعتبارات مختلفة مثل: عدم القدرة على مواصلة الخدمة بسبب المرض أو كبر السن، والنفي، والاعتقال، أو بناءً على طلب الأمير نفسه. ويترتب على الأمير في مثل هذه الحالة أن يلزم بيته حتى يرتب له السلطان ما يمكنه من العيش حياة كريهة من مال أو إقطاع. وفي مثل هذه الظروف يكتب السلطان لهؤلاء الأمراء مكاتبه تسمى بالطرخانيات أو (الطرخانية) وهي: «أن يصير الشخص مسموحاً له بالخدم السلطانية: يُقيم حيث شاء، ويرحل متى شاء: تارة بمعلوم يتناوله مجاناً، وتارة بغير معلوم». وتتضمن هذه الطرخانية أن يقيم الأمير أو المملوك حيث يشاء في بلاد السلطنة حسب ما تقتضيه المراسيم الشريفة، على أن يضاعف للأمير الإحسان، ويعامل بوافر البر وجزيل الامتنان، ولا يطلب للخدمة في الليل أو النهار<sup>(٤)</sup>.

(١) Poliak, The influence of Chigizkan's Yasa, p.p. 862-876.

(٢) إبراهيم طرخان، النظام الإقطاعي، ص ٤٧٣-٤٧٤.

(٣) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٧٧٦. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ١٢٨. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٢٥١.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٢، ص ٥١-٥٥. والخالدي، المقصد الرفيع، ورقة ٢٩٥، أ، ب.

ففي سنة ٧٩٧هـ / ١٣٩٤م طلب الأمير سودون الشبخوني نائب السلطنة من السلطان برقوق إعفاه من منصبه كنائب للسلطنة بسبب كبر السن والمرض وعدم القدرة على القيام بمهامه. فأعفاه السلطان ولزم بيته بعد أن رتب له طرخانية<sup>(١)</sup>. كما استعفى الأمير شهاب الدين أحمد بن يوسف الدين الحاج آل ملك من الخدمة سنة ٧٩٣هـ / ١٢٩٠م ولبس عباءة، واكتفى بالعيش بما يتحصل له من أوقاف أبيه (الأوقاف الذرية) حتى توفي في العام نفسه<sup>(٢)</sup>. كما استعفى الأمير سيف الدين تكتمر<sup>(٣)</sup> من منصبه ولزم بيته حتى توفي<sup>(٤)</sup>، وكذلك الأمير شيخ الصفوي<sup>(٥)</sup> الذي استعفى من نيابة السلطنة في غزة، وطلب الإقامة في القدس، ورتب له السلطان برقوق نصف قرية بيت لحم ونصف قرية بيت جاله<sup>(٦)</sup> ليعيش حياة كريمة<sup>(٧)</sup>.

وهناك اعتبارات أخرى للتقاعد وهي إجبار السلطان بعض الأمراء على ترك الخدمة العسكرية (التقاعد الإجباري) لفتح شواغر جديدة لأمرائه المقربين. فالسلطان برقوق عندما تولى السلطنة سنة ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م عرض الممالك السلطانية، وأجبر خمسة منهم على ترك الخدمة العسكرية، وجعلهم طرخانة،

(١) ابن الفرات، تاريخ، م ٩، ج ٢، ص ٣٩٩-٤٠٠. والمقريزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٧٧٧. وابن حبيب، درة الأسلاك، ورقة ١٨٨.

(٢) المقريزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٧٥٤-٧٥٥.

(٣) الأمير سيف الدين تكتمر، تولى عدة وظائف في دولة المماليك مثل رأس نوية، وأمير مجلس، واستدار، واستقر حاجب الحجاب في فترة حكم السلطان برقوق (ت ٧٩٤هـ / ١٣٩١م). المقريزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٧٧٦.

(٤) المقريزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٧٧٦. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ١٢٨.

(٥) يذكر ابن إياس أن أمره انتهى إلى الخراب بعد أن اشتغل باللهو عن النظر في أحوال المملكة. بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٤٥٩.

(٦) بيت جاله: أحد القرى الفلسطينية الواقعة بالقرب من بيت لحم وعين كارم، جورج بدران، أطلس العالم، ص ٦٦، خريطة رقم ٤.

(٧) المقريزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٨٨٩. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٦٧.

وأرسل البقية إلى الأمير سودون الشيوخوني نائب السلطنة، وعين عدداً من أصحاب الإقطاعات الكبيرة مقدمين في أجناد الحلقة، وجعل عدداً آخر من جملة أجناد الحلقة. «وطلب أسماء من قبض من الممالك الأشرفية البالغ عددهم عشرة آلاف مملوك، فوجد من بقي منهم خمسمائة مملوك، منهم أربعمائة مملوك بأيديهم إقطاعات من الحلقة، ومئة مملوك لهم جوامك (رواتب)، فأمر السلطان أن يلتزم الأربعمائة مملوك أصحاب الإقطاعات في الحلقة دورهم وأكل إقطاعاتهم» وقطع جوامك مئة مملوك وعين بدلاً منهم من ممالكه المشتروات<sup>(١)</sup>. وبذلك تمكن السلطان برقوق من التخلص من العناصر غير القادرة على الخدمة العسكرية وتوفير إقطاعات جديدة لامرائه وممالكه؛ وتعيين عناصر جديدة من ممالكه في الوظائف الهامة في الدولة.

ويشكل النفي والاعتقال اعتباراً آخر للتقاعد في دولة الممالك الثانية؛ ولا سيما في أثناء الاضطرابات السياسية للتخلص من المناوئين لحكم السلطان. ففي سنة ٧٨٦هـ / ١٣٨٤م نفى السلطان برقوق الأمير يلبغا الصغير الخازندار وسبعة ممالك إلى بلاد الشام بطالين بسبب إثارة الفتن<sup>(٢)</sup>. ونفى الوالي بكتمر إلى بلاد الشام في العام نفسه<sup>(٣)</sup>، والأمير طبع الحمدي أحد أمراء الألف<sup>(٤)</sup>، والأمير بلوط الصرغتمشي نائب الإسكندرية<sup>(٥)</sup>. وفي سنة ٧٨٨هـ / ١٣٨٦م قبض على ستة عشر مملوكاً من ممالك الأمير الكبير أيتمش ونفاهم إلى بلاد الشام وتتبع من بقي من الممالك الأشرفية ونفاهم من مصر<sup>(٦)</sup>.

(١) المقرئ، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٤٧٩.

(٢) المصدر ذاته، ج ٣، ق ٢، ص ٥١٢. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٣٧.

(٣) المصدر ذاته، ج ٣، ق ٢، ص ٢١٦. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٩٧.

(٤) المصدر ذاته، ج ٣، ق ٢، ص ٥٢٦.

(٥) المصدر ذاته، ج ٣، ق ٢، ص ٥٣٠.

(٦) المصدر ذاته، ج ٣، ق ٢، ص ٥١٢، ٥٢٦. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٧.



أما أماكن إقامة المتقاعدين من الجيش؛ فكانت موزعة في مناطق مختلفة من السلطنة، كدمشق<sup>(١)</sup>، والكرك<sup>(٢)</sup>، وصفد<sup>(٣)</sup>، والقدس<sup>(٤)</sup>، والإسكندرية<sup>(٥)</sup>، والصعيد<sup>(٦)</sup>، فضلاً عن بيت الأمير المتقاعد نفسه<sup>(٧)</sup>. أينما كان.

وهناك نوعان من التقاعد: الأول تقاعد دائم، يظل فيه الأمير متقاعداً عن الخدمة حتى الوفاة. كالأمير شهاب الدين أحمد بن سيف الدين الحاج آل ملك الجوكندار (ت ٧٩٣هـ / ١٣٩٠م)<sup>(٨)</sup>. والأمير سيف الدين العلائي أمير آخور (ت ٧٩٤هـ / ١٣٩١م) في منفاه بالقدس<sup>(٩)</sup>. والأمير سودون الشبخوني نائب السلطنة (ت ٧٩٤هـ / ١٣٩٥م)<sup>(١٠)</sup>. والنوع الآخر تقاعد مؤقت، إذ يمكن للأمير المتقاعد من العودة إلى الخدمة العسكرية مرة ثانية إذا اقتضت الحاجة إليه. فقد استعان السلطان برقوق بالأمرء والمماليك البطالين في قتال الأمير منطاش<sup>(١١)</sup>. وحين زاد خطر تيمورلنك على بلاد الشام استعان بمن يثق بهم من الأمرء والمماليك

- 
- (١) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٥٢٠.
  - (٢) المصدر ذاته، ج ٢، ق ٢، ص ٥٤١.
  - (٣) المصدر ذاته، ج ٢، ق ٢، ص ٩١٨. والسخاوي، وجيز الكلام، ج ١، ص ٢٧١.
  - (٤) المصدر ذاته، ج ٢، ق ٢، ص ٧٣٥. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ١٧٦.
  - (٥) المصدر ذاته، ج ٢، ق ٢، ص ٧٣٦.
  - (٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٢، ص ٤٨.
  - (٧) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٧٥٤-٧٥٥. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ١٢٣.
  - (٨) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ١٢٩.
  - (٩) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٨٦٥. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٤٠٠، ٤٤٣. والسخاوي، وجيز الكلام، ج ١، ص ٣١٥.
  - (١٠) ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ٢، ص ٣٠٣. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ١٥١.
  - (١١) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٦٠٩.

البطالين<sup>(١)</sup>. كما أعاد الأمير اشتقمر المارديني إلى نيابة الشام بعد أن كان يقيم بالقدس بطالاً<sup>(٢)</sup>. وفي سنة ٧٩١هـ/ ١٢٨٨م أفرج السلطان برقوق عن الأمير اسنبغا السيفي وأنعم عليه بإمرة طبلخانة<sup>(٣)</sup>. بعد أن زالت الإمرة عنه بسبب سجنه.

يلاحظ من تتبع تطور نظام التقاعد في دولة المماليك أثناء فترة حكم السلطان برقوق عدة أمور:

- ١- أن التقاعد في دولة المماليك يخضع إلى اعتبارات غير ثابتة قد تتغير في أي وقت حسب مزاج السلطان.
- ٢- عدم تحديد فترة زمنية للتقاعد.
- ٣- يشكل التقاعد الإجباري أغلب الاعتبارات شيوعاً في الدولة. للتخلص من العناصر غير المرغوب فيها في الجيش.
- ٤- السماح للأمير أو المملوك المتقاعد من العودة إلى الخدمة العسكرية حسب رغبة السلطان ومقتضيات الظروف السياسية.
- ٥- كان السلطان يرتب للأمير أو المملوك المتقاعد مورداً معيناً، يمكنه من العيش حياة كريمة حتى لا يضطر إلى المشاركة إلى جانب الخارجين عن طاعة السلطان في سبيل الحصول على ما يكفي للعيش.

(١) المقرئزي، السلوك، ج٢، ق٢، ص٨١٠. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج١، ص٣٨٥.

(٢) المصدر ذاته، ج٣، ق٢، ص٦٨٧. وابن حجر العسقلاني، أنباء الفجر، ج٢، ص٣٦٥.

(٣) المصدر ذاته، ج٣، ق٢، ص٦٠٢. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج١، ص١٩٦.

## ٧- مخصصات الجيش:

كان الجيش في دولة المماليك يتقاضى ثلاثة أنواع من المخصصات وهي: الإقطاعات، والمخصصات النقدية مثل نفقة البيعة (أو السلطنة)، ونفقة السفر (أو الحرب)، والرواتب الشهرية (الجوامك). ومخصصات عينية كالخيول والجمال والقماش والسلاح واللحم.

ويعد الإقطاع من أهم أنواع المرتبات التي يتقاضاها أفراد الجيش في دولة المماليك، فقد جرت العادة أن توزع الأراضي إلى إقطاعات بين السلطان وأمراء المماليك وأجنادهم. وهو نظام موروث من الدولة الأيوبية<sup>(١)</sup>. ويذكر المقرئزي: «وأما ما كانت عليه أيام صلاح الدين يوسف بن أيوب إلى يومنا هذا، فإن أراضي مصر كلها صارت تقطع للسلطان وأمرائه»<sup>(٢)</sup>. وقسمت أراضي مصر بموجب النظام الإقطاعي الأيوبي إلى أربعة وعشرين قيراطاً، واختص السلطان منها بأربعة قراريط، وعشرة للأمراء، وعشرة لأجناد الحلقة<sup>(٣)</sup>، واستمر المماليك يعملون بهذا النظام حتى سنة ٦٩٧هـ/ ١٢٦٧م عندما رآك السلطان لاجين أول روك شامل لأراضي مصر، عندما أثيرت مشكلة أخذ الأمراء ناتج إقطاعاتهم دون إعطاء مماليتهم حصة منها<sup>(٤)</sup>.

وجاء تعديل السلطان لاجين لأراضي مصر مجحفاً بحق الجيش، إذ جعل للجيش بأكمله أربعة عشر قيراطاً، وللسلطان أربعة قراريط وجعل لمن عساه

(١) إبراهيم طرخان، المماليك الجراكسة، ص ٢١٥. وقاسم عبده قاسم، تاريخ مصر الاجتماعي، ص ٢٠.

(٢) المقرئزي، الخطط، ج ١، ص ١٥٦.

(٣) المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٨٤٢. وإبراهيم طرخان، النظم الإقطاعية، ص ٩٦.

(٤) الباز العريني، ص ١٧٢-١٧٣. وسعيد عاشور، نظم الحكم والإدارة، ص ٤.

يتضرر من الأمراء والجند من قلة ناتج إقطاعه قيراطاً، وجعل للمماليك السلطانية تسعة قراريط<sup>(١)</sup>. فكان هذا التوزيع سبباً كبيراً في إضعاف قوة الجيش في مصر وتراجعها<sup>(٢)</sup>.

وفي سنة ٧١٥هـ / ١٢١٥م راع السلطان الناصر محمد بن قلاوون أرض مصر الروك الثاني، بسبب استكثاره إقطاعات المماليك من أصحاب الأمير بيبرس الجاشنكير والمماليك البرجية (الجراكسة)<sup>(٣)</sup>. وألغى عدة مكوس كانت مقطعة للأمراء والمماليك، واقتصر الإقطاع على الأراضي<sup>(٤)</sup>.

وقسمت الأراضي الإقطاعية إلى ثلاثة أقسام رئيسية من حيث الري والخصوبة ووفرة الإنتاج: القسم الأول، أجود الأراضي الإقطاعية إنتاجاً ويختص بها السلطان وكبار الأمراء على قدر مكانتهم ورتبهم. وتراوحت حصة الأمير من الأراضي المقطعة ما بين بلد واحد وعشرة بلاد. ويطلق على هذا النوع من الأراضي (البلاد النفيسة المتحصل). والقسم الثاني الأراضي متوسطة الجودة، وتقطع لفئة المماليك السلطانية إذ يشترك اثنان أو أكثر في بلد، ومنهم من ينفرد ببلد واحد. والقسم الثالث ما يقطع لفئة أجناد الحلقة والعربان والتركماني<sup>(٥)</sup>.

وثمة مناسبات مختلفة تجري فيها عملية توزيع الإقطاعات على الأمراء والجند مثل: قيام سلطان جديد في السلطة، يعمل على إعادة توزيع الإقطاعات ما بين منح وزيادة وإنقاص ومناقلة، لمكافئة أمرائه ومماليكه وإبعاد خصومه بغض

(١) المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٨٤٢-٨٤٦. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ٩٢-٩٣.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ٩٥.

(٣) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ١، ص ١٤٦.

(٤) إبراهيم طرخان، المماليك الجراكسة، ص ٢١٦.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٤٥٢-٤٥٤. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٤٩-٥٠.

النظر عن القدرة العسكرية<sup>(١)</sup>. ففي سنة ٧٨٥هـ / ١٣٨٣م نقل السلطان برقوق إقطاعات المماليك الأشرفية لماليكه المشتروات<sup>(٢)</sup>، وأقطع الأمير بوري صهر الأمير أيتمش البجاسي إقطاع الأمير جمال الدين بن عبد الله بن بكتمر الحاجب بسبب وفاته<sup>(٣)</sup>، ووزع إقطاعات الأمراء المقبوض عليهم سنة ٨٠٠هـ / ١٣٩٧م على عدد من الأمراء<sup>(٤)</sup>، ونقل إقطاع الأمير الطنبيغا العثماني في السنة نفسها إلى الأمير تمران الناصري رأس نوبة، ونقل إقطاع الأمير تمران إلى الأمير شرف الدين موسى بن قماري أمير شكار<sup>(٥)</sup>. كما منح السلطان برقوق قريبه الأمير قجماس إمرة مائة وتقدمة ألف وما يتبعها من إقطاع دون استحقاق «وهو غتمي لا يحسن التلطف بالشهادتين» فكان موظفو ديوانه يدخلون عليه والفقير يعلمه الشهادة وقراءة الفاتحة وهو كالتيس بين يديه<sup>(٦)</sup>.

وتعد مناسبة عرض الجيش من أهم المناسبات التي يجري توزيع الإقطاعات فيها. إذ يقوم السلطان باستعراض الجيش أكثر من مرة خلال فترة حكمه لمعرفة القادرين من الأمراء والمماليك على الاستمرار في الخدمة العسكرية والموالين له، وإبعاد العاجزين والمشكوك في ولائهم له، وتوفير إقطاعاتهم على من هم أكثر كفاءة وولاء للسلطان، وتوفير جزء من الإقطاعات لخزينة الدولة. لذلك كان عرض الجيش مناسبة غير محببة للأجناد<sup>(٧)</sup>. فحين أمر السلطان برقوق بعرض أجناد

(١) المقرئ، السلوك، ج٣، ق٢، ص٥٠٠.

(٢) المصدر ذاته، ج٣، ق٢، ص٥٠٠.

(٣) المصدر ذاته، ج٢، ق٢، ص٥١٦. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٢، ص٧٨.

(٤) المصدر ذاته، ج٢، ق٢، ص٨٨٩. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٢، ص٩٤.

(٥) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٢، ص٤١.

(٦) المصدر ذاته، ج٩، ص٥١-٥٢. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج١، ص٣١١.

(٧) إبراهيم طرخان، المماليك الجراكمة، ص٢١٨.

الحلقة سنة ٧٨٩هـ / ١٣٩٧م وتوجهت رسله لمختلف الأقاليم، ودار نقباء أجناد الحلقة على المقيمين في القاهرة، سعى أمراء أجناد الحلقة لدى الشيخ سراج الدين البلقيني والشيخ برهان الدين بن جماعة لإلغاء السلطان برقوق هذا العرض لما يسبب لهم من الضرر، فاقتنع السلطان وأمر بإلغاء هذا العرض<sup>(١)</sup>.

#### ١- المخصصات النقدية:

اعتاد سلاطين المماليك صرف مخصصات مختلفة على جيوشهم، في أوقات غير منتظمة مثل: نفقة البيعة (السلطنة)، ونفقة الحرب (السفر)، والجامكية (الرواتب الشهرية).

#### ١- نفقة البيعة:

عرفت نفقة البيعة في دولة المماليك الأتراك (الأولى) سنة (٦٩٣هـ / ١٢٩٢م) أثناء فترة حكم السلطان الأشرف خليل بن قلاوون، إذ كان يترتب على كل سلطان جديد يتولى منصب السلطنة، أن يثبت قواعد حكمه بتقديم مكافآت لأعيان الدولة وكبارها. ومن هذه المكافآت نفقة البيعة. وهي مقدار من المال ينفقه السلطان الجديد في الجيش حسب فئاتهم ورتبهم العسكرية ومكانتهم عنده، وعلى قدر تحمل الخزينة السلطانية<sup>(٢)</sup>. وكانت نفقة البيعة تدفع لإرضاء الأمراء والأجناد وأرباب الدولة، وتمكيناً لحاشية السلطان ليجعلهم يلتفون حوله<sup>(٣)</sup>. واستمرت هذه النفقة بعد ذلك إلى نهاية دولة المماليك. ففي سنة ٦٩٣هـ / ١٢٩٢م أنفق السلطان الأشرف خليل بن قلاوون على الجيش نفقة البيعة في أول جلوسه في السلطنة<sup>(٤)</sup>، وكذلك

(١) ابن الفرات، تاريخ، م، ٩، ج، ١، ص ٥٠. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج، ١، ص ١٥٢.

(٢) حسام الناطور، السلطنة، ص ١١٨.

(٣) Ayalon, The system of payment in Mamluk, p. 56.

(٤) العيني، عقد الجمان، ج، ٣، ص ٢٠٧.

فعل السلطان الناصر محمد بن قلاوون عندما تولى سلطنته الأولى سنة ٦٩٢هـ / ١٢٩٢م يقول العيني: «... والسلطان له شروط، أولها: أنه يطلب منك -أي من الوزير ابن السلعوس- أن تنفق على العسكر لأنه سلطان جديد»<sup>(١)</sup>. وسار على ذلك السلطان كتبغا، عندما تولى السلطنة سنة ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م<sup>(٢)</sup>، والسلطان لاجين سنة ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م<sup>(٣)</sup>، والسلطان الناصر محمد بن قلاوون حين تولى السلطنة مرة ثانية سنة ٦٩٨هـ / ١٢٩٨م<sup>(٤)</sup>.

واستمرت نفقة البيعة في دولة المماليك الجراكسة الثانية. ففي سنة ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م وزع السلطان برقوق نفقة البيعة لأول مرة على مختلف فئات الجيش في الدولة دون استثناء، فكان لكل مملوك مئة دينار ذهباً<sup>(٥)</sup>. وعندما عزل السلطان أمير حاجي عن السلطنة، وتمكن من العودة إليها ثانية وذلك في سنة ٧٩٢هـ / ١٣٨٩م وزع النفقة بأسلوب يختلف عما كان عليه في سلطنته الأولى، حيث اقتصر في توزيعها على خمسمائة مملوك، بسبب عدم قدرة الخزينة السلطانية تحمل جميع نفقات المماليك، فأعطى لكل مملوك ألفا درهم فضة<sup>(٦)</sup>، وقد بلغ عدد المماليك ٢٤٠٠٠ مملوك و٢٤ أمير برتبة أمير مائة مقدمة ألف<sup>(٧)</sup>، فبلغت النفقة على الأمراء والمماليك ١٠٠٠٠٠٠ (مليون) درهم فضة<sup>(٨)</sup>. واستمرت نفقة البيعة في عهد السلطان الناصر فرج بن برقوق والفترات التالية لحكمه. ففي

- (١) العيني، عقد الجمان، ج٣، ص٢٣١.
- (٢) المصدر ذاته، ج٣، ص٣١٥.
- (٣) المصدر ذاته، ج٣، ص٣٥٢.
- (٤) المصدر ذاته، ج٣، ص٤٥٢. تعرض العيني لنفقة البيعة في دولة المماليك الأولى الأتراك لكنه لم يحدد قيمة النفقة.
- (٥) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٢٢٢.
- (٦) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٣، ص٤٩. وابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٢٢٢.
- (٧) حسين مؤنس، سفارة بدروماتير، ص٤٥.
- (٨) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٢، ص٤٩. وابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٢٢٢.

سنة ٨٠١هـ / ١٣٩٨م وزع السلطان الناصر فرج النفقة على الممالك على فترات متقطعة، فبدأ أولاً بإعطاء خواصه من الممالك المشتروات، وأرباب الخدم في ٢١ شوال من السنة ذاتها، فأعطى لكل مملوك ستين ديناراً<sup>(١)</sup>. واستمر في النفقة على الممالك السلطانية حتى ربيع الأول سنة ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م، فأعطى لكل مملوك ثلاثة آلاف وأربعمائة درهم<sup>(٢)</sup>، ثم كلف السلطان فرج القاضي سعد الدين بن غراب بتتمة النفقة، فأعطى لكل مملوك من الممالك ألف درهم<sup>(٣)</sup>، ويبدو أن النفقة لم تكتمل، إذ احتاج في ٤ ذي القعدة سنة ٨٠٧هـ / ١٤٠٧م مبلغ مئة ألف درهم<sup>(٤)</sup>، فاقترض من أموال الأيتام، وأعطى الممالك السلطانية خمسة آلاف لكل واحد، فضلاً عما أنفقته على الأمراء، فبلغ مجموع النفقة مئتي ألف دينار<sup>(٥)</sup>.

### ٢- نفقة السفر (الحرب):

وهي نفقة غير منتظمة تدفع للأمراء والممالك والأجناد قبيل تسيير الحملات للقتال. وتكون في أغلب الأحيان مقرونة بمخصصات عينية كالخيول والجمال والقماش والسلاح وغير ذلك. ففي سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٨م أنفق السلطان برقوق في الممالك استعداداً للسفر إلى حلب لقتال يلبغا الناصري، فأعطى للأمير أيتمش مئة ألف درهم فضة وعشرة آلاف دينار ذهباً، وأنفق في أمراء الألواف مئة ألف درهم وخمسة آلاف دينار، وخصص للأمير أيدكار - أحد كبار

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ١٧٤-١٧٥. والقاضي عبد الباسط، نيل الأمل، ج ١، ورقة ١٧٧ ب. وابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ٤، ص ٢٩. وابن الصيرفي، نزعة النفوس، ج ٢، ص ١٤. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٥٤٠.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٦٠.

(٣) المصدر ذاته، ج ١، ق ٢، ص ٦٢٤.

(٤) سعر صرف الذهب مئة درهم كل مثقال. المقرئ، السلوك، ج ٢، ق ٣، ص ١١٥٦.

(٥) المقرئ، السلوك، ج ٢، ق ٣، ص ١١٥٦. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٣١٦. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٧١٥. وراجع حسام الناظور، السلطنة (نفقة البيعة)، ص ١١٨-١٢٩.



الأمراء - ستين ألف درهم، ولعدد من الأمراء خمسين ألف درهم وأربعمائة دينار<sup>(١)</sup>. وفي السنة نفسها أنفق في الممالك نفقة ثانية فأعطى ألف درهم لكل مملوك<sup>(٢)</sup>، وفي ١٨ ربيع الآخر سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٨م اختار السلطان برقوق خمسمائة مملوك للاشتراك في القتال، وأنفق فيهم ألف درهم فضة، وأعطى لكل مملوك من الممالك الكتابية مئتي درهم فضة<sup>(٣)</sup> وحين زاد خطر الناصري وصار الأمراء والممالك تتحول عن السلطان برقوق أنفق السلطان برقوق في الممالك السلطانية وممالك الأمراء وأجنادهم خمسمائة درهم فضة، واستدعاهم طائفة بعد الأخرى، وأعطى لكل مملوك بيده، وصار يحرضهم على القتال معه<sup>(٤)</sup>. كما أنفق في ممالك أمراء الطبلخانة والعشرات فأعطى لكل مملوك أربعمائة درهم<sup>(٥)</sup>.

وفي سنة ٧٩٦هـ / ١٣٩٣م أنفق السلطان برقوق في الممالك المشتروات، فأعطى لكل مملوك ألفي درهم وللمستخدمين ألفاً وسبعمائة درهم، استعداداً لمواجهة خطر تيمورلنك على بلاد الشام، فبلغ مجموع النفقة على الممالك عشرة آلاف ألف (١٠) ملايين درهم فضة ينضاف إليها نفقة الأمراء<sup>(٦)</sup>.

- 
- (١) ابن صمري، الدرّة المضيئة، ص ١٨. والمقريزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٥٩٢. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٦٠. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ١٨٦-١٨٧. والباز العريضي، الفارس الملوكي، ص ٦٠.
- (٢) المقريزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٥٩٤-٥٩٥. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٦١.
- (٣) المصدر ذاته، ج ٢، ق ٢، ص ٦٠٠-٦٠١.
- (٤) المصدر ذاته، ج ٣، ق ٢، ص ٦٠٨. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٧٦. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ١٨٨.
- (٥) المقريزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٨٠٣. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٢٧٦.
- (٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٥٤، ٥٢٦. ج ٤، ص ٤٢. ج ١٣، ص ١٠٧. وابن كنان، حقائق الياسمين، ص ٩٥.

## ٣- الجامكية (الرواتب الشهرية):

أجرى سلاطين دولة المماليك رواتب منتظمة على الجيش تسمى (الجامكيات)<sup>(١)</sup>. والجامكية مصطلح فارسي يعني (إعطاء كسوة منتظمة)<sup>(٢)</sup>.

وتعتبر الجامكيات من أهم المخصصات النقدية التي دفعت بانتظام للجيش في دولة المماليك، وهي رواتب شهرية توزع على الجيش في بداية النصف الثاني من كل شهر هجري. حسب طبقات الجيش في اليوم الأول من الموكب الذي يستمر ثلاثة أيام ابتداءً من يوم الخامس عشر وحتى السابع عشر<sup>(٣)</sup>. فقد بلغت جامكية ممالك السلطان برقوق حوالي ٩٠٠,٠٠٠ درهم فضة في كل شهر<sup>(٤)</sup>، وبلغت جامكية ممالك السلطان الناصر فرج بن برقوق سنة ٨٠٩/١٤٠٦م حوالي (٢٠٠,٠٠٠, ١٠٠,٠٠٠) درهم فضة في كل شهر<sup>(٥)</sup>.

## ب- المخصصات العينية

اعتاد السلطان برقوق كغيره من سلاطين المماليك صرف مخصصات عينية على الأمراء والأجناد في مناسبات معينة. تشمل الخيول والجمال، والكسوة، والخلع والتشريف، والسلاح، والعلف، ومخصصات نقدية.

## ١- الخيول والجمال:

لقد جرت عادة سلاطين المماليك أن تنعم على أمرائها بالخيول في السنة مرتين: الأولى عند خروجه إلى مرابط خيوله في أواخر فصل الربيع، إذ ينعم على خواصه من الأمراء بما يختاره من الخيول على قدر مراتبهم، وتكون خيول الأمراء المقدمين مسرجة ملجمة بكنابيش ومزركشة، وخيول الأمراء الطبلخانة عرياً من غير قماش. والمرة الثانية عند نزوله إلى لعب الكرة بالميدان، وتكون خيول

(١) Mo'nes, Djamakiyya, vol. 2, p. 413-414.

(٢) Ayalon, The system of payment in Mamluk, p. 51.

(٣) Ibid, p. 51.

(٤) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٥٦. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ١٠٧.

(٥) المصدر ذاته، ج ٤، ق ١، ص ٢٨.

الأمراء المقدمين والطبلخانة مسرجة ملجمة بفضة قليلة بلا كتابيش. يضاف اليهم، أمراء نواب بلاد الشام حسب مراتبهم. وليس لأمراء العشرات في ذلك حظ إلا ما يتفقدهم به السلطان على سبيل الإنعام<sup>(١)</sup>. كما ينعم السلطان على المقربين له من الأمراء المقدمين والطبلخانة بعدد كبير من الخيول تصل في بعض الأحيان إلى مئة فرس في السنة. وربما أنعم على بعض مقدمي الحلقة، وكل من مات له فرس من مماليكه، وكبار السن من الأمراء عند خروجه إلى الصيد ونحوه<sup>(٢)</sup>.

وثمة مناسبات أخرى كان ينعم فيها السلطان بالخيول والجمال على الأمراء والمماليك مثل الخروج إلى القتال. فقد أنعم السلطان برقوق على الأمير بيدمر الخوارزمي نائب الشام بثمانية جنائب من الخيل والقماش المذهب<sup>(٣)</sup>، وللأمير الطنبغا الجوباني فرس بسرج وكنبوش مذهب<sup>(٤)</sup>، ووزع على الأمراء والمماليك أثناء قتال يلبغا الناصري عدداً كبيراً من الخيول والجمال، فأعطى لكل مملوك من أصحاب الجوامك «الرواتب» جملين، ولكل إثنان من أصحاب الإقطاعات ثلاثة جمال<sup>(٥)</sup>. ويقدر المقرئزي أعداد الجمال والخيول التي فرقها السلطان برقوق على المماليك عند الانتهاء من قتال الناصري بـ ١٠,٠٠٠ جمل، و ٢٥,٠٠٠ فرس، بالإضافة إلى ما يزيد عن ١٠٠,٠٠٠ فرس وجمل كانت مع السلطان وكبار الأمراء<sup>(٦)</sup>.

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٥٦. والمقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٢٠٠، ٢٠١، ٢١٦.

(٢) المصدر ذاته، ج ٤، ص ٥٦. وابن كنان، حداثق الياسين، ص ١٠٠.

(٣) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٥١٣. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٢٧. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٩٢.

(٤) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٥٦١. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٤٦. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ١٥١.

(٥) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٥٩٤-٥٩٥. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ١٨٨.

(٦) المصدر ذاته، ج ٣، ق ٢، ص ٨١٢. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٢٨٧.

اعتاد السلاطين في دولة المماليك صرف الكسوة على المماليك وكبار الأمراء وكبار أصحاب المناصب من أرباب الأقاليم في كل سنة كسوة في الشتاء وكسوة في الصيف على قدر مراتبهم<sup>(١)</sup>، أما أمراء الشام فلا حظ لهم من الإنعام في أكثر من قباء<sup>(٢)</sup> واحد في الشتاء<sup>(٣)</sup>. ففي سنة ٧٩٧هـ / ١٣٩٤م ضرب السلطان برقوق الأمير جمال الدين الاستادار لتأخير كسوة المماليك السلطانية عن وقتها الذي تصرف فيه<sup>(٤)</sup>.

وتتألف ملابس الأمراء والمماليك من قسمين: الأول خاص بفصل الصيف وهو قماش من الفوقاني<sup>(٥)</sup> الأبيض، وتشد فوق أقببتهم حياصة<sup>(٦)</sup> من الفضة المطلية بالذهب، وتُرصع في خلع السلطان لكبار أمراء المثين بالجواهر، والقسم الآخر خاص بفصل الشتاء. ويتكون من فوقانيات ملونة من الصوف النفيس والحريير الفائق، تحتها فراء السنجاب<sup>(٧)</sup>. كما يلبس كبار الأمراء السمور<sup>(٨)</sup>، والوشق<sup>(٩)</sup>،

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٥٦-٥٧.

(٢) القباء: ثوب يلبس فوق الملابس. ماير، الملابس المملوكية، ص ٤٦.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٥٧.

(٤) المقرئ، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٨٣٠. وابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ١، ص ٤٨٩. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٤٠٣.

(٥) ملابس بيضاء تصنع من قماش رخو يسمى نصافي. ماير، الملابس المملوكية، ص ٤٦.

(٦) الحياصة: حزام مصنوع من معدن ثمين. ماير، الملابس المملوكية، ص ٤٦.

(٧) السنجاب: حيوان أكبر من الغار وبره غاية في النعومة ويتخذ من جلده القراء النفيسة التي يلبسها كبار الأمراء والأعيان. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٥٤-٥٥.

(٨) السمور: حيوان برّي متوحش له فراء غالي الثمن. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٥٢.

(٩) الوشق: من الحيوانات ذات فراء ثمين اعتاد أمراء المماليك على لبسه. ماير، الملابس المملوكية، ص ٤٦-٤٧.

والقائم<sup>(١)</sup>، والفنك<sup>(٢)</sup>، ومعظمهم يلبس الملابس المطرزة على الكمين من الزركش والحريير الأسود المرقوم<sup>(٣)</sup>. كما يلبس الأمراء والمماليك في أرجلهم الخفاف البيضاء في الصيف، والصفراء في الشتاء<sup>(٤)</sup>.

### ٣- مخصصات عينية أخرى:

كما جرت عادة السلطان برقوق أن ينعم على الأمراء بمخصصات عينية أخرى في مناسبات مختلفة. كاللحم والعلف<sup>(٥)</sup>، والسلاح والمؤن أثناء الحرب<sup>(٦)</sup>. كما أنعم على بعض كبار الأمراء احتفاءً بقدمهم إلى القاهرة من مراكز نياباتهم، كاحتفائه بقدم الأمير تنم الحسيني نائب الشام سنة ٧٩٩هـ/ ١٢٩٦م. والإنعام عليه بخمسة بقج قماشاً، فضلاً عن رواتب تكفيه ومن ومعه من الأمراء والمماليك مدة إقامته في القاهرة<sup>(٧)</sup>، أو إشعاراً لبعض الأمراء بالرضا لتقديهم الولاء والطاعة، كالأمير جلبان الكمشباغوي الذي قدم من دمياط إلى القاهرة طائعاً، فصنح عنه السلطان «والبسه خلة الرضا»، وأنعم عليه بإقطاع الأمير فخر الدين إياس الجرجاوي، وجعله أتابك العساكر بدمشق، وأرسل إليه ثمانية خيول، منها فرس بقماش مذهب<sup>(٨)</sup>.

- (١) القائم: وهو حيوان صغير الحجم يشبه الدب له شعر أبيض ناعم. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٥٤.
- (٢) الفنك: حيوان صغير له وير جميل أبيض يخالطه بعض الحمرة. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٥٤.
- (٣) ابن دقماق، الجواهر الثمين، ج ٢، ص ٢٨٤. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٤٠٠. والمقرئزي، السلوك، ج ٢، ص ٨٧٥-٨٧٦.
- (٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٤٢-٤٣.
- (٥) ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ١٨٨.
- (٦) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٨٠٣.
- (٧) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٣، ص ٦٨٩-٨٧٠.
- (٨) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٨٧١.

## ٨- الإدارة العسكرية:

يعدّ ديوان الجيش وديوان المفرد من أهم المؤسسات الإدارية والمالية التي تشرف على إدارة الجيش في دولة المماليك.

## أ- ديوان الجيش (أو ديوان الإقطاع):

ويعتبر ديوان الجيش من أهم الدواوين التي تشرف على الإقطاعات في دولة المماليك<sup>(١)</sup>، ويقسم إلى قسمين: الأول خاص بمصر ويسمى ديوان الجيش المصري، والقسم الآخر خاص ببلاد الشام ويسمى ديوان الجيش الشامي<sup>(٢)</sup>.

ويشرف على إدارة الجيش في مصر عدد من الموظفين وعلى رأسهم ناظر الجيش الذي يتولى النظر في أمر الإقطاعات بمصر وبلاد الشام والكتابة عنها ومشاورة السلطان عليها وأخذ توقيعها<sup>(٣)</sup>.

ومن أشهر من تولى نظر الجيش في مصر أثناء فترة حكم السلطان برقوق القاضي عبد الرحمن بن محب الدين الشافعي<sup>(٤)</sup> (ت ٧٨٦هـ / ١٣٨٤م)<sup>(٥)</sup>، كما تولى القاضي موفق الدين الأسلمي (ت ٧٩٦هـ / ١٣٩٣م) نظر الجيش سنة ٧٨٦هـ / ١٣٨٤م إلى جانب نظر الخاص، والذخيرة، واستيفاء الصحبة<sup>(٦)</sup> والقاضي جمال الدين

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٣١.

(٢) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١٠٢. وابن كنان، المواكب الإسلامية، ق ٢، ص ٦٧.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٣١. وابن كنان، حقائق الياسمين، ص ١٧٣.

(٤) اتقي عبد الرحمن ابن ناظره الإمام المحب محمد بن يوسف الطيبي الأصل القاهري كانت له عناية بالعلم، ابن حجر السعقلاني، أنباء الفهر، ج ٢، ص ١٧١. والسخاوي، وجيز الكلام، ج ١، ص ٢٧٠.

(٥) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٥١٦. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٣٨. وابن الصيرفي، نزعة النفوس، ج ١، ص ١٠٨.

(٦) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٥١٦. وابن الصيرفي، نزعة النفوس، ج ١، ص ٩٧.

محمود العجمي (ت ٧٩٩هـ / ١٣٩٦م) سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٨م<sup>(١)</sup>، وشرف الدين محمد بن الدماميني سنة ٧٩٩هـ / ١٣٩٦م، بعد شراء المنصب بنحو أربعمئة ألف درهم فضة<sup>(٢)</sup>. وفي سنة ٨٠٠هـ / ١٣٩٧م تولى منصب ناظر الجيش القاضي سعد الدين بن غراب (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) إلى جانب نظر الخاص<sup>(٣)</sup>.

أما في بلاد الشام فلكل نيابة من نياباتها ناظر جيش، يتولى كل نائب من نواب بلاد الشام كتابة المربعات<sup>(٤)</sup> التي تنشأ من الشام وتسجيل المناشير التي تصدر إليه من مصر في الديوان<sup>(٥)</sup>.

ويساعد ناظر الجيش في الإدارة أربعة موظفين وهم: صاحب ديوان الجيش، ويتولى كتابة ما يخرج من الديوان من وثائق وينوب عن ناظر الجيش في مختلف صلاحياته<sup>(٦)</sup>. ومستوفي الجيش الذي يتولى كتابة الكشف من هذا الديوان بعد توقيع السلطان وناظر الجيش وإخراج الاستحقاقات، وهما مستوفيان واحد في مصر والآخر في بلاد الشام<sup>(٧)</sup>. وينظر مستوفي العرب في شؤون إقطاعات العرب<sup>(٨)</sup>، ومستوفي الرزق «الذي يكتب في الرزق الجيشية»<sup>(٩)</sup>، مستقل في ذلك لا يكتب غيرها<sup>(١٠)</sup>.

(١) المقرزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٥٩٦. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ١٩٠.

(٢) المصدر ذاته، ج ٢، ق ٢، ص ٨٧٢.

(٣) ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٤٦٣.

(٤) المربعات: أوراق خاصة بمنح الإقطاعات. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٦، ص ١٩٢.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٢، ص ٩٦.

(٦) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١٠٣. والخالدي، المقصد الرفيع، ورقة ١٣٦ ب. وابن كنان، حدائق الياسمين، ص ١٧٣.

(٧) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢١. والخالدي، المقصد الرفيع، ورقة ١٣٦ ب. وابن كنان، حدائق الياسمين، ص ١٧٣.

(٨) الخالدي، المقصد الرفيع، ورقة ١٣٧ أ.

(٩) الأراضي التي تُمنح لبعض الأمراء المتقاعدین. بولياك، النظم الإقطاعية، ص ٩٦-٩٧.

(١٠) الخالدي، المقصد الرفيع، ورقة ١٣٧ أ.

ويسجل في ديوان الجيش جميع فئات الجيش من المماليك السلطانية والأمراء ومماليك الأمراء وأجناد الحلقة، إذ يقوم كاتب الجيش بتسجيل كل فرد وابتداء إمرته ومقدار إقطاعه وكيفية انتقاله إليه<sup>(١)</sup>. ويضيف كاتب الجيش كل جماعة من أجناد الحلقة إلى مقدم مشهور من أعيان أجناد الحلقة يسمى مقدم الحلقة، ويشرف عليهم نقيب يكون ملماً بمساكنهم، لدعوتهم عند الحاجة<sup>(٢)</sup>، ويضيف كل جماعة من الأمراء الطبلخانة والعشرات ومقدمي الحلقة إلى مقدم من أمراء المثين يسمى مقدم ألف، حيث يخصص للأمراء وأجناد الحلقة ورقة يعين فيها اسم كل أمير ورتبته وعدد المضافين إليه، وكذلك مقدمي الحلقة<sup>(٣)</sup>.

ويكتب كاتب الجيش أوراقاً أخرى تتضمن أسماء أمراء الميمنة والميسرة. والمقدم في الجيش، وأسماء الأمراء الذين يرافقون السلطان في رحلات الصيد والركوب إلى المتنزهات، ولعب الكرة في الميدان<sup>(٤)</sup>. أما المماليك السلطانية، فتضاف كل مجموعة من كل فئة إلى مقدم منها سواء من أصحاب الوظائف أم من المماليك الكتابية، وتكون تبعيتهم مباشرة لمقدم المماليك السلطانية<sup>(٥)</sup>.

ويسجل ممالك الأمراء في ديوان الجيش رغم تسجيلهم في دواوين أمرائهم<sup>(٦)</sup>، وعندما يتسلم الأمير إقطاعه يقدم لكاتب الجيش بيانات تفصيلية عن مملكته؛ تتضمن أسماءهم ومخصصاتهم وإقطاعاتهم، وما حدد لهم من رواتب ومخصصات.

(١) النويري، نهاية الأرب، ج ٨، ص ٢٠٠-٢٠١.

(٢) المصدر ذاته، ج ٨، ص ٢٠٢.

Popper, Egypt and Syria, vol. 1, p. 94.

(٣) النويري، نهاية الأرب، ج ٨، ص ٢٠٢-٢٠٤.

(٤) المصدر ذاته، ج ٨، ص ٢٠٦.

(٥) المصدر ذاته، ج ٨، ص ٢٠٤-٢٠٦.

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٦٢-٦٣.



ويتولى إعدادها كاتب يسمى كاتب عدة الأمير<sup>(١)</sup>، ثم ترفع الأسماء لكاتب الجيش لعرضها على السلطان واعتمادهم أمام الأمير. وفي حالة اعتماد اسم المملوك في ديوان الجيش يكتب أمام اسمه أوصافه بدقة بما في ذلك العلامات الفارقة إن وجدت<sup>(٢)</sup>.

ويتولى ديوان الجيش الإشراف على إصدار الوثائق الخاصة بمنح الإقطاعات. كما يتولى ناظر الجيش تدقيق الأوراق الخاصة بالروك (المسح)، ومقدار الإقطاع وحفظها بالديوان وكتابة الوثائق المختلفة بمساعدة كتاب الجيش بأمر السلطان. مثل المثال الذي ينص على الإقطاع المنوح من حيث إصداره جديداً أو منقولاً، واسم المقطع ومقدار إقطاعه، وتاريخ اعتماده، وأخذ توقيع السلطان وناظر الجيش عليه، وحفظ المثال في الديوان بعد كتابة تاريخ حفظه<sup>(٣)</sup>.

ثم تكتب وثيقة أخرى تسمى المربعة تتضمن البيانات التي وردت في المثال، ويكتب فيها رتبة الأمير وعدد ممالিকে وموقع إقطاعه ومساحته وألقاب السلطان. ثم ترسل المربعة إلى ديوان الإنشاء لكتابة المنشور بمقتضاها<sup>(٤)</sup>. ثم يتسلمها كاتب السر ومن دونه من كتاب الديوان<sup>(٥)</sup>. أما كبار الأمراء فيتولى كتاب الدست كتابة مناشيرهم، ثم يوقع السلطان عليها<sup>(٦)</sup>.

(١) النويري، نهاية الأرب، ج ٨، ص ٢٠٦-٢٠٧.

(٢) المصدر ذاته، ج ٨، ص ٢٠٧.

(٣) العمري، مسالك الأبحار، ص ٤٧، والنويري، نهاية الأرب، ص ٢٠٨.

(٤) المصدر ذاته، ص ٤٧، والمقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٢١٧، والقلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٣، ص ١٦٦-١٦٢.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١، ص ١٣٩.

(٦) المقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٢١١.

أما نيايات بلاد الشام، فإن نائب السلطنة يتولى إبلاغ السلطان بمن يموت من الأمراء لإقامة غيره ممن في خدمته من الأمراء. أما أجناد الحلقة فلنائب السلطنة إقامة عوض من يموت منهم، ويكتب مثلاً على نحو ما يكتب في الديار المصرية، ثم مربعة يرسلها لديوان الجيش في مصر لتدقيقها وكتابة توقيع السلطان عليها، لإصدار المربعة والمنشور من الديوان<sup>(١)</sup>.

#### ب- ديوان المفرد:

يعدّ ديوان المفرد الذي استحدثه السلطان برقوق سنة ٧٨٨هـ / ١٣٨٦م<sup>(٢)</sup> من المؤسسات الإدارية الهامة المختصة بالإشراف على رواتب (جوامك) وعليق الممالك السلطانية (الخاصكية) والبيوت السلطانية وما يلزمها<sup>(٣)</sup>. حيث خصص السلطان برقوق لديوان المفرد نحو مئة وستين بلداً، مثل فارسكو<sup>(٤)</sup> والمنزلة<sup>(٥)</sup>. يضاف إليها بعض القرى والمستأجرات والرسوم من الكشاف والولاية<sup>(٦)</sup>. كما يقدر متحصل ديوان المفرد ما يزيد على أربعمئة ألف دينار عيناً، وثلاثمئة ألف إردب قمح وقول وشعير<sup>(٧)</sup>.

ويقوم الاستادار بالإشراف على ديوان المفرد<sup>(٨)</sup>، فهو يقوم بالإشراف على البيوت السلطانية من مطابخ السكر والشراب خاناه والحاشية والغلمان والكساوي والنفقات<sup>(٩)</sup> إضافة إلى الأملاك والذخيرة<sup>(١٠)</sup>. وينوب عن الاستادار

- (١) المقرئ، الخطط، ج ٢، ص ٢١٧. والقلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٥٢.
- (٢) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١٠٧.
- (٣) المقرئ، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٥٢. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ١٤٣. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٣٧٨.
- (٤) فارسكو: من قرى مصر قرب دمياط وهي من كور الدهقنية. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ٤، ص ٢٢٨.
- (٥) المنزلة: بلدة مصرية واقعة على بحيرة المنزلة. المقرئ، السلوك، ج ١، ق ١، ص ١٨٩.
- (٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٣، ص ٥٢٤. وابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١٠٧.
- (٧) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١٠٧.
- (٨) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٣، ص ٥٢٤. والمقرئ، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٥٥٣.
- (٩) ابن طولون، نقد الطالب لزغل المناصب، ص ٦٠.
- (١٠) ابن كنان، حدائق الياسمين، ص ١٢١.

موظف يسمى ناظر ديوان المفرد الذي يتولى الإشراف على الشؤون المالية الواردة من مباشري البلاد المخصصة لديوان المفرد، وحساب الجوامك والعلائق المقررة وموجب الزيادة والنقص فيها، والإشراف على تحصيل الأموال المستحقة لديوان المفرد، وعمارة بلاد ديوان المفرد، وإقامة الجسور السلطانية فيها، وتزويد ورش صناعة المراكب الخاصة بالديوان بالأخشاب والحديد وغيرها حتى لا يتوقف مركب عن العمل وغير ذلك من مصالح الديوان<sup>(١)</sup>.

وثمة صاحب ديوان المفرد الذي ينوب عن ناظر الديوان في غيابه<sup>(٢)</sup>. ومستوفيه<sup>(٣)</sup>، وشاهدان لضبط متحصل الديوان ومصروفاته<sup>(٤)</sup>؛ وعامل الياب والشونة الذي يتولى الإشراف على ضبط ما يكتب ويصرف من غلال<sup>(٥)</sup>.

كما استحدث السلطان برقوق سنة ٧٨٨هـ / ١٣٨٦م ديوان الممالك مع ديوان المفرد، ويتولى إدارته موظف يسمى (كاتب ديوان الممالك)<sup>(٦)</sup> أو أمير ديوان الممالك السلطانية، الذي يشرف على ضبط أعداد الممالك السلطانية ومن يُدرج معهم من أولاد الناس، والسلطان والخدم والحريم<sup>(٧)</sup>، واستدعاء الممالك من الطباق حسب مراتبهم عند صرف الجامكية، والكسوة والأضحية عليهم. ويساعد كاتب ديوان الممالك عدد من الموظفين مثل الكُتّاب والشهود<sup>(٨)</sup>.

(١) ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ١٤٣، وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٢٧٨، وابن كُتّان، حدائق الياسمين، ص ١٢٢.

Popper, Egypt and Syria, vol. 1, p. 93.

(٢) ابن كُتّان، حدائق الياسمين، ص ١٢٢.

(٣) الخالدي، المقصد الرفيع، ورقة ١٣٧ أ.

(٤) ابن كُتّان، حدائق الياسمين، ص ١٢٢.

(٥) الخالدي، المقصد الرفيع، ورقة ١٣٧ أ، ب.

(٦) الخالدي، المقصد الرفيع، ورقة ١٣٨ أ. وابن كُتّان، حدائق الياسمين، ص ١٢٢.

(٧) ابن كُتّان، حدائق الياسمين، ص ١٢٢.

(٨) الخالدي، المقصد الرفيع، ورقة ٣٨ أ. وابن كُتّان، حدائق الياسمين، ص ١٢٢.

يتضح من تتبع دراسة تطور ديوان المفرد بأنه من المؤسسات الإدارية العسكرية الخاصة بالممالك السلطانية؛ أنشأه السلطان برقوق بهدف الإشراف على رواتب الممالك الخاصية والبيوت السلطانية وما يلزمها. فضلاً عن الإشراف على الأملاك الخاصة بالديوان مثل عمارة البلاد التابعة للديوان، وإقامة الجسور السلطانية وصيانتها، وتزويد ورش صناعة المراكب الخاصة بالديوان بما يلزمها من الخشب والحديد حتى لا تتوقف المراكب عن العمل. كما استحدث السلطان برقوق ديوان خاص بالممالك أطلق عليه اسم ديوان الممالك وهو تابع من الناحية الإدارية لديوان المفرد بهدف الإشراف على الأعداد المتزايدة من الممالك السلطانية (الخاصية) وضبط أعدادها وتنظيمها عند صرف الجامكية والكسوة والأضحية عليهم.

### ج- عرض الجيش:

اعتاد سلاطين الممالك استعراض الجيش قبل خروجهم إلى القتال. حيث يقوم نقيب الجيش بالإشراف على عملية العرض وأجناد الأمراء باليوم الذي حدد من قبل السلطان للعرض<sup>(١)</sup>.

ويبدأ الاستعداد لاستعراض الجيش برفع راية السلطان المسماة الجاليش وهي راية في رأسها خصلة كبيرة من الشعر تعلق على المكان الذي تدق آلة الحرب أمامه، وتتكون من طبول ومزامير ونفير أمام مقر السلطان<sup>(٢)</sup>. ثم يتولى الدوادر عملية العرض بدار نائب السلطنة حسب فئات الجيش، فيبدأ بالممالك السلطانية<sup>(٣)</sup>، ثم أجناد الحلقة<sup>(٤)</sup>، يليهم ممالك الأمراء الألوف وأجنادهم<sup>(٥)</sup>. وفي دمشق يتولى نائب السلطنة عرض الجيش بدار السعادة<sup>(٦)</sup>.

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٥، ص ٤٥٦-٤٥٧. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٣١٠-٣١١. وابن كنان، حقائق الباسين، ص ١٣٤.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ٢، ص ٢٤.

(٣) المقرئ، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٦٠٣.

(٤) ابن دقماق، الجواهر الثمين، ج ٢، ص ٢٨٩. والمقرئ، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٧٩٧. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٣٧٤.

(٥) المقرئ، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٧٩٧.

(٦) ابن مصرى، الدرّة المضيئة، ص ١١٥-١١٦.

وبعد انتهاء الدوران من عملية عرض الجيش يتولى السلطان بنفسه عملية العرض ثانية، حيث يقوم بتفقد لباس الجند وخيولهم وأسلحتهم، والإنفاق عليهم على حسب رتبهم العسكرية<sup>(١)</sup>.

كما تجري عملية عرض الجيش في دولة المماليك عندما يتولى سلطان جديد السلطنة. فالسلطان برقوق حين تولى السلطنة سنة ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م قام باستعراض الجيش من أجل اختيار من يصلح من المماليك للخدمة في الجيش والتخلص من غير القادرين على الخدمة. ففي ٢١ شوال سنة ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م أصدر أمراً بعرض المماليك الأشرفية وجعل خمسة من أمرائهم دون إمرة (طرخانات) ورتب لهم ما يكفيهم ليعتاشوا منه، كما أرسل عدداً آخر منهم إلى الأمير سودون الشيخوني نائب السلطنة من أجل العرض وعين أصحاب الإقطاعات الكبيرة مقدمين في أجناد الحلقة، والبقية من أجناد الحلقة، وقطع رواتب عدد آخر، وعين بدلاً منهم من معاليكه المشتروات<sup>(٢)</sup>.

أما المدة الزمنية التي تستغرقها عملية عرض الجيش فهي غير محددة، فقد ذكر المقرئزي: «أن المدة التي استغرقها السلطان برقوق في عرض الجيش قبل خروجه لقتال تيمورلنك سنة ٧٩٦هـ / ١٣٩٣م استمرت أربعة أيام في الأسبوع وهي: السبت والأحد والثلاثاء والأربعاء»<sup>(٣)</sup>.

(١) ابن صصري، الدرر المضية، ص ١١٥-١١٦.

(٢) المصدر ذاته، ص ١١٥-١١٦. والمقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٤٧٩.

(٣) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٢٩٧. وابن كنان، حقائق الياسمين، ص ١٣٢.

## د- قضاء العسكر:

تعدّ وظيفة قضاء العسكر من الوظائف الإدارية الدينية الخاصة بالجيش وهي رفيعة القدر، وعرفت في أثناء حكم الدولة الأيوبية. كما عرفت ذلك دولة المماليك في مصر وبلاد الشام. ففي مصر ثلاثة قضاة للعسكر: شافعي وحنفي ومالكي. مهتهم الجلوس مع القضاة الأربعة بدار العدل، والسفر مع السلطان في سفره<sup>(١)</sup>. أما بلاد الشام فقد اقتصر الأمر على قاضيين للعسكر أحدهما يمثل المذهب الشافعي والآخر يمثل المذهب الحنفي<sup>(٢)</sup>.

وأما الحجابة، فموضوعها الإنصاف بين الأمراء والجنود. فتارة يقوم حاجب الحجاب بهذا الأمر بنفسه وتارة أخرى بمراجعة النائب، ويقدم إليه من يعرض ومن يرد من الأمراء والجنود، وعرض الجنود. وقد جرت العادة أن يكون خمسة حجاب من مقدمي الألوفا وهما حاجب الحجاب ونائبه، وحاجب الحاجب<sup>(٣)</sup>.

## ٩- أسلحة الجيش:

احتفظ الجيش في دولة المماليك بأسلحتهم في أماكن خاصة تسمى السلاح خانا، وتعني بيت السلاح، أو الزردخانا، أو بيت الزرد<sup>(٤)</sup>. وكان يتولى الإشراف على إدارة السلاح خانا السلطانية أميران برتبة مقدم ألف، أحدهما: السلحدار الذي يحمل سلاح السلطان<sup>(٥)</sup>، وأمير السلاح الذي يتولى إدارة السلاح خانا وما يستعمل منها إلى السلاح خانا السلطانية، ومقدم السلاح دارية من المماليك السلطانية<sup>(٦)</sup>.

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٧.

(٢) المصدر ذاته، ج ٤، ص ١٩٩. وابن كنان، حقائق الياسمين، ص ١٤٢.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٠. وابن كنان، حقائق الياسمين، ص ١١٩.

(٤) المصدر ذاته، ج ٤، ص ١١. ومؤلف مجهول، خزائن السلاح، ص ٥.

(٥) المصدر ذاته، ج ٥، ص ٤٢٤. وابن كنان، حقائق الياسمين، ص ١٢٨.

(٦) المصدر ذاته، ج ٤، ص ١١. وابن كنان، حقائق الياسمين، ص ١١٥.

وفي السلاح خاناه يعمل عدد من الموظفين مثل الزردكاش الذي يقوم بصناعة الأسلحة، والصنّاع الذين يعملون على إصلاح الأسلحة والأدوات المستخدمة في القتال كالعجلات والمدافع (النفاطات) وأدوات نقب الأسوار. فضلاً عن الغلمان والفراشين لخدمة القماش في السلاح خاناه<sup>(١)</sup>.

وقد لاقت السلاح خاناه اهتماماً كبيراً من قبل السلطان برقوق، فقد حرص على تزويد السلاح خاناه بالأسلحة وأدوات القتال، وجدّد السلاح خاناه بالإسكندرية<sup>(٢)</sup>، ودمشق. وكان من مظاهر اهتمامه بالسلاح خاناه إصدار الأمير الطنبغا الجوباني نائب دمشق بأمر من السلطان برقوق أمراً يقضي بنظم عبارات تدل على الشجاعة تنقش على أسنة الرماح<sup>(٣)</sup>. وحرص على جمع الأسلحة من مختلف نيابات السلطنة وإيداعها في خزائن السلاح بقلعة الجبل في القاهرة<sup>(٤)</sup>.

واحتوت السلاح خاناه على العديد من الأسلحة التي يستخدمها الجيش في القتال كالسيوف<sup>(٥)</sup>، والرماح بمختلف أنواعها الطويلة والقصيرة<sup>(٦)</sup>، والطبر (الفأس) والسكاكين<sup>(٧)</sup>، والأقواس العربية والفارسية<sup>(٨)</sup>، والنشاب والنبيل<sup>(٩)</sup>.

(١) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١٢٢. والقلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١١.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ١١٢.

(٣) المصدر ذاته، ج ١٢، ص ١١٢.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١١.

(٥) المقرئ، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٤٩٥. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٥٢.

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ١٤٩. والمقرئ، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٥٦١.

(٧) المصدر ذاته، ج ٢، ص ١٥٠.

(٨) المصدر ذاته، ج ٢، ص ١٥٠.

(٩) المقرئ، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٦٠٨.

والدبوس (آلة حديدية ذات أضلاع متعددة) والعصا والبيضة الحديدية (الخوذة)<sup>(١)</sup>،  
والمِفْعَرَة<sup>(٢)</sup>، والدروع والقرقلات<sup>(٣)</sup>، والترس<sup>(٤)</sup>، والمنجنيق، والحبال والخطاطيف  
(الكلايب)، والمكاحل، وقوارير النفط، والستائر الواقية التي تستخدم لحماية  
الجند عند نهب الأسوار<sup>(٥)</sup>.

#### - الخلاصة:

اهتم السلطان برقوق بجلب عناصر جديدة للجيش. فقد ركز اهتمامه على  
جلب العنصر الجركسي الذي ينتمي إليه لتكون دولة نواتها المماليك الجراكسة.  
إضافة إلى العناصر الأخرى التي كانت موجودة في دولة المماليك الأتراك؛ واستمر  
وجودها أثناء فترة حكم السلطان برقوق كالأتراك، والروم، والأكراد، والتركماني،  
والعربان.

وتمكن السلطان برقوق من الحصول على المماليك الجراكسة من مصادر  
مختلفة أهمها: التجارة التي تشكل المصدر الأساسي لجلب المماليك الجراكسة،  
حيث شجع تجار الرقيق الأجانب (الخوجكية) على جلب أعداد كبيرة منهم من بلاد  
الجركس. وقد اشتهر من هؤلاء التجار عثمان بن مسافر الذي جلب السلطان  
برقوق نفسه وعمل لحسابه حين تولى السلطنة في جلب المماليك الجراكسة من بلاد

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ١٥١. والمقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٦٠٨.

(٢) المِفْعَرَة: تشبه البيضة الحديدية أطرافها مستوذة خلف الرأس والأذنين والأنف، مصنوعة من الزرد. القلقشندي، صبح  
الأعشى، ج ٢، ص ١٥١.

(٣) القرقلات: درع مصنوع من صفائح حديدية ملبس من الداخل بالقماش. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ١٥٢.  
وابن صبري، الدرّة المضيئة، ص ٧-٨.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ١٥٢. وابن تفرج، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٧٢.

(٥) المصدر ذاته، ج ٢، ص ١٥٢. والمقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٦٠٥. وابن تفرج، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ١٢.



الجرکس، وعلي بن مسافر الذي جلب عدداً كبيراً من أقارب السلطان برقوق. ويمثل الإهداء مصدراً ثانوياً للحصول على المالک فقد اعتاد كبار الأمراء والمالک وسلطين وملوك الدول المجاورة لدولة المالک تقديم هدايا رمزية للسلطان برقوق تتضمن في أغلب الأحيان عدداً من المالک.

كما اهتم السلطان برقوق بتربية هؤلاء المالک وتدريبهم وتعليمهم دينياً وعسكرياً، وأسكنهم في أماكن خاصة وأجرى عليهم الرواتب (الجوامک). غير أن بعض التطورات والتغيرات أحدثت على تربية المالک بعد عزل السلطان برقوق من السلطنة وعودته ثانية سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٨م فقد عمد إلى جلب عناصر مملوكية من كبار السن تجاوزوا سن التعليم في الطباق مما كان له أثر سلبي على قدرة هؤلاء المالک العسكرية أثناء القتال، فضلاً عن عدم القدرة على الانضباط العسكري.

أما فرق الجيش فقد قسّمت إلى ثلاثة أقسام رئيسية هي المالک السلطانية، وأجناد الحلقة، ومالک الأمراء. واستمر هذا التقسيم طوال فترة حكم دولة المالک الأولى (الأترک) والمالک الثانية (الجراکسة) دون إحداث أي تغيير على هذا التقسيم.

وبعد وفاة السلطان برقوق ظهرت فرقة جديدة نواتها المالک الظاهرية تسمى القرانيص وتميزت فيما بعد بصراعها مع السلطان الناصر فرج بن برقوق، وكانت سبباً في تخلي السلطان فرج عن السلطنة.

أما الرتب العسكرية فقد اقتبسها سلاطين المماليك عن المغول واستمرت طوال فترة حكم دولة المماليك الأتراك والمماليك الجراكسة دون إحداث أي نوع من التطور أو التغيير.

أما نظام الترقية فقد خضع لعدة اعتبارات: منها التدرج الطبيعي في الرتبة من إمرة خمسة إلى إمرة عشرة إلى إمرة طبلخانة إلى إمرة مائة مقدمة ألف. والانتقال السريع من رتبة إلى أخرى دفعة واحدة كالانتقال من رتبة جندي حلقة إلى رتبة أمير مائة مقدمة ألف. أو ما يرتبط به المماليك معاً من صلوات الزمالة في الرق والعق والعمل والخدمة أو ما يسمى بصلة الخشداشية أو الحشداش، فضلاً عن الفتن والثورات أو بعد وفاة أو قتل أو سجن بعض الأمراء لوجود شواغر في المناصب العسكرية في الدولة.

كما خضع نظام التقاعد أثناء فترة حكم السلطان برقوق لاعتبارات متعددة: كعدم القدرة على مواصلة الخدمة العسكرية بسبب المرض أو كبر السن أو النفي أو الإعتقال، أو بناءً على طلب الأمير نفسه.

ويقسم نظام التقاعد إلى قسمين رئيسيين هما: تقاعد مؤقت يسمح للأمير بالعودة إلى الخدمة العسكرية حسب رغبة السلطان. وتقاعد دائم يبقى الأمير متقاعدًا حتى وفاته.

أما مخصصات الجيش، فكان يتقاضى الجيش أثناء فترة حكم السلطان برقوق ثلاثة أنواع من المخصصات هي: الإقطاعات، ومخصصات نقدية غير ثابتة توزع على الجيش حسب الظروف مثل: نفقة البيعة أو السلطنة، ونفقة الحرب أو السفر وتوزع على الأمراء قبل خروجهم للقتال. والجوامك (الرواتب الشهرية) والخيول والجمال والسلاح والقماش.

كما اهتم السلطان برقوق بالإدارة العسكرية إذ يُعد ديوان الجيش أو ديوان الإقطاع من المؤسسات الإدارية التي تشرف على توزيع الإقطاعات في دولة المماليك، ويقسم إلى قسمين: الأول خاص بمصر ويسمى ديوان الجيش المصري، والقسم الآخر خاص ببلاد الشام ويسمى ديوان الجيش الشامي. ويشرف على إدارة الجيش عدد من الموظفين على رأسهم ناظر الجيش الذي يتولى النظر في أمر الإقطاعات، وصاحب ديوان الجيش، الذي يتولى كتابة ما يخرج من الديوان من وثائق وينوب عن ناظر الجيش في مختلف صلاحياته.

أما ديوان المفرد فهو من الدواوين الخاصة، استحدثه السلطان برقوق سنة ٧٨٨هـ/ ١٣٨٦م للإشراف على رواتب وعليق المماليك السلطانية (الخاصكية) والبيوت السلطانية.

كما استحدث السلطان برقوق سنة ٧٨٨هـ/ ١٣٨٦م ديوان المماليك وهو تابع لديوان المفرد، ويتولى الإشراف على ضبط أعداد المماليك السلطانية ومن يُدرج معهم من أولاد الناس، والسلطان والخدم والحريم، واستدعاء المماليك من الطباق عند صرف الجامكية، والكسوة والأضحية عليهم.

كما اهتم السلطان برقوق باستعراض الجيش عندما تولى السلطنة حتى يتمكن من التخلص من العناصر المناوئة لحكمه وتوفير شواغر لمماليكه الخاصكية في الدولة. كما قام باستعراض الجيش قبل الخروج إلى القتال، وتفقد أسلحتهم وخيولهم ولباسهم.

وأولى القضاء عناية خاصة حين عين للجيش ثلاثة قضاة: أحدهم شافعي، والثاني حنفي، والثالث حنبلي، ومهمتهم الجلوس مع القضاة الأربعة في دار العدل، ومرافقة السلطان في سفره. أما بلاد الشام ففيها قاضيان أحدهما يمثل المذهب الشافعي والآخر المذهب الحنفي.

## الفصل الرابع

### الحياة الاقتصادية في عهد السلطان برقوق

- ١- الزراعة:
  - أ- الأراضي الزراعية.
  - ب- الري.
  - ج- الإنتاج الزراعي.
  - د- الثروة الحيوانية.
- ٢- الصناعة.
- ٣- التجارة.
- ٤- الأسواق التجارية.
- ٥- الأسعار والعوامل المؤثرة فيها.
- ٦- واردات الدولة (الضرائب):
  - أ- الخراج.
  - ب- الجوالي.
  - ج- ضريبة المراعي.
  - د- المبادلات التجارية.
  - هـ- ما يستخرج من المعادن.
  - و- الموارد الحشرية.
  - ز- ما يتحصل من النقود من دار الضرب.
  - ح- المكوس.
- ٧- السياسة النقدية.
- ٨- الأوزان والمكاييل والمقاييس.

## الحياة الاقتصادية في عهد السلطان برقوق

اهتم سلاطين المماليك بالزراعة اهتماماً بالغاً. باعتبارها المصدر الأساسي الذي تعتمد عليه الدولة في الإنفاق على المماليك. فقسموا الأراضي الزراعية إلى إقطاعات بين السلطان ومماليكه وأمرائه وأجنادهم، وأنشأوا الترع والقنوات والسدود لتوفير المياه للأراضي الزراعية. وأقاموا المقياس على النيل لمراقبة زيادة ونقص المياه.

كما اهتم سلاطين المماليك بالتجارة الداخلية والخارجية، فأقاموا علاقات تجارية داخلية بين مصر ونيابات بلاد الشام، كما أقاموا علاقات تجارية مع بعض الدول، وسمحوا للتجار الأجانب بإنشاء مراكز تجارية خاصة بهم لتسهيل تجارتهم. كما أقامت الدولة الفنادق والخانات والأسواق من أجل تنشيط حركة التجارة الداخلية والخارجية.

غير أن الأوضاع الاقتصادية في دولة المماليك تأثرت بالتطورات السياسية الداخلية والخارجية كالفتن والثورات والحروب، والعوامل الطبيعية مثل: فيضان النيل وانحساره، وانحباس الأمطار، وموجات البرد والصقيع، والأوبئة والطواعين، وتأثرت كذلك بزيادة العرض والطلب على السلع، وسياسة الاحتكار، وظلم رجال الدولة والولاة.

كما اعتمدت دولة المماليك على واردات أخرى حتى تتمكن من الإنفاق على المماليك كالخراج (ضريبة الأراضي)، والجوالي، وضريبة المراعي، وضريبة المبادلات التجارية، وما يستخرج من المعادن، والمواريث الحشرية، والمكوس.

واتبعت سياسة نقدية محددة، حيث عرفت دولة المماليك في فترة حكم السلطان برقوق ثلاثة أنواع من النقود وهي الدينير الذهبية، والدرهم الفضية، والعملات النحاسية، كما تعاملت بالعملات الأجنبية كالدينير المشخصة (الافرنتي).

### ١ - الزراعة:

عرفت سلاطين المماليك أهمية الزراعة لأنها الركيزة الأساسية التي تعتمد عليها في الإنفاق على المماليك. فقسّموا أراضي مصر الزراعية بموجب النظام الإقطاعي الأيوبي إلى أربعة وعشرين قيراطاً، منها أربعة قراريط من نصيب السلطان، وعشرة للأمراء، وعشرة لأجناد الحلقة<sup>(١)</sup>. واستمر المماليك يعملون بهذا النظام حتى سنة ٦٩٧هـ / ١٢٦٧م عندما رآك السلطان لاجين أول روك شامل لأراضي مصر حين أثيرت مشكلة أخذ الأمراء ناتج إقطاعاتهم دون إعطاء معاليكهم حصة منها<sup>(٢)</sup>. فقد جعل للجيش بأكمله بما في ذلك المماليك السلطانية أربعة عشر قيراطاً، وللسلطان أربعة قراريط، وجعل لمن عساه يتضرر من الأمراء والجند من قلة متحصل إقطاعه قيراطاً<sup>(٣)</sup>. وفي سنة ٧١٥هـ / ١٣١٥م رآك السلطان الناصر محمد بن قلاوون أرض مصر الروك الثاني، بسبب استكثاره إقطاعات المماليك من أصحاب الأمير بيبرس الجاشنكير والمماليك البرجية (الجراكسة)<sup>(٤)</sup>.

(١) المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٨٤٢. وإبراهيم طرخان، النظم الإقطاعية، ص ٦٩. وسعيد عاشور، نظم الحكم والإدارة، ص ١٨٦.

(٢) المقرئزي، الخطط، ج ١، ص ٨٨. والباقر العريضي، المماليك، ص ١٧٢-١٧٣.

(٣) المقرئزي، السلوك، ج ١، ق ٢، ص ٨٤٢-٨٤٦. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ٩٢-٩٣.

(٤) المصدر ذاته، ج ٢، ق ١، ص ١٤٦. والمقرئزي، الخطط، ج ١، ص ٨٨.

وقسمت الأراضي الزراعية إلى ثلاثة أقسام رئيسية من حيث الري وخصوبة الإنتاج ووفرتة: القسم الأول: ويضم أجود الأراضي الإقطاعية إنتاجاً ويختص بها السلطان وكبار الأمراء على قدر مكانتهم ورتبهم. وتراوحت حصة الأمير من الأراضي المقطعة ما بين بلد واحد وعشرة بلاد. ويطلق على هذا النوع من الأراضي (البلاد النفيسة المتحصل). والقسم الثاني الأراضي متوسطة الجودة، وتقطع لفئة المعاليك السلطانية إذ يشترك اثنان أو أكثر في بلد. ومنهم من ينفرد ببلد واحد. والقسم الثالث وتقطع لفئات أجناد الحلقة والعربان والتركماني<sup>(١)</sup>.

وحددت الأراضي الزراعية في مصر استناداً إلى نوع المحصول وإمكانية استغلالها لأكثر من دورة زراعية على مدار العام:

- ١- أراضي الباق: وهو أثر زراعة الأرض بالقرط والبقول. وتعد من أجود الأراضي الزراعية وأعلاها قيمة وأوفرها سعراً. وتصلح لزراعة القمح والكتان.
- ٢- ري الشراقي: وهو يتبع أرض الباق في الجودة، لأن الأرض قد ظمئت في السنة الماضية واشتدت حاجتها إلى الماء، فلما رويت حصل لها من الري بمقدار ما حصل لها من الظما، وكانت مستريحة فصارت أكثر إنتاجاً.
- ٣- البرايب (البروبية): وهو أثر زراعة القمح والشعير، وتأتي بعد أرض الباق من حيث الجودة. لأن الأرض تضعف بزراعة هذين الصنفين. ويجب أن تزرع قرطاً وقطاني ومقاشي لتستريح الأرض وتصبح في السنة التالية من ضمن أرض الباق. ويسمى ذلك بالدورة الزراعية.
- ٤- البقماهية: وهو أثر زراعة الأرض بالكتان<sup>(٢)</sup>.
- ٥- الشتاني (أو الشتوني): وهو ما روي من الأراضي التي لم تزرع في السنة الماضية.

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص٤٥٢-٤٥٤. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج١، ص٤٩-٥٠.

(٢) النويري، نهاية الأرب، ج٨، ص٢٤٧. والقلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص٥١٦-٥١٧.

- ٦- شق سمش (السلايح): وهو ما روي من الأراضي وبور<sup>(١)</sup> ثم حرث وعُطل.
- ٧- البرش أو النقاء: وهي الأراضي التي أزيلت منها بقايا المزروعات في السنة الماضية.
- ٨- الوُسُخ المذرع: وهو عبارة عن كل أرض لم يستحکم وسخها، ولم يقدر المزارعون على استكمال إزالته منها فحرثوها، وزرعوها وطلع زرعها مختلطاً بوسخها.
- ٩- الوُسُخ الغالب: وهي كل أرض بقيت فيها مخلفات النباتات التي زرعت فيها من قبل، ولم يقدر المزارعون على إزالته لكثرتة، فبقيت بدون زراعة، وهي تباع مراعي للبهائم.
- ١٠- الشراقي: الأراضي التي لم تصل إليها المياه لقصور نهر النيل وعلو الأرض، أو سد طريق الماء عنه.
- ١١- المستبحر: وهو كل أرض واطئة، ولا تصريف للماء فيها، فتنتهي مدة المزارعة قبل تصريف الماء بالنبضوج.
- ١٢- السباخ: الأراضي التي ترتفع فيها نسبة الملوحة، ويتعذر زراعتها بالحبوب، وهي من أرى أنواع الأراضي. ولكن ربما يزرع في الأجزاء التي تقل فيها نسبة الملوحة بالهليون والباذنجان، والكتان، وقصب السكر<sup>(٢)</sup>.

#### ب- وسائل الري:

اهتمت دولة المماليك خلال هذه الفترة بالري، فأقيمت الجسور لحبس مياه النيل عن الأراضي الزراعية. وهو عبارة عن أكوام من التراب ومخلفات الأعشاب. وهي على نوعين: الأولى الجسور السلطانية وتختص الدولة بتعميرها في كل سنة على نفقة الديوان بالوجهين القبلي والبحري، ولها جرارييف (التي يجرف بها

(١) بورد (البور) وهي الأراضي التي لم تزرع أو الخراب. ابن منظور، معجم لسان العرب، ج ١، ص ٢٨٦. مادة بور.

(٢) القلقشندي، صبيح الأعشى، ج ٢، ص ٥١٩. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٢٢٥.



التراب لإقامة الجسور) ومحاريث وأبقار مرتبة على أغلب القرى بكل عمل من أعمال مصر<sup>(١)</sup>. ويقوم بالإشراف عليها موظف يسمى (كاشف الجسور). وربما أضيفت هذه الوظيفة إلى أحد الأمراء في بعض الأعمال<sup>(٢)</sup>.

وللجسور السلطانية كاتب خاص يتولى الإشراف على ما يترتب على كل قرية من الجراريث والأبقار<sup>(٣)</sup>، وخولة (رؤساء العمال) ومهندسون لكل عمل يقومون في خدمة الكاشف في عمارة الجسور إلى حين الإنتهاء من عمارتها<sup>(٤)</sup>.

والنوع الآخر من الجسور هو البلدية: وهي خاصة بكل بلد دون الآخر، ويتولى إقامتها المقطعون من الأمراء والأجناد من أموال البلاد الجارية في إقطاعاتهم؛ ولها ضرائب مقررة في كل سنة. ورغم التنظيم الدقيق للجسور البلدية إلا أنها أهملت أثناء فترة حكم السلطان برقوق بسبب كثرة الاضطرابات الداخلية والفتن والحروب وصراعات الأمراء، واقتصر على عمارة الجسور السلطانية على الشيء اليسير الذي ليس فيه فائدة كبيرة<sup>(٥)</sup>.

وأقام الممالك المقياس على النيل في جزيرة الروضة<sup>(٦)</sup> لمراقبة زيادة ونقصان المياه، والتحكم في موعد فتح المياه إلى الأراضي الزراعية. والمقياس بناء صغير منعزل ومغلق، أقيم في وسطه عمود من الرخام مئمن الشكل، مفروس في

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٥١٥. وابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١٢٩.

(٢) المصدر ذاته، ج ٢، ص ٥١٥. وابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١٢٩-١٣٠. والمقريري، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٨٥١.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٥١٥.

(٤) المصدر ذاته، ج ٢، ص ٥١٥. وابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١٣٠.

(٥) المصدر ذاته، ج ٢، ص ٥١٥. وانظر ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ١٣٠.

(٦) جزيرة الروضة وتسمى جزيرة المقياس. ليون الأفريقي، وصف أفريقيا، ص ٥٨٨.

حفرة مربعة ومغطاة عمقها سبعة عشر ذراعاً. تنفتح منها قناة داخلية تتصل مع مجرى النيل، فينحصر الماء عند انسيابه إليها. ويقسم العمود إلى اثنين وعشرين ذراعاً. ويقسم الاثني عشر ذراعاً الأولى من الأسفل إلى ثمانية وعشرين قسماً. يعرف كل قسم منها بالإصبع. والأذرع المتبقية تقسم إلى أربعة وعشرين إصباعاً<sup>(١)</sup>.

وعندما يبدأ النيل بالزيادة في شهر حزيران، يدخل الماء في القناة ويصل إلى الحفرة. ويرتفع يوماً مقداره أصبعين أو ثلاثة أصابع، وفي بعض الأحيان نصف ذراع. ويشرف على قياس الزيادة في ماء النيل رجل يسمى صاحب المقياس تعيينه الدولة، وجرت العادة أن يقوم بهذا الأمر في عصر كل يوم، ثم ينادي عليه من الغد بالزيادة في عدد الأصابع، من غير تصريح بما وصل إليه من الأذرع، إلا أنه يكتب في كل يوم رقاعاً لأعيان الدولة من أرباب السيوف والأقلام، مثل قضاة القضاة، وكاتب السر، وناظر الخاص، وناظر الجيش، والمحتسب، فيذكر زيادة النيل في ذلك اليوم من الأصابع وما صار إليه من الأذرع، ولا يطلع على ذلك عوام الناس ورعاهم، منعاً للإشاعات حول ارتفاع الأسعار. فإذا وصل منسوب المياه ستة عشر ذراعاً صرح في المنادة في كل يوم بما زاد من الأصابع، وما صار إليه من الأذرع<sup>(٢)</sup>. وعندما يصل منسوب مياه النيل إلى أعلى ارتفاع له؛ كانت تضع الدولة الحراس على ضفتي النيل في جماعات تتكون الواحدة منها من عشرة مماليك، لهم علم خاص ومهمتهم حراسة فتحات المياه المعروفة لإدخال المياه إلى الأراضي الزراعية ومنع غير المماليك إحداث هذه الفتحات<sup>(٣)</sup>.

(١) ليون الأفريقي، وصف أفريقيا، ص ٥٨٨-٥٨٩. وسعيد صالح، التجارة الداخلية، ص ٢٢٩.

(٢) القلقشندي، مسيح الأعشى، ج ٣، ص ٣٢٤-٣٢٥. وليون الأفريقي، وصف أفريقيا، ص ٥٨٩.

(٣) قاسم عبده قاسم، ١٩٧٨م، النيل، ص ١٩.

واستخدمت دولة المماليك عدة أنظمة لري الأراضي الزراعية، ويعد ري الحياض من أكثر هذه الأنظمة شيوعاً في مصر لتباين الأراضي الزراعية ما بين المرتفع والمنخفض، فكان الري يتم ضمن أربع مراحل: الأولى عند وفاء النيل ستة عشر ذراعاً -وهي أدنى حد للري- وغالباً ما يكون ذلك في شهر تموز، إذ يفتح سد الخليج فيجري الماء فيه إلى حد معين، حتى تروي كل الأراضي التي ضمن هذا الحد. والمرحلة الثانية تفتح يوم النيروز، أول شهر أب. وتسمى السدود النيروزية. والمرحلة الثالثة في السابع عشر من شهر أب (عيد الصليب). والمرحلة الرابعة تفتح السدود والترع والخلجان لري بقية الأراضي الزراعية<sup>(١)</sup>.

وبعد اكتمال فتح السدود والترع والخلجان تنتشر المياه وتغطي وجه الأراضي الزراعية، وتصبح كأنها جزر لا يمكن الوصول إليها أو التنقل فيما بينها إلا بواسطة القوارب أو فوق ظهور الجواميس<sup>(٢)</sup>. وعندما يعلن المماليك المكلفون بحراسة السدود عن طريق النيران ليلاً تسد الفتحات من قبل، وعندما يتكامل ري ناحية من النواحي، يفتح الفلاحون السدود المحيطة بها لتصريف المياه الفائضة عن حاجة الأرض من خلال فتحات يعرفها مشايخ القرى، وذلك في أوقات محدودة<sup>(٣)</sup>.

وبعد الانتهاء من تصريف المياه الزائدة عن الحاجة تترك الأرض دون زراعة حتى تقارب الجفاف، ثم تحرث وهي لا تزال رطبة، ثم تبذر بالبذور المختلفة<sup>(٤)</sup>.

(١) القريني، الخطط، ج ١، ص ٢٥. والفلقشندي، صبح الأعيان، ج ٢، ص ٢٩٢-٢٩٤، ج ٢، ص ٤١٠.

(٢) النويري، نهاية الأرب، ج ١، ص ٢٦٤.

(٣) المصدر ذاته، ج ١، ص ٢٦٤.

(٤) قاسم عبده قاسم، النيل، ص ٢٠.

وتروى بعض الأراضي الزراعية بطريقة السواقي التي تدار بواسطة الحيوانات لقربها من مجرى النيل. كأراضي الدلتا الواقعة بين فرعي النيل<sup>(١)</sup>.

والأراضي التي تروى بطريقة الحياض تُغل محصولاً واحداً في السنة وتسمى المحاصيل الشتوية كالقمح، والبقول والبصل وغيرها. أما الأراضي التي تروى بواسطة السواقي فتنتج محاصيل صيفية كقصب السكر، والبطيخ، والقطن، والفواكه، والخضروات<sup>(٢)</sup>.

وتعتمد الزراعة في بلاد الشام في أغلب الأحيان على الأمطار باستثناء القليل منها يعتمد على السواقي<sup>(٣)</sup>. لذلك تعتمد الزراعة بالدرجة الأولى على مياه الأمطار المتساقطة. فالأمطار التي تتساقط في فصل الخريف تسمى (الوسمي) يبدأ فيه الفلاحون بإعداد الأرض وحراستها ثم بذرها بالغلل، ثم إعادة حرثها مرة ثانية لتبدأ الحبوب بالنماء، ويبقى الزرع حتى تتساقط عليه الأمطار التي تسمى (الفاطم) وغالباً ما تتساقط في شهر نيسان، فيتكامل نعاء الزرع<sup>(٤)</sup>. كما عرف الفلاح في بلاد الشام زراعة العفير -أي زراعة الحبوب قبل نزول الأمطار-<sup>(٥)</sup>.

وعرفت بلاد الشام في فترة حكم دولة المماليك النمط الزراعي. وهو تقسيم الأراضي إلى قسمين: الأول يتم زراعته، ويترك القسم الآخر بدون زراعة بعد حراثة الأرض وتقليبها. ثم يزرع القسم الذي ترك قبل ذلك. ويترك القسم الذي كان مزروعاً<sup>(٦)</sup>.

(١) قاسم عبده قاسم، النيل، ص ٢١. ومصطفى القاضي، وسائل الري، ص ٤١٢-٤١٨.

(٢) السيوطي، حسن المحاضرة، ج ٢، ص ٣٥٢-٣٥٤.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٩٠. وابن قاضي شعبة، تاريخ، ج ٢، ص ٦٠٦-٦٠٧.

(٤) التويري، نهاية الأرب، ج ٨، ص ٢٥٦.

(٥) المصدر ذاته، ج ٨، ص ٢٥٦.

(٦) المصدر ذاته، ج ٨، ص ٢٥٦.

## ج- الإنتاج الزراعي:

عرفت مصر وبلاد الشام أنواعاً مختلفة من المحاصيل الزراعية في فترة حكم السلطان برقوق كالغلال، والسكر، والفواكه، والزيوت.

## ١- الغلال:

تعد الغلال من أهم المحاصيل الزراعية في دولة المماليك. حيث تزرع في مناطق مختلفة كالصعيد، والفيوم<sup>(١)</sup>، وغوطة دمشق<sup>(٢)</sup>، وحلب<sup>(٣)</sup>.

وكان من أشهر أنواع الغلال القمح، والشعير، والذرة، والأرز، والحمص، والعدس، والبازيلاء، واللوبياء، والسمسم<sup>(٤)</sup>.

وهناك أنواع أخرى من الغلال تستخدم علفاً للحيوانات أو بذور (تقاوي) كالجلبان<sup>(٥)</sup>، والقرطم<sup>(٦)</sup>، والخروع، والسلجم، وبزر الكتان، والبرسيم<sup>(٧)</sup>.

وتعد كميات الغلال التي تنتجها مصر وبلاد الشام كافية للاستهلاك المحلي. فيذكر الأسدي (ت ٨٨١هـ / ١٤٧٦م) أن مدى استهلاك القاهرة من القمح تقدر بالف إردب في اليوم أي ما يعادل (٦٩٦.٠ كغم)، منها خمسمائة إردب (٣٤٨.٠ كغم) لأصحاب المؤن والرواتب السلطانية والأمراء وغيرهم من المدارس والخوانق وغيرها، ومنها خمسمائة إردب متعلقة بالطواحين والأفران والمقاعد التي يباع

(١) الفلقشندي، صبح الأعشى، ج ٣، ص ٣٤٢-٣٤٤.

(٢) ابن مصري، الدرّة المضيئة، ص ١٠٠. وابن قاضي شهبه، تاريخ، ج ٣، ص ٦٦١. وابن كنان، المواكب الإسلامية، ق ٢، ص ٢٥٩.

(٣) ابن مصري، الدرّة المضيئة، ص ١٠٠، ٢٢٦-٢٢٧.

(٤) الفلقشندي، صبح الأعشى، ج ٣، ص ٣٤٢-٣٤٤. والمقرزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٥٩٧.

(٥) وهي الكرسة تزرع في شهر آذار. ابن كنان، المواكب الإسلامية، ق ٢، ص ٢٦٥.

(٦) من الحبوب التي تستخدم علفاً للحيوانات، تزرع في شهر آذار. ابن كنان، المواكب الإسلامية، ق ٢، ص ٢٦٥.

(٧) السلجم، يشبه الكرنب واللفت، يزرع علفاً للماشية. الفلقشندي، صبح الأعشى، ج ٣، ق ٢، ص ٣٤٤. هامش (١).

فيها الخبز في الشوارع<sup>(١)</sup>. لذلك كانت تلجأ دولة المماليك في حالات معينة كالفتن والاضطرابات ومواسم القحط والجفاف إلى استيراد الغلال من مناطق متعددة لسد حاجتها المحلية مثل سواكن<sup>(٢)</sup>، واليمن<sup>(٣)</sup>، والمناطق المجاورة<sup>(٤)</sup>، وقبرص<sup>(٥)</sup>.

## ٢- السكر:

يعد قصب السكر من أهم المحاصيل الزراعية التي كانت دولة المماليك تهتم بزراعته لكثرة استخدامه في إعداد المياه المحلاة التي اعتاد سلاطين المماليك على شربه في المناسبات والاحتفالات المختلفة<sup>(٦)</sup>. حيث تركزت زراعته في الأرياف المصرية، وضواحي الإسكندرية ودمياط<sup>(٧)</sup>، وطرابلس<sup>(٨)</sup>، والأغوار في بلاد الشام<sup>(٩)</sup>. وكان السكر على عدة أنواع منها السكر البياض النقي<sup>(١٠)</sup>، والسكر النيات<sup>(١١)</sup>.

## ٣- الفواكه:

اشتهرت بلاد الشام بزراعة مختلف أنواع الفواكه كالمشمش، والتفاح، والتين، والعنب بأنواعه المختلفة، والكمثرى، والدراق، والشمام، والموز<sup>(١٢)</sup>.

(١) الأسدي، التيسير والإعتبار، ص ١٤٢-١٤٣، وسعيد صالح، التجارة الداخلية، ص ٢٠٦.

(٢) المقرئ، السلوك، ج ٤، ق ٢، ص ٧٨٢. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ٢، ص ٤٢.

(٣) ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص ٢٦٣.

(٤) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٦٨٨.

(٥) المصدر ذاته، ج ١، ق ٢، ص ٦٨٨.

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٣٤٤. والمقرئ، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٥٤٧.

(٧) المقرئ، السلوك، ج ٤، ق ٢، ص ٧٨٢. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ٢، ص ٤٢.

(٨) ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص ٢٦٣.

(٩) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٦٨٨.

(١٠) المصدر ذاته، ج ١، ق ٢، ص ٦٨٨.

(١١) المقرئ، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ١١٢.

(١٢) ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص ٢٥٢. وابن مصري، الدر المضيئة، ص ١٤٠.

كما اشتهرت أرياف مصر وضواحيها بزراعة البطيخ الصيفي، والبطيخ العبدلي، والموز، والرمان، والنانج<sup>(١)</sup>.

كما عرفت بلاد الشام زراعة الحمضيات كالأترج، والحماض، والكباد، والليمون<sup>(٢)</sup>.

واهتمت دولة المماليك بزراعة النباتات العطرية في مختلف مناطق مصر وبلاد الشام كالأس، والورد والبنفسج، والنجس، والياسمين، والنسرين، واللينوفر<sup>(٣)</sup>.

#### ٤- النباتات الطبية:

اهتمت دولة المماليك بزراعة النباتات الطبية لاستخدامها في مجال صناعة الأدوية وهي:

أ- البلسان أو البلسم: وهو نبات يزرع بأرض المطرية من ضواحي القاهرة (عين شمس)، حيث يجمع ما يسيل من دهن البلسان، ثم يصفى ويطبخ على النار. ويحمل غالبيته إلى خزانة السلطان، وينقل جزء منه إلى القلاع في بلاد الشام والبيمارستان، ليستعمل في بعض صناعة الأدوية. وملوك الأوروبيين يستهدونه من السلطان برقوق ويهادونه بسببه، لاعتقادهم أنه لا يتم تنصير نصراني حتى يضع شيئاً من دهن البلسان في ماء المعمودية عند تغطيسه فيها<sup>(٤)</sup>.

(١) ابن قاضي شعبة، تاريخ، ج ١، ص ٥١٧. والقاضي عبد الباسط، نيل الأمل، ج ١، ص ٢٢٠.

(٢) القلقشندي، صبح الأعمش، ج ٢، ص ٢٤٤. وابن كنان، المواكب الإسلامية، ق ٢، ص ٢٢٤-٢٢٥، ٢٢٨-٢٢٩.

(٣) المصدر ذاته، ج ٢، ص ٢٤٤. وابن كنان، المواكب الإسلامية، ق ٢، ص ١٨٩.

(٤) العمري، مسالك الأبصار، ج ٢، ص ١٣. والقلقشندي، صبح الأعمش، ج ٢، ص ٣١١-٣١٢. والمقرئزي، الخطط، ج ١، ص ٢٨. وابن كنان، المواكب الإسلامية، ق ٢، ص ٢٣٦.

ب- الأفيون: وهو عصارة الخشخاش المصري والجوز يستخدم في صناعة الأدوية المخدرة. وينبت في دمياط<sup>(١)</sup>.

#### د- الثروة الحيوانية:

وتشتمل الثروة الحيوانية في مصر وبلاد الشام على أنواع مختلفة من المواشي والطيور مثل الإبل، والبقر، والحمير، والأغنام<sup>(٢)</sup>. والدجاج، والأوز، والحمام<sup>(٣)</sup>.

واعتمدت دولة المماليك في فترة حكم السلطان برقوق على استيراد الخيول من تونس والجزائر<sup>(٤)</sup>، ومكة<sup>(٥)</sup>، لاستخدامها في القتال، والأكل، حيث اعتاد سلاطين دولة المماليك على أكل لحوم الخيول<sup>(٦)</sup>.

#### ٢- الصناعة:

نشطت حركة الصناعة في دولة المماليك في مصر وبلاد الشام بوجود الموارد الأولية المستخدمة في الصناعة. فقد اشتهرت دولة المماليك بصناعة استخراج السكر من قصب السكر الذي تركزت زراعته في مصر والأغوار في بلاد الشام<sup>(٧)</sup>. كما اعتاد سلاطين المماليك أن ينعموا بكميات من السكر على كبار الأمراء في شهر رمضان<sup>(٨)</sup>.

(١) العمري، مسالك الأبصار، ج ٢، ص ٦٨. والمقرئزي، الخطط، ج ١، ص ٢٨.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٢٤٦، ج ٤، ص ٩١.

(٣) المصدر ذاته، ج ٢، ص ٢٤٧. والمقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٥٤٧.

(٤) ابن خلدون، تاريخ، ج ٥، ص ٥٧-٥٧١. والمقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٨٩٩.

(٥) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٥٢٢.

(٦) المصدر ذاته، ج ٣، ق ٢، ص ٥٤٧.

(٧) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٤٤. والمقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٥٤٧.

(٨) المصدر ذاته، ج ٤، ص ٥٨.



كما عرفت مصر وبلاد الشام صناعة الدبس من المشمش، والزبيب من العنب<sup>(١)</sup>، واستخراج زيت الزيتون واستخدامه في صناعة الصابون، واستخراج زيت السيريغ من السمسم<sup>(٢)</sup>.

واشتهرت مصر بصناعة الخمور، حيث كانت تستهلك كميات كبيرة في الاحتفالات التي كانت تقيمها الدولة. وأشهر أنواع الخمور التمربغاوي الذي كان ينسب إلى الأمير تمربغا المنجكي. وهو مصنوع من الزبيب، حيث يضاف إلى كل عشرة أرطال زبيب أربعون رطلاً من الماء، ثم يدفن في جرار بزل الخيل لعدة أيام حتى يختمر. وقد شارك السلطان برقوق كبار الأمراء في الشرب منه، وخصص لذلك يوم الثلاثاء من كل أسبوع<sup>(٣)</sup>. كما اشتهرت مصر بصناعة نوع آخر من الخمور وهو البوزا المصنوعة من الدقيق<sup>(٤)</sup>.

وتعد مادة النطرون من أهم المعادن المستخرجة من بركة النطرون بالبحيرة في مصر، إذ تبلغ مساحتها مئة فدان، وتقدر قيمة النطرون المستخرج منها بحوالي مئة ألف دينار في السنة<sup>(٥)</sup>. ويعتبر نطرون بركة النطرون أكثر جودة وقيمة من نطرون الخطارة بالشرقية<sup>(٦)</sup>.

كما اشتهرت دولة المماليك باستخراج مادة النفط من سواحل بحر القلزم حيث تحمل إلى خزائن السلاح السلطاني. وكذلك الشب وهي كبريتات متبلورة مزدوجة تتكون من البوتاسيوم والألمنيوم، تستعمل كمادة قابضة للبشرة ومثبتة للألوان في الصناعة<sup>(٧)</sup>.

- 
- (١) ابن صصري، الدرّة المضيئة، ص ٢٢٤.
  - (٢) ابن الفرات، تاريخ، ج ٩، ق ٢، ص ٤٧٠.
  - (٣) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٨٢٦. والمقرئزي، الخطط، ج ١، ص ٤٤.
  - (٤) المقرئزي، الخطط، ج ١، ص ٤٤. وابن تفرج، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٨٠-٨١.
  - (٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٣١٢-٣١٣.
  - (٦) المصدر ذاته، ج ٢، ص ٢١٣.
  - (٧) المصدر ذاته، ج ٢، ص ٢١٣.

## ٣- التجارة:

اعتمدت دولة المماليك أثناء فترة حكم السلطان برقوق في مصر وبلاد الشام على سد احتياجاتها من السلع الأساسية على المنتجات المحلية. أما السلع الأخرى فقد كانت تسد أغلب احتياجاتها من بلاد الشام أو من الدول الأخرى. فاعتمدت القاهرة في سد حاجتها من الغلال كالقمح والشعير والكتان والمواشي والطيور من مناطق الصعيد، والشمار والأرز من المناطق الريفية الواقعة بين القاهرة ورشيد. والقطن والسكر والموز من الوجهين القبلي والبحري<sup>(١)</sup>.

واعتمدت القاهرة على الإسكندرية في سد حاجتها من الغلال ولا سيما أثناء فترات القحط والجفاف. ففي سنة ٧٩٨هـ / ١٢٩٥م وصلت من الإسكندرية غدة مراكب إلى ساحل بولاق محملة بالغلل، مما أدى إلى انخفاض الأسعار فيها<sup>(٢)</sup>. كما نقل تجار الغلال في السنة ذاتها الغلال من القاهرة إلى الإسكندرية لتحصيل سعر أعلى<sup>(٣)</sup>.

كما قامت علاقات تجارية بين مصر ونيابات بلاد الشام، ولا سيما أثناء فترات القحط. فحين تعرضت أغلب بلاد الشام كحلب ونابلس والرملة والقدس لموجات من البرد والصقيع وتلفت أغلب المحاصيل فيها اعتمدت على مصر في سد حاجتها من القمح<sup>(٤)</sup>. وعندما زاد خطر تيمورلنك على بلاد الشام وارتفعت الأسعار فيها نقل التجار الغلال إليها من مصر تحسباً لحصار مرتقب من قبل تيمورلنك<sup>(٥)</sup>. أما مصر فقد استوردت بعض السلع كالثياب والأقمشة من حلب ودمشق وكذلك الموصل<sup>(٦)</sup>.

(١) ليون الأفريقي، وصف أفريقيا، ص ٥٦٤-٥٦٥.

(٢) ابن الفرات، تاريخ، ج ٩، ص ٤٢٥، ٤٢٩.

(٣) المصدر ذاته، ج ٩، ص ٤٢٩. والمقرئبي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٨٥٩. وابن حجر العسقلاني، أنباء الفجر، ج ٢، ص ٢٨١. وابن الصيرفي، نزعة النفوس، ج ١، ص ٤٢٠.

(٤) ابن قاضي شهبه، تاريخ، ج ٢، ص ٢٢٨. والمقرئبي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٥٧٤. وابن الصيرفي، نزعة النفوس، ج ١، ص ١٦٧.

(٥) المقرئبي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٥٧٤.

(٦) المصدر ذاته، ج ٢، ق ٢، ص ٥٢٥.

وعملت دولة المماليك على تنشيط التجارة الخارجية مع الدول الأخرى. فارتبطت بعلاقات تجارية مع دول الفرنج مثل جنوة والبندقية وغيرهما رغم حالة العداء المستمرة بين الطرفين. ففي سنة ٧٨٧هـ / ١٢٨٥م سمح السلطان برقوق بتجار بيزنطة بإنشاء مركز تجاري في الإسكندرية أسوة بغيرهم من طوائف الفرنج<sup>(١)</sup> وقد حافظت دولة المماليك على استمرارية النشاط التجاري مع جنوة والبندقية رغم العداء بين الطرفين. بدليل أن السلطان برقوق غضب على نائب الإسكندرية وطلب حضوره إلى القاهرة سنة ٧٨٥هـ / ١٢٨٢م بسبب مصادرة أموال بعض تجار جنوة والبندقية المقيمين في الإسكندرية<sup>(٢)</sup>. وفي ١٥ ربيع الآخر سنة ٧٨٨هـ / ١٢٨٢م دخل عدد من الفرنج إلى بلدة الطينة وأسرت سبعة أشخاص وقتلوا رجلاً واحداً، وأثناء مرورهم بدمياط باعوا الأسرى السبعة فيها<sup>(٣)</sup>.

وكانت لدولة المماليك علاقات تجارية مع مكة ولا سيما في مواسم الحج. على النشاط التجاري بين دولة المماليك ومكة كان مرهوناً بالأمن وسلامة الطرق التجارية من تعديات البدو وقطاع الطرق: فكثيراً ما تعرضت القوافل التجارية لرائقة للحجاج لاعتداءات البدو وقطاع الطرق. ففي سنة ٧٨٥هـ / ١٢٨٢م نشب قتال بين أمير ينبع والحجاج المغاربة لعدم قبولهم إعطائه بعض السلع التي كانت تحملها القوافل، وأمسكوا به وقيده وأخذوا فرسه، فاعترضهم عرب أمير ينبع، وقتلوا عدداً كبيراً من الحجاج المغاربة. وحين أدرك عرب ينبع التكرور<sup>(٤)</sup> قتلوهم وقتلوا منهم عدداً كبيراً واستولوا على الأموال التي كانت معهم وأموال

(١) ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ١٢١. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٣٦٢-٣٦٣.

(٢) القريني، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٤٨٧-٤٨٨، ٥٨١.

(٣) المصدر ذاته، ج ٢، ق ٢، ص ٤٩٠.

(٤) التكرور هي إحدى مدن مالي الحالية. وكان ملكها مسلماً. أنظر ابن فضل الله العمري، التعريف، ص ٢٧. والقلقشندي، صبح الأعشى، ج ٨، ص ٦.

من كان معهم من حجاج الصعيد<sup>(١)</sup>. كما أخبر حجاج العراق بأن حجاج شيراز والبصرة والحسا تعرضوا لاعتداء عرب قريش ابن أخي زامل وأخذوا ما معهم من اللؤلؤ وغيره، وأشياء أخرى ذات قيمة عالية<sup>(٢)</sup>. وتعد الغلال من أهم السلع التجارية التي كان ينقلها الأمراء المماليك إلى مكة والحجاز في مواسم الحج<sup>(٣)</sup>.

كما نشطت الحركة التجارية مع اليمن ودول المغرب العربي. فاستوردت العبيد والأحباش، واللؤلؤ، وخشب الصندل، واللبان، والحريز، والرخام، والبهار، والعاج، والتحف من اليمن<sup>(٤)</sup>. واستوردت الخيول العربية من المغرب وفاس، والجزائر وتلمسان<sup>(٥)</sup>.

ولتنشيط الحركة التجارية أقامت دولة المماليك أثناء فترة حكم السلطان برقوق العديد من الأسواق والوكالات والفنادق والقيساريات والخانات لاستقبال السلع التجارية التي ترد إليها من الدول الأخرى وإعادة تسويقها. فكانت هذه الأسواق من خلال تجارها وسيطاً تجارياً ومشاركاً في تجارة السلع الشرقية والأوروبية<sup>(٦)</sup>.

(١) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٥٠٨-٥٠٩.

(٢) المصدر ذاته، ج ٢، ق ٢، ص ٥٠٨-٥٠٩.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٥٣٧.

(٤) ابن تفردي بدي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٦٧.

(٥) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٨٩٩.

(٦) سعيد صالح، التجارة الداخلية، ص ١٢٤. وعبد الرحمن زكي، القاهرة، ص ١٦٢.

## ٤- الأسواق التجارية:

عرفت مصر وبلاد الشام أنواعاً مختلفة من الأسواق التجارية كالأسواق العامة التي تباع فيها أنواع مختلفة من السلع، والأسواق المتخصصة التي تختص ببيع نوع معين من السلع، والأسواق المؤقتة.

وتميزت الأسواق العامة باحتوائها على العديد من الدكاكين، تختص كل منها بنوع معين من السلع. فبعض هذه الأسواق كانت تختص ببيع اللحم المطبوخ، والبعض الآخر ماء الورد، والحلوى، والبيض المقلي والجبن المقلي<sup>(١)</sup>. ويعد سوق باب الفتوح في القاهرة من أشهر هذه الأسواق، تباع فيه مختلف أنواع اللحم، ك لحم الضأن ولحم البقر، والخضروات. واشتهر سوق حارة برجوان في القاهرة ببيع مختلف أنواع السلع كاللحم، والزيت، والجبن، والخبز، واللبن، والطحين، واللحم المشوي، والعمود، والخضر. كما وجد في هذا السوق حانوت يختص ببيع حوائج المائدة كالبقول والكرات والنعناع. وقد خرب أغلب حوانيت هذا السوق سنة ٨٠٦هـ / ١٤٠٣م<sup>(٢)</sup>. وسوق المرحلين الذي يباع فيه جميع لوازم السفر وتجهيزات الجمال، واللحوم والحبوب، وكان هذا السوق كبيراً يستطيع أن يجهز أكثر من مئة حمل في اليوم<sup>(٣)</sup>.

وهناك بعض الأسواق التي كان يباع فيها حاجات الناس اليومية مثل سوق الصنادقيين، الذي تباع فيه الصناديق والخزائن والأسرة وغيرها من المصنوعات الخشبية<sup>(٤)</sup>. وسوق الرواسين الذين يباع فيه مختلف أنواع الأطعمة<sup>(٥)</sup>.

(١) لين الأفريقي، وصف أفريقيا، ص ٥٨٠.

(٢) المقريني، الخطط، ج ٢، ص ٩٥-٩٦.

(٣) المصدر ذاته، ج ٢، ص ٩٥.

(٤) المصدر ذاته، ج ٢، ص ١٠٢.

(٥) المصدر ذاته، ج ٢، ص ٩٥.

وعرفت مدن بلاد الشام الأسواق العامة، فقد وجد في دمشق أسواق اختلفت ببيع أنواع مختلفة من المأكولات كالخبز واللحم والفواكه<sup>(١)</sup>. وتركزت الأسواق الرئيسية في مدينة دمشق حول القلعة والأبواب الرئيسية للمدينة كباب البريد، وباب الجابية، وباب الفرج، وباب الفراديسي<sup>(٢)</sup>.

أما مدينة حلب فقد عُرفت الأسواق فيها باسم الخانات، وهي كثيرة، تركزت بالقرب من الأبواب الرئيسية للمدينة، وتحت القلعة، وكان يباع فيها مختلف أنواع البضائع والسلع التجارية<sup>(٣)</sup>. غير أن هذه الأسواق تعرضت للخراب خلال الفتن والثورات.

كما توزعت الأسواق في مدينة القدس حول المسجد الأقصى<sup>(٤)</sup>، وعلى طول الشارع الأعظم الذي يمتد من باب المسجد الأقصى، وحتى باب المحراب المعروف بباب الخليل. ومن هذه الأسواق سوق الصاغة وسوق القماش، وسوق المبيضين، وسوق خان الفحم، وسوق الطباخين، وسوق الخان العظيم الذي كان وقفاً على مصالح المسجد الأقصى. وكانت أجرته أربعمئة دينار، يباع فيه مختلف أنواع البضائع<sup>(٥)</sup>. ومن أشهر أسواق القدس سوق القطنين المجاور لباب المسجد الأقصى من الجهة الغربية. وهناك ثلاثة أسواق تقع قرب باب الخليل تمتد من الشمال إلى الجنوب، وتتصل معاً بواسطة بعض المنافذ، وهي مسقوفة وفي أعلاها فتحات لدخول أشعة الشمس، مثل سوق العطارين، وسوق الخضرا، وسوق القماش. وهذه الأسواق موقوفة على مصالح المسجد الأقصى<sup>(٦)</sup>.

(١) البدرى، نزهة الأنام، ص ٦٢-٦٣.

(٢) سعيد صالح، التجارة الداخلية، ص ١٢٨.

(٣) ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص ٤٤، ٤٤٨-٢٥٠. وابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ٣، ص ١٤٣. وابن كنان، المواكب الإسلامية، ق ٢، ص ٥٨.

(٤) الحنبلي، الأنس الجليل، ص ٢٥.

(٥) المصدر ذاته، ص ٥٢-٥٤.

(٦) يوسف غوانمة، نيابة بيت المقدس، ص ٨١.

ووجدت أسواق متخصصة في دولة المماليك تختص ببيع سلعة واحدة مثل سوق الفرائين الذي اختص أثناء فترة حكم السلطان برقوق ببيع مختلف أنواع الملابس لرجال الدولة كالسمور والقاقم والسنباب<sup>(١)</sup>. وسوق الدجاجين الذي اختص ببيع الدجاج والأوز وطيور الزينة<sup>(٢)</sup>. وسوق المرحلين بالقرب من جامع الحاكم الفاطمي<sup>(٣)</sup>، وهناك أسواق اختصت ببيع لوازم الجند من الأسلحة ومعدات الركوب، مثل سوق السلاح الذي أنشئ في العصر الأيوبي بين القصرين الذي اختص ببيع أدوات القتال كالرماح والقسي والنشاب والسيوف والخناجر وغيرها. وبالقرب منه سوق المهامزين الذي اختص ببيع المهاميز التي تستخدم في ركوب الخيل، وسوق اللجميين المجاور لسوق المهامزين الذي تباع فيه أدوات اللجم وغيرها من المعدات الجلدية التي تستخدم لركوب الخيل، وكان بسوق اللجميين عدد من صناعات الطلاء، والكفت (التطعيم بالمعدن)، وصناعة السروج ولوازمها<sup>(٤)</sup>.

وعرفت مدن بلاد الشام الأسواق المتخصصة. كسوق الزجاج، وسوق الورق، وسوق الساعات، وسوق الجلود في دمشق<sup>(٥)</sup>. وسوق الزيت، وسوق السمك، وسوق الحناء، وسوق القهوة، وسوق الصابون، وسوق الفحم في حلب<sup>(٦)</sup>. وعرفت القدس الأسواق المتخصصة كسوق الزيت، وسوق الصابون<sup>(٧)</sup>.

(١) المقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ١٠٣.

(٢) المصدر ذاته، ج ٢، ص ٩٦.

(٣) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٥٤٢. والمقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٩٥.

(٤) المقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٩٦-٩٧. وقاسم عبده قاسم، تاريخ مصر الاجتماعي، ص ٤٠.

(٥) ابن القرات، تاريخ، ج ٢، ص ٣٠٧.

(٦) ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص ٢٤٨-٢٥٠.

(٧) الحنبلي، الأئس الجليل، ج ٢، ص ٣٠٤.

وتعدّ القيساريات من الأسواق المتخصصة في بيع سلع محددة، ولكنها ذات طابع خاص يميزها عن الأسواق الأخرى. والقيساريات عبارة عن مجموعة من الحوانيت تباع سلعاً متماثلة، ولها باب يغلَق ليلاً<sup>(١)</sup>. ويقوم حارس بحراستها، ويتولى فتح الأبواب في الصباح وإغلاقها في الليل<sup>(٢)</sup>. ولكل قيسارية عريف يشرف على إدارتها وإسكان التجار فيها<sup>(٣)</sup>. ومن أشهر هذه القيساريات قيسارية جهاركس<sup>(٤)</sup> ابن عبد الله فخر الدين أبو المنصور الصلاحي<sup>(٥)</sup>. وقيسارية الشراب التي تقع في القاهرة بالقرب من قيسارية جهاركس. وكانت هذه القيسارية وقفاً على مصالح الصوفية بخانقاه سعيد السعداء. وظلت قيسارية الشراب عامرة بالحوانيت حتى سنة ٨٠٦هـ / ١٤٠٢م حيث تعرضت للخراب بسبب الفتن والثورات أثناء حكم السلطان الناصر فرج بن برقوق<sup>(٦)</sup>.

وهناك بعض القيساريات التي اقتصت ببيع نوع محدد من السلع لمدة محددة، كقيسارية ابن ميسرة الكبرى بالقرب من سويقة وردان، التي كانت مختصة ببيع القماش الجديد من الكتان الأبيض والأزرق والطرح. ويمضي إليها التجار يومي الأحد والأربعاء لشراء الأصناف المذكورة<sup>(٧)</sup>. وقيسارية طشتمر المجاورة لسوق الوراقين وقد اقتصت ببيع الأزرار. وقد تميزت هذه القيسارية بكثرة حوانيتها ومنظرها الجميل<sup>(٨)</sup>.

(١) المقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٩١. وسعيد صالح، التجارة الداخلية، ص ١٤٦.

(٢) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٤٥٩-٤٦٠.

(٣) المصدر ذاته، ج ٣، ق ٢، ص ٤٦٠.

(٤) من كبار الأمراء، بنى القيسارية بشارع القاهرة تجاه المرحلون الكبير سنة ٥٩٢هـ / ١١٩٥م. المقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٨٧.

(٥) المقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٨٧.

(٦) ابن الفرات، تاريخ، ٩م، ج ٢، ص ٢٠٧. والمقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٨٦.

(٧) المقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٩١.

(٨) المصدر ذاته، ج ٢، ص ٩١.



وتعد وكالة باب الجوانية من أشهر الأسواق التي أقيمت لاستقبال السلع القادمة من بلاد الشام إلى القاهرة، كالزيت والرب والدبس. أما السلع الشامية التي ترد إلى القاهرة عن طريق البر فكانت عادة تدخل إلى وكالة قوصون<sup>(١)</sup>.

أما الفنادق، فقد كانت ملحقة بالأسواق، وهي بناء كبير، يتألف من عدة طوابق يتكون الطابق الأرضي من عدة غرف يستقبل فيها التجار زبائنهم، ويتم فيها بيع السلع ذات القيمة العالية، كالتوابل والأحجار الكريمة والأقمشة. وتحتوي الفنادق على غرف تستخدم من قبل التجار لتخزين السلع الفائضة عن العرض<sup>(٢)</sup> وبعض الغرف كانت تستعمل كحوانيت لبيع الأقمشة الأجنبية كقماش بعلبك، والموصل، والأقمشة الإيطالية، مثل الكلساتات الموشى والمخمل والتفتا والبروكار، والأقمشة الصوفية المستوردة من أوروبا مثل أجواخ البندقية<sup>(٣)</sup>. ومن أشهر هذه الفنادق، فندق الوكالة الذي أنشأه الأمير بكتمر الساقى الناصري وأقام على ملكه إلى وفاته ثم ملكه من بعد أولاده. ثم اشتراه السلطان برقوق سنة ٧٩٦هـ / ١٣٩٣م من أولاد الأمير بكتمر الساقى بمائتين وخمسين ألف درهم<sup>(٤)</sup>. وفندق الحصر الذي أنشأه الأمير تنكز الحسامي واختص ببيع الحصر الرفيعة والحصر القطبان القادمة من الفيوم. كما يباع فيه الرطب الأمهات والزيتون الأخضر<sup>(٥)</sup>. وهو موقوف على أولاده. وفندق الملك السعيد بدار الرمان أنشأه السلطان محمد بركة خان بن السلطان الظاهر بيبرس، ثم ملكه السلطان قلاوون الألفي. وأثناء فترة حكم السلطان برقوق أوقف على البيمارستان المنصوري. وتقدر أجرته بنحو ألفي درهم في الشهر<sup>(٦)</sup>.

(١) ابن الفرات، تاريخ، ٩م، ج٢، ص٢٥١. والمقرئزي، الخطط، ج٢، ص٩٤.

(٢) ليون الأفريقي، وصف أفريقيا، ص٥٨١.

(٣) المصدر ذاته، ص٥٨٠-٥٨١.

(٤) ابن دقماق، الانتصار، ص٤٠.

(٥) المصدر ذاته، ص٤٠.

(٦) المصدر ذاته، ص٤٠.

أما الأسواق المؤقتة فقد كانت تقام في مواقع التجمعات التي يجتمع فيها أعداد كبيرة من الناس في مناسبات معينة كالمولد النبوي، وبناء الجسور، أو شق الترع، أو بناء المدارس والجوامع<sup>(١)</sup>. كما أقيمت الأسواق المؤقتة في ميادين القتال والحروب لتزويد المقاتلين بما يحتاجونه من الأسلحة والملابس والطعام والعلف<sup>(٢)</sup>. ومن أشهر هذه الأسواق، سوق الجيزة الذي كانت تباع فيه المشية التي تجلب من جبال برقة يوم الأحد من كل أسبوع<sup>(٣)</sup>.

#### ٥- الأسعار والعوامل المؤثرة فيها:

تأثرت حركة الأسعار في دولة المماليك أثناء فترة حكم السلطان برقوق بعوامل عدة أهمها: العوامل السياسية كالفتن والثورات، وتهديد تيمورلنك لمصر وبلاد الشام، وعوامل طبيعية تتعلق بفيضان نهر النيل وانحساره، وانحباس الأمطار، وموجات البرد والصقيع، والأوبئة والطواعين، وزيادة العرض والطلب على السلع، وسياسة الاحتكار والطمع، واستغلال الإشاعات لرفع أو خفض الأسعار، وظلم الأمراء والمماليك، وطرح السلع على التجار بأكثر من سعرها.

فالظروف السياسية التي مرت بها دولة المماليك أثناء فترة حكم السلطان برقوق أثرت على حركة الأسعار وتداولها. فحالة الاستقرار التي عمت دولة المماليك بعد تولي السلطان برقوق السلطنة سنة ٧٨٥هـ / ١٢٨٣م أدت إلى انخفاض ملموس في أسعار السلع التجارية الأكثر تداولاً، كاللحم والخبز، نتيجة للقضاء على الفتن والاضطرابات التي رافقت عملية انتقال السلطة من المماليك الأتراك إلى المماليك الجراكسة. فانخفض سعر القمح من خمسة عشر درهماً للإردب إلى ثمانية دراهم. وانخفض الشعير من ثمانية دراهم إلى ستة دراهم للإردب الواحد<sup>(٤)</sup>.

(١) المقرئزي، الخطط، ج ١، ص ٢٠٥.

(٢) قاسم عبده قاسم، تاريخ مصر الاجتماعي، ص ٢٧.

(٣) المقرئزي، الخطط، ج ١، ص ٢٠٥. ولينون الأفريقي، وصف أفريقيا، ص ٦٠٧.

(٤) ابن قاضي شهبه، تاريخ، ج ٢، ص ١١٧. والمقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٥٠٩. وابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ٢، ص ٩٢. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٤٩.

أما لحم الضأن السليخ فقد أصبح كل عشرة أرطال<sup>(١)</sup> بثمانية دراهم، ولحم البقر كل رطل ونصف بدرهم<sup>(٢)</sup>. وفي النصف الأول من شهر ربيع الأول سنة ٧٨٥هـ / ١٣٨٣م استمرت الأسعار في الانخفاض، وأصبح كل رطلين ونصف من اللحم البقري بدرهم، وكل رطلين من لحم الضأن السميطة بدرهم. أما الأسعار في بلاد الشام، فقد وصل سعر الخبز العادي كل رطلين بدرهم، والخبز النقي بأقل من ذلك<sup>(٣)</sup>.

وبحلول سنة ٧٨٨هـ / ١٣٨٨م بدأت الأسعار بالارتفاع التدريجي نتيجة تبدل الظروف السياسية في مصر وحدث بعض الفتن والاضطرابات، كمحاولة عدد من المماليك الأشرفية قتل السلطان برقوق بزعامة الأمير تمربغا الحاجب وإثارة الفتنة بين الأمراء والمماليك<sup>(٤)</sup>. وزحف تيمورلنك نحو بلاد الشام<sup>(٥)</sup>، كما حاول أربعة من فقهاء دمشق قتل السلطان برقوق وتنصيب إمام قرشي في السلطنة<sup>(٦)</sup>. فارتفع رطل الفستق من ثمانية عشر درهماً إلى أربعة وعشرين درهماً<sup>(٧)</sup>. ورطل الفستق المقشر بخمسة وثلاثين درهماً<sup>(٨)</sup>. وفي دمشق بلغ إردب القمح بمائة وخمسين درهماً<sup>(٩)</sup>.

- (١) الرطل الكبير في مصر يساوي (٥٠٠) غم ويستخدم لوزن البضائع واللحم والخبز. منتس، المكايل، ص ٣٢.
- (٢) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٥٠٩. وابن حجر العسقلاني، أنباء الفجر، ج ٢، ص ١٢٧. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٨٧-٨٨. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٣٤٢.
- (٣) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٥٤٢. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ١٢٠. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٣٧٠.
- (٤) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٥٤١. راجع الفصل الأول الفتن والثورات.
- (٥) المصدر ذاته، ج ٢، ق ٢، ص ٥٦٥.
- (٦) المصدر ذاته، ج ٢، ق ٢، ص ٥٥٤. وابن حجر العسقلاني، أنباء الفجر، ج ٢، ص ٢٢١. وراجع الفصل الأول الفتن والثورات.
- (٧) ابن قاضي شهبه، تاريخ، ج ٢، ص ١٨٨. وابن حجر العسقلاني، أنباء الفجر، ج ٢، ص ١٩١.
- (٨) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٥٥٠. وابن حجر العسقلاني، أنباء الفجر، ج ٢، ص ٢٢٠. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٣٧٦.
- (٩) ابن قاضي شهبه، تاريخ، ج ٢، ص ٢٢٣.

وترتب على ارتفاع الأسعار في بلاد الشام نقل التجار للفلال من الإسكندرية إلى أسواق بلاد الشام لتحصيل أعلى سعر. فارتفعت غرارة<sup>(١)</sup> القمح في حلب والقدس وناپلس والأغوار إلى ثلاثمائة درهم<sup>(٢)</sup>.

ويعد التهديد بالحروب مقارنة مع الظروف العادية من العوامل المؤثرة في ارتفاع الأسعار لما يتبع ذلك من إجراءات لتوفير المال لمواجهة هذه الحروب. فكان تهديد تيمورلنك لحدود دولة المماليك سنة ٧٨٩هـ / ١٣٨٧م عاملاً هاماً في ارتفاع الأسعار في بلاد الشام. مما دفع محتسب القاهرة إلى تحصيل زكاة أموال التجار مسبقاً لمواجهة خطره<sup>(٣)</sup>. وعندما اتجهت عساكر تيمورلنك من تبريز إلى سمرقند باتجاه بلاد الشام ارتفعت الأسعار وبيعت غرارة القمح في الرملة بثلاثمائة درهم<sup>(٤)</sup>.

وعندما قام الأمير يلبغا الناصري ومنطاش بالثورة على السلطان برقوق سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٨م ارتفعت مختلف أسعار السلع وأصبحت غرارة القمح بمائتي درهم وأزيد، ورطل اللحم بأربعة دراهم. وعلق ابن صصري على ارتفاع مختلف الأسعار «وكل شيء غال»<sup>(٥)</sup>. ولما دخلت عساكر الناصري ومنطاش مدينة حلب وازداد الطلب على مختلف السلع، ظلت الأسعار مرتفعة إلى حين غادرت العساكر المدينة. فبيع رطل الخبز بدرهمين، وفقد الشعير والتبن من أسواق حلب لازدياد

(١) مكيال دمشقي يعادل الإردب المصري وتعادل ثلاثة أرباب مصرية. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٠٥. وهنتس، المكابيل، ص ٦٤.

(٢) ابن قاضي شهبه، تاريخ، ج ٢، ص ٢٢٨.

(٣) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٥٦٤. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٤٨٣.

(٤) المصدر ذاته، ج ٢، ق ٢، ص ٥٧٤. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ١٦٧.

(٥) ابن صصري، الدرّة المضيئة، ص ٧٠. والمقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٦٠٨.

استهلاك خيول العساكر<sup>(١)</sup>. وظلت الأسعار مرتفعة في دمشق وغيرها حتى سنة ١٧٩٥هـ / ١٢٩٢م<sup>(٢)</sup>.

وحين استقرت الظروف الداخلية بعد إخماد ثورة الناصري ومنطاش انخفضت الأسعار في مصر، وصار رطل الخبز بدرهم، وسر الناس لذلك<sup>(٣)</sup>. أما الأسعار في بلاد الشام فلم تنخفض حتى سنة ١٧٩٥هـ / ١٢٩٢م بسبب كثرة تخوف التجار من تجدد ثورة الناصري ومنطاش، ووصل سعر الخبز إلى درهم لكل ثماني<sup>(٤)</sup> أواق<sup>(٥)</sup>، وإردب القمح بثلاثة وخمسين درهماً<sup>(٦)</sup>.

وللعوامل الطبيعية أثر واضح في حركة أسعار السلع التجارية، لاعتماد الزراعة في مصر على النيل. لذلك أقيم المقياس على النيل لمراقبة زيادة ونقص مياه النيل، وتولى ذلك موظف رسمي من قبل الدولة<sup>(٧)</sup>. وفي العادة يبدأ النيل بالزيادة في الحادي عشر من حزيران والرابع من تموز خلال أربعين يوماً، ويعلن عن وفاء النيل في منتصف آب، حيث تفتح السدود. ويبدأ فيضان النيل بالتباطؤ بعد أن يصل أقصاه في ٢٦ أيلول، ثم يبدأ بالتراجع في شهر تشرين الثاني<sup>(٨)</sup>. فإذا وصل مقياس النيل في الحد الأدنى إلى خمسة عشر ذراعاً تعرضت مصر إلى القحط. وإذا تراوح بين عشرة أو اثني عشر ذراعاً، فإن هذا يشير إلى

- (١) ابن مصري، الدرة المضيئة، ص ١٠٠.
- (٢) المصدر ذاته، ص ١٠١.
- (٣) ابن مصري، الدرة المضيئة، ص ١١٦.
- (٤) الأوقية، أحد مشتقات الرطل وتساوي ١٢/١ من الرطل. منتس، المكابيل، ص ١٩.
- (٥) ابن مصري، الدرة المضيئة، ص ١٢٢-١٢٣.
- (٦) المصدر ذاته، ص ١٢٧.
- (٧) لبين الأفريقي، وصف أفريقيا، ص ٨٥٩.
- (٨) المصدر ذاته، ص ٨٥٩.

ارتفاع الأسعار في مختلف السلع التجارية ولا سيما الغلال. وإذا وصل المقياس إلى ثمانية عشر ذراعاً، فسوف تتعرض الأراضي الزراعية إلى الغرق، وعندئذ يشتد الخوف على الناس<sup>(١)</sup>.

وبعد مضي ثمانين يوماً على وقاء النيل يحدد محتسب القاهرة مختلف السلع الأساسية كالغلال والخبز، واستناداً لفيضان النيل، والمناطق التي رويت بشكل جيد، والأراضي التي نالها الماء بإفراط، وتلك التي لم تأخذ كفايتها من الماء حسب مستوى الأراضي الزراعية. وعلى أساس هذه المعطيات تثبت أسعار السلع أحياناً<sup>(٢)</sup>.

وحين توقف النيل عن الزيادة عند أقل من خمسة عشر إصباعاً من أصل عشرين ذراعاً في ٢٢ شوال سنة ٧٨٧هـ / ١٢٨٥م ارتفعت مختلف أسعار الغلال، وصار إردب القمح بثلاثين درهماً، وإردب الشعير بعشرين درهماً. وفي بداية ذي الحجة من السنة نفسها ارتفع سعر إردب القمح إلى خمسين درهماً<sup>(٣)</sup>، وظلت الأسعار مرتفعة حتى منتصف شهر ذي الحجة رغم زيادة النيل إلى خمسة عشر إصباعاً من أصل عشرين ذراعاً. فبطة الدقيق بأكثر من اثني عشر درهماً<sup>(٤)</sup> وإردب الشعير بعشرين درهماً، وإردب الفول بثمانية عشر درهماً<sup>(٥)</sup>.

(١) ليون الأفريقي، وصف أفريقيا، ص ٨٥٩.

(٢) المصدر ذاته، ص ٥٩٠.

(٣) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٥٢٨. وابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ٢، ص ١٩١. وابن الصيرفي، نزعة النفوس، ج ١، ص ١٢٢. والسخاوي، وجيز الكلام، ج ١، ص ٢٧٢.

(٤) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٨٨٢. وابن الصيرفي، نزعة النفوس، ج ١، ص ١٢٢.

(٥) ابن الصيرفي، نزعة النفوس، ج ١، ص ١٢٣-١٢٤.

وبعد توقف النيل عن الزيادة في ١٠ جمادى الآخرة سنة ٧٩٣هـ / ١٣٩٠م ارتفعت الأسعار، وخاف الناس بسبب ذلك، ثم ازداد ثلاثين إصبعاً<sup>(١)</sup>. وعندما توقف عن الزيادة في ٦ ذي القعدة سنة ٧٩٦هـ / ١٣٩٣م إلى أحد عشر إصبعاً من أصل ثمانية عشر ذراعاً تعرضت الأراضي الزراعية إلى الغرق، وارتفعت الأسعار، وصار إردب القمح بأربعين درهماً، وإردب الفول والشعير بعشرين درهماً وأزيد<sup>(٢)</sup>. كما ارتفعت الأسعار في مصر سنة ٧٩٧هـ / ١٣٩٤م مقارنة مع السنة السابقة نتيجة غرق مساحات واسعة من الأراضي الزراعية، فبيع إردب القمح بثمانين درهماً، والشعير والفول بأربعة وخمسين درهماً، وبطة الدقيق بثمانين درهماً، وكل رطلين ونصف من الخبز بدرهم<sup>(٣)</sup>. وعندما انحسرت المياه بصورة مفاجئة ارتفع سعر الخبز كل أربعة أرطال بدرهم بعد أن كان ثلاثة أرطال بدرهم، لعدم زراعة مساحات واسعة من الأراضي الزراعية بسبب ذلك<sup>(٤)</sup>.

أما الأراضي الزراعية في بلاد الشام فتعتمد بدرجة كبيرة على مياه الأمطار، مما يعني تأثر الزراعة بكميات سقوط الأمطار من سنة إلى أخرى، وتأثرها بموجات البرد والصقيع. فعندما انحسب المطر في بلاد الشام في موسم سنة ٧٩٧هـ / ١٣٩٤م وتعرضت مناطق البلقاء والمناطق المجاورة لها بموجة البرد والصقيع ارتفعت الأسعار، ووصلت غرارة القمح إلى ثلاثمائة درهم وفي القدس والمناطق المجاورة لها بدرهم وأزيد. وأكل الناس الشعير، مما أدى إلى ارتفاع أسعار الشعير، وصار كل عشرة أرطال من طحين الشعير بخمسة عشر درهماً

(١) ابن الفرات، تاريخ، ٩م، ج ٢، ص ٢٦٣. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٢٢٢.

(٢) ابن قاضي شهبه، تاريخ، ج ٢، ص ٥٢٢. وابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ٢، ص ٢١٦. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٣٩١.

(٣) ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٤١٤.

(٤) ابن قاضي شهبه، تاريخ، ج ٢، ص ٥٤٣.

وأزيد، وتعرض الناس لشدة. أما مناطق دمشق وما حولها فقد وصل سعر إردب القمح فيها إلى مائة وثمانين درهماً، ورطل الخبز العادي بدرهم، والخبز النقي (الخالي من الشوائب) عشرة أواق بدرهم (الرطل الشامي يساوي اثنتي عشرة أوقية). أما حمل التبن فبيع بأكثر من عشرين درهماً<sup>(١)</sup>. كما بيعت غرارة القمح بالقدس بأكثر من اثني عشر ديناراً، وجرة الماء بنصف درهم<sup>(٢)</sup>.

وحيث أصابت موجة البرد سنة ٧٩٧هـ / ١٣٩٤م أغلب المناطق التي تنتج الغذاء الأساسي في بلاد الشام مثل بعلبك والزبداني وصفد وتلفت الكروم ارتفعت الأسعار بشكل عام لقلة الإنتاج. فارتفع سعر الدبس من مئتين وثلاثين إلى مائتين وخمسين درهماً. والزبيب من مائتين إلى ثلاثمائة درهم. وتلف محصول القمح والشعير وبيع لأصحاب الأغنام والمواشي<sup>(٣)</sup>. ولم يتمكن الفلاحون من زراعة البطيخ والخيار<sup>(٤)</sup>. وفي سنة ٨٠٠هـ / ١٣٩٦م ارتفع سعر اللحم من خمسة دراهم إلى سبعة دراهم. وصار زيت الزيتون بستة دراهم، وزيت الشيرج بثمانية دراهم، والخبز بدرهمين وأكثر<sup>(٥)</sup>. بسبب تساقط الثلوج وتلف المحاصيل الزراعية.

وعندما أصيبت الأبقار في القاهرة وضواحيها بمرض الحمى سنة ٧٩٤هـ / ١٣٩٤م انخفض سعر الأبقار بشكل عام، وصارت تباع البقرة بعشرين درهماً بعد أن كانت تباع بأكثر من خمسمائة درهم، ولما ازداد تفشي الحمى بالأبقار انخفض سعر البقر إلى خمسة دراهم، وأحياناً إلى درهم. ولم يجد من يشتريه خشية الإصابة

(١) المصدر ذاته، ج ٣، ص ٥٧٨.

(٢) ابن حجر العسقلاني، أنباء النمر، ج ٣، ص ٢٨٣. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ١٥٣.

(٣) ابن مصري، الدرّة المضيئة، ص ٢٢٤.

(٤) المصدر ذاته، ص ٢٦٦-٢٢٧. وابن قاضي شهبه، تاريخ، ج ٢، ص ٥٨١.

(٥) ابن قاضي شهبه، تاريخ، ج ٢، ص ٦٥٢. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٤٧٤.



بالحمى. كما امتنع الطباخون في مناطق الأرياف عن بيع الطبخ باللحم البقري، وامتنع أغلب الناس من شراء اللحم البقري وأكله<sup>(١)</sup>.

وقد ترتفع أو تنخفض أسعار المواد الطبية كالفواكه والبطيخ بسبب انتشار الأمراض بين الناس كالطاعون. ففي سنة ١٢٨٨م / ٧٩٠هـ ارتفع سعر البطيخ والكمثرى في القاهرة وضواحيها لاستخدامه في علاج الطاعون، وصارت البطيخة بثلاثين درهماً، ورطل الكمثرى بعشرين درهماً<sup>(٢)</sup>. أما في بلاد الشام، فقد انخفضت أسعار الغلال بشكل عام في دمشق وحلب وحماة وبعليك والرملة وهوران والأغوار لتفشي الطاعون، وتناقص عدد السكان في تلك المناطق بشكل ملموس وأصبحت غرارة القمح بأقل من مائتي درهم بعد أن كان بثلاثمائة وستين درهماً والشعير بتسعين درهم بعد أن كان بمئة وسبعين درهماً، ورطل الخبز الصافي بدرهم<sup>(٣)</sup>. وبلغ قنطار البطيخ العبدلي في مصر بدرهم<sup>(٤)</sup>.

وتعد سياسية زيادة عرض السلع في الأسواق بحيث تصبح كمية المعروض منها في الأسواق أكثر من حاجة الاستهلاك من العوامل الهامة التي تؤثر في انخفاض الأسعار، كما يؤثر قلة عرض السلع في ارتفاع الأسعار. ففي سنة ١٢٩٧هـ / ١٣٩٤م ارتفعت أسعار الغلال في مختلف أسواق القاهرة. وتُقد من حوانيت القاهرة سبعة أيام متتالية، وازدحم الناس على الأفران بسبب قلة عرض الغلال

(١) ابن الفرات، تاريخ، ٩م، ج ٢، ص ٧٦٩. والمقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٧٦٩. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٤٥٤.

(٢) ابن قاضي شهبه، تاريخ، ج ٢، ص ٢٢٩. والمقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٥٧٧. وابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ٢، ص ٢٩٠-٢٩١. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ١٧٠. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٢٩٠.

(٣) ابن قاضي شهبه، تاريخ، ج ٢، ص ٤٦٨.

(٤) المصدر ذاته، ج ٢، ص ٥١٧. وابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ٢، ص ٢١٥. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٤٧٠.

في الأسواق، حتى وصل إردب القمح غير المغربل إلى مئة وخمسين درهماً والقمح النقي بأكثر من مائتي درهم، وبطة الدقيق بأربعة وأربعين درهماً وكل رطل وربع خبز بدرهماً. وفي الأول من شعبان من السنة نفسها وصل سعر غرارة القمح إلى ثلاثمائة وخمسين درهماً، ووصل إلى أربعمائة درهم، وغرارة الشعير بثمانين درهماً وأزيد. وقد ترتب على ارتفاع أسعار القمح ارتفاع آخر في أسعار الخبز لقلة وجوده في الحوانيت والأفران، وتزاحم الناس على شرائه<sup>(١)</sup>. ويذكر ابن صصري (ت ٨٠٠هـ / ١٣٩٧م): «أن الناس كانت تقف صفاً خلف بعضهم البعض من مطلع الشمس حتى المغيب لتحصيل الخبز حتى صار يباع الخبز عجينة أسود كل سبع أواق بدرهماً، وغالبية الناس لم تتمكن من الحصول على الخبز لقلته، وتزاحم الناس على شرائه. وكان الرجل يقف نصف نهار أمام الفرن ويتعطل عن عمله بأكثر من درهماين ليحصل على حاجته من الخبز». أما بلاد الشام كنيابة حلب وحماة وطرابلس، فقد ارتفع رطل الخبز إلى ثلاثمائة درهم ونصف<sup>(٢)</sup>.

وقد ترتب على الإرتفاع المستمر في السلع الأساسية أن لجأت دولة المماليك إلى فرض تسعيرة محددة للقمح والشعير والخبز من أجل وضع حد للإرتفاع المستمر في الأسعار. فسعرت الدولة سنة ٨٠٠هـ / ١٣٩٧م رطل الخبز العادي بدرهماً، والخبز المعروف<sup>(٣)</sup> عشرة أواق بدرهماً، وغرارة القمح بمائة وخمسين درهماً. وحين لم تضع التسعيرة الأولى حداً للإرتفاع المستمر في الأسعار بسبب قلة العرض، أعادت الدولة النظر في التسعيرة مرة أخرى، وحددت سعر الخبز العادي كل رطلين وثلاث بدرهماً، ورطل الخبز المعروف بدرهماً. وهذا يشير إلى أن عملية

(١) المقريزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٨٥٦.

(٢) ابن صصري، الدرّة المضيئة، ص ٢٦٦-٢٧٧. وابن قاضي شهبه، تاريخ، ج ٢، ص ٦٦٨.

(٣) عَرَك: ما يُقَطع من الخبز أي يعرك عركاً ثم يعجن ثانية ويحكم عجته.

تسعير السلع الغذائية الأساسية كانت خاضعة لكمية السلع المعروضة في الأسواق، وأن العامل الأساسي في ارتفاع الأسعار وانخفاضها هو العرض والطلب. فقد لجأت الدولة مرة ثالثة لإعادة النظر في التسعيرة ولا سيما تسعيرة الخبز، إذ أصبح الخبز العادي كل سبعة أواق بدرهم، والمعروك كل تسعة أواق بدرهم، والشعير الجديد بأقل من مائة درهم للإردب<sup>(١)</sup>.

وعندما زاد عرض السلع الأساسية في الأسواق، بدأت الأسعار بالانخفاض بشكل ملموس وتدرجي. فانخفضت أسعار الغلال بالقاهرة سنة ٧٩٨هـ / ١٣٩٥م لكثرة جلب، فبيع إردب القمح بمائة وثلاثين درهماً، أي بمعدل انخفاض عشرة دراهم للإردب الواحد. وكل رطلين من الخبز بدرهم. ثم انخفضت أسعار القمح لتصل إلى مائة وعشرين درهماً، ومائة وعشرة دراهم للإردب<sup>(٢)</sup>. وتوالت الأسعار في الانخفاض في منتصف جمادى الآخرة من السنة نفسها لكثرة ما جلب التجار من القمح، حتى أصبح إردب القمح بخمسين درهماً، والشعير والفول بثلاثين درهماً. ويذكر ابن الفرات (ت ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م): «أن الأسعار ظلت في انخفاض مستمر»<sup>(٣)</sup>.

وواصلت أسعار الغلال في الانخفاض حتى ٢٢ جمادى الآخرة سنة ٧٩٨ / ١٣٩٥م لكثرة جلب الغلال إلى الأسواق، حتى بيع كل أربعة أرتال خبز بثمانية دراهم. وعندما أحس تجار القمح والغلال بعدم استرداد رأس المال، نتيجة الانخفاض المستمر في الأسعار وارتفاع ثمن الشراء، وارتفاع تكاليف النقل، امتنعوا عن البيع، وتحولوا بمراكبهم إلى الإسكندرية. ولما رأى أصحاب الطواحين

(١) ابن قاضي شهبه، تاريخ، ج ٢، ص ٦٦١.

(٢) ابن الفرات، تاريخ، ج ٩، ص ٤٣٥. وابن قاضي شهبه، تاريخ، ج ٢، ص ٥٧٨. وابن حجر العسقلاني، أنباء القمر، ج ٢، ص ٢٩٢. والمقرئزي، السلوك، ج ٢، ص ٨٥٦.

(٣) ابن الفرات، تاريخ، ج ٩، ص ٤٣٨-٤٣٩. وابن قاضي شهبه، تاريخ، ج ٢، ص ٥٨١. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٤٤٦.

والأفران تحول المراكب إلى الإسكندرية خفضوا كمية الخبز المطروحة في الأسواق والحوانيت أملاً في ارتفاع الأسعار وصار الناس إذا أخضر قفص فيه خبز إلى حوانيت الخبازين خطفوه من على رؤوس الحمالين<sup>(١)</sup>.

لذلك تزايدت الأسعار مرة أخرى في أول شباط سنة ٧٩٨هـ / ١٣٩٥م لقلّة جلب الغلال إلى مصر. وفقدان الخبز من أسواق القاهرة وضواحيها. وضاق الناس من هذا الحال بسبب ذلك، واقتتل الناس على الأفران، وصار يباع رطل الخبز بدرهم ونصف إن وجد، كما ارتفع القمح إلى مائة وخمسين درهماً للإردب، وثمانية وخمسين، وسبعين درهماً. أما إذا غربل ونقي من الشوائب العالقة به صار كل قدح بدرهمين وأزيد، وبطة الدقيق بأربعة وأربعين درهماً، وكل رطل وربع خبز بدرهم<sup>(٢)</sup>. فاستعانت العامة بالسلطان برقوق لاتخاذ بعض الإجراءات للتخفيف من حدة ارتفاع الأسعار المستمر. فأمر السلطان برقوق الأمير علاء الدين ابن الطبلابي المحتسب بتسمير عدد من الطحانيين وتجار الغلال على ألواح الخشب كإجراء تديبي لتلاعبهم بالأسعار. وضرب محتسب القاهرة أربعة من كبار الطحانيين في القاهرة بالسياط والعصي، وأصدر أمراً يقضي بالإكثار من الخبز<sup>(٣)</sup>، ولكن الإجراءات التي اتخذت بحق الطحانيين والتجار كانت غير كافية، بدليل عدم اكتراثهم بما اتخذ بحقهم من إجراءات تأديبية إذ في اليوم التالي قطع الخبازون الخبز زنة كل رغيف بربع درهم، وتعذر وصول الخبز في كثير من الأحيان إلى حوانيت الخبازين أو الأفران، وارتفع سعر قدح القمح إلى درهم ونصف، ودرهم وسدس. وأصبح قدح الشعير بربع وسدس درهم بعد أن كان بعشرة فلوس<sup>(٤)</sup>.

(١) ابن الفرات، تاريخ، ٩م، ج ٢، ص ٤٣٩. والمقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٨٥٩. وابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ٣، ص ٢٨١-٢٨٢. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٤٣٠.

(٢) ابن الفرات، تاريخ، ٩م، ج ٢، ص ٤٣٤-٤٣٥. وابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ٣، ص ٢٨١-٢٨٢.

(٣) ابن الفرات، تاريخ، ٩م، ج ٢، ص ٤٣٩. وابن قاضي شهبه، تاريخ، ج ٣، ص ٢٤٢.

(٤) ابن الفرات، تاريخ، ٩م، ج ٢، ص ٤٣٩. والمقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٨٦٠.

ولعدم قدرة المحتسب من السيطرة على ارتفاع الأسعار لجأ إلى الاختفاء، والإقامة في بيته خوفاً من تعرض العامة إليه بالضرب أو الرجم لارتفاع إردب القمح إلى مائة وعشرين درهماً، وإردب الشعير ستين درهماً<sup>(١)</sup>. كما لجأ التجار لاحتكار بعض السلع الأساسية رغبة في زيادة الربح مما كان له أثر واضح في حركة الأسعار واضطرابها. فابن النشو<sup>(٢)</sup> أحد كبار سماسرة وتجار الغلال كان يشتري الغلال ويعمل على تخزينه للحصول على سعر مرتفع، لذلك لجأت الدولة إلى تسعير الغلال على السماسرة والطحانين، فحدد محتسب القاهرة الخبز النقي بدرهم، ورطل الخبز الأقل جودة بدرهم، وكل رطل وثلث بدرهم، فاستكثر ابن النشو تحديد المحتسب للأسعار مدعياً الخسارة رغم اعتراف أحد أصحاب الأفران بالربح الوفير لبيعه رطلين وثلث من الخبز بدرهم، ورطلين ونصف بدرهم مما دفع العامة إلى رجم ابن النشو بالحجارة<sup>(٣)</sup>، وقتله.

وعندما منع أمير مكة التجار من جلب القمح من القاهرة إلى مكة سنة ٧٨٩هـ / ١٣٨٦م ارتفعت أسعار القمح بشكل عام. ولما تمكنت إحدى القوافل المحملة بالقمح دخول مكة انخفضت الأسعار وبيعت ويبة القمح بعشر دراهم بعد أن كانت ثلاثين درهماً<sup>(٤)</sup>.

كما استغل بعض الناس إثارة الإشاعات حول ارتفاع الأسعار أو انخفاضها للاستفادة من ذلك. ففي سنة ٧٩٧هـ / ١٣٩٤م أثيرت إشاعات عن انخفاض الأسعار

- (١) ابن الفرات، م، ج ٩، ص ٤٢٩. والمقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٨٦٠. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٤٣٠.
- (٢) ابن النشو ناصر الدين محمد أحد كبار تجار الغلال مات مقتولاً سنة (٧٩٧هـ / ١٣٩٤م). ابن صمصري، الدررة المضيئة، ص ٢٠٧-٢٠٨. وابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ٢، ص ٣٢٨-٣٢٩.
- (٣) ابن صمصري، الدررة المضيئة، ص ١٢٨. وابن الفرات، تاريخ، م، ج ٩، ص ٤٦٤. وابن قاضي شهبه، تاريخ، ج ٢، ص ٥٧٨.
- (٤) ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ٢، ص ٢٥٢.

عند دخول السلطان برقوق القاهرة، مما دفع تجار الغلال إلى بيع كميات الغلال المخزنة عندهم خوفاً من انخفاض الأسعار والخسارة فيه. وحقيقة الأمر أنه عندما دخل السلطان القاهرة ارتفعت مختلف أنواع السلع الأساسية كالحبوب والغلال والأطعمة. وصار إردب القمح بسبعين درهماً، والبقول والشعير بحوالي أربعين درهماً للإردب، وحمل التبن الأبيض بأكثر من عشرة دراهم<sup>(١)</sup>. وربما يكون وراء هذه الإشاعة بعض التجار لجعل الآخرين يبيعون ما عندهم من سلع فترتفع الأسعار، ويبيعون هم بسعر أعلى.

وظلت حركة الأسعار في تذبذب مستمر بين ارتفاع وانخفاض بسبب كثرة الإشاعات ولم تستقر على سعر. فصار إردب القمح بأربعين درهماً، ثم ارتفع إلى ستين درهماً وأزيد وأنقص وحمل الطحين بمائة وعشرين درهماً، ثم انخفض إلى سبعين درهماً، ثم ارتفع. وصار كل ثلاث أرتال خبز بدرهماً، وقدر الأرز بدرهمين أو قريب من ذلك، بعد نصف درهماً، وربع درهماً، وقدر التمر بدرهمين، ورطل السكر بستة دراهم، وكل رطلين من الجبنة المقلية بدرهماً ونصف، وبدرهماً وربع، ورطل لحم البقر بدرهماً، واللحم السمييط بدرهماً وربع، واللحم السليخ بدرهماً ونصف، « ولم تستقر الأسعار على شيء »، كما ارتفعت أسعار المأكولات وغيرها وقل البيع والشراء لقلّة المال مع الناس<sup>(٢)</sup>. وفي سنة ٧٩٧هـ / ١٣٩٤م ارتفعت أسعار القمح إلى ستة وستين درهماً للإردب، وإردب الشعير والبقول إلى ثلاثين درهماً<sup>(٣)</sup>، ثم انخفضت الأسعار مرة أخرى في ٢ محرم سنة ٧٩٨هـ / ١٣٩٥م وصار إردب القمح بستين درهماً<sup>(٤)</sup>.

- (١) ابن الفرات، تاريخ، ٩م، ج ٢، ص ٣٩٩. وابن قاضي شهبه، تاريخ، ج ٢، ص ٥٤٠. والمقرئزي، السلوك، ج ٢، ص ٨٢٦. وابن حجر العسقلاني، أنباء الفجر، ج ٢، ص ٢٢٨. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ٢، ص ٣٩٩.
- (٢) ابن الفرات، تاريخ، ٩م، ج ٢، ص ٣٩٩. وابن قاضي شهبه، تاريخ، ج ٢، ص ٥٤٠. والمقرئزي، السلوك، ج ٢، ص ٨٢٦. وابن حجر العسقلاني، أنباء الفجر، ج ٢، ص ٢٢٨.
- (٣) ابن الفرات، تاريخ، ٩م، ج ٢، ص ٤٠٢. والمقرئزي، السلوك، ج ٢، ص ٨٢٦. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٤٠٣.
- (٤) ابن الفرات، تاريخ، ٩م، ج ٢، ص ٤٢٧. والمقرئزي، السلوك، ج ٢، ص ٨٤٩.

ويعد ظلم رجال الدولة من أمراء وولاة عاملاً مؤثراً آخر في ارتفاع الأسعار، ولا سيما بعد وصول كثير من موظفي دولة المماليك أثناء فترة حكم السلطان برقوق إلى مناصبهم عن طريق الرشوة<sup>(١)</sup>. ولتحصيل ما دفعوه على سبيل البذل والبرطلة من التجار أهملوا مراقبة أساليب التجار في التلاعب بالأسعار. فحين تولى القاضي بهاء الدين بن البرجي الحسبة في القاهرة ارتفعت أسعار الغلال، وصار إردب القمح بثلاثين درهماً بعد ثمانية وعشرين درهماً، وبطة الدقيق بأربعة عشر درهماً، وأقل من خمسة أرطال خبز بدرهم<sup>(٢)</sup>. وحين وصل سالم ابن شاد الدواوين بمصر إلى الأرياف سنة ٧٩٦هـ / ١٣٩٣م لتحصيل الأغنام وتوفيرها للمطبخ السلطاني أثناء إقامة السلطان في دمشق، ارتفع سعر اللحم، وصار الرطل بخمسة دراهم وأزيد<sup>(٣)</sup>.

(١) راجع الفصل الأول البذل والبرطلة (الرشوة).

(٢) ابن الفرات، تاريخ، م ٩، ج ٢، ص ٤٥٧.

(٣) ابن قاضي شهبه، تاريخ، ج ٢، ص ٥١٠.

## ٦- واردات الدولة (الضرائب):

تشكل الضرائب التي كانت تفرضها دولة المماليك أثناء فترة حكم السلطان برقوق، كالخراج، والجوالي، وضريبة المراعي، والمبادلات التجارية، وضريبة ما يستخرج من المعادن، والمواريث الحشرية، وما يتحصل على النقود من دار الضرب، والمكوس أهم واردات الدولة. فشكلت هذه الضرائب عاملاً أساسياً في ارتفاع الأسعار، بسبب ارتفاع الضرائب التي كانت تفرضها الدولة على الأراضي والسلع التجارية.

## ١- الخراج (ضريبة الأرض):

هو مقدار من المال أو الحاصلات، يفرض على رقبة الأراضي التي صُوِّح عليها المشركون<sup>(١)</sup>. وتختلف باختلاف البلاد. فالوجه القبلي (الصعيد) يؤخذ أكثر خراجه من الغلال، كالقمح، والحمص، والفول، والعدس، والجلبان. ويتراوح ما بين إردبين إلى ثلاثة أرباب لكل فدان من الأصناف المذكورة. وقد يتعرض للزيادة والنقص، ويؤخذ مع كل إردب من الغلال درهم أو درهمان أو ثلاثة دراهم، ونحو ذلك بحسب قطائع البلاد وضرائبها في الزيادة والنقص في الأرباب والدراهم. وقد يؤخذ خراج بعض المناطق نقداً. أما الأراضي البور (التي لم تزرع) فيباع ما ثبت فيه من المراعي معجلاً، أو حسب أعداد المواشي الراعية من الإبل والبقر والغنم على حسب عُرف البلاد. أما الوجه البحري فأغلب خراج أراضيه يُؤخذ نقداً<sup>(٢)</sup>.

وقد طرأت عدة تطورات على نظام تأجير الأراضي وذلك بين سنة ٧٩١هـ-٧٩٩هـ / ١٣٨٨م-١٣٩٦م وسنة ٨٠٠هـ / ١٣٩٧م. ففي سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٨م أصبح يؤجر الفدان الذي كان مزروراً بالقرط والفول (أثر الباقي) بأربعين درهماً،

(١) ابن جماعة، تحرير الأحكام، ص ١٠٢. والمقريري، الخطط، ج ١، ص ١٠٣.

(٢) القلقشندي، صبح الأمشي، ج ٢، ص ٥٢٠-٥٢١.



والأراضي التي كانت مزروعة بالقمح والشعير (البرايب) بحوالي ثلاثين درهماً. ثم ارتفع السعر إلى أكثر من ذلك بسبب ارتفاع أسعار الغلال. حيث جاوز الغدان الذي كان مزروعاً بالقرط والفلول بحوالي مائة درهم، والأراضي التي كانت مزروعة بالقمح والشعير بحوالي ثمانين درهماً. أما الأراضي التي أزيلت منها مخلفات الزراعة السابقة (البرش) فكانت تؤجر بنحو مائتي درهم<sup>(١)</sup>. أما في سنة ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م فقد ارتفعت أجرة الأراضي. حيث صار يؤخذ عن كل فدان من الأراضي التي كانت تزرع بالقرط والفلول حوالي أربع مائة درهم. وربما تصل الأراضي الجيدة إلى ستمائة درهم. والأراضي التي كانت تزرع بالقمح والشعير قريباً من ذلك. أما إذا كانت ضريبة الأراضي تؤخذ في بعض مناطق مصر من الغلال وحصل نقص في صنف من الأصناف فيؤخذ بدل ذلك من صنف آخر من الغلة. فكان يؤخذ بدل إردب القمح، إردبان من الشعير، وإردب ونصف من الفول، وإردب من الحمص، وإردب ونصف من الجلبان. ويؤخذ عن كل إردب ونصف من الشعير إردب من القمح. أو ثلث إردب فول، أو نصف إردب قمح، أو ثلثا إردب جلبان، ويؤخذ عن كل إردب فول إردب قمح، أو إردب ونصف شعير، أو ثلثا إردب حمص، أو إردب جلبان<sup>(٢)</sup>.

وكانت ضريبة الأراضي بمصر تقدر تبعاً لحالة النيل. فكانت مساحة الأراضي الزراعية في القرية تقدر بمبلغ محدد، دون زيادة أو نقص ويكون الخراج على أساس ذلك<sup>(٣)</sup>. أو تقدر حسب مساحة الأراضي المزروعة، واختلاف الري فيها، بالزيادة والنقص في السنين.

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٥٢١.

(٢) المصدر ذاته، ج ٢، ص ٥٢٢.

(٣) المصدر ذاته، ج ٢، ص ٥٢٥.

ولتحصيل ضريبة الأراضي في دولة المماليك كان يخرج كاتب خراج الناحية يطلب موظفي الدولة بذلك البلد ويوزع الأراضي على الفلاحين بقدرة مقدرة، ثم يكتب أوراقاً بذلك تسمى أوراق المسجل، توضع في ديوان صاحب الإقطاع. وعند نماء الزرع، يخرج المباشرون من ديوان الإقطاع، ويمسحون الأراضي المزروعة المسجلة بأسماء الفلاحين، ثم يكتب بذلك أوراقاً تسمى الفنداق<sup>(١)</sup>، ثم تجمع القبائل<sup>(٢)</sup> بأوراق تسمى تأريج القبائل<sup>(٣)</sup>، ثم تكتب أسماء الفلاحين في سجلات خاصة، ويقابل بين ما اشتملت عليه أوراق المسجل، وما اشتملت عليه المساحة. وفي الأغلب كان يزيد عن أوراق المسجل، ويجمع ذلك وتنظم به أوراق تسمى المكلفة<sup>(٤)</sup> يوقع عليها الشهود وحاكم العمل، ويحتفظ بنسخ منها في ديوان المقطع<sup>(٥)</sup>.

وكانت ضريبة الأراضي الزراعية في بلاد الشام تؤخذ بعد أن يلزم مباشر الخراج رؤساء البلاد بتكميل زراعة الأراضي وحرثاتها، واصطاح على ذلك أن يقولوا: (أحمر وأخضر)، ويقصد بالأحمر الحراثة الكراب، والأخضر المزروعات الشتوية كالقمح والشعير وال فول والحمص والعدس والكرسنة. والصفية كالذرة والدخن والسمسم والأرز والقطن<sup>(٦)</sup>.

(١) الذي تكتب فيه المساحات حال قياسها. النويري، نهاية الأرب، ج٨، ص ٢٥٠.

(٢) الأراضي التي يقبلها أصحابها، أي يضمونها بمبلغ من المال يؤدونه في كل سنة. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص ٥٢٦.

(٣) الأوراق التي يبسطها مباشر المساحة بما في السجلات ويختتمها بما انتهت إليه المساحة. النويري، نهاية الأرب، ج٨، ص ٢٥٠.

(٤) بعد نضوج الزرع وإثباته في أوراق مربوطة، تضم جميع هذه الأوراق ثم تنظم ويكتب فيها أوراق تسمى المكلفة، يسلم منها نسخاً لديوان المقطع. وهو من صلاحيات مستوفي الصعبة. النويري، نهاية الأرب، ج٨، ص ٢٥٠.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص ٥٢٥-٥٢٦.

(٦) النويري، نهاية الأرب، ج٨، ص ٢٥٧-٢٥٨.

وبعد انتهاء الفلاحين من حراثة الأراضي وزراعتها، يكتب مباشر الخراج على رؤساء البلاد الذين يشرفون على الأراضي الزراعية أوراقاً تقضي بعدم ترك شيء من الأرض دون زراعة (بور)، واشترط في حالة ترك جزء من الأرض دون زراعة معاملتها كالأرض المزروعة. وبعد الانتهاء من الزراعة وابتداء الزرع بالنماء يخرج الوكلاء إلى الأراضي المزروعة لحفظ المزروعات ومراقبتها إلى حين موعد الحصاد، ونقلها إلى البيادر<sup>(١)</sup> لدرسها<sup>(٢)</sup>.

وبعد الانتهاء من جمع المحاصيل في البيادر، تحفظ الغلال استعداداً لعملية الدّراس، ثم يخرج المذري للإشراف على تنقية الغلال من الأقصال وتنظيفها، ثم يخرج والي العمل والمباشرون إلى الجهة المعنية، ويوزعون البيادر على ضريبة الناحية. وعادة ما تكون مقاسمة (أو مناصفة) في أراضي السقي (المروية)، ومثالثة ومرابعة في مختلف المناطق الخالية من السكان. ومسابعة ومثامنة في المناطق المجاورة لسواحل البحر والمتاخمة لبلاد العدو<sup>(٣)</sup>. وبعد الانتهاء من توزيع الأراضي على ضريبة الناحية، يأخذ المباشرون حصة الديوان من الغلال، ويقدر ما بقي من الأقصال ومخلفات النباتات، ثم يؤخذ منه حصة الديوان من نسبة المقاسمة ويكمل على الفلاحين حسب ضريبة الناحية<sup>(٤)</sup>. والنتيجة لا يبقى للفلاح سوى ما يسد جوعه.

- 
- (١) الموضوع الذي تُدرس فيه الحبوب.  
 (٢) النويري، نهاية الأرب، ج٨، ص٢٥٨.  
 (٣) المصدر ذاته، ج٨، ص٢٥٨-٢٥٩. وطه الطراونة، مملكة صفد، ص١٧٩.  
 (٤) النويري، نهاية الأرب، ج٨، ص٢٥٩.

## ب- الجوالي:

وتسمى من الناحية الفقهية بالجزية. وكانت تفرض في كل سنة على غير المسلمين<sup>(١)</sup>. وتقسم إلى قسمين: الأول ما يؤخذ من الفسطاط والقاهرة، حيث كان السلطان يعين ناظراً يتولى جباية الجزية بتوقيع شريف، يساعده مباشرون وشادون وعمال وشهود، وحاشر أو (النشو)<sup>(٢)</sup>. وهو موظف رسمي للدولة من اليهود أو النصراني يعاون الناظر في جباية الجزية من طائفته لمعرفته بأحوالهم، والأسماء الواردة في الديوان ومن ينضم إليهم ممن يبلغ من الصبيان سن البلوغ، والقادمين إلى القاهرة ومصر، أو من يموت وله اسم في الديوان، ويُعلم كتّاب الديوان بما طرأ عليهم من تجديد<sup>(٣)</sup>.

وكانت دولة المماليك أثناء فترة حكم السلطان برقوق تحصل الجزية من أهل الذمة أعلاها خمسة وعشرون درهماً وأدناها عشرة دراهم، تحصل معجلة في شهر رمضان، ويخصص جزء من متحصلها في كل سنة إلى بيت المال. والباقي يوزع على القضاة وأهل العلم والديانة. أما خارج القاهرة، فقد كانت الدولة تقطع الجزية للامراء فتجري في إقطاعاتهم. أما إذا كانت الجزية جارية في بعض الدواوين السلطانية مثل ديوان الخاص وديوان المفرد فإن المتحصل منها للديوان<sup>(٤)</sup>. حيث بلغت قيمتها ستين ألف درهم في السنة<sup>(٥)</sup>. ثم ألغى السلطان برقوق جبايتها سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٨م واستمرت كذلك حتى نهاية حكم السلطان برقوق سنة ٨٠٠هـ / ١٣٩٧م<sup>(٦)</sup>.

(١) ابن جماعة، تحرير الأحكام، ص ٢٥٠. والقلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٢٢٠.

(٢) يبدو أن والد ناصر الدين محمد ابن النشو قد عمل في هذه الوظيفة وأطلق عليه اسم النشو بسبب ذلك.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٥٢٠.

(٤) المصدر ذاته، ج ٢، ص ٥٢٠-٥٢١.

(٥) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٦١٧. وابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ٢، ص ٢٢٩. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٢١١.

(٦) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٩٤. وابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ٢، ص ٢٢٩. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٥٠٠. والسخاوي، وجيز الكلام، ج ١، ص ٢٢٦.

## ج- ضريبة المراعي:

أشار القلقشندي إلى وجود هذه الضريبة في مصر أثناء فترة حكم الماليك، حين كانت تؤخذ من أهل برقة والشرقية في مصر على المواشي كالغنم والإبل والبقر عند وصولهم إلى عمل البحيرة للرعي. وفي أغلب الأحيان كانت تقطع دولة الماليك ضريبة المراعي للأمرأ<sup>(١)</sup>. أما مقدار هذه الضريبة؛ فقد ذكر المقرئزي بأنها كانت تؤخذ في كل سنة من الإبل والخيل والغنم دون أن تحدد قيمتها. ثم ألغاه السلطان برقوق سنة ٧٩١هـ/ ١٢٨٨م لاستجلاب خواطر العامة أثناء ثورة يليغا الناصري واستمرت كذلك حتى نهاية حكم السلطان برقوق<sup>(٢)</sup>. كما أشار النويري إلى وجود هذه الضريبة في بلاد الشام. ويذكر بأنها كانت ضريبة مقررة، تؤخذ مقابل رعي المواشي من نباتات الأرض<sup>(٣)</sup>.

٥

## د- ضريبة المبادلات التجارية:

وهي ضريبة كانت تفرضها دولة الماليك على السلع التي يجلبها التجار المسيحيون واليهود إلى مصر عن طريق البحر بنسبة العشر ١/١٠. ويذكر القلقشندي: «والمفتى به في المذهب الشافعي أن يزيد الإمام في أخذ العشر، وأن ينقص عنه إلى نصف العشر للحاجة إلى زيادة جلب البضائع إلى بلاد المسلمين، وأن يرفع ذلك عنهم رأساً إذا رأى فيه المصلحة»<sup>(٤)</sup>.

وكانت الدولة تأخذ الخمس وهو ضعف العشر على ما يرد من مراكب اليهود والمسيحيين إلى الإسكندرية ودمياط للبيع أو التزود بما تحتاج إليه من السلع، وربما يزيد على الخمس<sup>(٥)</sup>.

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٥٢٩. والمقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٢٤٥.

(٢) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٦١٧. وابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ٣، ص ٢٤٠. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٢٢١.

(٣) النويري، نهاية الأرب، ج ٨، ص ٢٦٢. والطراونة، مملكة صفد، ص ١٨٣.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٣، ص ٣٥١. والمقرئزي، الخطط، ج ١، ص ١٠٩. وابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ٢، ص ٦٤.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٥٣١. والمقرئزي، الخطط، ج ١، ص ١٠٩.

### هـ - ما يستخرج من المعادن:

كانت دولة المماليك تفرض ضريبة على ما يستخرج من معدن النطرون من منطقة البحيرة من مصر، من بلدة الطرانة، ومنطقة الخطارة. وكان على معدن النطرون مرتبون من كتّاب الدست والدرج، والأطباء، وأطباء العيون (الكحالين) وجماعة من أصحاب الصدقات لاستخراجه، وينفقون على حمله إلى ساحل النيل، وبيعه للتجار ونقله في المراكب إلى الوجه القبلي. ويذكر القلقشندي: «أن قيمة النطرون تضاعفت، وعلا سعره»<sup>(١)</sup> لاحتكاره من قبل السلطان بركاتوق. وتقدر قيمة قنطار النطرون بنحو ثلاثمائة درهم. ويبدو أن السلطان بركاتوق جعل النطرون في أواخر سلطنته سنة ٧٩٢هـ / ١٣٨٩م خالصاً له وجارياً في الديوان المفرد تحت إشراف الإستادار. ويحمل إلى الإسكندرية والقاهرة، ثم يخزن في الشؤون السلطانية تمهيداً لبيعه<sup>(٢)</sup>.

### و - الموارِيث الحشيرية:

كانت دولة المماليك تفرض ضريبة معينة على مال من يموت وليس له وارث خاص بقراية أو نكاح أو ولاء، أو الباقي بعد الفرض من مال من يموت وله وارث ذو فرض لا يستغرق كل المال ولا عاصب له، ويتولى الإشراف على الموارِيث الحشيرية في مصر موظف يسمى (ناظر الموارِيث الحشيرية) بتوقيع شريف من قبل السلطان، يساعده شاد، وكاتب، ومشرف، وشهود. وهي مضافة إلى نظر الوزارة. والمتحصل من الموارِيث الحشيرية يحمل إلى بيت المال، وربما يكون عليها مرتبون من أرباب الجوامك. ويتولى كاتب الديوان كتابة اسم من يموت في القاهرة ومصر من حشيري أو أهلي، وتفصيله من رجال ونساء وصغار ويهود ونصارى. ويكتب نسخاً منها لديوان الوزارة، ولنظر الدواوين ومستوفي الدولة، وتسد وقت العصر. أما خارج مصر والقاهرة فقد كان للموارِيث الحشيرية عدد من المباشرين يتولون تحصيلها ونقلها إلى الديوان السلطاني<sup>(٣)</sup>.

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٥٢٨-٥٢٩. والمقرئزي، الخطط، ج ١، ص ١٠٩.

(٢) المصدر ذاته، ج ٢، ص ٥٢٨-٥٢٩.

(٣) المصدر ذاته، ج ٢، ص ٥٢٢-٥٢٣. والمقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٨٦٦-٨٦٧. والمقرئزي، الخطط، ج ١، ص ١١١.

## ز- ضريبة ما يتحصل على النقود من دار الضرب:

وهي ضريبة كانت تفرض على ما يجلب إلى مصر من التبغ إلى دار الضرب في القاهرة والإسكندرية من بلاد التكرور<sup>(١)</sup>.

## ح- المكوس (المكس):

فرضت دولة المماليك أثناء فترة حكم السلطان برقوق المكوس على التجار عند نقل البضائع من بلد إلى آخر<sup>(٢)</sup>، حيث كانت تأخذ المكوس على الخضار والفواكه<sup>(٣)</sup>، والغلال<sup>(٤)</sup>، كما أخذت المكوس بثغر دمياط على ما يشتري الفقراء من الغلال من بين إردبين إلى ما دون ذلك<sup>(٥)</sup>، وعلى معمل الفراريج<sup>(٦)</sup>، بالانحريرية<sup>(٧)</sup> والمناطق المجاورة لها من بلاد الغربية، وطرابلس<sup>(٨)</sup>.

كما أخذت الدولة المكوس على الدريس، والخلفا، وضممان المغاني بمدينة الشوبك والكرك، ومنية ابن خصيب، ومنية غمر<sup>(٩)</sup>. وعلى ما يجلب من الملح والأملاك من حلب وعينتاب، والدقيق بالبيرة<sup>(١٠)</sup>، والنشا والنحاس، والجلود<sup>(١١)</sup>. كما أخذت الدولة مبلغ خمسمائة درهم على الشخص الواحد من القضاة وولاة الأعمال بمدينة طرابلس عند قدوم النائب إليها، أو بغلة بدل ذلك. وتسمى (مقرر النائب)<sup>(١٢)</sup>.

- (١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٥٣٢.
- (٢) المصدر ذاته، ج ٢، ص ٥٢١. والمقرئزي، الخطط، ج ١، ص ١١١.
- (٣) ابن قاضي شهبه، تاريخ، ج ٣، ص ٢٧٢.
- (٤) ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ٣، ص ٢٢٢.
- (٥) العيني، عقد الجمان (حوادث ٧٩٩-٨٣٠هـ)، ورقة ١٩ أ، ب. والمقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٦٠٥.
- (٦) نوع خاص من الأفران لتفقيس البيض، يتكون من عدة طوابق، الطابق العلوي فيه ثقب من الأعلى، توجد فيه ناراً هادئة، وبعد ستة أيام من وضع البيض تبدأ الفراخ بالتفقيس. ليون الأفريقي، وصف أفريقيا، ص ٥٩٢-٥٩٣.
- (٧) وتعرف بالنحارية إحدى قرى كفر الزيات بمديرية الغربية بمصر. ابن تفردي بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ١١١.
- (٨) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٦٠٥. وليون الأفريقي، وصف أفريقيا، ص ٥٩٣.
- (٩) ابن تفردي بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ١١٠-١١٢.
- (١٠) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٥٣٢.
- (١١) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٦٠٥. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ١٩٩.
- (١٢) ابن تفردي بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ١١٠-١١٢. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٥٣٢.

وقد تشدد الفقهاء في موقفهم من تحريم الضرائب والمكوس، فيذكر ابن جماعة: «وأما ما يؤخذ من الضرائب والأعشار من تجارات المسلمين المنقولة من بلد إلى بلد، وعلى ما يباع من أنواع الأموال فحرم شرعاً ولا يبيحه شرع ولا يجيزه عدل بل هو مكوس معينة وظلمات بينة»<sup>(١)</sup>. واعتبر القلقشندي المكوس من المظالم التي فرضتها الدولة على الناس، وقد عمت البلوى بها، وخرجت عن الحد، ودخلت الشبهة في أموال كثير من الناس<sup>(٢)</sup>. وعندما أنكر القاضي شهاب الدين أحمد بن الجندي الشافعي - أحد فقهاء ناحية دمنهور على الضامن ما يؤخذ من المكوس وقال: «لا يحل ولا يجوز» فضربه السلطان برقوق ومنعه من الإقامة في دمنهور<sup>(٣)</sup>.

وأقامت دولة المماليك مراكز لتحصيل المكوس على سواحل بحر القلزم (السويس)، وعيذاب، والقصير من تجار الكارم على البضائع والسلع التي تنقل بواسطة السفن من الحجاز واليمن إلى قوص<sup>(٤)</sup>. ومراكز أخرى على الطريق البري لتحصيل المكوس على السلع الواصلة من بلاد الشام والعراق وغيرها إلى مصر. وتعد قطيا مركزاً هاماً لتحصيل المكوس، فكانت تؤخذ الضرائب والمكوس على مختلف أنواع السلع المارة عبر هذه الطرق<sup>(٥)</sup>. ففي سنة ٧٨٦هـ / ١٢٨٤م حصلت الدولة من مركز قطيا مبلغ ستين ألف نصفية<sup>(٦)</sup> مكوساً على البضائع القادمة من بغداد؛ من ثياب بغدادية وحموية وموصلية ودمشقية، وسلع أخرى<sup>(٧)</sup>.

(١) ابن جماعة، تحرير الأحكام، ص ١٤٥.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٣، ص ٥٢٨. وانظر المقرئ، الخطط، ج ١، ص ١١١.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٢٧٧.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٣، ص ٥٣٦.

(٥) المصدر ذاته، ج ٣، ص ٥٢٨.

(٦) قماش من نسيج الحرير والكتان، المقرئ، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٥٢٥.

(٧) المقرئ، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٥٢٥.



وكانت الدولة تفرض المكوس على التجار حسب حاجتها في تغطية بعض النفقات. ففي سنة ٧٩١هـ/ ١٣٨٨م أُلزم الوزير صاحب كريم الدين عبد الكريم ابن الغنام مباشري المكوس تحصيل مكوس المبيعات من التجار لتغطية نفقات الجيش أثناء ثورة يلبغا الناصري، فامتنع التجار عن دفع المكوس اعتماداً على المناداة بإبطال المكوس. غير أن السلطان برقوق أُلزم المباشرين بمطالبة التجار والباعة بمكس ما تم بيعه من البضائع. فكثرت بسبب ذلك اضطراب الناس، وتزايد طعنهم وهزؤهم بالدولة وعبروا عن ذلك «السلطان من عكسه عاد في مكسه»<sup>(١)</sup>.

وتسامحت الدولة في بعض الأحيان في تحصيل المكوس وإزالة المظالم بصورة مؤقتة لتهدئة خواطر الناس أثناء الفتن والثورات. ففي سنة ٧٩١هـ/ ١٣٨٨م أبطل السلطان برقوق سائر المكوس من مصر وأعمالها. وألغى مراكز تحصيلها لتهدئة الناس أثناء ثورة الناصري<sup>(٢)</sup>. وعندما انتهت الفتنة بخلع السلطان برقوق من السلطنة، وتسلم الأمير حاجي بن شعبان أعيدت المكوس إلى ما كانت عليه سابقاً<sup>(٣)</sup>.

وحين عاد السلطان برقوق ثانية إلى الحكم، أبطل مختلف أنواع المكوس من مصر وبلاد الشام؛ فأبطل المكوس التي كانت تؤخذ من أهل البُرلس<sup>(٤)</sup> وشورى وبلطيم<sup>(٥)</sup> في كل سنة التي تقدر بحوالي ستين ألف درهم. وأبطل مكس ما يؤخذ في دمياط على ما يشتري الفقراء من القمح من إردبين إلى ما دون ذلك، كما أبطل

(١) المقرئ، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٦٠٣-٦٠٤. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ١٩٧.

(٢) المصدر ذاته، ج ٢، ق ٢، ص ٦٠٣. وابن تفردي بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٦٩-٢٧٠. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ١٩٧.

(٣) المقرئ، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٦٢٤.

(٤) بلدة صغيرة على النيل قرب البحر من جهة الإسكندرية. ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج ١، ص ٤٥٢.

(٥) شورى وبلطيم من نواحي البرلس من أعمال نستروة وهما من المصايف. ابن دقماق، الانتصار، ج ٥، ص ١١٢.

مكس معمل الفراريبيج بالتحريرية والأعمال الغربية، وما يؤخذ على الدريس واللفا بباب القصر خارج القاهرة، وضمان المغاني بعنية ابن خصيب بالأشمونيين وزفتة بالأعمال الغربية في مصر<sup>(١)</sup>. ومكس النشا والنحاس والجلود<sup>(٢)</sup>. وما كان يؤخذ في كل شهر من البتردارية. وما يأخذ السماسرة من الناس في كل شهر عند شراء الغلال وقيمته درهمان عن كل إردب سمسرة وكيالة<sup>(٣)</sup>. وكتب السلطان برقوق بذلك مراسيم شريفة ومساميح أودعها عند قاضي القضاة الشافعي<sup>(٤)</sup>.

#### ٧- السياسة النقدية:

عرفت دولة المماليك أثناء حكم السلطان برقوق ثلاثة أنواع من النقود هي: الدينار الذهبية، والدرهم الفضة، والعملات النحاسية مثل: الدراهم النحاسية المضروبة على وزن الدرهم، وتسمى دراهم الفلوس أو دراهم من الفلوس، والفلوس وهي أصغر الوحدات النقدية في دولة المماليك. وأقلها قيمة في التعامل<sup>(٥)</sup>.

- 
- (١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٢، ص١١٠-١١١. والمقريزي، السلوك، ج٢، ق٢، ص٩٤٦-٩٤٥. والمقريزي، الخطط، ج١، ص١٠٦-١٠٧. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج١، ص٢١١.
- (٢) المقريزي، السلوك، ج٢، ق٢، ص٦٠٥.
- (٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٥٣٢.
- (٤) المقريزي، الخطط، ج١، ص١٠٧. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج١، ص٢١١. وابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٥٣٢.
- (٥) سعيد صالح، التجارة الداخلية، ص٢٨٤-٢٨٥.

وكانت النقود في دولة المماليك تضرب بدار الضرب بالقاهرة<sup>(١)</sup>، والإسكندرية<sup>(٢)</sup>، وقوص<sup>(٣)</sup>. وضربت الدنانير باسم السلطان برقوق في ماردين والموصل وسنجار وتبريز<sup>(٤)</sup>. وكان قاضي القضاة يشرف على دار الضرب وضبط عيارها<sup>(٥)</sup>، وقد عين السلطان برقوق بعض الأمراء للإشراف على دار الضرب. فذكر ابن الفرات «أن السلطان برقوق رسم للأمير علاء الدين بن الطبلابي سنة ٧٩٧هـ / ١٣٩٤م أن يتحدث في دار الضرب بالقاهر فتحدث فيها في تاريخه»<sup>(٦)</sup>.

وتتم عملية ضرب النقود بسبك النحاس أو الفضة حتى تصبح سائلاً ثم تصب على شكل قضبان. وتقطع من أطرافها خمسة عشر درهماً، ثم تسبك، فإن خلس منها أربعة دراهم ونصف فضة حساباً على كل عشرة دراهم ثلاثة دراهم، وإلا أعيدت إلى أن يصبح عيارها صحيحاً وهو ثلثان فضة، والثلث نحاس، وقد يزيد النحاس على الثلث بحيث يظهر النقد<sup>(٧)</sup>. وأما الفلوس، فتضرب من النحاس الأحمر والأصفر<sup>(٨)</sup>، ولا تخضع للتدقيق والفحص كما هو الحال بالنسبة للنقدين، الذهب والفضة، فقد وجدت بعض الفلوس غير المطبوعة، وداخلها كثير من النحاس المكسر من الأحمر والأصفر. وغالباً ما يعبر عنها «بالفلوس العتق»<sup>(٩)</sup>. إشارة إلى ما بها من غش، أو لحق بها من قطع أو مسح<sup>(١٠)</sup>.

- (١) ابن الفرات، تاريخ، ٩م، ج٢، ص٤١٠-٤١١. والمقريري، الخطط، ج١، ص١١٠.
- (٢) المقريري، السلوك، ج٢، ق٢، ص٧٧٤. والمقريري، الخطط، ج١، ص١١٠. وابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٦٩٥.
- (٣) المقريري، الخطط، ج١، ص١١٠.
- (٤) المقريري، السلوك، ج٣، ق٢، ص٥٨٥. وابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج١، ٢٤٩. وابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٥١٤. وابن العماد الحنبلي، شذرات، ج٧، ص٦.
- (٥) التلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص٥٥٧. والمقريري، الخطط، ج١، ص١١٠.
- (٦) ابن الفرات، تاريخ، ٩م، ج٢، ص٤١٠-٤١١.
- (٧) التلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص٥٣٥.
- (٨) المصدر ذاته، ج٢، ص٥٢٥.
- (٩) سعيد صالح، التجارة الداخلية، ص٢٨٧.
- (١٠) المرجع نفسه، ص٢٨٧.

وكان يكتب على أحد وجهي النقود عبارة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون» وعلى الوجه الآخر اسم السلطان الذي ضرب في زمنه وتاريخ سنة ضربه<sup>(١)</sup>.

#### ١- الدنانير:

عرفت مصر نوعين من الدنانير وهما الدنانير الهرجة، والمشخصة:

١- الدنانير الهرجة: وهي دنانير خالية من الغش، زنة كل دينار مثقال واحد كتب على أحد وجهيه «محمد رسول الله» وعلى الوجه الآخر «ضرب بالإسكندرية»<sup>(٢)</sup>.

٢- الدنانير المشخصة (الأفرنتي): وهي دنانير تجلب من بلاد الفرنجة، وبيزنطة وهي معلومة الأوزان، فكل دينار تسعة عشر قيراطاً ونصف مصري، واعتباره بصنج<sup>(٣)</sup> الفضة المصرية كل دينار زنته درهم وحبتي خروب يرجح قليلاً، وهي دنانير مشخصة على أحد وجهيها صورة الملك الذي تضرب في زمنه، وعلى الوجه الآخر صورتا بطرس وبولص الحواريين. وتسمى بالدنانير الأفرنتية أو الإفرنجية أو الدوكات<sup>(٤)</sup>. ذكر القلقشندي أن صرف الدنانير المصرية سنة ٧٩٠هـ/ ١٢٨٨م وما بعدها عشرون درهماً، والأفرنتي سبعة عشر درهماً أو ما يقارب ذلك<sup>(٥)</sup>.

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٥٢٤. وانظر إبراهيم طرخان، الممالك الجراكسة، ص ٢٠٢.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٥٠٧.

(٣) أوزان خاصة من الزجاج طبع عليها شكل الدرهم أو الدينار ونقوشه بتعيين أوزان النقود. عبد العزيز الدوري، تاريخ العراق، ص ٢١١. وهنتس، المكابيل، ص ١١.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٥٠٧-٥٠٨.

(٥) المصدر ذاته، ج ٢، ص ٥٠٨-٥٠٩. والمعيني، عقد الجمان (حوادث ٧٩٩-٨٢٠هـ)، ص ٩٥.

وفي بلاد الشام تعاملت بالدنانير المصرية وزناً، والدنانير الأفرنتية عدأً، ولم تختلف عنها في مصر، سوى أن الصنجة في أوزان الذهب في مصر تخالف الصنجة في بلاد الشام إذ تنتقص الصنجة في الدراهم الشامية عن الصنجة المصرية كل مائة درهم واحد<sup>(١)</sup>.

وقد ضربت الدنانير أثناء فترة حكم السلطان برقوق، ذكر القلقشندي قال: «في سنة ٧٩٦هـ/ ١٣٩٣م عقد السلطان برقوق على ابنة حسين بن أويس وقد بلغ صداقها ثلاثة آلاف دينار، وكان صرف الدينار ستة وعشرين درهماً ونصف الدرهم»<sup>(٢)</sup>. ويبدو أن الدنانير الذهبية التي ضربت أثناء فترة حكم السلطان برقوق ثقيلة الوزن، وتجاوزت وزن المثقال، ويبدو أنها استخدمت في المعاملات التجارية الكبيرة، وقد تراوحت أوزانها ما بين ٦-١٦ و ١٨ غم، وأقطارها ما بين ٢٤-٣٠ ملم<sup>(٣)</sup>. كما وجدت بعض الدنانير التي تقل في وزنها عن المثقال، ووصلت إلى ٣,٦٧ غم<sup>(٤)</sup>.

#### ب- الدراهم الفضية:

وتعرف بالدراهم النقرة وهي ثلثا فضة وثلث نحاس<sup>(٥)</sup>، تسك بدار الضرب بالسكة السلطانية، يكون منها دراهم صحاح، وقراضيات مكسرة، وزنة الدرهم أربعة وعشرون قيراطاً، وتقدر بست عشرة حبة خروب، فتكون كل خروبتين بدرهم، وهي أربع حبات من حب البُر المعتدل. وتكون الدراهم من الدنانير نصفه أو خمسه، ربما سبعة أعشاره أي كل سبعة مثاقيل عشرة دراهم<sup>(٦)</sup>.

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٨٧.

(٢) القريزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٨٠٧.

(٣) Lane-Poole, Catalogue, p. 192.

(٤) وسعيد صالح، التجارة الداخلية، ص ٢٩٠.

(٥) المرجع نفسه، ص ٢٩٠.

(٦) العمري، مسالك الأبصار، ج ٢، ص ١٤٢. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ١٢٠.

(٧) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٣، ص ٥٠٩.

وقد ضربت الدراهم الفضة أثناء فترة حكم السلطان برقوق سنة ٧٨٨هـ/ ١٢٨٦م وجعل اسمه فيها داخل دائرة<sup>(١)</sup>. وعندما أمر بتجهيز بعض العساكر إلى دمشق سنة ٧٩١هـ/ ١٢٨٨م أنفق فيهم ألف درهم فضة<sup>(٢)</sup>. وفي ١٢ ربيع الأول سنة ٧٩٨هـ/ ١٢٩٥م وجد للامير محمود الإستاذار في مكان خرب زيران فضة نقرة زنة ذلك ألف ألف درهم ينقص قليلاً حملت إلى الدور السلطانية<sup>(٣)</sup>.

ويذكر القلقشندي أن التعامل بالدراهم الفضية قد بطل في مصر باستثناء القليل منها بعد سنة ٨٠٠هـ/ ١٣٩٧م بسبب استهلاكها في صناعة السروج والآنية، وانقطاع الواصل من الفضة إلى مصر من بلاد الفرنجة، وقد قل التعامل بالدراهم الفضية لقلّة وجودها<sup>(٤)</sup>.

### ج- الفلوس:

تعد الفلوس أصغر وحدة نقدية تعاملت بها دولة المماليك. حيث لا يشتري بها شيء ذو قيمة عالية، وإنما اقتصر على استعمالها في نفقات الدور. فلما تولى الأمير جمال الدين محمود الإستاذار أمور الأموال السلطانية، استكثر من سك الفلوس، وصارت الفرنج تحمل النحاس الأحمر إلى مصر رغبة في الربح، وبقي ضرب الفلوس عدة سنوات في مصر، والفرنج تأخذ ما بمصر من الدراهم إلى بلادهم، وأهل مصر تسك الفلوس حتى كادت تفقد منها<sup>(٥)</sup>.

(١) ابن الفرات، تاريخ، ٩م، ج ٢، ص ١٤٢. وابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ٢، ص ٢٥٧. والخنبلي، شذرات الذهب، ج ٦، ص ٦٠٧.

(٢) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٦٠٠.

(٣) ابن الفرات، تاريخ، ٩م، ج ٢، ص ٤٣٢.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٥٣٥.

(٥) المقرئزي، شذور العقود، ص ٢٩. والمقرئزي، الخطط، ج ١، ص ١١٠.

وتقسم الفلوس إلى فئتين: مطبوعة وغير مطبوعة. فأما المطبوعة فكانت في أواخر حكم السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون. وكان درهم النقرة يساوي ثمانية وأربعين فلساً على اختلاف سكتها. وفي سنة ٧٥٩هـ/ ١٣٥٦م -أي في سلطنة الناصر حسن- ضربت فلوس جديدة سميت (بالفلوس الجدد)، زنة كل فلس مثقال، وكل فلس قيراط من الدراهم، مطبوعة بالسكة السلطانية، وبطل ما عدا ذلك من الفلوس، ثم بطل التعامل بالفلوس المطبوعة لنقص الوزن عن مثقال، وصارت ما دون الدراهم، وصار تكوينها غير مستدير، حيث كانت توزن بالقيان كل مائة وثمانية عشر رطلاً (بالمصري) بخمسمائة درهم. وأخذت قيمة الفلوس بالتناقص لصغر حجمها وتناقص وزنها حتى صارت كل مائة وأحد عشر رطلاً بخمسمائة درهم<sup>(١)</sup>.

واستقرت الفلوس المطبوعة عند هذا الرقم وهو مئة وأحد عشر رطلاً بخمسمئة درهم لارتفاع سعر النحاس، وقلة الواصل منه إلى مصر، وحمل التجار الفلوس المضروبة من مصر إلى الحجاز واليمن وغيرها من الأقاليم للتجارة<sup>(٢)</sup>.

أما الفلوس غير المطبوعة، فهي نحاس أحمر وأصفر مكسر أطلق عليها اسم الفلوس العتق، وزنة الرطل منها أثناء فترة حكم السلطان الناصر حسن بدرهمين نقرة. فلما سكت الفلوس الجدد. أصبح زنة الرطل منها بدرهم ونصف. ثم نفذت الفلوس المطبوعة من مصر نتيجة ارتفاع سعر النحاس وخلط النحاس المكسر بالفلوس الجدد<sup>(٣)</sup>.

(١) الغلشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٥١١.

(٢) المصدر ذاته، ج ٢، ص ٥١١.

(٣) المصدر ذاته، ج ٢، ص ٥١١.

وفي سنة ٧٨٩هـ / ١٢٨٧م ضربت فلوس جديدة بإشارة الأمير جركس الخليلي في قلعة الجبل بالقاهرة، وجعل اسم السلطان برقوق في دائرة. فتشاهم الناس منها، وقالوا: «بان السلطان تدور عليه الدوائر ويحبس، مما أبطل التعامل بها»<sup>(١)</sup>.

كما اختلفت الفلوس المضروبة أثناء فترة حكم السلطان برقوق من حيث الوزن والحجم، فقد تراوحت أوزان الفلوس المضروبة في سلطنته الأولى (٧٨٤هـ-٧٩١هـ / ١٢٨٢م-١٢٨٨م) ما بين ٢,٣٨ - ٢,٠٥ غم. وأقطارها ١٤-١٨ ملم<sup>(٢)</sup>. أما الفلوس المضروبة في الفترة الثانية لحكمه (٧٩٢-٨٠١هـ / ١٢٨٩-١٢٩٨م) فكانت بين ١,٥٠ - ١,٩٥ غم. وأقطارها ما بين ١٨-٢٥ ملم<sup>(٣)</sup>.

وضربت بالإسكندرية فلوس جديدة بإشارة الأمير جمال الدين محمود الاستادار سنة ٧٩٤هـ / ١٢٩١م ناقصة العيار عن الفلوس المضروبة بالقاهرة<sup>(٤)</sup>. وتعامل الناس بفلوس جديدة ضربت بدمشق سنة ٧٩٦هـ / ١٢٩٣م. كل حبة ثلاثة فلوس، منقوش عليها اسم السلطان وسنة ومكان ضربها<sup>(٥)</sup>.

وفي سنة ٧٩٩هـ / ١٢٩٦م تعامل أهل دمشق بالفلوس التي ضربت بدمشق، كل درهم بأربعة وعشرين فلساً، وبطل التعامل بالفلوس العتق. والتعامل بها على

(١) المقرئزي، السلوك، ج٢، ق٢، ص٥٦٢. وابن حجر العسقلاني، أنباء الفخر، ج١، ص٢٢٥. وابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٢٨١. والحنبلي، شذرات الذهب، ج٦، ص٢٠٧.

(٢) Berman, Islamic coins, p. 98.

وسعيد صالح، التجارة الداخلية، ص٢٠٢.

(٣) Balog, The coinage of the Mamluk, p.p. 268-274.

وسعيد صالح، التجارة الداخلية، ص٢٠٢.

(٤) ابن الفرات، تاريخ، ج٩، ص٣١٢. وابن حجر العسقلاني، أنباء الفخر، ج٢، ص١٢٢. والمقرئزي، الخطط، ج١، ص١١٠. وابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٢٨٤.

(٥) ابن قاضي شهبه، تاريخ، ج٢، ص٥١٤.



نوعين: فلوس عتق كل درهم بثمانين فلساً. وفلوس جدد ضربت حين كان السلطان برقوق بدمشق، كل درهم بثمانية وأربعين فلساً. وصار التعامل بها جميعاً بالميزان كل رطل بعشرة دراهم. مما «أصاب الناس ضرراً عاماً وتعطلت معاشهم»<sup>(١)</sup>.

#### ٨- الأوزان والمكاييل والمقاييس:

تعد الأوزان والمكاييل وحدات خاصة. كانت تستخدمها دولة المماليك أثناء فترة حكم السلطان برقوق لعمليات البيع والشراء. فيذكر المقرئزي: «وكانوا يتبايعون بأوزان اصطلمحوا عليها فيما بينهم»<sup>(٢)</sup> مثل الرطل كقاعدة أساسية لأوزان الدولة والإردب مكيال مصر وغزة، والغرارة مكيال بلاد الشام.

يمثل الدرهم القاعدة الأساسية في تقدير قيمة الأوزان والمكاييل، ويختلف درهم الكيل في عياره عن عيار وزن النقود<sup>(٣)</sup>. وكانت صنجة دمشق تنتقص عن صنجة القاهرة درهماً واحداً من كل مائة درهم<sup>(٤)</sup>، وبحساب الفرق بين صنجة دمشق والقاهرة فإن الدرهم المصري المعتبر في الوزن يساوي ٣,١٢٥ غم، ودرهم دمشق يساوي ٣,٠٨٦ غم<sup>(٥)</sup>.

(١) ابن قاضي شهبه، تاريخ، ج ٢، ص ٦٠٢. والمقرئزي، شذور العقود، ص ٤١.

(٢) المقرئزي، شذور العقود، ص ٤.

(٣) هنتس، المكاييل، ص ١١.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ١٨٧.

(٥) هنتس، المكاييل، ص ١١-١٢.

## ١- الأوزان:

عرفت دولة المماليك أثناء فترة حكم السلطان برقوق أوزاناً متعددة: هي الرطل والأوقية والقنطار والمن والحمل.

## ١- الرطل والأوقية:

هناك اختلاف واضح في وزن وحجم الرطل كوحدة وزن بين مصر ونيابات الشام. فيعرف الرطل الذي يعتبر بوزنه في القاهرة والفسطاط وضواحيها (بالرطل المصري) وهو مائة وأربعة وأربعون درهماً، وأوقيته اثنا عشر درهماً<sup>(١)</sup>.

واستخدمت النيابات الشامية أرتالاً مختلفة من حيث الوزن والحجم، فرطل دمشق يساوي ستمائة درهم دمشقي، وأوقيته اثنا عشرة أوقية، كل أوقية خمسون درهماً<sup>(٢)</sup>، ورطل نيابة حلب سبعمائة وعشرون درهماً، وأوقيته اثنا عشرة أوقية، كل أوقية ستون درهماً<sup>(٣)</sup>، ويتساوى رطل طرابلس برطل دمشق، وهو ستمائة درهم، وأوقيته اثنا عشرة أوقية، كل أوقية خمسون درهماً<sup>(٤)</sup>. أما نيابة حلب فرطلها يساوي سبعمائة وعشرون درهماً بالصنجة الشامية، كل أوقية ستون درهماً<sup>(٥)</sup>. أي ما يعادل حوالي ٢٢٢٢ غم<sup>(٦)</sup>. ورطل اللاذقية يساوي ٢١٠٠ غم<sup>(٧)</sup>، ورطل

(١) الفلقشندي، صبح الأمشي، ج ٣، ص ٥١١-٥١٢. والسيوطي، حسن المحاضرة، ج ٢، ص ٢٢١.

(٢) الفلقشندي، صبح الأمشي، ج ٤، ص ٢٤٠.

(٣) المصدر ذاته، ج ٤، ص ٢٤٢.

(٤) المصدر ذاته، ج ٤، ص ٢٢٢.

(٥) المصدر ذاته، ج ٤، ص ٢٤٠.

(٦) سعيد صالح، التجارة الداخلية، ص ١٩٢.

(٧) Ashtor, Levantine weights, p. 478.

بيروت ٢٢٥ غم<sup>(١)</sup>، ورطل حمص ٨٦٤ درهماً<sup>(٢)</sup>. أما رطل غزة فيساوي سبعمائة وعشرين درهماً مصري، وهو اثنتا عشرة أوقية، كل أوقية ستون درهماً<sup>(٣)</sup>. ورطل الرملة يساوي سبعمائة واثنين وثلاثين درهماً ويساوي ٢,٣٣١ غم<sup>(٤)</sup>، وعكا ٢٢٠٠ غم<sup>(٥)</sup>. أما القدس وصفد والكرك فكانت تتعامل برطل دمشق<sup>(٦)</sup>.

#### ب- القنطار والمن والحمل:

يعد القنطار أكبر وحدة وزن في دولة المماليك أثناء فترة حكم السلطان برقوق، ويساوي مائة رطل، وهو متساوٍ في مختلف نيابات الدولة<sup>(٧)</sup>.

أما المن فهو من الأوزان التي يوزن بها الطيب، ويساوي مئتين وستين درهماً وأوقيته ست وعشرون أوقية، وتساوي عشرة دراهم<sup>(٨)</sup>.

وأما الحمل فهي وحدة وزن غير ثابتة متفاوتة الوزن والسعر، إذ بيع حمل التين بمصر بعشرة دراهم<sup>(٩)</sup>، وعشرين درهماً<sup>(١٠)</sup>، وحمل الدقيق وهو ست بطات بمائة عشرة دراهم<sup>(١١)</sup>.

- 
- (١) المقرئزي، إغاثة الأمة، ص ٧٦.
  - (٢) هنتس، المكابيل، ص ٣٤-٣٥.
  - (٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٠٥.
  - (٤) هنتس، المكابيل، ص ٢٠، ٢٣. ويوسف غوانمة، نيابة بيت المقدس، ص ٩٦.
  - (٥) المرجع نفسه، ص ٣٢.
  - (٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٠٦، ٢٤٦، ٢٤٧.
  - (٧) المصدر ذاته، ج ٢، ص ٥١٢. وهنتس، المكابيل، ص ٤٠.
  - (٨) ابن قاضي شهبه، تاريخ، ج ٢، ص ٥١٧. والقلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٥١٢. وابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ٢، ص ٢١٥.
  - (٩) ابن قاضي شهبه، تاريخ، ج ٢، ص ٥٥٦. وابن الغرات، تاريخ، ج ٩، ص ٢٩٨-٢٩٩.
  - (١٠) المصدر ذاته، ج ٢، ص ١٧٨.
  - (١١) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٨٢٦. وانظر هنتس، المكابيل، ص ٢٦-٢٧.

## ٢- المكاييل:

## ١- الأردب، والويبة:

الأردب وحدة كيل يقسم إلى عدة أقداح، تختلف بالمقادير، فلكل ناحية في الدولة قدح خاص حسب إردبها. فالمستعمل في مصر القدح المصري، وهو قدح صغير تقديره بالوزن من الحب المعتدل مائتان واثنان وثلاثون درهماً، وكل ستة عشر قدحاً تسمى ويبة، والأردب يساوي ستة وتسعين قدحاً<sup>(١)</sup>. ويبدو من رواية القلقشندي أن مقدار الأردب يختلف من منطقة إلى أخرى، ففي الوجهين القبلي والبحري أنواع مختلفة من الأردب يبلغ مقدار الأردب في بعضها إحدى عشرة ويبة وأكثر<sup>(٢)</sup>.

## ب- الغرارة والمد:

وهي وحدة كيل للفلل في بلاد الشام على غرار الأردب في مصر. وهي اثنا عشر كيلاً، وكل كيل ستة أمداد، ينقص قليلاً عن ربع ويبة بالمصري. والفرق بين الغرارة والأردب، أن كل غرارة ومد ونصف، تساوي ثلاثة أردب مصرية تحريراً على الدمشقي<sup>(٣)</sup>.

أما حلب وحمص، فإنها لا تتعامل بالغرارة كوحدة كيل للحبوب وإنما تتعامل بوحدة وزن تسمى (المكوك)، ومقداره صاع. ويساوي نصف ويبة. وبحساب ذلك فإن الغرارة تساوي مكوكين ونصف تقريباً<sup>(٤)</sup>.

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٣، ص٥١٢.

(٢) المصدر ذاته، ج٣، ص٥١٢. وانظر منتس، المكاييل، ص٥٨-٥٩.

(٣) العمري، مسالك الأبصار، ج٢، ص١٥-١٦. والقلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص١٨٨.

(٤) المصدر ذاته، ج٢، ص١٥-١٦.

يعد الذراع الوحدة الأساسية لقياس القماش في القاهرة، وطوله ذراع اليد وأربعة أصابع مطبوقة. ويزيد عليه ذراع القماش بالفسطاط. بعض الشيء، وربما زاد في بعض نواحي مصر<sup>(١)</sup>. ويستعمل الذراع لقياس أصناف أخرى غير القماش كالحصر وغيرها<sup>(٢)</sup>. ويزيد ذراع القماش في دمشق عن القاهرة بنصف سدس ذراع، أي ما يعادل قيراطاً<sup>(٣)</sup>. ويساوي ٦٢ سم<sup>(٤)</sup>.

وتتعامل غزة في قياس القماش بذراع القاهرة<sup>(٥)</sup>. وكذلك القدس<sup>(٦)</sup>، أما نيابة حلب فيزيد الذراع بها عن ذراع قماش مصر سدس ذراع، أي ما يعادل أربعة قراريط<sup>(٧)</sup>، ويساوي ٦٧,٩ سم<sup>(٨)</sup>. أما نيابة طرابلس، فإن كل عشرة أذرع من القماش فيها تساوي أحد عشر ذراعاً مصرياً<sup>(٩)</sup>. ويساوي ٦٤ سم<sup>(١٠)</sup>. وتتعامل مكة في قياس قماشها بذراع القاهرة<sup>(١١)</sup>.

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٥١٤. وهنتس، المكابيل، ص ٨٤-٨٥.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٤١٤.

(٣) المصدر ذاته، ج ٤، ص ١٨٨.

(٤) يوسف غوانمة، نيابة بيت المقدس، ص ٩٦.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٠٥.

(٦) المصدر ذاته، ج ٤، ص ٢٠٦. وهنتس، المكابيل، ص ٨٦.

(٧) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٢٣.

(٨) هنتس، المكابيل، ص ٨٥.

(٩) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٤٠.

(١٠) هنتس، المكابيل، ص ٨٦.

(١١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٨١.

ويمثل الفدان الإسلامي والرومي الوحدة الأساسية لقياس الأراضي الزراعية في مصر وبلاد الشام<sup>(١)</sup>. ويساوي أربعمئة قصبة حاكمية- نسبة إلى الحاكم بأمر الله الفاطمي-. وتقدر طول القصبه ست أذرع هاشمية، أو ما يعادل خمسة أذرع نجارية مصرية<sup>(٢)</sup>، أو ثمانية أذرع بذراع اليد ويعادل ست قبضات بقبضة رجل معتدل. وربما تقدر القصبه بباعين من رجل معتدل<sup>(٣)</sup>. وبحساب ذلك تساوي القصبه ٣,٩٩ متر<sup>(٤)</sup>. كما عرفت بعض بلاد الوجه البحري وحدة قياس أطول قليلاً من القصبه الحاكمية تعرف بالسندفاوية<sup>(٥)</sup>.-نسبة إلى بلدة سندفا بالقرب من المحلة الكبرى في مصر-<sup>(٦)</sup>.

أما الدور فتقاس بذراع العمل، وطوله ثلاثة أشبار بشير رجل معتدل<sup>(٧)</sup>. ويساوي ٦٦,٥ سم<sup>(٨)</sup>.

(١) الفلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص٥١٢، ج٤، ص٢٢٣، ٢٤٧.

(٢) ويسمى زراع النجار المصري ويساوي ٧٧,٥ سم. هننس، المكابيل، ص٩١.

(٣) الفلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص٥١٢، هننس، المكابيل، ص٩٤.

(٤) هننس، المكابيل، ص٩٤-٩٥.

(٥) الفلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص٥١٢.

(٦) أنظر ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج٢، ص٣٦٨.

(٧) الفلقشندي، صبح الأعشى، ج٢، ص٥١٢، ج٤، ص٢٤٣، ٢٤٧.

(٨) هننس، المكابيل، ص٨٩.

## الفصل الخامس

### الحياة الإجتماعية في عهد السلطان برقوق

- أ- فئات السكان:
  - ١- المماليك.
  - ٢- المتعممين.
  - ٣- عامة الشعب.
  - ٤- الأقليات الدينية:
    - أ- النصارى.
    - ب- اليهود.
  - ب- وسائل التسلية:
    - ج- المرأة في دولة المماليك.
    - د- حفلات الزواج.
    - هـ- الأعياد.
      - ١- وفاء النيل.
      - ٢- دوران الحمل.
      - ٣- المولد النبوي.
      - ٤- النيروز.
      - الخلاصة.

## الحياة الاجتماعية في عهد السلطان برقوق

تألف مجتمع دولة المماليك في مصر وبلاد الشام من فئات متعددة كالمماليك، والتجار والصناع، والمتعممين، والنوام (عامة الشعب). والأقليات الدينية كالنصارى واليهود. وعاش سلاطين دولة المماليك في مصر وبلاد الشام حياة مليئة بالحيوية والنشاط والبهذخ والترف. في حين عاش أغلب فئات المجتمع الأخرى كالمتمممين وعامة الشعب حياة البؤس والظلم والحرمان. فمارس سلاطين المماليك والأمراء نشاطات اجتماعية متنوعة للترفيه عن النفس كالألعاب الرياضية مثل: المصارعة والكرة (البولو) والشطرنج. كما شجعوا الغناء والموسيقى ومجالس الطرب. كما حظيت نساء السلاطين والأمراء وكبار الأعيان بمكانة اجتماعية في الدولة، في حين عاشت نساء عامة الشعب حياة البؤس والفقر.

واهتم مجتمع دولة المماليك بالمظاهر الاجتماعية وإقامة الاحتفالات والأعياد والمناسبات، كالاحتفال بوفاء النيل (كسر الخليج)، ودوران الحمل، وإحياء المولد النبوي الشريف، وعيد النيروز.

### أ- فئات السكان:

تألف المجتمع في دولة المماليك من فئات متعددة. فقد قسم ابن خلدون (ت ٨١٨هـ / ١٤١٥م) السكان إلى سلطان ورعية<sup>(١)</sup>. ويبدو أنه يقصد «بالسلطان» الجهاز الحاكم والفئات التي تعيش على هامشه من المصريين. أما «الرعية» فهم

(١) ابن خلدون، المقدمة، ص ١٨٢.



المصريون بجميع فئاتهم وطوائفهم<sup>(١)</sup>. في حين قسم المقريري (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) المصريين إلى سبع طوائف هي: أهل الدولة، وأهل اليسار من التجار وأولي النعمة من ذوي الرفاهية، ثم متوسطو الحال من التجار وأرباب الأسواق، ثم الفلاحون وسكان القرى والريف والفقراء وطلاب العلم وأجناد الحلقة، ثم أصحاب الحرف والصناعات، ثم الشحاذون والمستولون الذي يتكفون الناس ويعيشون منهم<sup>(٢)</sup>.

لذلك فإن مجتمع دولة المماليك مجتمع طبقي يقوم على أساس إقطاعي تسيطر عليه فئة من الحكام العسكريين (المماليك) لهم كل الامتيازات والحقوق، ويستأثرون بالأراضي الزراعية كلها، مقابل الرعاية التي اقتصر دورها على الإنتاج ودفع الضرائب والسخرة.

#### ١- المماليك:

تشكل فئة المماليك الطبقة الأولى في مجتمع دولة المماليك. حيث عاشت أثناء فترة حكمها منفصلة عما حولها من فئات المجتمع الأخرى. ولم يسمحوا لسكان مصر وبلاد الشام من الإنخراط في صفوفهم، ولم يتزوجوا منهم إلا فيما ندر<sup>(٣)</sup>. فضلاً عن أن بعض سلاطين وأمراء المماليك لم يتعلم اللغة العربية أو يتقن الحديث بها وظلت اللغة التركية التي كان أهل مملكة القرن الذهبي يتحدثون بها لغة التخاطب بينهم في البلاط المملوكي<sup>(٤)</sup>.

(١) قاسم عبده قاسم، مجتمع دولة المماليك، ص ١٦.

(٢) المقريري، إغاثة الأمة، ص ٧٢-٧٣. وأنطون ضومط، النولة المملوكية، ص ٨٥. وسعيد عاشور، المجتمع المصري، ص ١٠-١١.

(٣) علي إبراهيم حسن، مصر في العصور الوسطى، ص ٥٢٧-٥٢٨.

(٤) Ashtor, A social and Economic, p. 282.

وقد ساهمت تربية المماليك الخاصة في الطباق بصورة واضحة في عدم إندماجهم مع غيرهم من فئات المجتمع الأخرى، فكان يدخل المملوك في بداية أمره إلى الطباق فيتعلم الخط، والصلاة، والقرآن، والفقه، والمصارعة، ورمي السهام، والفروسية. ولم يسمح لهم بمغادرة الطباق<sup>(١)</sup>. إلا في فترة حكم السلطان الأشرف خليل بن قلاوون حين سمح للمماليك بالنزول من الطباق في القلعة في النهار والعودة إليها في الليل. ثم سمح لهم السلطان محمد بن قلاوون بالنزول إلى الحمامات يوماً في الأسبوع بمرافقة الخدام<sup>(٢)</sup>.

وبالرغم من عدم سماح السلطان برقوق للمماليك بالنزول من القلعة إلا بعد سنة ٧٩١هـ/ ١٣٨٨م والسكن في القاهرة والزواج من النساء المصريات<sup>(٣)</sup>. إلا أنهم ظلوا في عزلتهم الاجتماعية باعتبارهم فئة غريبة عن مجتمع مصر وبلاد الشام. ولما كانت وظائف الحكم والإدارة في أيديهم فقد جعلهم ذلك يتقدمون كأقلية عسكرية حاكمة تبتعد عن المشاركة في الحياة العامة للسكان إلا من خلال المواكب السلطانية والأعياد الدينية والعامة<sup>(٤)</sup>.

أما أبناء المماليك الذين ولدوا في مصر وبلاد الشام ولم يمسهم الرق، فقد عرفوا بأولاد الناس. وكانت مكانتهم الاجتماعية أدنى من المماليك. وغالباً ما كان أولاد الناس يبتعدون عن الحياة السياسية والعسكرية ويختارون لأنفسهم حياة السلم والدعة<sup>(٥)</sup>. وقد ساهم بعضهم في النشاط الثقافي فبرز من أولاد الناس أثناء

(١) النهروالي، الإعلام في أعلام بيت الله الحرام، ص ١٢٧. والعريني، الفارس المملوكي، ص ٥٢.

(٢) المقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٢١٢.

(٣) المصدر ذاته، ج ٢، ص ٢١٢. وسعيد عاشور، المجتمع المصري، ص ٢٣.

(٤) قاسم عبده قاسم، تاريخ مصر الاجتماعي، ص ٢٢. وانظر الفصل الثاني، تطور النظام الإداري.

(٥) قاسم عبده قاسم، تاريخ مصر الاجتماعي، ص ٢٥. وعلي إبراهيم حسن، مصر في العصور الوسطى، ص ٥٢٨.

فترة حكم السلطان برقوق عددًا من المؤرخين البارزين في تدوين التاريخ مثل صارم الدين بن دقماق<sup>(١)</sup>، والحسن بن حبيب<sup>(٢)</sup>، وتقي الدين أحمد بن علي المقرئ<sup>(٣)</sup>. وكان أولاد الناس يمضون أوقاتهم في ممارسة بعض الألعاب الرياضية مثل لعب الكرة ورمي الرمح والنشاب، والفروسية<sup>(٤)</sup>، كما انضم بعضهم إلى أجناد الحلقة ليكونوا ضمن فئات الجيش المملوكي<sup>(٥)</sup>. أما أحفاد المماليك، فكانوا يحتلون مكانة اجتماعية أدنى من مكانة أولاد الناس وسرعان ما كان المجتمع المصري يمتصهم ليذوبوا فيه بعد جيلين أو ثلاثة، فيتفاعلون مع الحياة المصرية العامة ويتعدون عن الطبقة الحاكمة<sup>(٦)</sup>.

### ٢- فئة المتعممين:

تمثل فئة المتعممين الفئة الثانية بعد المماليك، وتشكلت هذه الفئة من الفقهاء والعلماء والأدباء والكتاب وأهل التصوف وطلاب العلم<sup>(٧)</sup> والمدرسين، والقضاة والوعاظ<sup>(٨)</sup>، والمحاسبين والأئمة والقراء<sup>(٩)</sup>. واقتصرت هذه الفئة على العرب<sup>(١٠)</sup>.

- (١) ابن الفرات، تاريخ، م، ٩، ج ٢، ص ٤٠٦. وابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ١، ص ١٢٨. وانظر الفصل السادس الحياة الثقافية.
- (٢) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج ٢، ص ١١٤-١١٥.
- (٣) السخاوي، التبر المسبوك، ص ٢١. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ٢، ص ٢٢١-٢٢٢. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ٢، ص ٢٢١-٢٢٢.
- (٤) قاسم عبده قاسم، تاريخ مصر الاجتماعي، ص ٢٥.
- (٥) المقرئ، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٦٧٩.
- (٦) قاسم عبده قاسم، تاريخ مصر الاجتماعي، ص ٣٦. وسعيد عاشور، نظم الحكم والإدارة، ص ١٩٢. وكرافولسكي، العرب وإيران، ص ١٢٩.
- (٧) القلقشندي، صبيح الأعيان، ج ٤، ص ٤٢-٤٥. وابن كنان، حقائق الياسمين، ص ١٤١.
- (٨) المقرئ، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٦٩٤. ولابدوس، مدن إسلامية، ص ١٨٢. وزياد مدني، مدينة حلب، ص ٢١٥. وكرافولسكي، العرب وإيران، ص ١٢٠.
- (٩) الزرياء، الحياة الاجتماعية، ص ١٤٥.
- (١٠) المقرئ، السلوك، ج ٣، ق ١، ص ٣٩٨.

وقد لاقت فئة المتعممين عناية خاصة من قبل سلاطين دولة المماليك، فشكلت لهم نقابة خاصة أطلق عليها (نقابة المتعممين)<sup>(١)</sup> أو رئاسة المتعممين<sup>(٢)</sup>. وكان للمتعممين مركز الصدارة في مجلس السلطان في مصر، ومجالس الأمراء في نيابات السلطنة، حيث كان القضاة الأربعة يجلسون على يمين السلطان بدار العدل، ثم يليهم وكيل بيت المال، ثم ناظر الحسبة. ويجلس كاتب السر على يسار السلطان، وأمامه ناظر الجيش والموقعون بشكل دائري<sup>(٣)</sup>. أما في بلاد الشام، فقد جلس القضاة والفقهاء والعلماء في مركز الصدارة في مجلس النواب فوق الأمراء المقدمين، أما كاتب السر، وناظر الجيش فيجلسان دون الأمراء المقدمين وفوق أمراء الطبلخانة<sup>(٤)</sup>. ثم طرأ تغير على ترتيب جلوس القضاة في مجلس السلطان، حيث أصبح القاضي الشافعي والقاضي المالكي يجلسان على يمين السلطان، بينما يجلس القاضي الحنفي والقاضي الحنبلي على يساره، ويليهما القاضي المالكي في الجانب الأيمن، ثم قضاة العسكر الشافعي، ثم الحنفي، ثم المالكي، ويليهما مفتو دار العدل، ثم وكيل بيت المال، ثم محتسب القاهرة بشكل دائري<sup>(٥)</sup>.

(١) المقرئ، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٨٦٤. والحنبلي، شذرات الذهب، ج ٦، ص ٤٣.

(٢) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص ٢٩٩.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٤٦. كرافولسكي، العرب وإيران، ص ١٢.

(٤) ابن الشحنة، الدر المنتخب، ص ٢٦٠.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٦، ٢٠٢-٢٠٣. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٧٢.

وقد أسند سلاطين المماليك إلى المتعممين وظائف متعددة أهمها: القضاء<sup>(١)</sup>، ونظر الجيوش، ومشيخة الخانقاوات<sup>(٢)</sup>، والأوقاف<sup>(٣)</sup>، والحسبة<sup>(٤)</sup>، والخطابة ونظر الأحباس<sup>(٥)</sup>، ونظر الموارد الحشوية<sup>(٦)</sup>.

ولعب المتعممون دوراً هاماً في الحياة الاجتماعية، فقد كانوا يقومون بإصلاح ذات البين أثناء حدوث الفتن والثورات والمنازعات في الدولة<sup>(٧)</sup>. ويتضح ذلك من خلال محاولة وساطة قضاة القضاة في مصر بين السلطان برقوق سنة ٧٩١هـ/ ١٢٨٨م والأمير يلبغا الناصري لإنهاء الفتنة، وحقن دماء المسلمين<sup>(٨)</sup>. كما دافع عدد من المتعممين عن مصالح المسلمين وعارضوا تصرفات بعض السلاطين. فقاضي القضاة محمد بن إبراهيم المناوي (ت ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م) رفض إقراض السلطان برقوق من أموال الأيتام مادفع السلطان إلى عزله من منصبه<sup>(٩)</sup>. وتعرض بعضهم إلى التعذيب والاضطهاد والإذلال والإهانة والقتل لوقوفهم إلى جانب العامة والمطالبة بحقوقهم وإنصافهم وإنكارهم على السلطان أخذ المكوس وعدم القيام بأمر المسلمين<sup>(١٠)</sup>.

(١) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٤٨٠. وابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ١، ص ٤١٧.

(٢) ابن الفرات، تاريخ، ج ٩، ص ٣٠٩. والمقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٤٢١. وابن حجر العسقلاني، أنباء النعمان، ج ٢، ص ١٧٩-١٨١.

(٣) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٥٦٢.

(٤) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ١، ص ٤١٥.

(٥) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٨٢١. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ١٦١.

(٦) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٥٧٢.

(٧) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص ١٨٠. والمقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٤٦٢، ٥٩١.

(٨) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٥٩٨، ٦٠٣.

(٩) المقرئزي، المقفى الكبير، ج ٥، ص ٧٩-٨٠. والمقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٥٦٢.

(١٠) المقرئزي، السلوك، ج ٤، ق ٢، ص ٥٥٤.

كما كان للمتعممين دوراً بارزاً في الحياة اليومية، بسبب انتشار أنواع من المفاسد والمحرمات، فقد تصدى القضاة والعلماء والفقهاء لخروج المرأة عن الحدود الشرعية التي أقرها الإسلام، ولا سيما فيما يتعلق باللباس، فقد اعتادت النساء في مصر لبس القمصان بالأكمام النواسعة مما كان يؤدي إلى كشف جسمها من الداخل عند تشميرها الأكمام<sup>(١)</sup>. كما تصدى العلماء والفقهاء لخروج النساء إلى المتنزهات، والتراب، وشاطئ النيل للفرجة بسبب كثرة المفاسد واختلاط النساء بالرجال<sup>(٢)</sup>.

وكان للمتعممين أهمية كبيرة بالنسبة لسلطين المماليك، وتوضح هذه الأهمية في حضور القضاة والعلماء والفقهاء قراءة تعهد الخليفة تفويض السلطنة للسلطان الجديد. إذ تمثل قراءة التفويض أمام القضاة والعلماء والفقهاء تنازلاً علنياً من قبل الخليفة عن حقه الشرعي في الحكم. وإضفاء الشرعية على حكم السلطان الجديد. ويتضح ذلك من حضور القضاة وأعيان الدولة قراءة عهد الخليفة المتوكل على الله تفويض السلطان برقوق في السلطنة سنة ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م والشهادة عليه<sup>(٣)</sup>. كما حظي المتعممون من قضاة وعلماء وفقهاء باحترام الأمراء وكبار رجال الدولة وتكريمهم، فعند قدوم أحد القضاة أو العلماء أو الفقهاء لزيارة السلطان أو بعض الأمراء كان يخرج للقائه ويجلسه إلى جانبه<sup>(٤)</sup>.

ونتيجة لتقرب بعض الفقهاء والقضاة من السلاطين والأمراء المماليك، فقد اشتركوا في خلافاتهم ومنازعاتهم، وتأثروا بها، فوقف الكثير من القضاة

(١) ابن الحاج، المدخل، ج ١، ص ٢٤٣-٢٤٤. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٢٣٥.

(٢) المصدر ذاته، ج ١، ص ٢٦٧-٢٦٨. والقاضي عبد الباسط، نيل الأمل، ج ١، ورقة ١٥٧ أ.

(٣) المقرئ، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٤٤٧، ٧٠٥.

(٤) المصدر ذاته، ج ٢، ق ٢، ص ٧٧٨، ٩٤٤.

والفقهاء إلى جانب أحد المتنازعين ويتضح ذلك من الفتنة التي وقعت بين الأمير منطاش والسلطان برقوق بعد عودته ثانية إلى السلطنة سنة ٧٩٢هـ / ١٣٩٠م. فكان القاضي شهاب الدين أحمد بن عمر القرشي قاضي دمشق<sup>(١)</sup> يقف على بعض الأسوار في دمشق وينادي أن قتال برقوق أوجب من صلاة الجمعة، ويجمع العامة ويحرضهم على قتاله<sup>(٢)</sup>. كما عمل بعض القضاة على دعم أحد الأطراف المتنازعة بالأموال، كما فعل القاضي علاء الدين المقرئ مع السلطان برقوق سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٩م<sup>(٣)</sup>. على أن العلاقة لم تكن دوماً حسنة بين المتعممين والسلطين والأمراء المماليك، فقد تعرض الكثير من القضاة والفقهاء والعلماء إلى الإذلال والإهانة، ففي سنة ٧٩٢هـ / ١٣٨٠م أمر السلطان برقوق أن لا يركب أحد من المتعممين في مصر والقاهرة فرساً باستثناء الوزير وكاتب السر وناظر الخاص، ومن دونهم يركب البغال<sup>(٤)</sup>.

أما علاقة المتعممين بعضهم ببعض، فقد شابها الخلاف والبغضاء والتحاسد في بعض الأحيان<sup>(٥)</sup>. وبلغت بعض الخلافات إلى حد قذف بعض القضاة أعراض بعضهم بالفسوق والزنا<sup>(٦)</sup>، واتهام بعضهم بالكفر<sup>(٧)</sup>.

- 
- (١) أحد قضاة دمشق، وقف إلى جانب الناصري ومنطاش ضد السلطان برقوق. وعندما عاد السلطان برقوق ثانية إلى السلطنة قبض عليه ثم أمر بقتله خنقاً. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج ١، ص ٢٤٥-٢٤٦.
- (٢) المقرئ، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٧٣٧. وابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج ١، ص ٢٤٥-٢٤٦.
- (٣) ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ١، ص ٣٧٥.
- (٤) المقرئ، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٦٧٢، ٧٧٧، ٧٣٣. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٣١٧. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٤٤١.
- (٥) المقرئ، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٥٦٣.
- (٦) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٣٤٩.
- (٧) المقرئ، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٨٣٦. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٤٠١.

أما الملابس التي اعتاد المتعممون على لبسها، فكانت تختلف باختلاف مراتبهم فلباس الرأس عند القضاة والعلماء مكون من عمامة كبيرة، تسترسل منها ذؤابة بين الكتفين تصل إلى سرج الفرس إذا ركبوا<sup>(١)</sup>، والطراحة<sup>(٢)</sup>، وهي وشاح يلبس فوق العمامة ويلف حول الرقبة ويسترسل على الكتفين<sup>(٣)</sup>. ويعد الطيلسان من أكثر الملابس شبيهاً بالطراحة، وهو على نوعين: الأول قطعة مقطوعة من الوسط، والأخرى كان يعمل من قماش مقوّر، ويلبس فوق العمامة<sup>(٤)</sup>.

واعتماد المتعممون لبس الفرجية على أبدانهم<sup>(٥)</sup>، وهي ثوب من الأمام لها أزرار من أعلاه إلى نهاية طرفه<sup>(٦)</sup>. وهي على نوعين: أحدها بأكمام طويلة مزودة بفتحات من أجل التهوية، وأخرى مفرجة من الخلف<sup>(٧)</sup>. وكانت الفراجي تصنع من أقمشة متنوعة، تتناسب مع فصول السنة، ففي الشتاء اعتاد المتعممون لبس فراجي من صوف أبيض مطلي تسمى (الفوقاني) أو الجبة<sup>(٨)</sup>، وفي الصيف فرجية مصنوعة من القطن<sup>(٩)</sup>.

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٤٢-٤٤. وماير، الملابس الملوكية، ص ٩٠-٩١.

(٢) ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٦٠.

(٣) ماير، الملابس الملوكية، ص ٩٢.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٤٤. وماير، الملابس الملوكية، ص ٩٤.

(٥) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٤٤.

(٦) المصدر ذاته، ج ٤، ص ٤٤. وماير، الملابس الملوكية، ص ٩١.

(٧) المصدر ذاته، ج ٤، ص ٤٥. والمرجع ذاته، ص ٩٥.

(٨) المصدر ذاته، ج ٤، ص ٤٤.

(٩) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٨٧٥.



وجرت العادة أن لا يلبس المتعممون في المواكب السلطانية، عند لقاء بعضهم إلا الملابس البيضاء، أما الملابس الملونة فمخصصه للبيت<sup>(١)</sup>. واستمر ذلك حتى سنة ٧٩٩هـ / ١٣٩٦م حيث سمح السلطان برقوق لهم بلبس الملابس الملونة<sup>(٢)</sup>.

وكانوا يلبسون في أرجلهم الخفاف المصنوعة من الجلد بغير مهاميز. أما مراكيبهم فكانت البغال النفيسة المساوية في أثمانها الخيول المسومة، بلجُم ثقيلة وسروج مدهونة غير محلاة بالذهب أو الفضة<sup>(٣)</sup>.

### ٣- فئة عامة الشعب:

تألفت فئة عامة الشعب من التجار والحرفيين والصناع والعامّة أو العوام، والزعر، والفلاحين. وكان لكل فئة من هذه الفئات دور اجتماعي واضح في دولة المالك.

وتعد فئة التجار من أبرز فئات المجتمع التي تنتمي إلى طبقة عامة الشعب. ورغم المعلومات القليلة التي وردت عن فئة التجار، فقد تحدث المقرئزي (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) عنهم بصورة موجزة وقسمهم إلى ثلاث فئات رئيسة هي: أهل اليسار، والباعة وهم متوسطو الحال، وأدناهم السوقة، ويسمون بأصحاب المعاش<sup>(٤)</sup>. كما قسمهم الدمشقي إلى ثلاث فئات هي: التاجر الخازن، والتاجر الركّاض، والتاجر المجهز<sup>(٥)</sup>.

(١) القلقشندي، صبح الأمشى، ج ٤، ص ٤٤. والمقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٨٧٦. وماير، الملابس الملوكية، ص ٩١.

(٢) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٨٧٦. وابن حجر العسقلاني، أنباء الغر، ج ١، ص ٥٢٦.

(٣) العمري، مسالك الممالك، ص ٥١. والقلقشندي، صبح الأمشى، ج ٤، ص ٤٤.

(٤) المقرئزي، إغاثة الأمة، ص ٧٢-٧٣.

(٥) الدمشقي، الإشارة إلى محاسن التجارة، ص ٤٦-٥٠.

وقد لاقت فئة التجار اهتماماً واضحاً من قبل سلاطين المماليك. فكان لطائفة التجار رئيس يسمى «رئيس طائفة التجار»<sup>(١)</sup> يتولى الإشراف على مصالح التجار ورعايتهم، ويسمى في بعض الأحيان «شيخ التجار»، وعادة ما يكون من كبار التجار وأثريائهم<sup>(٢)</sup>. وثمة العرفاء والحراس<sup>(٣)</sup>.

وتميزت فئة التجار بإقامة علاقات واسعة مع مختلف فئات المجتمع في دولة المماليك. فقد أقام التجار علاقات واسعة مع السلاطين والأمراء، مما ساعدهم على زيادة ثرائهم، وتمكنهم من إقراض بعض السلاطين مبالغ كبيرة من الأموال. فقد استدان السلطان الناصر محمد بن قلاوون من أحد التجار مبلغ ستين ألف دينار<sup>(٤)</sup>، كما استدان السلطان برقوق سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٩م من أحد التجار الشوابكة -الناصرى- مبلغ مئة ألف دينار أثناء عودته إلى السلطة<sup>(٥)</sup>. لذلك حرصت دولة المماليك على الاهتمام بالتجار والمحافظة على أموالهم ومتاجرهم. وحين تعرضت أحد قيساريات القاهرة للسرقة من قبل أحد التجار سنة ٧٨٣هـ / ١٣٨١م ألزم والي القاهرة عريف القيسارية عدم تمكين أحد من التجار الإقامة في القيسارية إلا بعد أخذ الضمان المناسب<sup>(٦)</sup>. كما حرصت الدولة على تحذير التجار قبل حدوث الفتن والاضطرابات حتى يتمكنوا من نقل بضائعهم من الحوانيت إلى أماكن أكثر أمناً كما حدث سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٩م أثناء فتنة يلبغا الناصري ومنطاش<sup>(٧)</sup>.

- (١) المقرئزي، السلوك، ج٣، ق٢، ص٥٧١، ٥٣٩. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١١، ص٢٠٥. وابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج١، ص١٣١، ج٣، ص٤٨٤. وابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٣٦٧.
- (٢) يوسف غوانمة، نيابة بيت المقدس، ص٨٢.
- (٣) لابديوس، مدن إسلامية، ص١٦٤-١٦٥.
- (٤) الحنبلي، شذرات الذهب، ج٥، ص٤٤١.
- (٥) ابن الفرات، تاريخ، ج٩، ق٢، ص١٤٠. ومحمد عدنان البخيت، مملكة الكرك، ص٢٨.
- (٦) المقرئزي، السلوك، ج٣، ق٢، ص٤٦٨.
- (٧) المصدر ذاته، ج٢، ق٢، ص٦٢٨. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١١، ص٢٧٠، ٢٧٩.

وقد حظي التجار بوضع اجتماعي رفيع عند سلاطين المماليك والأمراء، فقربوهم إليهم، وعينوا منهم تجاراً خاصكية (تاجر السلطان)، فقد عين السلطان برقوق بعض كبار التجار تجاراً خاصكية للإشراف على مصالحه التجارية مثل جمال الدين الإسكندراني سنة ٧٨٥هـ / ١٣٨١م في الإسكندرية<sup>(١)</sup>، وجمال الدين ميخائيل الأسلمي الصبّان سنة ٧٨٨هـ / ١٣٨٦م في القاهرة<sup>(٢)</sup>. وزكي الدين أبي بكر الخروبي المصري<sup>(٣)</sup>، وبرهان الدين المحلي التاجي في اليمن<sup>(٤)</sup>.

كما تمتع التجار بمستوى معيشي عالٍ في المجتمع، حتى صاروا يظاهون في ذلك الأمراء والمماليك<sup>(٥)</sup>. فقد امتلكوا الكروم والبساتين والحدائق والأسواق والمتاجر والقيساريات والحمامات والخانات<sup>(٦)</sup>. والأموال الطائلة<sup>(٧)</sup>، وسكنوا في بيوت فخمة تشبه إلى حد كبير قصور السلاطين وكبار الأمراء، وأنفقوا على بنائها مبالغ طائلة. فقد تكلف أحد التجار في بناء بيته مبلغ خمسة آلاف دينار، وبلغت قيمة بيت آخر خمسين ألف دينار<sup>(٨)</sup>. كما امتلك بعض التجار عدداً من المماليك<sup>(٩)</sup>.

(١) المقرئزي السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٤٩٣.

(٢) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٥٤٨. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٣٧٥.

(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٣١٣. وابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ٢، ص ٤٨٤. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٣٦٧.

(٤) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٨٧٤-٨٧٥. وابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ٢، ص ٢٢٥. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٤٨٧.

(٥) لابندوس، مدن إسلامية، ص ١٩٧-١٩٨.

(٦) المرجع ذاته، ص ١٨٩.

(٧) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٤٦٠. وابن الصيرفي، نزعة النفوس، ج ١، ص ١٢٤.

(٨) حسين خصاونة، طبقات المجتمع، ص ١٠٣.

(٩) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٤٩٠.

كما اشتهرت فئة من التجار عرفت بتجار الكارمية - وهم طائفة من التجار ظهرت في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي<sup>(١)</sup> - اقتصوا بتجارة الفلفل والبهار وغيرها من السلع المستوردة من الهند وشرق أفريقيا<sup>(٢)</sup>. وقد اهتمت دولة المماليك بهذه الفئة من التجار، فعينت لهم موظفاً رسمياً يشرف عليهم ويقوم على خدمتهم يسمى «ناظر البهار والكارمي»<sup>(٣)</sup>. وقد ارتبطت هذه الفئة من التجار بعلاقات متميزة مع سلاطين المماليك، فقد لجأ بعض السلاطين إلى الاقتراض منهم، فاقترض السلطان برقوق في سنة ٧٩٦هـ/ ١٣٩٣م من عدد من التجار مبلغ (١٠٠٠٠٠٠) درهم<sup>(٤)</sup>. كما اهتم بعض تجار الكارمية بتقديم الهدايا والهبات للسلاطين والأمراء<sup>(٥)</sup>. لبقائهم على صلة دائمة معهم.

غير أن العلاقة بين تجار الكارمية والسلاطين المماليك لم تكن دوماً حسنة، فكثيراً ما تعرض هؤلاء التجار للمصادرة. ففي سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢ حاول السلطان برقوق مصادرة أموال بعض تجار الكارمية بعد وفاته مدعياً عدم وجود ورثة له<sup>(٦)</sup>. طمعاً في الحصول على ثروته الكبيرة. وطرح البضائع بأسعار تزيد بكثير عن ثمنها الأصلي مما كان يسبب لهم خسائر كبيرة<sup>(٧)</sup>.

(١) سعيد صالح، التجارة الداخلية، ص ١٧٥.

(٢) المرجع ذاته، ص ١٧٦.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٢. وابن كنان، حقائق الياسمين، ص ١٧٦.

(٤) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٨١١. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٥٥. وابن المصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٢٨٦. وأشتور، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ص ٤١٢.

(٥) سعيد صالح، التجارة الداخلية، ص ١٧٧.

(٦) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٤٦٨.

(٧) المصر ذاته، ج ٣، ق ٢، ص ٢٢٢، ٧٢١. وابن المصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ١٩٠.

أما العامة أو العوام فهم جميع سكان المدن باستثناء المتعممين وأرباب الأقاليم<sup>(١)</sup>. وقد ارتبطت هذه الفئة من المجتمع بعرفاء الحارات<sup>(٢)</sup> ووظيقتهم في أغلب الأحيان مساعدة الدولة في جمع الأموال والضرائب من العامة<sup>(٣)</sup>.

والعامة كغيرها من فئات المجتمع في دولة المماليك عانت حياة البؤس والظلم والاستبداد. ويتضح ذلك من خلال سياسة المصادرة التي كانت تفرضها الدولة دون مبرر كما حدث أثناء فترة حكم السلطان برقوق سنة ٧٩٢هـ / ١٢٨٩م<sup>(٤)</sup>.

وقد عبر العامة عن رفضهم للظلم والاستبداد بطرق مختلفة حسب ما يقع عليهم من ظلم. ففي سنة ٧٩٨هـ / ١٢٩٥م احتج عدد كبير من العامة للسلطان برقوق واستفأوا به لعدم وجود ما يأكلونه<sup>(٥)</sup>. وعندما لم تنجح وسيلة الاحتجاج في رفع الظلم عنهم كانوا يلجأون إلى المواجهة مباشرة. فعندما لم يلتزم ابن النشو أحد كبار تجار الغلال بالتسعيرة التي فرضتها الدولة على الغلال للحد من ارتفاع الأسعار قاموا برجمه وقتله وحرقه<sup>(٦)</sup>.

ورغم ذلك فقد وجد العامة في بعض الأحيان نوعاً من العدالة من قبل سلاطين المماليك. فحين استغاثت العامة بالسلطان برقوق سنة ٧٩٨هـ / ١٢٩٥م لعدم وجود ما يأكلونه أمر محتسب القاهرة بتسمير عدد من الطحانيين وتجار

(١) حياة الحجى، أحوال العامة، ص ١٦. ويوسف غوانمة، التاريخ الحضاري، ص ١٢٨.

(٢) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٦٥١.

(٣) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص ٢٧٨.

(٤) ابن قاضي شهبه، تاريخ، ج ٢، ص ١٩٢. وابن حجر العسقلاني، أنباء الفخر، ج ١، ص ٢٩٨-٢٩٩.

(٥) ابن الفرات، تاريخ، ج ٩، ص ٤٣٩.

(٦) ابن مصري، الدرّة المضيئة، ص ٢٨. وابن الفرات، تاريخ، ج ٩، ص ٤٦٤.

الغلال بسبب احتكار الغلال؛ وأمر بزيادة الخبز في الأسواق<sup>(١)</sup>. وأمر بطبخ ثلاثة قدور من الطعام وتفريقها على الفقراء. فكان يفرق على كل فقير من العامة زبديّة طعام ورغيف خبز ومن أدرك الطعام ولم يدرك الخبز كان يُعطى نصف درهم، ومن يدرك الخبز ولم يدرك الطعام يُعطى درهماً، ومن لا يدرك الطعام والخبز أعطي درهماً ونصف الدرهم<sup>(٢)</sup>. وعندما اشتد الغلاء وارتفعت أغلب أسعار السلع الأساسية كالقمح والخبز أصدر السلطان برقوق أمراً بأن يُعمل في كل يوم عشرون إردباً من القمح خبزاً يفرق على الفقراء والمساكين والحبوس في مصر والقاهرة والقرافة<sup>(٣)</sup>. كما وقف إلى جانب بعض العامة ضد ظلم واستبداد بعض ولاة الأقاليم. فعندما قدّم بعض العامة شكوى ضد والي الأشمونيين سنة ٧٩٧هـ / ١٣٩٤م عزله السلطان من منصبه وأمر بضربه بين يديه، وسلمه لوالي القاهرة حتى يخلص منه حقوق الناس<sup>(٤)</sup>.

كما كان للعامة دورٌ في الصراع بين الأمراء المماليك. فغالباً ما وقف العامة إلى جانب أحد الأطراف المتصارعة في الدولة. وقد توقف ذلك على عاملين أساسيين: أحدهما إنفاق الأموال على العامة، والآخر ميزان القوة وشكل المعاملة. ففي سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٨م وقف العامة إلى جانب الأمير يلبغا الناصري ضد السلطان برقوق بعد أن أنفق عليهم مبالغ طائلة<sup>(٥)</sup>. وحين تمكن الأمير الناصري من هزيمة السلطان برقوق وعزله من السلطنة؛ وأخذ الناصري في ممارسة مختلف

(١) ابن الفرات، تاريخ، ٩م، ج ٢، ص ٤٣٩.

(٢) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٨٥٦. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٤٢٦-٤٢٧.

(٣) ابن الفرات، تاريخ، ٩م، ج ٢، ص ٤٣٢. والمقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٨٥٧. وابن قاضي شهبة، تاريخ، ج ٢، ص ٥٧٦. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٤٩١.

(٤) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٨٢٩.

(٥) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٦٤٢-٦٤٣. وابن تفردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٣٣-٢٣٤.

أنواع الظلم والاستبداد على العامة كثر أسفهم على السلطان برقوق، ووقفوا إلى جانبه حتى يتمكن من العودة ثانية إلى السلطنة، وعبروا عن ذلك «راح برقوق وغزلانه وجاء الناصري وثيرانه»<sup>(١)</sup>.

كما استخدم بعض الأمراء والماليك العامة كوسيلة ضغط على الدولة لتحقيق مصالح ذاتية. ففي سنة ٧٩٩هـ/ ١٣٩٦م وقف العامة للسلطان برقوق وطلبوه بعزل ابن البرجي - محتسب القاهرة - بعد أن قاموا برجمه بالحجارة بتحريض من الأمير شمس الدين البجاسي بعد أن أنفق عليهم مبلغ مائتي درهم حتى يتمكن من العودة إلى منصب الحسبة في القاهرة<sup>(٢)</sup>.

أما الزعر أو الزعار فقد شكلت جماعات منظمة، انتشرت في مختلف الحارات في مصر وبلاد الشام<sup>(٣)</sup>. فكان لكل حارة زُعر يتولى قيادتهم عُرفاء يأتَمرون بأمرهم<sup>(٤)</sup>. وغالباً ما تشكلت فئات الزعار من الفقراء المعدمين<sup>(٥)</sup>، بسبب تدهور الأوضاع الاقتصادية في الدولة وازدياد العاطلين عن العمل<sup>(٦)</sup>.

وكان للزعر أهمية خاصة عند الأمراء والماليك، ولا سيما أثناء الفتن والاضطرابات الداخلية. فقد شارك الزعر إلى جانب الأمراء في صراعها على

(١) المصدر ذاته، ج ٢، ق ٢، ص ٨٢٨. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٢٢. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٢٢١.

(٢) المقرئ، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٨٧٥. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٤٦٦.

(٣) أشنور، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ص ٤١٤.

(٤) المقرئ، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٦٥٠. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٨٦. وابن طولون، مفاكهة الخلان، ص ١٩٩. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٢٠٢.

(٥) أشنور، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ص ٢٥٩.

(٦) لابنوس، مدن إسلامية، ص ٢٥٩.

السلطة. ففي سنة ٧٩١هـ/ ١٣٨٨م استدعى الأمير منطاش الزعر من مناطق متعددة من مصر وبلاد الشام إلى القاهرة من أجل الاستعانة بهم في ثورته ضد السلطان برقوق، وأنفق فيهم مبلغ ستين ألف درهم، بعد أن قسمهم إلى عدة مجموعات على رأس كل مجموعة عريف يأمرون بأمره<sup>(١)</sup>.

كما سعى السلطان برقوق نفسه إلى استمالة الزعر إليه في مواجهة ثورة الناصري ومنطاش، فدفع لبعض أمرائه المماليك مبالغ طائلة في سبيل استمالة الزعر للوقوف إلى جانبه<sup>(٢)</sup>. وعندما اختلف الناصري ومنطاش على السلطة سنة ٧٩١هـ/ ١٣٨٨م قرب منطاش الزعر إليه، وأنفق عليهم أموالاً كثيرة مما جعلهم يتفانون في خدمته والتقاط السهام التي يرمون بها جماعة الناصري ويأتون بها إلى منطاش<sup>(٣)</sup>. كما استعانت الدولة بالزعر في الحملات التي كانت ترسلها لقمع الثورات<sup>(٤)</sup>.

ورغم وقوف الزعر إلى جانب بعض الأمراء إلا أنهم كانوا يقومون بأعمال نهب بيوت العامة، وحوانيت التجار والأمراء المماليك أنفسهم، ولا سيما في أوقات الفتن والثورات<sup>(٥)</sup>. ومن أجل التخلص من فساد الزعر، قامت الدولة

(١) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٦٥٠. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٨٦. وأشتور، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ص ٤١٤.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٧٦. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ١٠٣.

(٣) ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٢٣٦.

(٤) أشتور، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، ص ٤١٤.

(٥) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٥٩٩، ٦٢٠. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٢٤٠.



بمعاقبتهم بأشد العقوبات الرادعة كالقتل<sup>(١)</sup>، والشنق<sup>(٢)</sup>، والتشهير وقطع الأيدي<sup>(٣)</sup>.  
 وحين كانت تزداد اعتداءاتهم، كانت تلجأ الدولة إلى تجريد قوات من الأمراء  
 والمماليك لملاحقتهم في الحارات والقبض عليهم وسجنهم. وعندما ازداد خطر  
 الزعر في القاهرة أصدر الوالي أمراً بملاحقة الزعر، وهدد من أخفاهم بالقتل،  
 وألزم عرفاء الحارات بملاحقتهم، فألقوا القبض على عدد كبير منهم وسجنوهم  
 بخزانة شمائل، وقطع أيدي عدد آخر وأشهرهم في القاهرة<sup>(٤)</sup>، ثم أصدر مرسوماً  
 هدد فيه الزعر بعقوبة القتل إذا حمل أحدهم سيفاً أو سكيناً أو أداة حادة<sup>(٥)</sup>.

كما ظهر إلى جانب الزعر فئات أخرى كالدعّار<sup>(٦)</sup>، وأهل الفساد<sup>(٧)</sup>، والأوغاد<sup>(٨)</sup>،  
 والأوباش<sup>(٩)</sup>، والمنسر أو الحرامية (اللصوص)، والمردان (اللوطية) الذين كانوا يأتون  
 الفاحشة. وقد وصفهم ابن صصري: «وأما المردان فما يحتاج حالهم إلى بيان، فكل  
 واحد يُحب أن يكون معشوقاً، ويتمشى في السوق على أهل الفسوق، وقد كان  
 الصبيان أحياناً من البنات، فانعكست الأمور حتى صاروا بالسقال والملابس في زي  
 العرائس، يأتون الفاحشة جهراً ولا ينكر عليهم منكر»<sup>(١٠)</sup>. غير أن الدولة لم تتفاض  
 عن هذه المفاسد وإنما أصدرت الأوامر للحد من انتشارها<sup>(١١)</sup>.

- (١) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٦٥٤. وابن قاضي شهبه، تاريخ، ج ٢، ص ٢٨٥-٢٨٦.
- (٢) ابن طولون، مفاكهة الخلان، ص ٢١٢، ٢١٤.
- (٣) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٦٥٤.
- (٤) المصدر ذاته، ج ٣، ق ٢، ص ٦٥١. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٢٢٤-٢٢٥.
- (٥) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٦٥٤.
- (٦) المصدر ذاته، ج ٣، ق ٢، ص ٥٩٩. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ١٩٤، ١٩٧.
- (٧) المصدر ذاته، ج ٣، ق ٢، ص ٦٢٠.
- (٨) المصدر ذاته، ج ٣، ق ٢، ص ٨٧٥.
- (٩) ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٢٠٦.
- (١٠) ابن صصري، الدرة المضيئة، ص ١٦٤. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٩٢.
- (١١) حياة الحجى، أحوال العامة، ص ٢٤٩.

أما الفلاحون فقد شكلوا أغلب سكان البلاد؛ وانتشروا في السهول والأودية والجبال، ليتمكنوا من الاستفادة من الأرض وزراعتها<sup>(١)</sup>. وقد أشار ابن شاهين (ت ٨٧٢هـ / ١٢٦٨م) إلى بعض الأماكن التي كان تنتشر فيها أعداد كبيرة من الفلاحين وأعطانا إحصائية لأعداد القرى الموجودة في مصر وبلاد الشام. فقد أشار على سبيل المثال إلى وجود ما يزيد على ثلاثين قرية في عمل منفلوط في مصر<sup>(٢)</sup>، ونحو ثلاثين قرية تابعة لأربعة مدن رئيسية في إقليم الغربية يبلغ خراج كل قرية منها اثني عشر ألف دينار في السنة. أما العدد الإجمالي لقرى إقليم الغربية فقد كان يزيد على خمسمائة وأربعين قرية<sup>(٣)</sup>. أما في بلاد الشام فيذكر أن في المملكة الطرابلسية ما يزيد على ثلاثة آلاف قرية<sup>(٤)</sup>، وفي صغد ألفاً ومائتي قرية<sup>(٥)</sup>، وفي نابلس نحو ثلاثة آلاف قرية<sup>(٦)</sup>.

ورغم أعداد القرى الكبيرة التي أشار إليها ابن شاهين غير أن الفلاحين كانوا لا يملكون هذه الأراضي؛ لاعتماد دولة المماليك على النظام الإقطاعي. حيث كانت الأراضي الزراعية توزع من قبل دولة المماليك بين السلطان والأمراء المماليك كإقطاعيات يستفدون من ناتجها بعد أن يزرعها الفلاحون، ويأخذون حصتهم من المحصول<sup>(٧)</sup>. وخصص للجيش بأكمله أربعة عشر قيراطاً وللسلطان أربعة قيراطين، وجعل لمن يتضرر من الأمراء من قلة ناتج إقطاعه قيراطاً<sup>(٨)</sup>.

(١) يوسف غوانمة، التاريخ الحضاري، ص ١٠٤-١٠٥.

(٢) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ٢٥.

(٣) المصدر ذاته، ص ٣٥.

(٤) المصدر ذاته، ص ٤٨.

(٥) المصدر ذاته، ص ٤٤.

(٦) المصدر ذاته، ص ٤٦.

(٧) الصليبي، تاريخ لبنان، ص ١٤٠.

(٨) المقرئ، السلوك، ج ١، ق ٣، ص ٨٤٢-٨٤٦. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ٩٢-٩٣.

وقد قسمت الأراضي الزراعية في دولة المماليك إلى ثلاثة أقسام رئيسية من حيث الري والخصوبة ووفرة الإنتاج. القسم الأول، وهو أجود الأراضي الإقطاعية إنتاجاً ويختص بها السلطان وكبار الأمراء على قدر مكانتهم ورتبهم.

وقد تراوحت حصة الأمير من الأراضي المقطعة ما بين قرية وعشرة قرى. ويسمى هذا النوع من الأراضي البلاد النفيسة. أما القسم الثاني فهو الأراضي المتوسطة الجودة، وتقطع للمماليك السلطانية. حيث يشترك اثنان أو أكثر في القرية، ومنهم من ينفرد بقرية واحدة. أما القسم الثالث فهو ما يقطع لفئة أجناد الحلقة والعربان والتركمان<sup>(١)</sup>.

وقد اتسمت حياة الفلاح في مصر وبلاد الشام في ظل حكم سلاطين المماليك بغيرهم من فئات عامة الشعب باليأس والظلم والاستبداد والكفاف. فكثيراً ما تعرض الفلاحون إلى تسلط السلاطين والأمراء والمماليك. وقد وصف ابن طولون طبيعة العلاقة التي تربط المماليك بالفلاحين بالظلم والاستبداد ونظرة الاستعلاء؛ فيذكر: «فلو شاء الله تعالى لقلب الفلاح جندياً والجندي فلاحاً، فإذا كان شكر نعمة الله على أن رفعه عن درجة الفلاحين فلا أقل من أن يكفي الفلاح شره وظلمه»<sup>(٢)</sup>. وقد استخدم الأمراء والمماليك أساليب متنوعة في الظلم والاستبداد على الفلاحين كأخذ أموالهم<sup>(٣)</sup>. وإلى تعرضهم لعمليات السبي والقتل أثناء حركات التمرد والعصيان كما حدث سنة ٧٩١هـ/١٣٨٨م أثناء عودة السلطان برقوق إلى الحكم<sup>(٤)</sup>.

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤٥٣-٤٥٤. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٤٩-٥٠.

(٢) ابن طولون، نقد الطالب لزعل المناصب، ص ٦٩.

(٣) ابن الفرات، تاريخ، م ٩، ج ٢، ص ٣٣٥. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٣٥٩.

(٤) ابن مصري، الدرر المضيئة، ص ٣٠.

وقد ترتب على ظلم الممالك واستبدادهم أن تركت أعداد كبيرة من الفلاحين قراهم والهجرة إلى المدينة سواء للعمل أو الحصول على ما يتصدق به السلطان وبعض الأمراء على الفقراء والمحتاجين، مما أدى إلى اكتظاظ بعض المدن بأعداد كبيرة من الفلاحين مما دفع الدولة إلى إعادتهم قسراً إلى قراهم وتهديد من يرفض بالقتل<sup>(١)</sup>. وذلك بسبب خراب الأراضي الإقطاعية التي تعتمد عليها الدولة في النفقة على الممالك<sup>(٢)</sup>.

## ٤- الأقليات الدينية:

### ١- النصارى:

كانت فئة النصارى تنتشر في مختلف أنحاء مصر وبلاد الشام، كالإسكندرية<sup>(٣)</sup>، والقاهرة، وأسيوط<sup>(٤)</sup>، وجرجا<sup>(٥)</sup>، والخيّام<sup>(٦)</sup>، والصعيد<sup>(٧)</sup>، والقدس<sup>(٨)</sup>، والكرك<sup>(٩)</sup>، والشوبك<sup>(١٠)</sup>. وأغلب النصارى كانوا يتبعون لطائفة الملكية وطائفة اليعاقبة<sup>(١١)</sup>.

(١) ابن صمري، الدرّة المغيثة، ص ٥.

(٢) المقرئ، الخطط، ج ١، ص ١٩٠.

(٣) ليون الأفريقي، وصف أفريقيا، ص ٥٧٣.

(٤) المصدر ذاته، ص ٦١١-٦١٢.

(٥) جرجا كانت ديراً نصرانياً كبيراً، وكانت محاطة بأرض زراعية واسعة تضم أكثر من مائتي راهب، وكانت عاداتهم إطعام الغرباء، وكان ما يزيد عن حاجتهم يرسلونه إلى بطرك القاهرة ليوزعه على فقراء النصارى. ليون الأفريقي، وصف أفريقيا، ص ٦١٣.

(٦) الخيام مدينة صغيرة مبنية على النيل معظم سكانها من النصارى اليعاقبة وهم جميعاً يعملون في الزراعة وتربية الحيوانات. ليون الأفريقي، وصف أفريقيا، ص ٦١٤.

(٧) ابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص ٣٣.

(٨) يوسف غوانمة، التاريخ الحضاري، ص ١٢٠.

(٩) محمد عدنان البخيت، مملكة الكرك، ص ٣٧.

(١٠) ابن الفرات، تاريخ، م ٩، ج ٢، ص ١٤٠.

(١١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٠١، ج ١٢، ص ٣٨٧.

وكان للنصارى في مصر وبلاد الشام بطرکان: بطرك لطائفة الملكية، وآخر لطائفة اليعاقبة، وكل منهما يختص بالنصارى التابعين له في الدولة، وإليه مرجعهم في التحليل والتحريم، والحكم بينهم، بما أنزل في الشريعة العيسوية، فضلاً عن الكنائس والأديرة، والرهبان<sup>(١)</sup>. ويعد البطرک المسؤول أمام السلطان عن تصرفات أبناء طائفته، والوسيط بينهم وبين الدولة. وكانت كل طائفة تختار بطركها دون تدخل من قبل السلطان<sup>(٢)</sup>. إلا في حالات استثنائية عند حدوث نزاعات حول انتخاب البطرک، ولا سيما بعد شيوع بيع المناصب الكنسية من قبل رجال الدين والقساوسة<sup>(٣)</sup>.

وكان قرار تعيين البطرک (مرسوم التولية) يصدر في أغلب الأحيان عن النائب وأحياناً عن السلطان مباشرة، تثبيتاً للبطرك المنتخب واعترافاً من الدولة به<sup>(٤)</sup>. وهذا يشير إلى أن دولة المماليك تعتبر البطرک موظفاً رسمياً لديها. وكان يتضمن قرار التعيين في أغلب الأحيان موقف دولة المماليك من أهل الذمة عامة، وموقفها من الطائفة نفسها<sup>(٥)</sup>. فضلاً عن تحديد مهام البطرک، والوصايا التي يجب أن يلتزم بها كترك الشهوات، والتقشف في المأكل والمشرب، وترك الزواج والنكاح، والاشتغال بالعبادة<sup>(٦)</sup>.

- 
- (١) العمري، التعريف، ص ١٤٤. والقلقشندي، صبح الأعشى، ج ١١، ص ٢٨٨، ٢٩٠. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٤٤٦. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٩، ص ٤٤٦.
- (٢) نقولا زيادة، دمشق في عصر المماليك، ص ١٦٤. وسعيد عاشور، الحياة الاجتماعية، ص ٩٦.
- (٣) أرنولد، الدعوة إلى الإسلام، ص ١٢٨.
- (٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١٢، ص ٥.
- (٥) المصدر ذاته، ج ١١، ص ٢٩٥.
- (٦) العمري، التعريف، ص ١٤٥. والقلقشندي، صبح الأعشى، ج ١١، ص ٢٩٤.

وقد أضيف سلاطين دولة المماليك ألقاباً خاصة على البطارقة احتراماً وتقديراً لهم مثل الشيخ الرئيس، والمبجل، والمكرم، والقديس، وعماد بني المعمودية<sup>(١)</sup>، مجلس القسيس الخليل الروحاني<sup>(٢)</sup>.

وقد ارتبطت طوائف النصاري في أغلب الأحيان بعلاقات حسنة مع المماليك، ويشاركوا في مختلف نشاطات الحياة اليومية، فقد اعتمد السلطان برقوق عليهم في إدارة الدولة وتنظيمها. فالوزير صاحب شمس الدين إبراهيم<sup>(٣)</sup> خدم في دواوين الأمراء المماليك، وتعلق بخدمة السلطان برقوق عندما كان أميراً في فترة حكم السلطان حاجي. وولاه نظره الخاص. ولما تولى السلطنة سنة ٧٨٤هـ/ ١٢٨٢م ولاه الوزارة في مصر. «فنفذ الأمور ومشى الأحوال أحسن تمشية، مع الغاية في وفرة الحرمة»<sup>(٤)</sup>. كما شغل ميخائيل الصبان منصب نظر المتجر السلطاني سنة ٧٨٨هـ/ ١٣٥٦م<sup>(٥)</sup>. وتاج الدين عبد الرزاق بن أبي الفرج بن نقولا الأرمني الأسلمي والتي قطيا سنة ٧٩٢هـ/ ١٣٨٩م وزيراً في مصر<sup>(٦)</sup>.

كما وقف عدد كبير من النصاري إلى جانب بعض سلاطين دولة المماليك أثناء الفتن والصراعات الداخلية، ففي سنة ٧٩١هـ/ ١٣٨٨م منح أحد تجار الشوبك النصاري للسلطان برقوق مبلغ مئة ألف دينار دعماً لمواجهة ثورة النصاري

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١١، ص ٢٩١.

(٢) ترتون، أهل الذمة، ص ١٦١.

(٣) أصله من نصاري مصر، وقد أظهر الإسلام. يعرف بكتاب أرلان توفي سنة ٧٨٩هـ/ ١٣٨٧م. المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٥٦٩. وابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ١، ص ٧٤.

(٤) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٥٦٩. وابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ١، ص ٧٤-٧٥.

(٥) المصدر ذاته، ج ٣، ق ٢، ص ٢٥٦.

(٦) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٩٨.

ومنتاش<sup>(١)</sup>. وعندما تمكن السلطان برقوق من التغلب على الناصري سنة ٧٩٢هـ/ ١٣٨٩م خرج أغلب أهل الذمة من يهود ونصارى من الدور حاملين التوراة والإنجيل، ومعهم الشموع المضيئة دعماً وتأييداً له<sup>(٢)</sup>. وحين تغلب على الأمير منتاش ونودي بالأمان والاطمئنان والدعاء للسلطان برقوق «فرح غالب المسلمين وأهل الذمة فرحاً عظيماً لزوال الدولة المنطاشية في مصر»<sup>(٣)</sup>.

كما وجد النصارى الدعم والنصرة من قبل السلاطين وبعض الأمراء المماليك. ففي سنة ٧٩٣هـ/ ١٣٩١م أصدر السلطان برقوق أمراً بالقبض على الأمير ناصر الدين محمد بن أقبغا أص شاد الدواوين، وضربه وصادره بمبلغ أربعمئة ألف درهم بسبب قطع مصانعة نصارى الشوبك ومصادرتهم مبلغ عشرة آلاف درهم<sup>(٤)</sup>. وعندما اشتكى أحد نصارى مصر على شمس الدين محمد بن الشهاب الدفري- أحد نواب قضاة المالكية- بالقاهرة قام السلطان برقوق بضرب نائب القاضي وهو مبطوح على الأرض، ثم أمر بحبسه حتى يخلص منه النصراني<sup>(٥)</sup>.

أما علاقة النصارى بعامّة الناس؛ فلم تكن يوماً حسنة. فقد وقعت حوادث وصدامات متعددة بينهم. ولم تستطع دولة المماليك إغفالها أو السكوت عنها سواء كان إجراءً تأديبياً على الأفعال التي ارتكبوها أو استجابةً لخواطر المسلمين. ففي سنة ٧٨٥هـ/ ١٣٨٣م اعتدى بعض نصارى ناحية برما بالغربية على أحد المؤذنين

(١) ابن الفرات، تاريخ، م، ٩، ج ٢، ص ١٤٠. محمد عدنان البخيت، مملكة الكرك، ص ٢٨. يوسف غوانمة، التاريخ الحضاري، ص ١٤٢.

(٢) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٧٠٤-٧٠٥. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٢-٣. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٢٩٤-٢٩٥. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٢٩٤.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٢٩٠.

(٤) ابن الفرات، تاريخ، م، ٩، ج ٢، ص ٢٦٠.

(٥) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٨٣٠.

عندما صعد على المنارة ليسبح الله، وسيوه وأهانوه وأنزلوه عن المنارة. وعندما حاول خطيب الناحية تخليصه أرادوا قتله<sup>(١)</sup>، فأمر السلطان برقوق بالقبض عليهم ومحاكمتهم، وحكم القضاة بضرب أعناقهم<sup>(٢)</sup>. وفي سنة ٧٩٥هـ / ١٣٩٢م قتل عدد من المسلمين أربعة رهبان من نصارى مدينة القدس وأحرقوهم بالنار بسبب ذمهم الدين الإسلامي، واتهام الرسول محمد صلى الله عليه وسلم بالسحر والكذب<sup>(٣)</sup>.

أما علاقة النصارى بالدولة، فقد شابها في بعض الأحيان سوء في العلاقة بسبب عدم التزام بعض النصارى بالعهود المبرمة مع الدولة؛ ولا سيما فيما يتعلق بترميم الكنائس. فعندما جدد النصارى بعض الأبنية بالكنيسة المعلقة بقصر الشمع سنة ٧٨٦هـ / ١٢٨٤م أصدر السلطان برقوق أمراً بهدم ما استجد فيها من أبنية<sup>(٤)</sup>.

كما تعرض النصارى كغيرهم من فئات المجتمع في دولة المماليك إلى الظلم والاستبداد والمصادرة والقتل. ففي سنة ٧٨٩هـ / ١٣٨٧م أصدر السلطان برقوق أمراً بعزل ميخائيل الصبان من منصبه وقتله بسبب سعاية أهل الإسكندرية ودفع مبلغاً كبيراً لعدد من الشهود لإثبات زندقته<sup>(٥)</sup>. كما صادر الوزير علم الدين بن عبد الوهاب بن القسيس سنة ٧٩٠هـ / ١٣٨٨م وألزمه بدفع مبلغ

(١) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٤٩٢. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٦٧-٦٨.

(٢) ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٦٩.

(٣) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٧٩٢. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٣٦٧-٣٦٨.

(٤) المصدر ذاته، ج ٣، ق ٢، ص ٥١٨. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٩٨. وانظر نسخة توقيع لبطرك الكرك الملكية. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١١، ص ٢٨٧.

(٥) ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ١٥٢.



ثلاثمائة ألف درهم<sup>(١)</sup>. وأجبر الوزير فخر الدين بن مكانس على بيع جميع ممتلكاته للوفاء بالمبلغ الذي قرره السلطان بعد مصادرتة<sup>(٢)</sup>. وعندما استولى الأمير منطاش على السلطة سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٩م قبض على بطرك النصاري وألزمه بدفع مبلغ من المال<sup>(٣)</sup>.

وكان للنصاري في مصر وبلاد الشام مشاركة واضحة في مختلف فعاليات الحياة اليومية. فقد امتهن بعض النصاري التجارة والصناعة<sup>(٤)</sup>، والزراعة، وتربية الحيوانات كالدواجن والأرز والحمام<sup>(٥)</sup>، ومهر عدد كبير من النصاري بصناعة البسط الحريرية والصوفية، فقد تركزت صناعة البسط في المناطق التي يكثر فيها النصاري، فاشتهرت الشوبك والكرك بصناعة أجود أنواع البسط. ففي سنة ٧٨٧هـ / ١٣٨٥م وصلت أعداد من البسط الكركية إلى القاهرة لفرش دار العدل بقلعة الجبل<sup>(٦)</sup>. كما برز عدد كبير من النصاري في مجال الأدب والشعر، وتقلدوا المناصب الإدارية الرفيعة في الدولة مثل الوزير فخر الدين عبد الرحمن بن شمس الدين بن مكانس القبطي (ت ٧٩٤هـ / ١٣٩١م)<sup>(٧)</sup>.

(١) المقرئزي، السلوك، ج٣، ق٢، ص٥٨٣.

(٢) المصدر ذاته، ج٣، ق٢، ص٧٧٨. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٢، ص١٣١.

(٣) ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج١، ص٢٦٧.

(٤) ابن الفرات، تاريخ، م٩، ج٢، ص١٤٠. وليون الأفريقي، وصف أفريقيا، ص٥٧٣. ومحمد عدنان البخيت، مملكة الكرك، ص٢٨.

(٥) ليون الأفريقي، وصف أفريقيا، ص٦١٤.

(٦) المقرئزي، السلوك، ج٣، ق٢، ص٥٣٠. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج١، ص١١٤.

(٧) المصدر ذاته، ج٣، ق٢، ص٧٧٨. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٢، ص١٣١.

عاش اليهود في دولة المماليك كإقليات في بعض مدن مصر وبلاد الشام كالقاهرة<sup>(١)</sup>، ودمشق<sup>(٢)</sup>، والقدس<sup>(٣)</sup>، ونابلس<sup>(٤)</sup>. ويذكر الرحالة جان ليون الأفريقي (ت ٩٥٧هـ / ١٥٥٠م) أن لليهود في القاهرة حياً كاملاً يبدأ من باب النصر حتى باب زويلة<sup>(٥)</sup>. ويقسم اليهود إلى ثلاث طوائف وهم الرّبانيون، والقراؤون، والسامرة<sup>(٦)</sup>.

وكان لليهود في مصر وبلاد الشام ثلاثة رؤساء: رئيس للرّبانيين، ورئيس للقرائين، وآخر للسامرة. وقد جرت العادة أن يكون رئيس طائفة الرّبانيين رئيساً على الطوائف الثلاث في مصر. إذ يتولى الحكم عليهم، والقضاء بينهم بمقتضى الدين اليهودي<sup>(٧)</sup>. باعتبارها أكبر الطوائف اليهودية<sup>(٨)</sup>. أما رئيس السامرة فكان يقيم في مدينة نابلس التي هي أعظم المدن عندهم، وله نائب يقيم في مدينة دمشق<sup>(٩)</sup>.

(١) المقرئبي، الخطط، ج ٢، ص ٤٧١.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٠١.

(٣) الحنبلي، الأنس الجليل، ج ٢، ص ٥٢، ٥٦. ويوسف غوانمة، تاريخ نيابة بيت المقدس، ص ١٢٢.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٠١.

(٥) ليون الأفريقي، وصف أفريقيا، ص ٥٧٩، ٥٨١.

(٦) المقرئبي، الخطط، ج ٢، ص ٤٧٦. والقلقشندي، صبح الأعشى، ج ١١، ص ٢٧٩.

(٧) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١١، ص ٢٧٨-٢٧٩.

(٨) المصدر ذاته، ج ١١، ص ٢٨١. قاسم عبده قاسم، أهل النعمة، ص ١٢٣-١٢٤.

(٩) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٤، ص ٢٠١. ونقولا زيادة، دمشق، ص ١٦٤.

ويعد رئيس اليهود المسؤول المباشر أمام السلطان عن أبناء الطوائف اليهودية الثلاث<sup>(١)</sup>. وكان قرار تولية رئيس اليهود يصدر في بعض الأحيان من النواب، وأحياناً من السلطان مباشرة<sup>(٢)</sup>. إذ يحدد قرار التولية موقف دولة الممالك من أهل الذمة بشكل عام ومن اليهود بشكل خاص، ويحدد موقف الدولة من كل طائفة على حدة<sup>(٣)</sup>.

والمعلومات التي توردها المصادر عن اليهود الذين كانوا يسكنون في مصر وبلاد الشام قليلة جداً. وقد أشارت إليهم بعض المصادر ووصفتهم بأهل الذمة مقترباً ذلك مع النصارى<sup>(٤)</sup>.

وامتتهن اليهود في دولة الممالك مهناً متعددة كالصرافة وسك النقود، والصياغة، والتجارة، والدباغة، وصناعة المنسوجات الصوفية، وعملوا أدلاء سياحيين أو مترجمين لمصاحبة الحجاج المسيحيين أثناء زيارتهم للأماكن المقدسة، كما قاموا بأعمال الخياطة وصنع الأحذية، واحترف بعضهم صناعة الزجاج<sup>(٥)</sup>.

وكانت المعاملات القانونية لأهل الذمة من بيع وشراء ورهن ودين تتم أمام أحد قضاة المسلمين. وكان الشهود في بعض الأحيان من المسلمين، وفي أحيان أخرى

(١) القلقشندي، صبح الأمشى، ج ١١، ص ٣٧٩.

(٢) المصدر ذاته، ج ١٢، ص ٥.

Popper, Egypt and Syria, vol. 1, p. 109.

(٣) القلقشندي، صبح الأمشى، ج ٤، ص ٢٠١.

(٤) ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٢٦٧.

(٥) الحنبلي، الأئس الجليل، ج ١، ص ٢٠٥. وقاسم عبده قاسم، أهل الذمة، ص ٨٦-٨٧. وترتون، أهل الذمة، ص ١٠٠-١٠١. وعلي السيد، القدس في العصر المملوكي، ص ١٠٢.

من أهل الذمة<sup>(١)</sup>. وفي حالة إخلال أحدهم بشروط البيع والشراء كان يمنع من ممارسة المهنة. ففي وثيقة بتاريخ ٢٦ جمادى الأولى سنة ٧٩٦هـ / ٣٠ آذار، مارس ١٣٩٢م منع ثلاثة من قصابي اليهود في القدس بعدم ذبح ذبائح للمسلمين لإخلالهم بشروط الذبح<sup>(٢)</sup>.

أما علاقة الدولة مع اليهود فلم تكن دوماً حسنة. فقد تعرض اليهود كغيرهم من فئات مجتمع دولة المماليك إلى ظلم واستبداد الأمراء. ففي سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٨م صادر الأمير منطاش من رئيس اليهود في القاهرة مبلغ خمسين ألف درهم لتغطية نفقات عساكره أثناء ثورته ضد السلطان برقوق<sup>(٣)</sup>. على أن اليهود ليسوا دوماً هم المعتدى عليهم. ففي سنة ٧٩٤هـ / ١٣٩١م أحرق بعض اليهود أحد المساجد في مدينة دمشق، فصدر مرسوم السلطان برقوق بتغريمهم مبلغ مائة ألف درهم، وإخراجهم من المدينة، وإنشاء مسجد مكان كنيسهم<sup>(٤)</sup>.

غير أن الأقليات اليهودية في مصر وبلاد الشام لم تكن بمعزل عن الأحداث اليومية في الدولة. ففي سنة ٧٩٢هـ / ١٣٨٩م شارك اليهود والنصارى في استقبال السلطان برقوق احتفاءً بعودته إلى مصر بعد تمكنه من القضاء على ثورة الناصري حاملين التوراة والإنجيل ومعهم الشموع المضيئة<sup>(٥)</sup>. كما أظهروا الفرح والسرور عندما تمكن السلطان برقوق من القضاء على منطاش في مصر<sup>(٦)</sup>.

(١) عبد اللطيف إبراهيم، وثائق فقهية، ص ٩٧-١٠٠.

(٢) كامل العسلي، وثائق مقدسية، ص ٧٨.

(٣) ابن الصيرفي، نزعة النفوس، ج ١، ص ٢٦٧.

(٤) ابن مصري، الدرر المضيئة، ص ١٢٦-١٢٧.

(٥) المقرئ، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٧٠٤-٧٠٥. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ٢-٣. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٢٩٤.

(٦) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٢٩.

## ب- وسائل التسلية:

تمثلت وسائل التسلية والترفيه عن النفس في فترة حكم سلاطين دولة المماليك بممارسة أنواع مختلفة من الألعاب الرياضية كلعب الكرة، ورمي الرمح، والمصارعة؛ كونها من المهارات القتالية التي تتناسب وطبيعة التربية العسكرية للمماليك. والاهتمام بالغناء والاستماع إلى الآلات الموسيقية.

وتعد لعبة الكرة أو الأكرة<sup>(١)</sup> من أشهر الألعاب الرياضية التي كان يقوم بممارستها السلاطين والأمراء<sup>(٢)</sup> حيث خصصوا لهذه اللعبة ميداناً خاصاً وأوقاتاً محددة تلعب فيها<sup>(٣)</sup>، وعينوا موظفاً رسمياً للإشراف عليها يسمى الجوكندار الذي كان يتولى حمل الجوكان، وهي عصا طويلة معكوفة في رأسها خشبية محدبة يتم فيها ضرب الكرة<sup>(٤)</sup>. وقد بلغ اهتمام السلطان برقوق بهذه اللعبة أنه كان يلعبها مع كبار الأمراء في ميدان القلعة بالقاهرة<sup>(٥)</sup>. حيث جرت عادته أن يلعب الكرة في أول شهر رجب من كل عام<sup>(٦)</sup>.

كما شجع المماليك لعب الرمح باعتبار ذلك من الفنون القتالية. ففي سنة ٧٨٩هـ / ١٣٨٥م لعب السلطان برقوق بالرمح «وألزم المماليك بذلك فاستمره»<sup>(٧)</sup>.

(١) تعرف بلعبة البول في الوقت الحاضر.

(٢) المقرئزي، السلوك، ج٣، ق٢، ص٥١٨. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج١، ص٩٩، ١٢٧.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٤٨. والمقرئزي، الخطط، ج٢، ص٢٢٨.

(٤) ابن كنان، حداثق الياسمين، ص١٢٨-١٢٩.

(٥) المقرئزي، السلوك، ج٣، ق٢، ص٥٨١. والمقرئزي، الخطط، ج٢، ص٢٢٨-٢٢٩.

(٦) المصدر ذاته، ج٣، ق٢، ص٥١٨. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج١، ص٩٩.

(٧) المقرئزي، السلوك، ج٣، ق٢، ص٥٦١. والسخاوي، وجيز الكلام، ج١، ص٢٨١.

فبرز عدد من المماليك في هذه اللعبة، وأصبحوا معلمين ومدربين في رمي الرمح مثل الأمير جوبان بن عبد الله الظاهري<sup>(١)</sup>. والأمير سيف الدين الطنبغا الظاهري<sup>(٢)</sup>.

ومن الألعاب الأخرى التي اهتم بها المماليك المصارعة. وبرع فيها عدد من الأمراء والمماليك مثل الأمير جهاركس المصارع الذي أصبح معلماً فيها<sup>(٣)</sup>.

كما اهتم المماليك بالغناء كوسيلة للتسلية والترفيه عن النفس، فكانوا يقومون بعقد مجالس للأنس والطرب<sup>(٤)</sup>، مما أدى إلى ظهور عدد كبير من المغنين والعازفين على الآلات الموسيقية في ذلك الوقت<sup>(٥)</sup>. فالسلطان برقوق اهتم بالطرب والمغنين، وأغدق عليهم أموالاً طائلة، فقد دفع لسليمان المصري المادح<sup>(٦)</sup> مبلغ ألف درهم لإلقائه بعض المدائح أثناء الاحتفال بالمولد النبوي الشريف<sup>(٧)</sup>. وبرز من العازفين على آلة القانون؛ الشيخ بدر الدين الدمشقي (ت ٨٠٠هـ / ١٣٩٧م) وقد قال فيه بعض الشعراء:

غنى على القانون غداً      من الطرب يهز عطف الجليس  
وأوى قلوب من عليل الأسى      وكان فيها من هواه رسيس

- (١) من مماليك السلطان برقوق الخاصكية، برع في لعب الرمح حتى انتهت إليه الرئاسة في تعليم الرمح. ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ٥، ص ٣٦.
- (٢) سيف الدين الطنبغا الظاهري برقوق يعرف باللفاف وهو أحد مقدمي الألوف. وأحد معلمي لعب الرمح. ابن تغري بردي، حوادث الدهور، ج ٢، ص ٣٩١.
- (٣) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ٤، ص ٢٠٩.
- (٤) البقلي، الطرب، ص ٦٥.
- (٥) المرجع نفسه، ص ١٦.
- (٦) سليمان القرافي المصري المادح، كان رئيس أهل صناعته في المدح والغناء. توفي سنة ٧٩٠هـ / ١٣٨٨م. ابن قاضي شهبه، تاريخ، ج ٣، ص ٢٥٥.
- (٧) المقرئ، اسلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٥٧٦. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ١٦٩.

فصاحت الجُلاس عجباً به يا صاحب القانون أنت الرئيس<sup>(١)</sup>

كما اهتم عامة الناس في مصر وبلاد الشام بالغناء والطرب، وكانوا يستقدمون المغنيات في أفراح الزواج والختان، مقابل مبلغ معين من المال. وفرضت دولة المماليك على ذلك ضريبة عرفت (بضريبة المغاني). وظلت هذه الضريبة مفروضة في مصر وبلاد الشام في كل من منية ابن خصيب، وأعمال الأشمونيين، وزفتة، ومنية غمر، والكرك والشوبك حتى ألغاه السلطان برقوق سنة ٧٩١هـ/ ١٣٨٨م<sup>(٢)</sup>.

### ج- المرأة في دولة المماليك:

تمتعت المرأة في دولة المماليك بالاحترام والتقدير. فالمماليك نظروا إلى نسانهم نظرة إجلال وتقدير واحترام، وقد تمثل ذلك بإضفاء ألقاب التشريف على نسانهم كلقب خوند<sup>(٣)</sup> وخاتون<sup>(٤)</sup>. كما أضفوا عليهن في مكاتباتهم عبارات الاحترام والتبجيل. ويتضح ذلك في مكاتبات السلاطين لبناتهم وزوجاتهم وأخواتهم<sup>(٥)</sup>.

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٥٠١.

(٢) المقرئ، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٦١٧. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ١١٢.

(٣) الخوند وتعني السيدة. المقرئ، الخطط، ج ٢، ص ٤٢٦. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٨، ص ٢٠.

(٤) خاتون: كلمة تركية تعني النساء الجليلات. القلقشندي، صبح الأمشى، ج ٦، ص ١٧١. وابن تغري بردي، حوادث الدهور، ج ١، ص ٢٥٧.

(٥) القلقشندي، صبح الأمشى، ج ٧، ص ١٨٤. وسعيد عاشور، نساء القاهرة، ج ٢، ص ٥٦٥-٥٦٦.

وقد شاركت المرأة في دولة المماليك في الحياة السياسية مشاركة فعالة. ففي سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م تولت شجر الدر السلطنة في مصر وخطب لها يوم الجمعة على منابر مصر والقاهرة ونُقش اسمها على السكة<sup>(١)</sup>. كما شاركت المرأة في الحياة العلمية والدينية، وقد ذكرت المصادر التاريخية أسماء كثيرات ممن اشتغلن بالنحو والشعر والفقه والحديث، فكانت على سبيل المثال ملكة بنت الشرف عبد الله بن الغر إبراهيم بن عبد الله بن أبي عمر المقدسية (ت ٨٠٢هـ / ١٣٩٩م) من النساء اللواتي عملن في مجال الحديث وأخذت إجازة في الحديث من المحدث إسحاق الأمدى وغيره<sup>(٢)</sup>.

كما تمتعت المرأة في دولة المماليك بالحرية والاستقلال، ويتضح ذلك كله من خلال الممارسات اليومية لهن كاللباس. فيذكر الرحالة جان ليون الإفريقي: «ويظهر البذخ على لباس النساء، فهن يخرجن متبرجات بالحلي التي يلبسها على شكل أطواق على الجبين وفي العنق، ويضعن فوق رؤوسهن عصا غالية الثمن خفيفة تعلوها ريشة على شكل أنبوب. وتتألف كسوتهن من ثوب من الجوخ ذي أكمام طويلة، وعادة ما يكون الثوب مفصلاً بعناية، ومزداناً بتطريزات بديعة، ويلفن أجسامهن بوشاح من قماش القن الرقيق جداً شديد النعومة. يستورد من الهند، ويضعن على وجوههن برقعاً صغيراً أسود من قماش غاية في الرقة، لكنه خشن نوعاً ما. وهو مصنوع من الشعر. وبفضله يستطعن رؤية الرجال دون أن يتمكن التعرف عليهن. وينتعلن في أقدامهن خفاً أو أحذية جميلة على الطراز التركي»<sup>(٣)</sup>.

(١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ٢، ص ١٩٠. والمقريزي، السلوك، ج ١، ق ٢٠١، ص ٣٦١-٣٦٢.

(٢) المقريزي، المقفى الكبير، ج ٥، ص ٤٦. وسعيد عاشور، نساء القاهرة، ص ٥٧٠.

(٣) ليون الإفريقي، وصف أفريقيا، ص ٥٩١-٥٩٢.



كما أن أغلب نساء الطبقة الخاصة يرفضن العمل في الغزل أو خياطة الملابس، أو طهو الطعام. ولهذا السبب كان يتوجب على الزوج أن يشتري من الخارج الطعام الجاهز المطبوخ من محلات الطباخين والشواتين<sup>(١)</sup>.

وقد غالت المرأة في دولة المماليك في مظاهر الترف والحرية والخروج عن الحدود الشرعية التي أقرها الإسلام والمجتمع، ولا سيما فيما يتعلق باللباس. وقد عارض ذلك عدد كبير من العلماء والفقهاء ورجال الدولة. ففي سنة ٧٩٣هـ/ ١٣٠٠م أصدر الأمير كمشبغا نائب الغيبة في القاهرة وضواحيها أمراً يمنع النساء من لبس القمصان بالأكمام الواسعة. بسبب تفصيل بعض النساء قمصاناً تتكون من اثنين وتسعين ذراعاً من البندقية. وحدد للنساء أن لا يفصلن قمصاناً بأكثر من اثني عشر ذراعاً من البندقية<sup>(٢)</sup>. وذلك بسبب كشف عورة المرأة من الداخل حين تشمر أكمام القميص<sup>(٣)</sup>. وافتتان العاهرات بلبسه<sup>(٤)</sup>. وعندما لم تلتزم النساء بأوامر نائب الغيبة أرسل عدداً من المماليك إلى الطرقات والأسواق وقطعوا أكمام من وجدوها<sup>(٥)</sup>.

كما اعتادت المرأة لبس الشاش على رأسها. وهي عصابة تشبه أسنمة البخت (الجمال الصغيرة) يكون أولها على جبين المرأة وآخرها عند ظهرها. ويبلغ طولها نحو ذراع في ارتفاع دون ذلك<sup>(٦)</sup>. ويذكر ابن تغري بردي: «وكانت نساء مصر

(١) ابن قاضي شهبه، تاريخ، ج ٣، ص ٦١١. وليون الأفريقي، وصف أفريقيا، ص ٥٩٢.

(٢) ابن الفرات، تاريخ، ج ٩م، ص ٢٦٧. وابن إلياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٤٤٩.

(٣) ابن الحاج، المدخل، ج ١، ص ٢٤٣-٢٤٤. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٢٣٥.

(٤) القاضي عبد الباسط، نيل الأمل، ج ١، ورقة ١٣٩ أ.

(٥) ابن الفرات، تاريخ، ج ٩م، ص ٢٦٨. وابن قاضي شهبه، تاريخ، ج ٢، ص ٣٠٥.

(٦) ابن الحاج، المدخل، ج ١، ص ٢٤٢. والمقريني، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٥٢٤. والقاضي عبد الباسط، نيل الأمل، ج ١، ورقة ١٣٩ أ.

يلبسونه... وقد رأيت الشاش المذكور على صفة الحلي الذي تحلى به العروس بل كان أكثر تعباً في تعديله»<sup>(١)</sup>.

كما اعتادت المرأة على الخروج إلى الترب والمتنزهات وشاطيء النيل والقرافة في الأعياد والمناسبات مما دفع نائب السلطنة إلى إصدار مرسوم في ٢٩ رمضان سنة ٧٩٢هـ / ١٣٠٠م يقضي بمنع خروجهن إلى الترب والمتنزهات والقرافات بسبب اختلاط الرجال مع النساء وحدث مفاسد كثيرة. وشدد على ذلك بفرض عقوبات صارمة كالقتل والحرق. ويذكر ابن الفرات «وإن وجدت بالقرافة أو تربة من الترب وسطت هي والمكاري والحماري وأن أحداً لا يتفرج في مركب في البحر وأن من وجدت في مركب أحرق... فلم تجسر امرأة أن تطلع إلى القرافة ولا الترب وحصلت بذلك راحة عظيمة»<sup>(٢)</sup>. وكانت المرأة تخرج من البيت بعد أن يذهب زوجها إلى دكانه فتلبس ثيابها وتتعطر، وتستأجر حماراً وتذهب لتتنزه في المدينة أو لزيارة أهلها. إذ كان في القاهرة جماعة من الناس تعيش من مهنة تأجير الحمير. ويمتلكون من أجل ذلك حميراً كثيرة مدربة مزينة ببرازع جميلة. ويؤجرونها مع أحد غلمانهم كسائقين مع الراكبين الذين يساعدون المستأجر على الركوب والنزول<sup>(٣)</sup>.

(١) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ٢، ص ٢٩٠-١٩١.

(٢) ابن الفرات، تاريخ، م ٩، ج ٢، ص ٢٦٦. والمقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٧٤٩-٧٥١. وابن حجر العسقلاني، أنباء الفجر، ج ٢، ص ٧٥-٧٦. وابن قاضي شهبه، تاريخ، ج ٢، ص ٢٨٢. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٢٢٤.

(٣) ابن الحاج، المدخل، ج ١، ص ٢٦٧-٢٦٨. والقاضي عبد الباسط، نيل الأمل، ج ١، ورقة ١٥٧ أ.

## د- حفلات الزواج (الأعراس):

تعد حفلات الزواج جزءاً من المظاهر الاجتماعية التي سادت في دولة المماليك، فكبر حجم حفلات الزواج وارتفاع مهر بنات ونساء سلاطين المماليك، وكبار أمراء المماليك، والأثرياء من غير المماليك كالأعيان يعد مظهراً من مظاهر الترف الاجتماعي والفوارق الطبقيّة بين فئات مجتمع دولة المماليك. إذا ما قورن ذلك بحفلات زواج المماليك ومهورهم. فعندما تزوج السلطان برقوق فاطمة ابنة الأمير منجك سنة ٧٨٦هـ / ١٣٨٤م حمل جهاز عرسها على ظهر نحو ثلاثمائة حمّال إلى القلعة. حيث بلغ نحو ثمانمائة ألف مثقال ذهب، وعشرة أطباق مملوءة زركش ونحو سبعين بطلاً. وقد باشر الإشراف عليه الأمير أيدكار الحاجب والأمير بهادر الرومي الإستادار<sup>(١)</sup>. لذا يعد ارتفاع مهر العروس وقضامة ما حمل من ملابس دلالة على مكانة الزوج والزوجة في تلك الفترة ومظهراً من مظاهر اهتمام السلاطين المماليك بنسائهم.

كما اهتم أمراء المماليك وغيرهم من أعيان الدولة في إظهار أبهة حفلات زواجهم. فحين تزوج الأمير يلبغا الأستقمرى الظاهري أحد مقدمي الألف ابنة ناظر الجيش شمس الدين بن مشكور سنة ٧٩٣هـ / ١٣٩٤م أقام حفل زواجه في منزله، وسارت زفته من حمام بيدمر عند المصلى إلى باب الفراديس حيث يوجد منزله<sup>(٢)</sup>. وكان على العريس أو العروس الدخول إلى الحمام كلاً على حده في مظهر احتفالي كبير، حيث يقوم العريس أو العروس بالاستحمام وإزالة الشعر وبعد ذلك يقوم أصدقائهم والمقربون منهم بنقلهم وسط فرحة كبيرة مرددين أغاني شعبية، إلى بيت العريس<sup>(٣)</sup>.

(١) المقرئزي، السلوك، ج٣، ق٢، ص٥١٤-٥١٥. وابن قاضي شهبه، تاريخ، ج٢، ص١٢٢.

(٢) ابن قاضي شهبه، تاريخ، ج٢، ص٥٥١-٥٥٢.

(٣) الزبيا، الحياة الاجتماعية، ص٢٧٤.

وعندما عُقد قران الأمير محمد بن إبراهيم بن منجك على بنت الأمير محمد شاه بن بيدمر، أقام احتفالاً كبيراً بقاعة بيدمر، حضره كبار الأمراء والنائب والقضاة وأعيان الدولة، وبلغ صداق (مهر) العروس نحو ألف دينار<sup>(١)</sup>. وعندما أراد الزواج منها سنة ٧٩٨هـ/ ١٢٩٥م أقيمت له زفة كبيرة انطلقت من حمام بيدمر إلى داره وسط احتفال بهيج. كما عمل وليمة حضرها الأمراء والماليك وكبار أعيان الدولة<sup>(٢)</sup>.

ويستنتج من خلال حفلة الزواج التي أقامها السلطان جقمق لابنته عند زواجها من الأمير أزيك ومقارنة ابن تغري بردي لهذه الحفلة مع حفلة زواج السلطان برقوق وغيره من أمراء الماليك، مدى اهتمام سلاطين وأمراء دولة الماليك بفخامة حفلات الزواج التي كانوا يقيمونها والتباهي بارتفاع تكاليفها باعتبارها مظهراً اجتماعياً يدل على حياة الرفاهية والترف الاجتماعي التي كان يعيشها سلاطين دولة الماليك. ذكر ابن تغري بردي قال: «وفي سنة ٨٥٤هـ/ ١٤٥٠م عمل السلطان مائدة كبيرة للأمراء بالحوش السلطاني في القلعة، وأقام الحفل الكبير الخاص بالنسوة في بيت خالها كمال الدين بن البارزي يوم الخميس بالقلعة. وأما أقاربهم الرجال فكان في بيت الأمير أزيك خارج باب زويلة بداره التي عمرها قرطوغان الإستاندار، وركب الأمير أزيك إلى أن نزل بقاعة بالقرب من الخميمين، ثم ركب بعد عشاء الآخرة وبين يديه الأمراء والأعيان مشاة. وحمل الأمراء الشموع أمام فرسه، ولبس أطلسين متمرين، ومشى القاضي كمال الدين البارزي (خال العروس) أمام فرسه والأمير محب الدين ابن الأشقر ناظر الجيش والصاحب جمال الدين ابن كاتب حكم ناظر الخاص في آخرين إلى أن وصل إلى بيت القاضي كمال الدين البارزي. ونزل عن فرسه ودخل قاعة الفرح، وجلبت عليه

(١) ابن قاضي شهبه، تاريخ، ج ٢، ص ٥٥٢.

(٢) ابن تغري بردي، حوادث الدهور، ج ١، ص ٢٥٥-٢٥٦.

بنت السلطان وبنى عليها<sup>(١)</sup>. ويذكر: «وأما المهم (حفلة الزواج) فليس بذاك وإنما كان عادة مهمات بعض الأكابر غير أن شوارها (جهاز العروس) كان خارجاً عن الحد، ولم يحمل على رؤوس الحمالين على عادة الأشورة، لكنه أخرج من الحواصل، ونصب في بيت الدخول -بيت خالها القاضي كمال الدين كاتب السر-. ولما كان الفراغ من نصب الجهاز، وفرش البيت أذن للناس بعد ذلك في الدخول والتفرج في الجهاز، فرأى الناس من الأقمشة والزركش وأنواع الفراء والأواني البلور والمصاغ من الفضيات والتحف الصيني ما أدهشهم وحيرهم»<sup>(٢)</sup>.

وقد قارن ابن تغري بردي جهاز ابنة السلطان جقمق بجهاز العرائس الأخرى اللواتي سبقنها مثل خوند فاطمة زوجة الناصر فرج بن برقوق، وخوند بنت المنصور حاجي، وخوند حاج ملك بنت ابن قرا زوجة السلطان برقوق بقوله: «وقد رأيت ما كان لهن من الأقمشة والامتعة والتحف، ومن ثم إلى يومنا هذا فكثير، ومع هذا ما رأينا ولا سمعنا بمثل هذا الشوار ولا بمثل كثرته وحسنه، ولا ما اشتمل عليه من أنواع البشاخين المزركشة<sup>(٣)</sup> ومن شراريب الفوط المكلة باللؤلؤ، ومن أنواع التحف التي لم يسبقها أحد من الخوندات قبلها إلى الملك»<sup>(٤)</sup>.

من خلال النص يستدل على مدى الأبهة والعظمة التي حاول السلطان جقمق إظهارها من خلال السماح للناس الفرجة على جهاز ابنته بعد أن نُصِبَ في بيت زوجها بعكس ما كان متعارفاً عليه وهو حمل جهاز العروس على رأس الحمالين.

(١) ابن تغري بردي، حوادث الدهور، ج ١، ص ٢٥٦.

(٢) المصدر ذاته، ج ١، ص ٢٥٦.

(٣) البشاخين المزركشة: هي دائرة السرير أو الناموسية. أنظر سعيد عاشور، العصر المملوكي، ص ٢٩٦.

(٤) ابن تغري بردي، حوادث الدهور، ج ١، ص ٢٥٦-٢٥٧.

ومن مقارنة ابن تغري بردي لجهاز العروس مع غيره يستدل على مباحات السلاطين والأمراء في حفلات زواجهم، ومدى ما يقدمونه لنسائهم من أثاث وملابس دلالة على الرفعة والمكانة التي تحظى بها المرأة المملوكية.

غير أن هناك اختلافاً واضحاً بين كبار أمراء المماليك ومماليك الأمراء. ويتضح من خلال عقد زواج أحد مماليك الأمراء في دولة بني الكنز في بلاد النوبة، أن المهر المقدم للعروس يبلغ ١٥٠ درهماً يدفع منه ٥٠ درهماً معجلاً، في حين يسدّد باقي المهر على أقساط بمبلغ ١٠ دراهم في نهاية كل سنة<sup>(١)</sup>. وفي ذلك دلالة على الفوارق الطبقيّة حتى بين السلاطين والأمراء والمماليك أنفسهم في دولة المماليك.

#### هـ - الأعياد:

اهتمت دولة المماليك بالأعياد والمناسبات كمظهر من المظاهر الاجتماعيّة والقومية للدولة. وقد اتخذت بعض هذه الأعياد طابعاً عاماً حظي باهتمام الدولة وعمامة الناس، وبعضها الآخر كان له طابعٌ ديني له اتصال بتراث وديانات بعض فئات المجتمع في دولة المماليك. ومن أهم هذه الأعياد:

#### ١ - وفاء النيل:

يعد الإحتفال بيوم وفاء النيل من المناسبات التي كان لها طابعٌ عام في دولة سلاطين المماليك. إذ كان يعد بلوغ النيل المنسوب الكافي لري الأراضي الزراعيّة مناسبة عامة عظيمة يترقبها مختلف طبقات المجتمع في الدولة يوماً بيوم. ففي السادس والعشرين من شهر بؤونة (أيار) يقاس ما بقي من ماء النيل ليكون أساساً تحسب عليه الزيادة في موسم الفيضان، حيث يبدأ النداء بالزيادة في

(١) أحمد عبد الرزاق، عقد زواج، ص ٩-١٠.

اليوم التالي<sup>(١)</sup>. وهو السابع والعشرين من شهر أيار، ثم يحسب كل ذراع أربعة وعشرين إصبعاً، فإذا وصل منسوب مياه النيل إلى ستة عشر ذراعاً، صرح صاحب المقياس بوفاء النيل (كسر الخليج) - ويعبر عنه بماء السلطان - حيث يعد «يوم مشهود وموسم معدود ليس له نظير في الدينا» وتكتب فيه البشارات إلى مختلف أقطار الدولة<sup>(٢)</sup>.

وعندما يصل النيل إلى حد الوفاء ستة عشر ذراعاً - وهو الحد الأدنى للوفاء - يبدأ الاحتفال الشعبي الكبير، فيوقد فيه الناس القناديل والشموع حتى يتحول الليل في القاهرة إلى نهار، ثم يحضر كبار الأمراء والأعيان ومعهم الإستادار الذي يحمل الخلع التي توزع على من له عادة في هذا الموسم. ثم يحضر المقرئون ويتناوبون قراءة القرآن في دار المقياس<sup>(٣)</sup>. وفي اليوم التالي ينزل السلطان أو من ينوب عنه من الأمراء من قلعة الجبل في القاهرة في موكب كبير تزيينه الأعلام والصناجف، كما تدق أمامه الطبول، ويرافقه عدد كبير من كبار الأمراء والأعيان إلى النيل ويركب السلطان إحدى الحركات السلطانية (السفن) المزينة مع خواصه من الأمراء. ويركب بقية الأمراء والمباشرين في مراكب خاصة بهم. ثم يسير السلطان ومن معه من الأمراء في النيل حتى يصل إلى دار المقياس<sup>(٤)</sup>. وبعد الفراغ من الطعام الذي أعد للسلطان وكبار الأمراء، يذاب الزعفران في ماء الورد بإناء فضي، ويعطي السلطان هذا الإناء لصاحب المقياس الذي يلقي بنفسه، بكامل ملابسه، في غرفة المقياس ومعه ذلك الإناء الفضي

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٢٩٢. والمقرئزي، الخطط، ج ١، ص ٥٨. وإبراهيم طرخان، النظم الإنطاعية، ص ٣٢٢.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٣، ص ٣٢٠. وقاسم عبده قاسم، تاريخ مصر الاجتماعي، ص ١٢٠.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١، ص ٤٨-٤٩. وابن شامين، زبدة كشف المالك، ص ٧٨.

(٤) ابن ظهيرة، الفضائل الباهرة، ص ٢٠٠.

ويدهن عمود المقياس بالزعفران وماء الورد. ثم يخرج السلطان أو من ينوب عنه، ويفرق الخلع على من له عادة بذلك مثل والي الغسقاط وقائد مركب السلطان، ورؤساء مراكب الأمراء. ثم يركب السلطان السفينة السلطانية المعروفة بالذهبية، وحولها مراكب الأمراء والقوارب المليئة بالمتفرجين حتى فم الخليج<sup>(١)</sup>.

وفي موقع الخليج يكون نائب السلطنة أو حاجب الحجاب منتظراً ومعه بعض كبار الأمراء فوق قنطرة السد. وهناك يتوجه السلطان بفرسه من فم الخليج حتى موقع السد الترابي، ويمسك بمعول من الذهب الخالص ويضرب السد ثلاث ضربات دلالة على ابتداء فتح الخليج، ويبدأ بعد ذلك العمال والفلاحون بإزالة السد الترابي بغؤوسهم حتى يجري الماء في الخليج<sup>(٢)</sup>.

### ٣- دوران الحمل:

يعد دوران الحمل من الاحتفالات الدينية التي لاقت اهتماماً عاماً من فئات الشعب في فترة حكم السلطان برقوق. بامتباره إعلاناً عاماً للناس والتجار للإستعداد للسفر ومرافقة قافلة الحجاج عند الخروج إلى مكة المكرمة. فانطلاق قافلة الحج إلى مكة كانت تحظى باهتمام أغلب فئات مجتمع دولة المماليك، حيث تودع القافلة وتستقبل باحتفال رسمي وشعبي، كما يعين أمير الحمل من كبار رجال الدولة<sup>(٣)</sup>. ويرافقه عدد من العساكر التي تتولى حراسة القافلة. وكانت العادة الجارية في دولة المماليك أن يدور الحمل مرتين في السنة، الأولى في شهر رجب بعد النصف منه، حيث ينادي لأصحاب الحوانيت التي في طريق دورانه بتزيين

(١) السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص٣٠٧. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١١، ص٢٢٢. وابن شاهين، زبدة كشف الممالك، ص٩٧. وقاسم عبده قاسم، تاريخ مصر الاجتماعي، ص١٣٧.

(٢) السيوطي، حسن المحاضرة، ج٢، ص٣٠٧. وابن دقماق، الانتصار، ص١١٤-١١٥.

(٣) السخاوي، ذيل دول الإسلام، ج٢، ص٢٠٢. والجزري، الدرر الفرائد، ج٣، ص١١٧٢.



حوانيتهم قبل ذلك بثلاثة أيام، ويكون دوران الحمل في يوم الإثنين أو الخميس لا يتعداهما. ويحمل الحمل على جمل مزين بغشاء من حرير أظفر بشمسان (حلى مستديرة بشكل الشمس) وزركش فيها اسم السلطان الظاهر برقوق وبأعلاه قبة من فضة مطلية بالذهب<sup>(١)</sup>. ويبت الحمل في ليلة دورانه داخل باب النصر بالقرب من باب جامع الحاكم، ثم يحمل بعد الصبح على الجمل نفسه ويسير تحت القلعة، ويركب أمامه الوزير والقضاة والمحاسب والشهود وناظر الكسوة<sup>(٢)</sup> ويركب عدد من المماليك السلطانية الرماحة لابسين دروع حديدية مغطاة بالحرير الملون، وخيولهم ملبسة بالبركستوانات<sup>(٣)</sup>، وبأيديهم رماح يلعبون فيها تحت القلعة في الحرب، فضلاً عن عدد من المماليك الصغار بيد كل منهم رمحان يديرهما في يده وهو واقف على ظهر الفرس، ثم يتوجه الحمل من القلعة إلى الفسطاط، ثم يعود إلى القلعة، ويخترق شوارع القاهرة؛ وأثناء ذلك تضرب خلفه الطبلخانات والكؤسات السلطانية. أما الدوران الثاني الذي يسبق خروج الحج إلى مكة، فكان يتجه إلى القلعة ثم يعود إلى باب النصر، ثم يخرج إلى الريدانية دون التوجه إلى الفسطاط<sup>(٤)</sup>.

### ٣- المولد النبوي:

ملا

يعد الاحتفال بالمولد النبوي الشريف من المناسبات الدينية التي اعتادت دولة المماليك الاحتفال بها على المستويين الرسمي (الدولة) والشعبي في الثاني عشر من شهر ربيع الأول من كل عام. ففي ١٢ ربيع الأول سنة ٨٠٠هـ / ١٣٩٧م أقام السلطان برقوق احتفالاً كبيراً حسب عاداته في كل سنة في الحوش السلطاني

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٥٩. والمقرزي، السلوك، ج٣، ق٢، ص٤٩٧.

(٢) المقرزي، السلوك، ج٣، ق٢، ص٧١٧. سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص١٨٢.

(٣) البركستونات وهي درع لحفظ لحم صدر الخيول. القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٥٩. هامش رقم (١).

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج٤، ص٥٩-٦٠. وابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٢٥٤. وابن ظهير، الفضائل الباهرة، ص١٩٩-٢٠٠. ونقولا زيادة، رواد الشرف، ص١٩٢.

بقلعة الجبل، حيث أعد خيمة كبيرة تسمى (خيمة المولد)<sup>(١)</sup>. وبعد الانتهاء من إقامة خيمة المولد يوضع عند أبوابها أحواض من الجلد تملأ بالماء المحلى والسكر والليمون، ثم تعلق حولها الأكواب الفاخرة المصنوعة من النحاس الأصفر والمزينة بالنقوش الجميلة؛ وتربط هذه الأكواب بسلاسل من النحاس، ويصف حولها طائفة من غلمان الشرابخانا، لمناولة الواقدين من الناس، دون تفريق بين كبير وصغير<sup>(٢)</sup>.

ويبدأ الإحتفال بعد الظهر وينتهي عند ثلث الليل<sup>(٣)</sup>، وعندما يجلس السلطان في صدر الخيمة يجلس عن يمينه شيخ الإسلام سراج الدين البلقيني وبعض الشيوخ المقربين من السلطان كالشيخ إبراهيم بن رفاعة، وعن يساره الشيخ عبد الله المغربي، وتحتة قضاة القضاة الأربعة؛ ويأخذ أمراء المالكة أماكنهم على مسافة من السلطان<sup>(٤)</sup>. ويبدأ الإحتفال بالمولد بقراءة القرآن الكريم، حيث يتناوب المقرئون قراءة القرآن، وكلما فرغ أحدهم من التلاوة أُنعم عليه السلطان بأربعمائة درهم فضة، ومن كل أمير شقة حرير، وقد بلغ عددهم نحو عشرين واعظاً ومقرئاً. ثم تمد مائدة الطعام والحلوى<sup>(٥)</sup>. وبعد ذلك يأتي الخليفة والقضاة والأمراء والجند لتقبيل الأرض أمام السلطان فينعم عليهم جميعاً بالخلع والتشريف المعدة لهذه المناسبة<sup>(٦)</sup>.

(١) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٨٩٠.

(٢) سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص ١٧٨.

(٣) ابن حجر العسقلاني، أنباء الفجر، ج ٢، ص ٤١٢-٤١٣. والمقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٨٩١.

(٤) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٨٩٠-٨٩١. وابن حجر العسقلاني، أنباء الفجر، ج ٢، ص ٢٩٤-٢٨٥. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٤٩٤.

(٥) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٨٩٠-٨٩١. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٤٩٤.

(٦) سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص ١٧٩.

كما اعتاد عامة الناس الاحتفال بالمولد. وفي أغلب الأحيان كان يخالطه الكثير من المفاسد والخروج عن تعاليم الدين الإسلامي كشراب الخمر والزنا واللواط. ويذكر ابن الصيرفي أن الشيخ إسماعيل بن يوسف الأنباري<sup>(١)</sup> أقام احتفالاً بعيد المولد النبوي بزاويته بناحية أنبوبة في الجيزة تجاه بولاق حضره أغلب أهل مصر والقاهرة وضواحيها، حيث حدثت فيه مفاسد كثيرة لا تحصى لكثرة اختلاط النساء بالرجال والصبيان والفساق<sup>(٢)</sup>.

#### ٤- عيد النيروز:

وهو من الاحتفالات الخاصة بالأقباط. وقد جرت العادة الاحتفال به في أول السنة القبطية في مصر الذي يصادف أول يوم من شهر توت (يكون دخوله في العشرين من آب وأخره السادس والعشرون من أيلول)<sup>(٣)</sup>. ورغم أن الاحتفال بعيد النيروز من الأعياد الخاصة بالأقباط إلا أن المسلمين شاركوهم هذا العيد، فقد ذكر ابن الحاج: «أن المسلمين لم يكتفوا بمشاركة الأقباط أفراحهم، بل زادوا على ذلك أنهم يهادون أهل الكتاب في أعيادهم ومواسمهم بما يحتاجون إليه من الخرفان والبطيخ والبلح. فإذا حلت أعياد المسلمين ردّ لهم أهل الكتاب الجميل بمثله وهادوهم ببعض ما يفعلونه في مواسمهم، فيقبل المسلمون تلك الهدايا شاكرين»<sup>(٤)</sup>.

وتبدأ فعاليات الاحتفال بعيد النيروز في أول شهر توت ٢٠ آب من كل عام. وقد وصف ابن إياس (ت ٥٩٣هـ / ١٥٢٣م) فعاليات الاحتفال بعيد النيروز وصفاً

(١) عماد الدين إسماعيل بن يوسف الأنباري المصري، اشتغل بالفقه على المذهب الشافعي ولما توفي والده انقطع بزاويته وصار يعمل المولد النبوي على عادته كل سنة. ابن قاضي شعبة، تاريخ، ج ٢، ص ٢٥٢.

(٢) ابن قاضي شعبة، تاريخ، ج ٢، ص ٢٥٢. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ١٦٩. والقاضي عبد الباسط، نيل الأمل، ج ١، ص ١٤٥ ب.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٤١٠.

(٤) ابن الحاج، المدخل، ج ٢، ص ٤٦.

شاملاً وبين مدى خروج الناس عن تعاليم الدين الإسلامي. إذ كان يجتمع فيه أسافل عامة الناس، ويركب شخص يمتاز بالقوة على حمار وهو عريان وعلى رأسه طرطوس (قبعة) من خوص النخيل ويسمى (أمير النيروز). حيث يتوجه إلى كبار رجال الدولة من الأعيان والمباشرين وغيرهم. ويقف على باب أحدهم ومعه عدد من أوباش العامة، ويقرر على صاحب تلك الدار مقداراً معيناً من المال، فإن امتنع عن دفعه بهدلوه وسبوه ولو كان من أكابر القاهرة، ويظلون واقفين على باب داره حتى يأخذوا منه ما قرّر عليه «فياخذون منه ذلك المال طوعاً أو كرهاً»<sup>(١)</sup>.

وتقف مجموعة أخرى من أوباش العامة في الطرقات، ويتراشقون بالماء المتسخ أو الخمر، كما يتراجمون بالببيض ويتصافعون بالأخفاف (الأحذية) على الرقاب، ويتراجمون بالعمائم في الأسواق والأزقة، كما كانوا يقطعون الطريق على الناس ويمنعونهم من الخروج إلى الأسواق والعمل. وكانت الحوانيت تغلق فيتعطل البيع والشراء، وإذا ظفروا بأحد الناس في الطريق بهدلوه «ولو كان رئيساً من أعيان الناس أو الأمراء». وكانوا يرشونه بالماء المتسخ، ويرجمونه بالببيض حتى يفتدي نفسه بمبلغ معين. كما تجاهر الناس بشرب الخمر والمفاسد في أماكن المتفرجات<sup>(٢)</sup>.

كما اعتاد عامة الناس من الأقباط والمسلمين تقديم أصناف مختلفة من الفواكه كالرمان والتفاح والبلج والخوخ إلى الأعيان والمباشرين من الأقباط والمسلمين على سبيل الإهداء<sup>(٣)</sup>. وأصبح ذلك عادة عند نساء المسلمين حيث ألزمن

(١) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٣٦٤. والمقريري، الخطط، ج ١، ص ٤٩٣. وابن الحاج، المدخل، ج ٢، ص ٥٢-٥٣.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٣٦٤-٣٦٥.

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٤٦٥. وابن الحاج، المدخل، ج ٢، ص ٤٧-٤٨.

أزواجهن بذلك حتى صار ذلك كأنه فرض عليهن لأنهن اكتسبن ذلك من مجاورة القبط ومخالطتهن بهم. وإذا امتنع أحدهم عن فعل ذلك «كان سبباً لوقوع التشويش بين الرجل وأهله»<sup>(١)</sup>.

وعندما تولى السلطان الظاهر برقوق سنة ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م أمر بإلغاء الاحتفال بعيد النيروز وهدد من أحياء بعقوبات صارمة، وأصدر أمراً للحجاب، ووالي القاهرة بالتوجه إلى أماكن المتنزهات والقبض على من وجدوه من العامة ممن يحتفل بعيد النيروز. فقبضوا على عدد كبير وضربوا عدداً منهم وقطعوا أيدي آخرين. كما أصدر السلطان برقوق أمراً بنصب عدد من المشانق برسم من يحتفل بعيد النيروز، فتراجع الناس عن الاحتفال به، وصار بعضهم يحتفل ببعض شيء منه في المتنزهات كالخلجان والبرك وشاطئ النيل<sup>(٢)</sup>.

#### - الخلاصة:

تميز المجتمع في مصر وبلاد الشام في دولة المماليك أثناء فترة حكم السلطان برقوق بوجود ثلاثة فئات اجتماعية أساسية هي: المماليك والمتعممون وعامة الشعب، فضلاً عن الأقليات الدينية كالنصارى واليهود. حيث عاشت طبقة المماليك أثناء فترة حكم السلطان برقوق الأولى بمعزل عن باقي طبقات المجتمع في الدولة. ثم أخذت المماليك بالنزول من القلعة بعد الانتهاء من فترة التدريب في الطباقي إلى القاهرة والزواج من نساء القاهرة ومصر وغيرها بعد عودة السلطان برقوق

(١) ابن الحاج، المدخل، ج٢، ص ٤٨-٤٩.

(٢) المقرئزي، الخطط، ج٢، ص ٢٦٩. وابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص ٢٦٢. وعلي إبراهيم حسن، مصر في العصور الوسطى، ص ٥٥٢.

ثانية إلى الحكم. وبالرغم من سماح السلطان برقوق للمماليك بالنزول من القلعة إلى القاهرة والزواج من نساء القاهرة إلا أنهم بقوا في عزلتهم عن بقية فئات المجتمع الأخرى. وربما يعود السبب في ذلك إلى تركيز الوظائف الإدارية والعسكرية بأيديهم، وإلى طبيعة التربية العسكرية التي تلقاها المماليك في الطباق، وعدم وجود رابطة الأسرة الواحدة بينهم.

أما فئة المتعممين فتتمثل الفئة الثانية في الدولة وتضم كلاً من الفقهاء والعلماء والأدباء والكتاب وأهل التصوف وطلاب العلم والمدرسين والقضاة والوعاظ والأئمة. وقد اقتصررت هذه الفئة من المجتمع على العرب.

وقد وجدت فئة المتعممين عناية خاصة من قبل سلاطين المماليك، حيث كان لهم مركز الصدارة في مجلس السلطان في مصر ومجالس الأمراء في نيابات السلطنة المختلفة. وقد برزت أهمية هذه الفئة من المجتمع من خلال أهمية حضورهم قراءة تعهد الخليفة تفويض السلطنة للسلطان. إذ يمثل حضورهم دليلاً على تنازل الخليفة عن حقه في تولي أمور الدولة وإضفاء الشرعية على حكم السلطان الجديد. ومن خلال إصلاح ذات البين أثناء الفتن والاضطرابات الداخلية في الدولة كما حدث سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٨م بين السلطان برقوق والأمير يلبغا الناصري ومنطاش. حيث لعب المتعممون دور الوساطة بين الطرفين لإنهاء حالة الصراع وحقن دماء المسلمين.

أما فئة عامة الشعب، فتتألف من التجار الحرفيين والصناع والعامّة والزعر (الزعمار) والفلاحين. وتعد فئة التجار من أبرز فئات المجتمع في دولة المماليك، حيث لاقت هذه الفئة من المجتمع اهتماماً واضحاً من قبل السلطان برقوق من

خلال إنشاء إدارة رسمية للإشراف على مصالحهم التجارية الخاصة وتسهيل معاملاتهم تسمى (رئاسة التجار).

أما بقية فئات عامة الشعب كالعامة والزرع والفلاحين فقد عانت حياة البؤس والظلم والاستبداد من قبل السلطان والأمراء والمماليك، حيث اقتصر دورهم في الدولة في أغلب الأحيان على العمل ودفع الضرائب واستخدامهم لدفع تعديات البدو. والاشتراك في الثورات الخارجية.

أما الأقليات الدينية كالنصارى واليهود فقد لعبت دوراً هاماً في دولة المماليك حيث أسندت الدولة إليها إدارة المؤسسات الإدارية المختلفة كالوزارة، ونظر الخاص، ونظر المتجر السلطاني وغيرها.

كما ارتبطت الأقليات الدينية بعلاقات حسنة في بعض الأحيان مع الدولة حيث وقف عدد كبير من النصارى إلى جانب بعض سلاطين المماليك أثناء الفتن والثورات الداخلية حيث منح أحد تجار الشوبك النصارى للسلطان برقوق مبلغ مئة ألف دينار دعماً له لمواجهة ثورة الناصري ومنطاش سنة ٧٩٢هـ / ١٢٨٩م. في حين وجد النصارى الدعم والنصرة من قبل بعض السلاطين والأمراء. على أن علاقة النصارى بالدولة والناس لم تكن دوماً حسنة. ولم تستطع الدولة إنغالها أو السكوت عنها سواء كان إجراءً تأديبياً على الأفعال التي ارتبكتها النصارى أو استجابةً لخواطر المسلمين.

أما دور الأقليات الدينية في الحياة اليومية فقد كان لهم مشاركة واضحة في مختلف الفعاليات الاجتماعية. فقد امتهن بعض النصارى واليهود التجارة

والصناعة والسياسة والزراعة، كما برز عدد كبير من النصارى واليهود في مجال الطب والأدب والشعر، وتولوا المناصب الإدارية الرفيعة في الدولة كالوزير فخر الدين عبد الرحمن بن مكنس القبطي (ت ٧٩٤هـ/١٣٩١م).

أما وسائل التسلية والترفيه عن النفس فقد تمثلت عند سلاطين وأمراء المماليك بممارسة مختلف أنواع الألعاب الرياضية كلعب الكرة، ورمي الرمح، والمصارعة كونها من المهارات القتالية التي تتناسب وطبيعة التربية العسكرية. واهتموا بالغناء والاستماع إلى الآلات الموسيقية السائدة آنذاك.

أما المرأة فقد حظيت بالإحترام والتقدير. فقد نظر المماليك إلى نساءهم نظرة إجلال وتقدير، وتمثل ذلك بإضفاء ألقاب التشريف وعبارات الإحترام على نساءهم كلقب خوند، وخاتون.

كما تمتعت المرأة بالحرية والاستقلال ولا سيما في المدن ويتضح ذلك من خلال اللباس، والخروج إلى المتنزهات العامة، والحلي، أما نساء العامة من الفلاحين فقد عانين من حياة البؤس والفقر ويتمثل ذلك في حياة التقشف التي كان يعيشها الفلاحون.

وتعد حفلات الزواج من المظاهر الاجتماعية التي سادت في دولة المماليك، ولا سيما عند الأثرياء من التجار وأعيان الدولة حيث تعد مظهراً من مظاهر الترف الاجتماعي والفوارق الطبقيّة بين فئات المجتمع في الدولة. إذا ما قورن ذلك بحفلات زواج المماليك ومهورهم وحفلات زواج عامة الناس.



أما الأعياد فقد لاقت اهتماماً واضحاً على الصعيدين الرسمي والشعبي حيث اتخذت بعض هذه الأعياد طابعاً عاماً حظي باهتمام الدولة وعمامة الناس كوفاء النيل، ودوران المحمل، والمولد النبوي، وبعضها الآخر اتخذ طابعاً دينياً له ارتباط بتراث وديانات بعض فئات المجتمع في الدولة مثل عيد النيروز.

ورغم أن عيد النيروز من الأعياد الدينية عند النصارى إلا أن المسلمين شاركوهم في الاحتفال بهذا العيد وتبادلوا معهم الهدايا مما أثار حفيظة رجال الدين من فقهاء وعلماء لكثرة ما كان يحدث فيه من الخروج عن تعاليم الدين الإسلامي والقواعد الأخلاقية كالزنا واللواط واختلاط الرجال مع النساء، مما اضطر السلطان برقوق إلى إلغاء الاحتفال بهذا العيد وفرض عقوبات مشددة على من يخالف ذلك قد تصل إلى القتل.

## الفصل السادس

### الحياة الثقافية والعمران في عهد السلطان برقوق

- أ- الحياة الثقافية:
  - ١- العلوم اللغوية والدينية:
    - أ- الحديث.
    - ب- علم القراءات.
    - ج- الفقه.
    - د- التصوف.
    - هـ- القضاة.
  - ٢- الحركة الأدبية.
  - ٣- العلوم العقلية:
    - أ- الطب.
    - ب- الحساب والميقات والهندسة.
    - ٤- التاريخ.
  - ب- العمران:
    - ١- العمائر الدينية:
      - أ- المدارس.
      - ب- المساجد.
      - ج- الخوانق.
    - ٢- العمائر العامة.
      - أ- الجسور وأحواض المياه.
      - ب- مراكز البريد.

## الحياة الثقافية والعمرائية في عهد السلطان برقوق

### أ- الحياة الثقافية:

اتسمت الحياة الثقافية في مصر وبلاد الشام أثناء حكم سلاطين المماليك بالإزدهار لعوامل متعددة أهمها خطر المغول الذي هدد بغداد، وسقوط الأندلس بيد الممالك الإسبانية، فضلاً عن إحياء السلطان بيبرس الخلافة العباسية في مصر سنة ٦٥٩هـ / ١٢٦٠م وانتقال عدد كبير من العلماء والفقهاء والمحدثين والأدباء والشعراء من مناطق مختلفة إلى مصر<sup>(١)</sup>. فازدهرت العلوم اللغوية والدينية كالحدِيث، وعلم القراءات، والفقه، والتصوف، كما ازدهرت العلوم العقلية في مختلف المجالات كالطب والحساب، والميقات، والهندسة. ونشطت الحركة الأدبية، وبرز عدد كبير من الأدباء والشعراء الذين تناولوا الحياة السياسية والإقتصادية والاجتماعية. كما برز عدد من المؤرخين الذين دونوا تاريخ دولة المماليك وكتبوا سيرة بعض السلاطين كالسلطان الظاهر بيبرس، والسلطان قلاوون، والسلطان الظاهر برقوق. فبرز عدد من المؤرخين من أبناء المماليك (أولاد الناس) مثل ابن تغري بردي، والدميري، وابن دقماق.

### ١- العلوم اللغوية والدينية:

اهتم سلاطين وأمراء المماليك بالعلم والعلماء. حيث وصف بعض السلاطين بميله إلى العلم والعلماء كالسلطان بيبرس الذي وصفه ابن تغري بردي بأنه: «كان يميل إلى التاريخ وأهله ميلاً زائداً، ويقول: سماع التاريخ أعظم من التجارب»<sup>(٢)</sup>.

(١) سعيد عاشور، المجتمع المصري، ص ١٤١. وسعيد عاشور، الأيوبيون والمماليك، ص ٣٥٤-٣٥٥.

(٢) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٧، ص ١٨٢.

والسلطان الظاهر برقوق الذي عُرف عنه ميله للعلماء والفقهاء. رغم تنكره لعدد من القضاة والفقهاء في سلطنته الثانية بسبب إفتاء بعضهم بجواز قتله؛ إذ «لم يترك إكرامهم مع شدة حنقه عليهم». كما وُصف بمعرفة بعض المسائل الدينية ومخالطة العلماء والفقهاء، والتواضع لأهل العلم<sup>(١)</sup>.

فأنشأ السلطان برقوق عدداً من المدارس والمساجد والخوانق لتدريس العلوم اللغوية والدينية<sup>(٢)</sup>. وقد جرت العادة عند الإنتهاء من بناء المدارس أن يقام احتفال كبير بمناسبة افتتاحها. فحين انتهى السلطان برقوق من بناء المدرسة الظاهرية بخط ما بين القصرين في القاهرة سنة ٧٨٦هـ / ١٣٨٤م<sup>(٣)</sup> أقام احتفالاً كبيراً بمناسبة افتتاح المدرسة. حيث نزل إليها من قلعة الجبل في عدد كبير من الأمراء والماليك، والقضاة والفقهاء والأعيان. وأقام مائدة طعام فيها ألوان مختلفة من الأطعمة، والطيوى والفواكه، وملا بركة المدرسة بشراب السكر. وعندما انتهى جميع المدعوين من الأكل، خلع السلطان برقوق على كل من ساهم في بناء المدرسة من المعلمين والبنائين والمهندسين<sup>(٤)</sup>. وعيّن للمدرسة عدداً من المدرسين والقراء والفراشين<sup>(٥)</sup>.

فكان للمدارس دورٌ بارزٌ في ازدهار التعليم ولا سيما العلوم اللغوية والدينية. فقد ضمت المدارس عدداً كبيراً من الفقهاء والعلماء الذين برزوا في

- (١) المقرئزي، السلوك، ج٣، ق٢، ص٩٤٤. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١٢، ص١٠٨. وابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج٣، ص٣٢٧.
- (٢) أنظر العنبر الدينية.
- (٣) المقرئزي، السلوك، ج٣، ق٢، ص٥٢٢. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج١، ص١٠٥.
- (٤) المصدر ذاته، ج٣، ق٢، ص٥٤٧. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١١، ص٢٤٣.
- (٥) المصدر ذاته، ج٣، ق٢، ص٥٥١. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١١، ص٢٤٣. وابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج١، ص٧٧٢. وابن حبيب، درة الأسلاك، ج٣، ص١٥٩.

تدريس العلوم الدينية كالفقه والحديث، والقرآن الكريم. كما ضمت عدداً من الطلاب من مختلف أقطار مصر وبلاد الشام<sup>(١)</sup>. وألحق بالمدارس خزائن للكتب (مكتبات) احتوت على أنواع مختلفة من الكتب الإسلامية كالفقه والحديث. ومن أشهر هذه المكتبات، مكتبة المدرسة الحمودية التي أنشأها الأمير جمال الدين محمود بن علي الإستاذار سنة ٧٩٧هـ / ١٣٩٤م<sup>(٢)</sup>. كما اختصت بعض المدارس بتدريس بعض المذاهب كالمدرسة الأيتمشية التي اقتصر على تدريس الفقه على المذهب الحنفي<sup>(٣)</sup>.

أما الخوانق<sup>(٤)</sup> فقد أدت دوراً اجتماعياً وثقافياً في مجتمع دولة المماليك. فكانت بعض الخانقاوات يقيم فيها عددٌ من الصوفية الفقراء وطلاب العلم. وكانت مزودة بأحواض الماء للشرب ولسقاية الدواب، والطعام. وضمت بعض الخوانق مكاتب (كتاتيب) لتعليم الأطفال الأيتام القرآن والخط، وصرفت لهم الطعام واللباس<sup>(٥)</sup>.

ونتيجة لازدهار العلوم اللغوية والدينية في مصر وبلاد الشام فقد برز عدد كبير من الفقهاء والعلماء الذين تولوا مناصب دينية مختلفة في دولة المماليك كالتدريس، والإفتاء، وتعليم القرآن الكريم، وتولى بعضهم وظائف هامة في الدولة كالقضاء والحسبة وكتابة السر.

(١) ابن دقماق، الجوهر الثمين، ج ٢، ص ٢٦٥. والقلقشندي، صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤١٦.

(٢) المقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٣٩٥. وعبد الرحمن زكي، القاهرة، ص ١٦٧.

(٣) المصدر ذاته، ج ٢، ص ٤٠٠.

(٤) لم تكن معروفة قبل الدولة الأيوبية، ابتكرها صلاح الدين الأيوبي. حيث بنى الخانقاة الصلاحية المعروفة بسعيد السعداء. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤١٧.

(٥) المقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٤٢١.

وفيما يلي عرض لأهم هؤلاء العلماء في مجالات العلوم الدينية واللغوية المختلفة:

١- في مجال الحديث؛

١- محيي الدين عبد الوهاب بن محمد بن عبد الرحمن بن يحيى بن أسد الإسكندراني القروي الذي سمع الحديث عن عدة شيوخ مثل عبد الرحمن بن مخلوف، ومحمد بن عبد المجيد الصواف المتوكل، والرضي الطبري. وقرأ على عبد النصير بن الشعراء القراءات. وله عدة أحاديث، وقد خرج له الذهبي جزأين من حديثه. وقد توفي سنة ٧٨٨هـ / ١٣٨٦م<sup>(١)</sup>.

٢- محمد بن تقي الدين عبدالله بن محمد. ولد سنة ٧٢٤هـ / ١٣٢٣م، وسمع الكثير من الأحاديث من كبار المحدثين مثل أبي بكر الرضي والشهاب الصرخدي وعائشة ابنة المسلم. وكان ينوب عن بعض القضاة في الحكم، ويوقع على الفتاوي، وله خمسة عشر حديثاً خرجها له ابن الحب الصامت. وقد توفي سنة ٧٨٨هـ / ١٣٢٣م<sup>(٢)</sup>.

٣- محمد بن محمد بن أحمد المقدسي، ولد سنة ٧٣١هـ / ١٣٣٠م، سمع الحديث من كبار المحدثين كابن الرضي، والجزري، وبننت الكمال، وإبراهيم بن قيم الجوزية. عني بالحديث. ومن آثاره: كتب الأجزاء والطباق، وكتب بخطه عدداً كبيراً من الأحاديث. وكان شديد التعصب لابن تيمية. وقد توفي سنة ٧٨٨هـ / ١٣٨٦م<sup>(٣)</sup>.

(١) ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ٢، ص ٢٢٨-٢٢٩.

(٢) المصدر ذاته، ج ٢، ص ٢٤٢-٢٤٣.

(٣) المصدر ذاته، ج ٢، ص ٢٤٤.

٤- محمد بن يوسف بن إلياس القنوي، ولد سنة ٧١٥هـ / ١٣١٥م، قدم إلى دمشق وهو شاب، وأخذ العلم عن التبريزي وغيره، امتنع عن مباشرة الوظائف، وكان قليل المهابة للأمرء والحكام والسلاطين، ويغلظ لهم. واهتم بالاشتغال بالحديث، والتزم أن لا ينظر في غيره. ومن آثاره: كتاب «الدرر» وفيه الكثير من المسائل الفقهية، ونظم فيه فقه المذاهب الأربعة. كما اختصر شرح مسلم للنووي، وشرح مجمع البحرين. وتوفي بالطاعون سنة ٧٨٨هـ / ١٣٨٦م<sup>(١)</sup>.

٥- سليمان بن يوسف بن مفلح بن أبي الوفاء الياسوفي، أصله من دمشق، ولد سنة ٧٣٩هـ / ١٣١٨م، ثم رحل إلى مصر سنة ٧٧١هـ / ١٣٦٩م وسمع بها الحديث من كبار العلماء. وقد عني بالحديث، وتولى التدريس بالمدرسة الأكرمية، والمشيخة الأسدية، وكان أحد الفقهاء الذين أفتوا بقتل السلطان برقوق. سجن بالقلعة في القاهرة إلى أن توفي سنة ٧٨٩هـ / ١٣٨٧م<sup>(٢)</sup>.

٦- عائشة بنت الخطيب عبد الرحمن بن بدر الدين بن جماعة، أخت قاضي القضاة برهان الدين ابن جماعة، سمعت الحديث عن الوافي وغيره، وحدثت بعدد من الأحاديث. توفيت سنة ٧٨٩هـ / ١٣٨٧م<sup>(٣)</sup>.

٧- عبد الله بن محمد بن سليمان النيسابوري، أصله من نيسابور، ولد سنة ٧٠٥هـ / ١٣٠٥م، وسمع عن الرضي الطبري، وأجاز له أخوه الصفي، حدث بالكثير من الأحاديث. توفي سنة ٧٩٠هـ / ١٣٨٨م<sup>(٤)</sup>.

(١) ابن حجر العسقلاني، أنباء الفهر، ج ٢، ص ٢٤٦-٢٤٧. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢١٠. والحنبلي، شذرات الذهب، ج ٨، ص ٥٢٢-٥٢٤.

(٢) ابن حجر العسقلاني، أنباء الفهر، ج ٢، ص ٢٦٦.

(٣) المصدر ذاته، ج ٢، ص ٢٦٩.

(٤) المصدر ذاته، ج ٢، ص ٣٠٠-٣٠١.

٨- عمر بن سعيد بن مسلم بن سعيد الكتاني، أصله من بلخ، ولد سنة ٧٢٤/ ١٣٢٢م، عني بالحديث والفقه والأصول والعربية، كان عالماً بالتفسير والفقه، وكان له معرفة بأسماء الرجال وطبقاتهم. تولى عدة وظائف دينية كالقضاء والتدريس، توفي بسجن قلعة دمشق سنة ٧٩٢هـ / ١٣٨٠م<sup>(١)</sup>.

٩- عائشة بنت أبي بكر بن عيسى بن قواليج، سمعت الحديث عن القاسم بن عساكر وابن سعيد، وابن الشحنة، وحدثت. توفيت سنة ٧٩٣هـ / ١٣٨١م<sup>(٢)</sup>.

١٠- قاطمة بنت تقي الدين الجعبري، سمعت الحديث عن ابن الرضي، وحدثت بدمشق. توفيت سنة ٧٩٥هـ / ١٣٩٢م<sup>(٣)</sup>.

١١- إبراهيم بن داود بن عبد الله الأمدي، مات والده على دين النصرانية وهو صغير، فحمله الشيخ عبد الله الدمشقي الذي كان وصياً عليه إلى مجلس تقي الدين ابن تيمية فأسلم على يده. وقد تفقه على المذهب الشافعي، وسمع الحديث، ورواه عن أحمد كشتفدي والحسن بن عبد الرحمن الأربلي وغيرهم. توفي سنة ٧٩٧هـ / ١٣٩٤م<sup>(٤)</sup>.

١٢- عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن قايماز بن الحافظ أبي عبد الله الذهبي، تركماني الأصل، ولد سنة ٧١٥هـ / ١٣١٥م، أجاز له وزيرة بنت المنجا والقاضي سليمان وإسماعيل بن مكتوم بالحديث، فأكثر عنهم، خرج له أبوه نحو أربعين

(١) ابن حجر العسقلاني، أنباء الفهر، ج ٢، ص ٤٢-٤٣.

(٢) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج ٢، ص ٣٣٩-٣٤٠.

(٣) ابن حجر العسقلاني، أنباء الفهر، ج ٢، ص ١٩٣.

(٤) المغريزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٨٨٤. ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج ١، ص ٢٧. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ١٤٣.



حديثاً، حدث بها في حياته. وكان يتصف بالصبر، محباً لأهل الحديث والروايات.  
توفي سنة ٧٩٩هـ / ١٣٩٦م<sup>(١)</sup>.

١٣- محمد بن أحمد بن إبراهيم الأدرمي، ولد بدمشق سنة ٧٣٨هـ / ١٣٢٧م، قدم  
إلى القاهرة واختص بالأمير سيف الدين الشبخوني العمري وعدد من الأمراء،  
حدث عن التقي صالح، وأبي الفتح الميدومي وغيرهم. وكان خيراً ديناً. توفي سنة  
٨٠٥هـ / ١٤٠٢م<sup>(٢)</sup>.

ب- في مجال علم القراءات:

١- محمد بن العلاء علي بن يحيى بن فضل الله العدوي المصري، كان شافعي  
المذهب، اشتغل بالفقه والنحو والقراءات. وتولى عدة وظائف في الدولة مثل:  
كاتب السر، وكان أحد شهود الحكم في دمشق، توفي سنة ٧٩٦هـ / ١٣٩٥م<sup>(٣)</sup>. ومن  
أشعاره التي كتبها إلى السلطان برقوق حيث ثار عليه الأمير منطاش سنة  
٧٩١هـ / ١٣٨٨م:

يقبل الأرض عبد بعد خدمتكم مذ مسه ضرر ما قتله ضرر  
والشغل يفضي لأن الناس قد ندموا إذ عاينوا الجور من منطاش ينتشر  
والله إن جاءهم من عندكم أحد قاموا لكم معه بالروح وانتصروا<sup>(٤)</sup>

٢- أحمد بن علي بن عثمان الفيشي المصري، أتقن القراءات على الشيخ تقي  
الدين البغدادي وغيره. توفي سنة ٧٩٧هـ / ١٣٤٩م<sup>(٥)</sup>.

(١) ابن حجر العسقلاني، أنباء الفجر، ج ٢، ص ٢٥٠. وابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج ٢، ص ٤٤٩.

(٢) المصدر ذاته، ج ٢، ص ١٢٦-١٢٧.

(٣) المصدر ذاته، ج ٢، ص ٢٢١. والسخاوي، وجيز الكلام، ج ١، ص ٣١٢.

(٤) السخاوي، وجيز الكلام، ج ١، ص ٣١٣.

(٥) ابن حجر العسقلاني، أنباء الفجر، ج ٢، ص ٢٥٧.

٣- إبراهيم بن أحمد بن عبد الواحد بن علوان التنوخي، ولد سنة ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م. اهتم بالقراءات، فأخذ عن الجعبري والمرادي وابن حيان والواوي وأشي. كما اهتم بدراسة الفقه، فتفقه على عدد من كبار علماء الفقه كالبارزي في حماء، وابن النقيب بحلب، وابن القماح بالقاهرة. أذن له بالتدريس والإفتاء. توفي سنة ٨٠٠هـ/ ١٣٩٧م<sup>(١)</sup>.

٤- علي بن عبد العزيز بن عمر المالكي، شيخ القراءات بالمدرسة الشيخونية. توفي سنة ٨٠٠هـ/ ١٣٩٧م<sup>(٢)</sup>.

٥- أحمد بن محمد بن موسى الشوبكي. رحل إلى مكة وجاور بها، واشتغل بالفقه والعربية وأتقن القراءات، فقرأ عليه بمكة عددٌ كثيرٌ. توفي بمكة سنة ٨٠٠هـ/ ١٣٩٧م وخلف بنتين هما: سعيدة وزينب اشتهرتا بعلم الحديث وحدثتا به في مكة<sup>(٣)</sup>.

ج- في مجال الفقه:

١- سريجاً بن محمد بن سريجاً الملطي. كان إماماً بارعاً وفقهياً، شافعي المذهب، وله عدة مؤلفات أهمها: قصيدة شعرية في القراءات السبع سماها «نهاية الجمع في القراءات السبع» بلغت القصيدة نحو ألف ومائتي بيت. توفي سنة ٧٨٨هـ/ ١٣٨٧م<sup>(٤)</sup>.

(١) ابن حجر العسقلاني، أنباء الفهر، ج٢، ص٣٩٨-٤٠١. وابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج١، ص١١-١٢. وابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٤٩٥.

(٢) ابن حجر العسقلاني، أنباء الفهر، ج٢، ص٣٠٦.

(٣) الحنبلي، شذرات الذهب، ج٦، ص٣٦٤. وابن إياس، بدائع الزهور، ج١، ق٢، ص٤٩٥.

(٤) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٢، ص٢٢٥-٢٢٦.

٢- محمد بن عبد الله الصرخدي، أحد الفقهاء البارعين بأصول الفقه، أخذ العربية عن العناني. وتولى الإفتاء والتدريس في عدة أماكن. ومن أهم آثاره «شرح المختصر»، واختصار كتاب قواعد العلاني، ومهمات السنوي. توفي سنة ٧٩٢هـ / ١٣٨٩م<sup>(١)</sup>.

٣- بدر الدين محمد بن عبد الله المنهجي الفقيه المعروف بالزركش، ولد سنة ٧٤٥هـ / ١٣٤٤م. تعلم على يد كبار العلماء، فأخذ الحديث عن ملقطاي، والفقه عن جمال الدين الأسنوي. رحل إلى دمشق وتفقه بها، ثم رحل إلى حلب. ثم أقبل على التأليف، ومن أهم مؤلفاته: «تخريج أحاديث الرافعي»، و«شرح جمع الجوامع»، و«شرح المنهاج»، و«البحر في أصول الفقه»، و«أحكام المساجد»، و«نظم الجمان في محاسن أبناء الزمان». توفي سنة ٧٩٤هـ / ١٣٩١م<sup>(٢)</sup>.

٤- أحمد بن صالح بن أحمد بن خطاب بن رقيم البقاعي المعروف بالزهري <sup>أحمد بن صالح</sup> <sup>بن أحمد</sup> <sup>بن خطاب</sup> <sup>بن رقيم</sup> <sup>البقاعي</sup> <sup>المعروف</sup> <sup>بالزهري</sup> <sup>الدمشقي</sup> <sup>الفقيه</sup>. ولد سنة ٧٢٣هـ / ١٣٢٣م. أخذ الفقه عن الأردبيلي والفخر المصري وابن قاضي شهبة. درس الفقه حتى برع فيه. تولى عدة وظائف كالتدريس بالمدرسة الشامية والقلجية والعدلية. كما تولى إفتاء دار العدل. والقضاء في ولاية الأمير منطاش. توفي سنة ٧٩٥هـ / ١٣٩٢م<sup>(٣)</sup>.

٥- إسماعيل بن أحمد بن علي بن عماد الدين الباريني الحلبي الفقيه، ولد سنة ٧١٩هـ / ١٣٨٨م، قدم من حلب لطلب العلم، فقرأ على الشيخ علي المنفلوطي، وولاه سراج الدين عمر البلقني قضاء بعلبك، كما تولى خطابة القدس، وقضاء الشوبك. كما اشتغل بالحديث والإفتاء والتدريس. توفي سنة ٧٩٨هـ / ١٣٩٥م<sup>(٤)</sup>.

(١) ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ٢، ص ٤٨-٤٩.

(٢) المصدر ذاته، ج ٢، ص ١٢٩-١٤٠. وابن تفردي بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ١٢٤.

(٣) المصدر ذاته، ج ٢، ص ١٧٠. وابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج ١، ص ١٥٠-١٥١. وابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، ج ٢، ص ١٩٤.

(٤) ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ٢، ص ٢٩٩.

٦- محمد بن علي بن يعقوب النابلسي، ولد سنة ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م تقريباً، كان فقيهاً. مشاركاً في العربية والأصول والميقات، حفظ أكثر المنهاج للبارزي والعمدة، ومختصر ابن الحاجب. توفي سنة ٨٠١هـ / ١٣٩٨م<sup>(١)</sup>.

٦- أحمد بن عبد الله بن بدر بن عثمان الغزي العامري، ولد سنة ٧٦٠هـ / ١٣٥٨م بغزة ونشأ بها، قدم إلى دمشق واستقر بها ولازم علماءها، وبرع في الفقه والأصول، عمل في الإفتاء والتدريس. وله عدة مؤلفات أهمها: «شرح الحاوي على الفقه»، و«شرح جمع الجوامع»، كما علق على صحيح البخاري. وتولى عدة مناصب في الدولة مثل نظر البيمارستان النوري. توفي سنة ٨٢٢هـ / ١٤١٩م<sup>(٢)</sup>.

٨- محمد بن محمد بن عثمان الجهني المعروف بابن البارزي. اشتهر بالفقه والنحو والأدب. ولد سنة ٧٦٩هـ / ١٣٦٧م بحماه ونشأ بها. قرأ الفقه والنحو والأدب، وتولى عدة مناصب مثل كتابة السر بحماه، وقضاء القضاة، وخطابة الجامع الأموي بدمشق، وقضاء القضاة بحلب. تعلق بصحبة الأمير شيخ الحمودي نائب السلطنة في بلاد الشام. توفي سنة ٨٢٣هـ / ١٤٢٠م<sup>(٣)</sup>.

١- علي بن عبد القادر المراغي الصوفي، برع في الفقه والأصول والطب والنجوم، وتميز بالعلوم العقلية. كان أحد الصوفية بالمدرسة السميائية<sup>(٤)</sup>، فشهد عليه بالاعتزال فعزر على ذلك واستتب، ثم عين في خانقاه خاتون. توفي سنة ٧٨٨هـ / ١٣٨٦م<sup>(٥)</sup>.

- (١) ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ٤، ص ٨٨. وابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، ج ٤، ص ١٧.
- (٢) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ١، ص ٣٥٠-٣٥١. والسخاوي، الضوء اللامع، ج ٦، ص ١٧. وابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، ج ٤، ص ١٠٠.
- (٣) المقرئ، المقفى الكبير، ج ٧، ص ٧١-٧٢. وابن قاضي شهبة، طبقات الشافعية، ج ٤، ص ١٣٧.
- (٤) المدرسة السميائية: أنشأها أبو القاسم علي بن محمد بن يحيى السلمي الحبشي من أكابر دمشق (ت ٤٥٢هـ) ويذكر النعمي أنها من الخانقاوات. النعمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج ٢، ص ١٥١.
- (٥) ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ٢، ص ٢٣٩. والنعمي، الدارس في تاريخ المدارس، ج ٢، ص ١٦١.

٢- أحمد بن محمد السيرافي، برع في الفقه والأصول وعلمي المعاني والبيان، درس في مدينة هراه وخارزم، وقدم إلى حلب واشتهر بها، وعندما أنشأ السلطان برقوق المدرسة الظاهرية (برقوق) استدعاه إلى القاهرة وعينه مدرساً للمذهب الحنفي وشيخاً للصوفية. توفي سنة ٥٧٩هـ / ١٣٨٨م<sup>(١)</sup>.

٣- عبد الله بن علي بن محمد بن أبي الفتح العسقلاني. كان ديناً خيراً يلبس لباس الأجناد، فألبسه القطب القسطلاني خرقة التصوف وأصبح من الصوفية. حدث بمسند الإمام أحمد بن العرضي فأقبل عليه عدد كبير. توفي سنة ٨١٧هـ / ١٤١٥م<sup>(٢)</sup>.

#### ٤- القضاء:

١- القاضي برهان الدين إبراهيم بن عبد الرحمن بن محمد بن جماعة، ولد سنة ٧٢٥هـ / ١٣٢٤م، سمع عن أبيه وعمه، ومن بعض شيوخ مصر، ورحل إلى بلاد الشام ولازم المزي والذهبي وأخذ عنهما. تولى عدة مناصب مثل خطابة بيت المقدس، والإفتاء، والقضاء بمصر. توفي سنة ٥٧٩هـ / ١٣٨٨م<sup>(٣)</sup>.

٢- شهاب الدين أحمد بن عمر بن أبي بكر بن أبي الرضا الحلبي. كان من أذكيا عصره، تولى عدة مناصب مثل القضاء في حلب. واشترك في ثورة الناصري ضد السلطان برقوق وأفتى بقتله وكان يركب بنفسه والمنادي ينادي «قوموا أنصروا الدولة المنصورية بأنفسكم وأموالكم فإن الظاهر من المفسدين العاصين الخارجين،

(١) القريني، المقفى الكبير، ج ١، ص ٥٩٤.

(٢) المصدر ذاته، ج ٤، ص ٦١٦.

(٣) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج ١، ص ٢٩-٤٠. وابن تغري بردي، التجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٣١٤-٣١٥.

فإن سلطنته ما صادقت محلاً. وعندما عاد السلطان برقوق إلى الحكم نقم عليه وأمر بحمله إلى القاهرة حيث اغتيل في الطريق سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٨م. من آثاره شرح العضد، ونظم غريب القرآن<sup>(١)</sup>.

٣- أحمد بن فلهيرة بن أحمد بن عطية المخزومي القرشي، ولد سنة ٧١٨هـ / ١٣١٨م، سمع من نجم الدين الطبري، وعيسى الحجي وغيرهم، وحدث وتفقه على النجم الأصفهوني والعلاني. أذن له بالإفتاء، وتولى القضاء بمكة. توفي سنة ٧٩٢هـ / ١٣٨٩م<sup>(٢)</sup>.

٤- القاضي أحمد بن إسماعيل بن محمد بن وهيب الأزرعي، ولد سنة ٧٢٠هـ / ١٣٢٠م، سمع من الحجار وحدث عنه، وتولى قضاء مصر، وقضاء دمشق عدة مرات؛ كان آخرها سنة ٧٩٧هـ / ١٣٩٤م. ودرس في عدة أماكن. وهو من أقدم المدرسين والقضاة. توفي سنة ٧٩٩هـ / ١٣٩٦م<sup>(٣)</sup>.

٥- القاضي شمس الدين محمد بن أحمد بن أبي بكر الطرابلسي، تعلم الفقه في طرابلس، ثم رحل إلى القاهرة، درس بالمدرسة الصرغتمشية. فأخذ الفقه عن السرج الهندي، وناب في الحكم، وتولى القضاء بالقاهرة. وكان خبيراً بالأقضية، عارفاً بالوثائق (وسجلات العقود). توفي سنة ٧٩٩هـ / ١٣٩٦م<sup>(٤)</sup>.

(١) ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ٢، ص ٣٦٠-٣٦١.

(٢) المصدر ذاته، ج ٢، ص ٣٦-٣٧.

(٣) المصدر ذاته، ج ٢، ص ٢٤٠.

(٤) المصدر ذاته، ج ٢، ص ٢٥٨.

٦- قاضي القضاة إسماعيل بن إبراهيم بن محمد بن علي، ولد سنة ٧٢٩هـ/ ١٣٢٨م، تفقه بمذهب أبي حنيفة بالقاهرة، وسمع الحديث بها. برع في الفقه والنحو. وشارك في الحديث، وكتب في توقيح القضاة بحوانيت الشهود. ثم ولاة السلطان الظاهر برقوق قضاء القضاة الحنفية بالقاهرة. توفي سنة ٨٠٢هـ/ ١٣٩٩م<sup>(١)</sup>.

٧- قاضي القضاة محمد بن إبراهيم بن إسحاق المناوي، ولد سنة ٧٤٢هـ/ ١٣٢٣م، برع في الفقه وغيره من العلوم الدينية، وناب في الحكم عدة سنين، ودرس بالمدرسة المنصورية والشيخونية. كما تولى إفتاء دار العدل، وصار من أجل قضاة مصر وأعيان الفقهاء بها. له عدة مصنفات أهمها: «تنقيح المصابيح»، و«فرائد الفوائد»، و«تعارض القولين لمجتهد واحد»، و«مناقب الإمام الشافعي». عزله السلطان الظاهر برقوق عن قضاء مصر لأنه لم يقرضه من أموال الأيتام. توفي سنة ٨٠٢هـ/ ١٤٠٠م<sup>(٢)</sup>.

٨- قاضي القضاة أحمد بن إسماعيل بن خليفة المعروف بالحسباني، ولد سنة ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م، كان إماماً وفقياً وبارعاً بالفقه والعربية والحديث، عمل في التدريس والإفتاء عدة سنين. وتولى قضاء القضاة الشافعية بدمشق. توفي بدمشق سنة ٨١٥هـ/ ١٤١٥م<sup>(٣)</sup>.

(١) المقرئ، القضي الكبير، ج ٢، ص ٦٣-٦٤.

(٢) المصدر ذاته، ج ٥، ص ٧٩-٨٠. والسلوك، ج ٢، ق ٢، ص ١٠٧٣.

(٣) ابن تفرري بردي، المنهل الصافي، ج ١، ص ٢٤٢-٢٤٣. والسخاوي، الضوء اللامع، ج ١، ص ٢٣٧-٢٣٩. وابن قاضي شهبه، طبقات الشافعية، ج ٤، ص ٩.

٩- القاضي محب الدين محمد بن محمد بن الوليد بن الشحنة، ولد سنة ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م بحلب، اشتغل بالتدريس والإفتاء، وعين قاضياً بحلب ثم عزل؛ ثم أعيد إلى منصبه وظل فيه حتى قيام ثورة الأمير الناصري ضد السلطان برقوق سنة ٧٩١هـ/ ١٣٨٨م. فعزله السلطان برقوق بسبب تحيزه للأمير الناصري. له عدة مصنفات أهمها: اختصر تاريخ المؤيد صاحب حماه وذيل عليه إلى زمنه عن طريق الاختصار، والسيرة النبوية، والرحلة القصرية بالديار المصرية. توفي سنة ٨١٥هـ/ ١٤١٥م<sup>(١)</sup>.

١٠- قاضي القضاة ولي الدين أحمد بن عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن أبو زرعة العراقي، ولد سنة ٧٦٢هـ/ ١٣٦٠م. تفقه على علماء عصره كسراج الدين البقليني وغيره، وبرع بالفقه والأصول والعربية. تولى منصب قاضي القضاة بالقاهرة بعد القاضي جلال الدين البقليني إلى أن تعصب عليه بعض أهل الدولة. فعزل عنها. له عدة مؤلفات أهمها: «تحفة التحصيل في ذكر رواة المراسيل»، و«تحفة الوارد وترجمة الوالد»، و«شرح الصدر بذكر ليلة القدر»، و«فضل الخيل، والنيل»، و«الدليل القويم على جمع التقاويم». توفي سنة ٨١٦هـ/ ١٤١٦م<sup>(٢)</sup>.

١١- القاضي برهان الدين إبراهيم بن محمد بن عيسى العجلوني، ولد سنة ٧٥٢هـ/ ١٣٥١م. بعجلون، حفظ المنهاج وهو صغير، وتلقى العلم على مشايخ عصره، ودأب على دراسة الفقه. وتولى منصب القضاء في صفد في سلطنة الظاهر برقوق، وبعد فتنة تيمورلنك عاد إلى دمشق وناب بها في القضاء مدة، ثم درس في المدرسة الركنية. وكان حسن العشرة سليم الباطن فقيهاً مصنفاً، يحفظ كثيراً

(١) السخاوي، ذيل رفع الأصر، ص ٤٠٦-٤١١.

(٢) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ١، ص ٢٢٢-٢٣٥. وابن قاضي شعبة، طبقات الشافعية، ج ٤، ص ١٠٢.



من شعر المتنبي ويتعصب له. وكان الشيخ البلقيني يفرط في الثناء عليه. من مصنفاته: «شرح على المنهاج». قال عنه السخاوي: «هو في الشاميين نظير البيجوري في المصريين» توفي سنة ٨٢٥هـ / ١٤٤٨م<sup>(١)</sup>.

## ٢- الحركة الأدبية:

تميزت فترة حكم سلاطين المماليك بالاهتمام بالحركة الأدبية. فقد شجع سلاطين وأمراء المماليك الأدباء والشعراء وضموهم إلى بلاطهم. فقد كان السلطان برقوق مولعاً بمجالس العلماء والأدباء وصاحب ذوق سليم ورفاهية بالغة بالأدب<sup>(٢)</sup>. بعيداً عن مجالس اللهو والطرب<sup>(٣)</sup>. لذا برز عددٌ من الأدباء والشعراء في هذه الفترة مثل شهاب الدين أبو العباس أحمد بن يحيى بن مخلوف الذي يعد من الشعراء المشهورين، امتاز بالفضيلة وعلو القدر. كان ماركاً بالقراءات السبع، قال الشعر وعمره دون سن العشرين. وعمل في تدريس الشعر<sup>(٤)</sup>. مدح السلطان برقوق بعدة قصائد عند توليه السلطنة سنة ٧٨٤هـ / ١٣٨٢م<sup>(٥)</sup>. توفي سنة ٧٨٥هـ / ١٣٨٣م. ومن أشعاره التي قالها في مدح السلطان برقوق:

تولى الملك برقوق المفدى      بسعد الحد والأقدام حتم  
نهار الأربعاء بُعيد ظهر      وللتربيع في الأفلاك حكم  
بتاسع عشر رمضان لعام      لأربع مع ثمانين تتسم

(١) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ١، ص ١٥٣-١٥٤. والسخاوي، الضوء اللامع، ج ١، ص ١٥٧. وابن قاضي شهبه، طبقات الشافعية، ج ٤، ص ٩٣.

(٢) عبد الرحمن زكي، القاهرة، ص ١٧٧.

(٣) ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٥٠٠.

(٤) ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ١، ص ١٨١. وابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج ١، ص ٨٣٤. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٢٩٧. والعتبلي، شذرات الذهب، ج ٦، ص ٢٨٧.

(٥) ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٤٤.

وسبع في مئتين عابرات  
ولما همّ همّ السيف منه  
أنته أئمة الإسلام طراً  
وجاء له الخليفة في سواد  
وقلده بسيف الملك طوعاً  
وألبسه السواد فزاد حسناً  
وسمي «ظاهراً» تصديقاً  
وكنى عاجلاً «بأبي سعيد»  
وأرسلت السماء الغيث بشراً  
فقلت له: يتم الملك دهرأً  
مضت فيها جديس ثم طمس  
بحرب قيل إن الناس سلم  
إلى أبوابه سعيأً يؤم  
فسلطنه وفي الأفاق رغم  
فيا لك صارماً ما فيه ثلم  
كان جبينه بسدر متمم  
نطقت به وما في ذلك إثم  
فوافق نجمه سعد ونجم  
لأهل الأرض كلهمو تعم  
لبرقوق فقال: نعم يتم<sup>(١)</sup>

ومن شعره أيضاً:

إن الكريم إذ تنجس عرضُه  
مما اعتراه من القذارة والقذى  
لو طهروه بزمزم لم يطهرُ  
لم ينقُ من نجس بسبعة الجر<sup>(٢)</sup>

ومن أشعاره التي انتقد فيها سياسة السلطان برقوق وسيطرة القبط على

موارد الدولة الاقتصادية قوله:

وكيف يرومُ الرزقُ في مصرَ عاقلُ  
وقد جمعتهُ القبطُ من كلِّ جهةٍ  
ومن دونه الأتراكُ بالسيفِ والتُّرسِ  
لأنفسهم بالربيعِ والثمنِ والخُمسِ  
فلترك والسُلطانُ ثلثُ خراجها  
وللقبط نصفُ والخلائقُ في السُدسِ<sup>(٣)</sup>

(١) ابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٤٤-٤٥.

(٢) المصدر ذاته، ج ١، ص ٨٩.

(٣) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج ١، ص ٣٥٦. وابن حجر العسقلاني، أنباء الفجر، ج ٢، ص ١٤٣. والسخاوي، وجيز الكلام، ج ١، ص ١٥٢-١٥٤.

كما اشتهر في مجال الأدب والشعر شرف الدين أبو البركات موسى بن محمد بن محمد، الذي كان يُعد أحد فضلاء الأدب والكتابة. كان يمتاز بحسن الخط والنثر ونظم الشعر. تولى كتابة الإنشاء في حلب. وتوفي بمدينة الرملة بفلسطين سنة ٧٨٥هـ / ١٢٨٢م وعمره نحو ثلاث وأربعين سنة. من شعره:

ومجموع كعقد الدر نظماً      على تفضيله الإجماع عقد  
يطابق كل معنى فيه حسناً      فمجموعاً تراه وهو فرد<sup>(١)</sup>

كما برز في مجال الأدب والشعر محمد بن عبد الله العبسي القاهري. وهو أديب فاضل، نظم الشعر، وتولى عدة مناصب في الدولة كاستيفاء الأحباس، والكتابة على التواقيع. توفي في شعبان سنة ٧٨٧هـ / ١٢٨٥م. ومن شعره:

بي من بني الترك رشيف      مثل الغزلان مقبلاً ومعرضاً  
ما جاءني قط بليل زائراً      إلا كبرق في الظلام أو مضاً<sup>(٢)</sup>

ويعد أحمد بن محمد بن أحمد بن سليم بن حنا من كبار أدباء مصر. ولد سنة ٧١٠هـ / ١٣١٠م. كان فقيهاً ومدرساً وخطيباً وشاعراً، سمع من والده وأبي الفتح ابن سيد الناس، عمل في العلوم وبرع فيها، وكان ماهراً في لعب الشطرنج، ونظم القصائد النبوية. تولى عدة وظائف في الدولة كالتدريس في المدرسة الشريفة في مصر. جمع شعره وشعر غيره من الشعراء في ديوان واحد سماه «شاد الدواوين» وأفرد مما له من شعر في النيل وسماه «مقتطعات النيل». ومن مصنغاته أيضاً شرح قطعة من مقامات الحريري، واختصر تلخيص المفتاح سماه «لطيف المعاني». توفي سنة ٧٨٨هـ / ١٣٨٦م. من شعره:

(١) ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج٢، ص ١٥٢-١٥٤.

(٢) المصدر ذاته، ج٢، ص ٢٠٨. والمقرئ، السلوك، ج٢، ق٢، ص ٥٢٩.

أميل لشطرنج أهل النهى  
وأشكوه من ناقلِ الباطلِ  
وكم رُمت تهذيبُ لغابِها  
وتأبى الطُّبَاعُ على الناقلِ<sup>(١)</sup>

ويعد محمد بن عبد الله بن أحمد بن إبراهيم الأسجي من الشعراء البارعين في نظم الشعر والمكثرين فيه<sup>(٢)</sup>، أخذ عنه نجم الدين المرجاني. توفي سنة ٧٨٨هـ/ ١٣٨٦م<sup>(٣)</sup>. أما محمد بن محمد بن علي بن حزب الله المعزي، فقد قرأ بخط القاضي برهان الدين بن جماعة، وله نظم متوسط في الشعر. من أهم مصنفاته: «عرف الطيب في وصف الخطيب» صنّفه لبرهان الدين بن جماعة. توفي سنة ٧٨٨هـ/ ١٣٨٦م. من شعره:

لبريق الإبريق والنقا      طار مني القلب إذ تألقا<sup>(٤)</sup>

كما برز في مجال الشعر شهاب الدين أبو العباس أحمد الدنيسري المعروف بابن العطار. ولد سنة ٧٤٦هـ/ ١٣٤٥م، واشتغل بالفقه على المذهب الشافعي، والأدب والشعر، قال: «نظمت الشعر ولي ثلاث عشرة سنة». وقد تناول في أشعاره مواضيع مختلفة كالمدح والهجاء والغزل. واتبع في ذلك أسلوب الجد والهزل. ومن أهم مصنفاته: لطائف اللطائف، ونزهة الناظر في المثل السائر، وعنوان السعادة، وفرائد الإعصار في مدح النبي المختار، والسلوك الفاخر،

(١) ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج ٢، ص ١٩٦. والمقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٥٥٥. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١١، ص ٣٠٧. وابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ٢، ص ٢٢٩-٢٣٠. وأورد السخاوي في كتابه وجيز الكلام أبيات الشعر بصورة مختلفة:

أميل لشطرنج أهل التقى      وأسأوه من ناقلِ الباطلِ  
وكم رُمت تهذيبُ لغابِها      وتأبى الطُّبَاعُ على الناقلِ  
أنظر السخاوي، وجيز الكلام، ج ١، ص ٢٧٨.

(٢) بالرغم من كثرة شعره إلا أنني لم أجد له شعراً في المصادر التي ترجمت له.

(٣) ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ٢، ص ٢٤٢.

(٤) المصدر ذاته، ج ٢، ص ٢٤٤.

والموشحات النبوية، والعهود العمرية؛ وهو موجز في أحوال النصارى واليهود،  
 وزهرة الربيع في التشابه، وبديع المعاني في أنواع التهاني، والدر الثمين في  
 حسن التضمين، ونتائج الأفكار، ومرقص الطرب؛ وهو كتاب في الغزل، والاقتراح  
 في وصف الملاح، والصادح والناجح هجا فيه الوزير ابن مكناس - أحد الشعراء  
 المشهورين في مصر<sup>(١)</sup>. له ديوان شعر سماه «جامع الحاسن». توفي سنة ٧٩٤هـ/

١٣٩١م. ومن أشعاره التي امتدح فيها السلطان برقوق حين تولى السلطنة:

ظهور يوم الأربعاء ابتدئ	بالظاهر المعتز بالقاهرة
والبشر قد عمّ وكل امرئ	منشرح الباطن «بالظاهر»
الحمد لله لنا غاية الأرب	وفرّج الله عنا أضييق الكرب
وسعدنا ظاهر لا يختص أبداً	بالمك الظاهر المحفوظ في النوب
أبو سعيد سعيد الرأي من خضعت	له جميع ملوك العجم والعرب
الله ينصره، الله يعضده	الله يحفظه من كيد مرتقب
الله يعطيه ما نرجوه من أمل	الله يحميه بالآيات والكتب

ويذكر ابن الصيرفي بأن هذه القصيدة طويلة اختصرها للإجاز في الكلام<sup>(٢)</sup>.

ومن شعره في الغزل:

هجرتني بعد وصل	فَمَدْمَعُ الصَّبِّ صَبُّ
ولست أشكو ولكن	قطع العوائد صعبُ

ومن شعره في أهل العلم:

لحوم أهل العلم مسمومة	ومن يعاديهم سريع الهلاك
فكن لأهل العلم طوعاً وإن	خالفتهم يوماً فخذ ما أتاك <sup>(٣)</sup>

(١) أنظر فيما بعد.

(٢) ابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ٢، ص ٢٢٨-٢٢٩. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٤٥-٤٦.

(٣) ابن الفرات، تاريخ، م ٩، ج ٢، ص ٢١٤. وابن قاضي شهبه، تاريخ، ج ٢، ص ٤٣٥-٤٣٦. وأنظر المقرئ، السلوك، ج ٢، ص ٧٧٦. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٤٥٢.

أما القاضي علاء الدين علي بن علي بن عبد الله بن يوسف البيري الحلبي؛ فقد كان شاعراً وكاتباً ومنشئاً. برع في كتابة الإنشاء والأدب، خدم عدداً من سلاطين المماليك إلى أن اتصل بخدمة الأمير يلبغا الناصري الأتابك، وشارك معه في قتال السلطان برقوق، وحين تمكن الأمير يلبغا الناصري من عزل السلطان برقوق من السلطنة، صار علاء الدين من عظماء الدولة، ولكن عندما عاد السلطان برقوق ثانية إلى السلطنة وقبض على الناصري وخنقه؛ قبض على علاء الدين وأرسله إلى القاهرة، ثم قتله في ١٠ ربيع الأول سنة ٧٩٤هـ / ١٣٩١م. ومن شعره:

أرى البدر لما أن دنا لغروبه      وألبس منه أزرق الماء أبيضاً  
توهم أن البحر رام التقامه      فسل له سيفاً عليه مفضضاً<sup>(١)</sup>

واشتهر الوزير فخر الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن إبراهيم القبلي المعروف بابن مكانس في نظم الشعر. حيث يُعد من مشاهير شعراء القاهرة، وأدبائها الذين امتازوا بالفصاحة والبلاغة. ويذكر ابن تغري بردي بأنه كان: «لا يُعرف من أبناء جنسه من الأقباط من يقاربه أو يدانيه، وهو أحد فحول الشعراء في مصر»<sup>(٢)</sup>. تولى عدة وظائف في الدولة أثناء فترة حكم السلطان برقوق كالوزارة في دمشق، وناظر الدولة في مصر<sup>(٣)</sup>، له ديوان شعر «كثر الوقوع بأيدي الناس»<sup>(٤)</sup>. مات مسموماً سنة ٧٩٤هـ / ١٣٩١م<sup>(٥)</sup>. ومن شعره حين صادره السلطان برقوق:

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ١٢٨.

(٢) المصدر ذاته، ج ١٢، ص ١٢٣.

(٣) القريني، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٧٧٨.

(٤) اطلعت على ديوان شعره، وهو من النواوين الشعرية المنتثرة. يوجد نسخة مصورة في مركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الأردنية، تحت رقم ١٣٩٤. وسبشار إليه ابن مكانس، ديوان.

(٥) ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ٢، ص ١٢٢. وابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج ٢، ص ٤٢٨. والحنبلي، شذرات الذهب، ج ٦، ص ٣٢٤.

رب خذ بالعدل قوماً      أهل ظلم متوالي  
كلفوني بيع خيلي      برخيص وبغالي

ومن شعره أيضاً:

زارت مُعطرةً الشذا ملفوفة      كي تختفي فإبى شذا العطرِ  
يا معشر الأدياء هذا وقتكم      فناظموا في اللُفت والنشرِ<sup>(١)</sup>

وله أيضاً:

علقتُها مَعْشُوقَةً خالها      قد عمها بالحسن بل خصماً  
يا وصلها الغالي ويا جسمها      لله ما أغلى، وما أرخصاً<sup>(٢)</sup>

أما أبو بكر بن فخر الدين عثمان العجمي فقد برز في مجال الأدب والكتابة والشعر في مصر، حيث كتب بخطه الكثير من الأحاديث والأشعار<sup>(٣)</sup>. وتولى عدة وظائف في الدولة كالتوقيع في القاهرة<sup>(٤)</sup>. توفي في ١٦ ذي الحجة سنة ٧٩٥هـ/ ١٣٩٢م<sup>(٥)</sup>. من شعره في الغزل:

قد عاود الحُب قبلي بعد سلوته      واستعذب الضيم والتعذيب والنصبا  
وكان أقسم لا يصبوا الظبي نفاً      فما رأى في هوى غزلانه وصباً<sup>(٦)</sup>

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ١٢١. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٤٥٦.

(٢) السخاوي، وجيز الكلام، ج ١، ص ٣٠٤.

(٣) ابن الفرات، تاريخ، ج ٩م، ص ٣٥٢.

(٤) ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ٢، ص ١٩١.

(٥) المقرئ، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٧٩٢. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٤٦٤.

(٦) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ١٢٥. وابن قاضي شهبه، تاريخ، ج ٢، ص ٤٨٤. وابن المصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٣٦٨. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٤٦٣-٤٦٥.

كما برز في مجال الأدب ونظم الشعر والعربية والفقه أمين الدين أبو عبد الله محمد بن محمد الحمصي الذي ولد سنة ٧٥١هـ / ١٢٦٠م. تفقه بدمشق، وبرع في العربية والأدب ونظم الشعر، وكان عارفاً بالموسيقى وتأديته، تولى كتابة السر بدمشق. وتوفي سنة ٨٨٠هـ / ١٣٩٧م. من شعره:

ضلوا الماء لما أن سروا سحراً      قومي فظلوا حيارى يلهثون ضمناً  
والله أكرمني بالورد دونهم      فقلت «يا ليت يعلموني بما»<sup>(١)</sup>

عجبت  
أما محمد بن أحمد

أما محمد بن أحمد بن سليمان بن يعقوب المعروف بابن خطيب داريا الأنصاري الذي ولد سنة ٧٤٥هـ / ١٣٤٧م، فقد برز في مجال الأدب وصار من أئمتها، سمع الحديث بدمشق ومصر، ومدح كبار أعيان مصر وبلاد الشام. له عدة مصنفات أهمها: شرح ألفية ابن مالك في النحو، وسبك النظم مع الشرح، واللبيب الضرغام في اللغة رتبته حسب حروف المعجم. كما عرف عنه ولعه بعلم الكيمياء؛ حيث اشتغل به مدة طويلة. توفي في مدينة بيسان سنة ٨٠١هـ / ١٣٩٨م. من شعره:

لم أسع في طلب الحديث لسمعة      أو لاجتماع قديمه وحديثه  
لكن إذا فات المحب لقاء من      يهوى، تعال باستماع حديثه<sup>(٢)</sup>

عجبت  
كما اشتهر علي بن أبيك بن عبد الله

الدمشقي بنظم الشعر والمدائح النبوية وغيرها. واهتم بالتاريخ؛ حيث كان له تعاليق تاريخية على الحوادث التي حدثت في زمانه. توفي سنة ٨٠١هـ / ١٣٩٨م. ومن شعره:

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ١٦٢-١٦٤.

(٢) المقرئ، المقفى الكبير، ج ٥، ص ١٧٩-١٨٠.



مليح قام يجذب غصن بان      فمال الغصن منعطفاً عليه  
وميل الغصن نحو أخيه طبع      وشبه الشيء منجذب إليه<sup>(١)</sup>

يلاحظ من خلال دراسة الحركة الأدبية في دولة المماليك أن أغلب أدباء وشعراء هذه الفترة ركزوا على شرح مؤلفات غيرهم من الأدباء والشعراء أو القيام بتلخيصها أو كتابة ملخص للملخصات أخرى سابقة. وليس ثمة إبداعات أدبية أو شعرية واضحة تدل على ازدهار الحركة الأدبية باستثناء القليل منها كالتي عالجت الأحوال الاقتصادية، وظلم الأمراء والمماليك، وسياسة الظلم والاستبداد المتمثلة بمصادر موظفي الدولة وغيرهم. أما باقي المواضيع فقد ركزت على المديح والغزل وغيرها.

### ٣- العلوم العقلية:

تشتمل العلوم العقلية على الطب والهندسة والكيمياء والحساب وعلم الميقات. وقد لاقت مختلف هذه العلوم تشجيع واهتمام سلاطين المماليك ولاسيما الطب والصيدلة. فقد اهتم السلطان برقوق كغيره من سلاطين المماليك باستقطاب أشهر الأطباء إلى مصر وبلاد الشام أثناء فترة حكمه. فقد ذكر ابن إياس «أنه حين وصل رسول أبي يزيد بن عثمان متمك الروم إلى القاهرة سنة ٧٩٥هـ/ ١٣٩٢م يحذره من تيمورلنك ويطلب منه طبيباً حاذقاً لعلاج المرض الذي أصيب به في فواصله، بعث إليه برئيس الأطباء شمس الدين بن صغير أشهر أطباء مصر وبلاد الشام، وبصحبته حملان من الأدوية، وهدية حافلة»<sup>(٢)</sup>.

(١) ابن حجر العسقلاني، أنباء النمر، ج ٤، ص ٦٧.

(٢) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٧٩٠. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٢٦٥. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٤٦٢.

وقد برز عدد كبير من العلماء في مصر وبلاد الشام في مجالات الطب والهندسة، والحساب والميقات. وفيما يلي عرض لأشهر العلماء الذين برعوا في مختلف العلوم العقلية:

#### ١- الطب:

١- عوض اليهودي الطبيب: كان قاضياً لليهود، وله شهرة واسعة في مجال الطب، ومقرباً من رجال الدولة والأعيان، عمل في النحو. وتوفي في رمضان سنة ٧٩٠هـ / ١٣٨٨م<sup>(١)</sup>.

٢- عبد الواحد بن عبد الله المعزي المعروف بابن اللوزي. يعد من كبار الأطباء الماهرين في الطب والهيئة وغير ذلك. توفي في شوال سنة ٧٩٠هـ / ١٣٨٨م<sup>(٢)</sup>.

٣- علاء الدين بن عبد الواحد بن صفيير. رئيس الأطباء في مصر، وأحد أعلام علم الطب. كان يرافق الجيش عند خروجه إلى القتال. توفي سنة ٧٩٦هـ / ١٣٩٣م في حلب في أحد التجاريد التي خرج بها مع السلطان برقوق<sup>(٣)</sup>. ويذكر ابن تغري بردي: «أنه كان يصف الدواء بأربعين ألف درهم للميسر، ويصف الدواء نفسه للمعسر بفلس واحد»<sup>(٤)</sup>. رغبة في عمل الخير، بحيث كان قد جعل من ماله مبلغ خمسة آلاف دينار للقرض برهن قصداً للثواب<sup>(٥)</sup>.

(١) ابن قاضي شهبه، تاريخ، ج ٣، ص ٢٠٢.

(٢) ابن حجر العسقلاني، أنباء الفجر، ج ٢، ص ٢٠٢.

(٣) المقرئ، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٨٢١، وابن حجر العسقلاني، أنباء الفجر، ج ٢، ص ٢٢٨-٢٢٩. وابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج ٣، ص ١٥١، وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٢٩٤.

(٤) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ١٤٠.

(٥) السخاوي، وجيز الكلام، ج ١، ص ١٣٢.

٤- صدر الدين بديع بن نفيس، رئيس الأطباء<sup>(١)</sup>، أسلم بإسلام أبيه، تقدم في الطب، وعينه السلطان برقوق شريكاً لعلاء الدين بن صغير في رئاسة الأطباء في مصر «وكان إماماً من أئمة علماء الطب والحساب والنجوم وغير ذلك من الفنون الحرفية»<sup>(٢)</sup>. له عدة تصانيف<sup>(٣)</sup> توفي سنة ٧٩٧هـ / ١٣٩٤م<sup>(٤)</sup>.

٥- إبراهيم بن عبد الله الخلاطي الشريف الدردي، ولد نحو سنة ٧٢٠هـ / ١٣٢٠م. قدم إلى حلب وسكن إحدى زوايا الصوفية فيها. برع في عدة مجالات كالطب والكيمياء وصناعة اللازرد، حيث لم يسمح لأحد بتعلم ما كان يعرفه من صناعة اللازرد، كان معظماً عند الأمراء والأعيان. توفي سنة ٧٩٩هـ / ١٣٩٦م. وكانت له جنازة كبيرة<sup>(٥)</sup>.

٦- فتح الله معتصم بن نفيس الداودي، كان جده يهودياً قدم من تبريز في سلطنة الناصر حسن بن محمد بن قلاوون إلى القاهرة، واختص بالامير شيخون العمري، وأصبح طبيباً الخاص، ثم أسلم على يد السلطان حسن بن قلاوون. وتولى رئاسة الطب في القاهرة بعد وفاة علاء الدين بن صغير، واختص بالسلطان الظاهر برقوق، فولاه كتابة السر<sup>(٦)</sup>.

(١) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٨٨٤. وابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج ٢، ص ٤-٥.

(٢) ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج ٣، ص ٥٦٢. وابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ٣، ص ٢٤٤-٢٤٥.

(٣) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ١٤٤.

(٤) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٨٤٤. وابن قاضي شهبة، تاريخ، ج ٣، ص ٥٦٢. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٤٦٦.

(٥) ابن الخطيب الناصرية، الدر المنتخب، ج ١، ص ٤٠٠. وابن قاضي شهبة، تاريخ، ص ٤٢٥. وابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ١، ص ٥٤٠. وابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ٥، ص ١٧١-١٧٣. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٢٩٤.

(٦) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٩٢٩. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٥١٧-٥١٨.

١- علاء الدين علي بن طيبغا الحلبي الموقت، اشتغل في الهيئة والحساب والجبر والمقابلة، وعمل موقت البلد من غير منافسة في حلب، درس على يده عدد من شيوخ حلب، واعتمد عليه أكثر الأمراء المماليك في أحكام النجوم ومعرفة الطالع. توفي سنة ٧٩٢هـ / ١٣٩٠م<sup>(١)</sup>.

٢- أحمد بن محمد بن بيبرس شهاب الدين الزكلي، اهتم بدراسة علم الميقات ومهر فيه. كما اهتم بعلم القراءات. توفي سنة ٧٩٨هـ / ١٣٩٥م<sup>(٢)</sup>.

٣- محمد بن أحمد بن عثمان بن نعيم البساطي، ولد سنة ٧٦٠هـ / ١٣٥٨م في قرية بساط أحد القرى الغربية من الأعمال البحرية في مصر. حفظ القرآن، ورحل إلى القاهرة سنة ٧٧٨هـ / ١٣٧٦م وعمره نحو ثمانية عشر عاماً. وكان يسكن في الجامع الجديد بمصر، ويأتي إلى القاهرة ثلاثة أيام في الأسبوع لتدريس الفقه على المذهب المالكي، وأصول الفقه والنحو. كما درس الأشكال الحسابية والهندسية. توفي في القاهرة سنة ٨٤٢هـ / ١٤٣٨م<sup>(٣)</sup>.

٤- أحمد بن رجب بن طنبغا المعروف بابن المجد، ولد بالقاهرة سنة ٧٦٧هـ / ١٣٦٥م، حفظ القرآن، ودرس الفقه على يد الشيخ البلقيني، وابن الملتن، ودرس الحساب على يد التقي بن عز الدين الحنبلي، وصار ماهراً في أنواع الحساب والهندسة والهيئة، وعلم الوقت. له عدة مصنوعات مثل: جمع الحاوي وألفية

(١) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج٣، ص٩١-٩٢.

(٢) المصدر ذاته، ج١، ص٢٧٦.

(٣) ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج٩، ص٨٢. والسخاوي، الذيل على رفع الأمر، ص٢٢١-٢٢٨. والسخاوي، الضوء اللامع، ج٧، ص٥. والحنبلي، شذرات الذهب، ج٧، ص٢٤٥. وابن إياس، بدائع الزهور، ج٢، ص٢٠٧.

النحو، وإبراز لطائف الغوامض في إحراز صناعة الفرائض، وشرح الجعبرية والرسالة الكبرى، وشرح تلخيص ابن البنا في جامع الأصول والمواليد، والمنهل العذب الزلال في معرفة حساب الهلال، والفصول في العمل بالمقنطرات، والرسالة في العمل بالجيب، والضوء السائح في وضع الخطوط على الصفائح. كما كتب كراسة في معرفة الأواسط، وأخرى في استخراج التواريخ بعضها من بعض. توفي سنة ٨٥٠هـ / ١٤٤٦م<sup>(١)</sup>.

٥- زين الدين عبد الرحمن بن محمد الشريشي الميقاتي الرئيس، كان ماهراً في علم الميقات. توفي في رمضان سنة ٧٩٨هـ / ١٣٩٥م<sup>(٢)</sup>.

٦- نور الدين علي بن حامد بن أبي بكر البوطي الحاسب، ولد سنة ٧٢٠هـ / ١٣٢٠م. برع في معرفة الأوضاع الميقاتية، وله خط جيد، توفي سنة ٧٩٩هـ / ١٣٩٦م<sup>(٣)</sup>.

٧- نور الدين علي بن محمد الميقاتي، كان من المقربين إلى السلطان برقوق، ورئيس كتابة التقاويم، له معرفة بالرمل وغيره، توفي سنة ٨٠١هـ / ١٣٩٨م<sup>(٤)</sup>.

(١) السخاوي، الضوء اللامع، ج ١، ص ٣٠٠. والسخاوي، التبر المسبوك، ص ١٤٩. والحنبلي، شذرات الذهب، ج ٧، ص ٢٦٨. والشوكاني، البدر الطالع، ج ١، ص ٥٧-٥٨.

(٢) المصدر ذاته، ج ٣، ص ٣٠٥.

(٣) المصدر ذاته، ج ٣، ص ٢٥٢.

(٤) المصدر ذاته، ج ٤، ص ٧١.

## ٤- التاريخ:

يعد التاريخ من أبرز الإنتاج العلمي في دولة المماليك، فقد برز عدد من المؤرخين الذين اهتموا بتدوين الأحداث التاريخية لدولة المماليك بشكل عام أو تدوين أحداث نيابة من نيابات الدولة، أو تدوين سيرة سلطان من السلاطين. نظراً لما استجد من أحداث هامة تستحق التدوين وقد اعتمد مؤرخو هذه الفترة على مصادر متعددة في تدوين الأحداث كالنقل من مصادر سابقة والمشاهدة والاطلاع على الوثائق والكتب الرسمية من بعض دواوين الدولة.

وقد اختلف المنهج التاريخي الذي اتبعه كل مؤرخ في تدوين الأحداث التاريخية، فمن المؤرخين من اتبع أسلوب الحوليات (السنين والشهور)، وبعضهم الآخر اتبع أسلوب التراجم في كتابة الأحداث من خلال السيرة العامة للمترجم لهم، ومنهم من اتبع أسلوب كتابة سيرة سلطات من السلاطين وما اشتملت عليه من أحداث هامة. ومن أبرز المؤرخين:

١- الحسن بن عمر بن حبيب. ولد سنة ٧١٠هـ / ١٣١٠م، عمل والده عمر بن حبيب محتسباً في حلب. نشأ الحسن محباً للأدب. اهتم بدراسة الحديث، فحدث عنه ابن عشائر وابن ظهيرة، وسبط بن العجمي، ومحب الدين ابن الشحنة، وعلاء الدين ابن خطيب الناصرية الذي قال عنه في ترجمته: «هو أول شيخ سمعت عنه الحديث وأجاز لي»<sup>(١)</sup>. وتولى ابن حبيب عدة وظائف في الدولة كالتوقيع عن القضاة، ونيابة القضاء، ونيابة كتابة السر. له عدة مؤلفات تاريخية أهمها: درة الأسلاك في دولة الأتراك كتب فيه تاريخ حلب، وهو تكملة لمؤلف أبيه درة الأسلاك في دولة الأتراك<sup>(٢)</sup>، وقد اتبع المؤلف أسلوب الحوليات في الكتابة، ويعد هذا

(١) ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج ٢، ص ١١٤-١١٥.

(٢) ابن حبيب، درة الأسلاك، مخطوط رقم ٥٣٩.

المؤلف من المصادر الهامة لدراسة تاريخ حلب لسببين: الأول أن المؤلف من أصل حلب، والآخر معاصرته للأحداث التاريخية التي دونها. وله أيضاً تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه<sup>(١)</sup>، وله كتاب في العلوم الدينية بعنوان تلخيص المفتاح والسراجية في أصول الحنفية<sup>(٢)</sup>. توفي سنة ٧٩٩هـ / ١٣٩٦م<sup>(٣)</sup>.

٢- ناصر الدين محمد بن علي بن أبي العشائر السلمي، سمع الحديث بحلب، ودمشق، والقاهرة، كان بارعاً في الفقه والحديث والأدب. عمل هو وأبوه خطيبين في حلب<sup>(٤)</sup>. كتب في تاريخ حلب ذيل به على تاريخ ابن العديم ثم جمعه مسودة. وعندما عثر عليه ابن خطيب الناصرية بيضه ونقل عنه الكثير وأضاف إليه ما تجدد من أحداث، وأكمه في أربعة مجلدات مرتبة حسب الحروف، تناول فيه من مات من أهل حلب أو دخلها أو دخل شيئاً من معاملاتها. قدم إلى القاهرة للحصول على وظيفة في الدولة. غير أنه توفي قبل ذلك سنة ٧٨٩هـ / ١٣٩٥م<sup>(٥)</sup>.

٣- ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم بن علي بن الفرات، ولد سنة ٧٣٥هـ / ١٣٣٤، تفقه على مذهب أبي حنيفة، وسمع من نجم الدين يوسف الدلاصي كتاب «الشفاء» للقاضي عياض، وسمع صحيح مسلم ابن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الهادي، ودلائل النبوة للبيهقي. عمل في عدة وظائف كالشهادة في حوانيت

(١) حققه محمد محمد أمين في ثلاثة مجلدات سنة ١٩٧٦م. أنظر قائمة المصادر.

(٢) ابن الخطيب الناصرية، الدر المنخب، ج ١، ص ٥٢٤. والسخاوي، الضوء اللامع، ج ٤، ص ٣-٤. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٧٥٦.

(٣) ابن حجر العسقلاني، الدر الكامنة، ج ٢، ص ١١٤-١١٥.

(٤) المقرئ، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٥٧١. وابن حجر العسقلاني، الدر الكامنة، ج ٤، ص ٢٠٤. والسخاوي، وجيز الكلام، ج ١، ص ٢٨٢.

(٥) ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ٢، ص ٢٧٣-٢٧٤. وابن حجر العسقلاني، الدر الكامنة، ج ٤، ص ٢٠٤. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ١٦٣-١٦٤.

الشهود، وكتابة عقود الأنكحة (الزواج)، كما عمل خطيباً بالمدرسة المعزية. كتب في التاريخ مسودة تبلغ نحو مئة مجلد بدأ فيها من الهجرة حتى سنة ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م. بيض منها نحو عشرين مجلداً<sup>(١)</sup>. ويذكر المقرئزي أنه: «وقف عليها واستفاد منها مع عامية في ألفاظه»<sup>(٢)</sup>. توفي سنة ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م<sup>(٣)</sup>.

ويعد كتاب تاريخ ابن الفرات<sup>(٤)</sup> من المصادر الهامة لفترة دراسة دولة المماليك أثناء فترة حكم السلطان برقوق باعتباره معاصراً لهذه الفترة. حيث دون الأحداث التاريخية التي عاصرها حسب تاريخ وقوعها، وقد نظمت على الأيام والشهور والسنين مثال ذلك: «وفي أوائل شهر ربيع الآخر، الشهر المذكور»<sup>(٥)</sup>. «وفي هذه السنة...»<sup>(٦)</sup>.

٤- كمال الدين محمد بن موسى بن عيسى أبو البقاء الدميري الشافعي، ولد سنة ٧٤٢هـ / ١٣٤١م. برع في الفقه والوعظ، درس في عدة أماكن، وأفتى مدة. وقد أقبل في آخر عمره على التنسك. له عدة مصنفات أهمها: شرح منهاج النووي (في الفقه)، وشرح سنن ابن ماجه، وحياة الحيوان. توفي سنة ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م<sup>(٧)</sup>.

(١) ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ٥، ص ٢٦٧.

(٢) المقرئزي، المقفى الكبير، ج ٦، ص ٦٤.

(٣) السخاوي، الضوء اللامع، ج ٨، ص ٥١. والسخاوي، وجيز الكلام، ج ١، ص ٣٧٨.

(٤) وقد حملت المسودة في الأجزاء المتقدمة اسم الكتاب بعنوان: «الطريق الواضح المسلك إلى معرفة تراجم الخلفاء والملوك». أنظر محمد كمال الدين، الحركة العلمية، ج ٢، ص ١٢-١٣.

(٥) ابن الفرات، تاريخ، ج ٩، ص ٢٧.

(٦) المصدر ذاته، ج ٩، ص ٢٨.

(٧) المقرئزي، المقفى الكبير، ج ٧، ص ٢١٥-٢١٦. والسخاوي، الضوء اللامع، ج ٦، ص ١٧. وابن قاضي شهبه، طبقات الشافعية، ج ٤، ص ٧٧.



٥- إبراهيم بن محمد بن أيدير بن دقماق، ولد سنة ٧٥٠هـ / ١٣٤٩م. كان جده دقماق أحد أمراء المماليك في سلطنة الناصر محمد بن قلاوون. طلب إبراهيم بن أيدير العلم، وتفقه قليلاً على يد جماعة من الفقهاء الحنفية، ثم تحول إل دراسة الأدب، ثم حُبب إليه دراسة التاريخ فمال إليه بكليته، اتصف بمعرفة أخبار الدولة التركية وتراجم أمرائها لسببين: أحدهما كونه معاصراً لحكم دولة المماليك. والثاني كونه من أجناد الحلقة. وقد ولاه الأمير يلغا السالمي خازن كتب الخانقه الصلاحية سعيد السعداء، كما تولى إمرة دمياط مدة قصيرة في آخر حياته. توفي سنة ٨٠٩هـ / ١٤٠٦م. وله عدة مؤلفات في التاريخ أهمها: كتاب تاريخ على السنين (الحوليات) وهو على ما يبدو كتاب الجواهر الثمين في سيرة الملوك والسلطين<sup>(١)</sup>. وتاريخ آخر على الحروف<sup>(٢)</sup>، وأخبار الدولة التركية، وسيرة الملك الظاهر برقوق<sup>(٣)</sup>، كما ألف كتاب في العلوم الدينية بعنوان طبقات الحنفية<sup>(٤)</sup>.

٦- شهاب الدين أحمد بن عبد الله القلقشندي، ولد بقرية قلقشندة<sup>(٥)</sup> سنة ٧٥٦هـ / ١٣٥٦م لأسرة عريقة في عروبته، تنحدر من قبيلة بدر من فزاره<sup>(٦)</sup>. وتلمذ على أعلام عصره، كابن الشحنة وابن الملحن، وبرع في العربية والأدب، وشارك في الفقه والفرائض والأنساب والتاريخ. وأسندت إليه عدة وظائف في دولة المماليك، منها: نيابة الحكم، وتوقيع الدست، وكتابة الإنشاء أثناء فترة حكم السلطان برقوق<sup>(٧)</sup>. توفي سنة ٨٢٦هـ / ١٤١٨م<sup>(٨)</sup>. وله عدة مؤلفات أهمها:

- (١) حققه محمد كمال الدين علي، ١٩٨٥، مجلدين، عالم الكتب، بيروت.
- (٢) ربما يكون كتاب الانتصار بواسطة عقد الأمصار، نشر المكتب التجاري، بيروت، أوفست، طبعة بولات، ١٨٩٣م. وهو غير محقق.
- (٣) يوجد نسخة مصورة في مركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الأردنية، لكنها غير واضحة.
- (٤) ابن الفرات، تاريخ، ج ٩، ص ٢، ج ٦، ص ٤٠٦. وابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ١، ص ١٣٨، ١٤٠.
- (٥) قلقشندة: وهي من قرى الوجه البحري تشتهر بالفواكه. القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٤٥٧-٣٩٩.
- (٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١، ص ٣٩٩.
- (٧) المقرئزي، السلوك، ج ٤، ق ١، ص ٤٧٣. وابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ١، ص ٣٥١-٣٥٢. والسخاوي، الضوء اللامع، ج ٢، ص ٨. والسخاوي، وجيز الكلام، ج ٢، ص ٤٥٢.
- (٨) السخاوي، الضوء اللامع، ج ٢، ص ٨. والسخاوي، وجيز الكلام، ج ٢، ص ٤٥٢.

١. صبح الأعشى في صناعة الإنشاء.
  ٢. الغيوث الجوامع في شرح جامع المختصرات ومختصرات الجوامع.
  ٣. نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب.
  ٤. قلائد الجمان في قبائل عرب الزمان.
  ٥. مآثر الإنافة في معالم الخلافة<sup>(١)</sup>.
- ٧- علي بن محمد بن سعيد بن هبة الله المعروف بابن خطيب الناصرية. ولد سنة ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م بحلب ونشأ فيها. أخذ العلم عن والده، والسراج عمر البلقيني. رحل إلى مصر والقدس وأخذ العلم عن علمائها. فصار إماماً في الفقه والحديث والأصول والعربية، وحافظاً للتاريخ. تولى عدة وظائف دينية في دولة المماليك: كالإفتاء والتدريس والقضاء في حلب وطرابلس. توفي في حلب سنة ٨٤٣هـ / ١٤٣٩م<sup>(٢)</sup>. له عدة مؤلفات في التاريخ والعلوم الدينية أهمها:
١. تاريخ حلب. ترجم فيه لأعيان مدينة حلب جعله ذيلاً على تاريخ الكمال ابن العديم<sup>(٣)</sup>.
  ٢. سيرة الملك المؤيد.
  ٣. تفسير سورة الفاتحة.
  ٤. شرح حديث أم زرع<sup>(٤)</sup>.

(١) محمد حسين شمس الدين، مقدمة صبح الأعشى، ج ١، ص ٢٤-٢٥.

(٢) ابن حجر العسقلاني، أنباء الفهر، ج ٩، ص ١١٥. والسخاوي، الضوء اللامع، ج ٥، ص ٣٠٣. والشوكاني، البدر الطالع، ج ١، ص ٤٧٦-٤٧٧.

(٣) ابن حجر العسقلاني، أنباء الفهر، ج ٢، ص ٢٧٣-٢٧٤. وابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج ٤، ص ٢٠٤.

(٤) ابن حجر العسقلاني، أنباء الفهر، ج ٩، ص ١١٥. والسخاوي، الضوء اللامع، ج ٥، ص ٣٠٣. والشوكاني، البدر الطالع، ج ١، ص ٤٧٦-٤٧٧.

٨- تقي الدين أحمد بن علي بن عبد القادر المقرئزي. أصله من بعلبك، ولد سنة ٨٧٦هـ / ١٣٥٨م ونشأ بالقاهرة، وتفقه على المذهب الحنفي ثم تحول إلى المذهب الشافعي، وسمع الكثير من برهان الدين إبراهيم بن أحمد بن عبد الواحد الشامي، وسراج الدين عمر البلقيني وغيرهم<sup>(١)</sup>. وبسبب ثقافته الواسعة واتصاله ببعض الأمراء المالكيين كشيخ الصفيي أمير مجلس (ت ٨٠١هـ / ١٣٩٨م)، وأحمد بن كندغدي (ت ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م)، ويشبك الشعباني (ت ٨١٠هـ / ١٤٠٧م) تمكن المقرئزي من منادمة السلطان الظاهر برقوق وابن الناصر فرج وحظي عندهما، وتقلب في عهدهما في عدة وظائف أجمل السخاوي الإشارة إليها قائلاً: «... وناب في الحكم، وكتب التوقيع، وولي الحسبة بالقاهرة والوجه البحري غير مرة، أولها سنة إحدى وثمانمائة. والخطابة بجامع عمر وبمدرسة السلطان حسن، والإمامة بجامع الحاكم ونظره، وقراءة الحديث بالمؤيدية... وتولى نظر البيمارستان النوري بدمشق»<sup>(٢)</sup>. توفي سنة ٨٤٥هـ / ١٤٤١م. وله عدة مؤلفات أهمها:

١. امتاع الأسماع فيما للنبي صلى الله عليه وسلم من الحفدة والمتاع.
٢. السلوك لمعرفة دول الملوك.
٣. المقفى الكبير.
٤. المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار.
٥. الأوزان والأكيال الشرعية.
٦. شذور العقود في ذكر النقود.
٧. والخبر عن البشر<sup>(٣)</sup>.

(١) ابن تفرري بردي، المنهل الصافي، ج ١، ص ٤١٥-٤١٦. وابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ١، ص ١٧٠. والسخاوي، التبر المسبوك، ص ٢١. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٨٧-٩٢.

(٢) السخاوي، الضوء اللامع، ج ٢، ص ٢٢.

(٣) ابن تفرري بردي، المنهل الصافي، ج ١، ص ٤١٥-٤٢٠. وابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ١، ص ١٧٠. والسخاوي، التبر المسبوك، ص ٢١. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ٢، ص ٢٣١-٢٣٢.

٩- أبو الفضل أحمد بن عبد الله بن محمد بن جلال الكنانى العسقلانى المعروف بابن حجر. ولد بمصر سنة ٧٨٣هـ / ١٢٨١م، دخل الكتاتيب وعمره نحو خمس سنين، وحفظ القرآن وعمره سبع سنين. وردَّ على أعلام عصره من العلماء، شغل ابن حجر العديد من الوظائف في دولة المماليك: كالإفتاء، والتدريس بالمدرسة الحسينية والمنصورية، وتدريس الحديث بالمدرسة البيبرسية والجمالية<sup>(١)</sup>، كما أسند إليه مهمة خزن الكتب في المدرسة الحمودية في الموازين، وكانت تحتوي على أنفس الكتب الموجودة في ذلك الوقت في القاهرة، وكان قد جمعها برهان الدين بن جماعة (ت ٧٩٠هـ / ١٢٨٨م) طوال حياته، فعمل ابن حجر لها فهرستاً على الحروف في أسماء التصانيف وآخر على الفنون، وكان يقيم فيها في أغلب الأحيان يوماً واحداً في الأسبوع. وقد زودها بعدد كبير من الكتب التي فقدت منها<sup>(٢)</sup>. توفي سنة ٨٥٢هـ / ١٤٤٨م. وله عدة مؤلفات في التاريخ والعلوم الدينية أهمها:

١. الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة.
٢. أنباء الغمر بأبناء العمر.
٣. الإصابة في تمييز الصحابة.
٤. شرح البخاري.
٥. مختصر التهذيب.
٦. اللسان.
٧. تعجيل المنفعة<sup>(٣)</sup>.

(١) السخاوي، ذيل رفع الأضر، ص ٧٥-٨٨، والسخاوي، وجيز الكلام، ج ٢، ص ٦٢٢. والشوكاني، البدر الطالع، ج ١، ص ٨٧-٩٢.

(٢) السخاوي، الدرر الكامنة، ج ١، ص ٣٩.

(٣) السخاوي، ذيل رفع الأضر، ص ٧٥-٨٨. والشوكاني، البدر الطالع، ج ١، ص ٨٧-٩٢.

## ب- العمران:

اتسمت العمارة أثناء حكم سلاطين المماليك بالطابع الديني الذي تمثل بالمدارس والمساجد والخوانق والربط التي كانت مراكز للتعليم ونشر الدين الإسلامي. والطابع العام (الاجتماعي) كالبیوت، والبرك، والأسبلة، والصحاريح، والجسور، ومراكز البريد.

## ١- العمائر الدينية:

## ١- المدارس:

استلزم النشاط الديني الذي ساد في مصر وبلاد الشام في دولة المماليك الإكثار من تشييد المدارس. حيث كانت الدولة الأيوبية البداية لازدياد انتشار المدارس بعد أن بنى الملك الكامل محمد بن العادل سنة ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م دار الحديث الكاملة بين القصرين، وقرر بها أئمة من المذاهب الأربعة وخطبة الجمعة، ثم بنى الأمراء مدارس أخرى لم تبلغ شأن المدرسة الكاملة. ثم تبعهم سلاطين المماليك الذين أكثروا من بناء المدارس في مختلف أنحاء الدولة في مصر وبلاد الشام، وقد ذكر القلقشندي «وخلال ذلك ابتنى الأمراء وغيرهم من المدارس ما ملأ الأخطاط وشحنها»<sup>(١)</sup>. أما سلطنة السلطان الظاهر برقوق فقد شيد فيها عدد من المدارس هي:

١- المدرسة الظاهرية (البرقوقية): ابتداء السلطان الظاهر برقوق في عمارتها سنة (٧٨٦هـ / ١٣٨٤م) موضع خان الزكاة<sup>(٢)</sup> الذي استبدله بقطعة أرض أخرى بين القصرين من ورثة السلطان الناصر محمد بن قلاوون<sup>(٣)</sup>، بالقرب من المدرسة

(١) القلقشندي، صبح الأمشي، ج٢، ص ٤١٥-٤١٦. والمقريري، الخطط، ج٢، ص ٣٦٣.

(٢) وهو فندق يعرف بخان الزكاة بالقرب من جامع الناصر محمد بن قلاوون بجوار المدرسة الناصرية. المقريري، الخطط، ج١، ص ٣٧٥.

(٣) ابن دقماق، الجوهرة الثمين، ج٢، ص ٢٦٤. والمقريري، السلوك، ج٢، ق٢، ص ٥١٩.

الكاملية<sup>(١)</sup>. وعين على الإشراف على عمارتها الأمير جركس الخليلي أمير أخور<sup>(٢)</sup>. وبعد الانتهاء من عمارتها سنة ٧٨٨هـ / ١٣٨٦م<sup>(٣)</sup> أمر السلطان برقوق بفرشها، وولى مشيختها الشيخ علاء الدين بن أحمد بن السيرافي<sup>(٤)</sup>، وعين لها الطلاب، وسبعة مدرسين: أربعة مدرسين لتدريس الفقه على المذاهب الأربعة، ومدرس للتفسير، وآخر للحديث، ومُصدر لقراءة القراءات السبع<sup>(٥)</sup>. كما عين لها صوفية على عادة الخوانق<sup>(٦)</sup>.

وجعل السلطان برقوق شرط الوقف عليها في بداية الأمر للقضاة ثم غير كتاب الوقف عليها سنة ٧٩٨هـ / ١٣٩٥م ونقل النظر عليها من القضاة لنفسه طوال حياته، ثم من بعده لمن يكون سلطاناً ينظر في ذلك بنفسه، أو يعين نائباً عنه<sup>(٧)</sup>.

٢- المدرسة الزمامية: أنشأها الأمير الطواشي زين الدين مقبل الرومي زمام الدور السلطانية للسلطان الظاهر برقوق سنة ٧٩٧هـ / ١٣٩٤م لتدريس الفقه. كما جعل فيها صوفية ومنبراً يخطب عليه خطبة الجمعة<sup>(٨)</sup>.

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤١٦. والمقرئزي، المفقى الكبير، ج ١، ص ٥٩٤.

(٢) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٥١٩. وابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ٢، ص ٣٨٨.

(٣) المصدر ذاته، ج ٢، ق ٢، ص ٥٤٦. وابن حجر العسقلاني، أنباء الفجر، ج ٢، ص ١٨٦، ٢١٥، ٢١٦.

(٤) ابن دقماق، الجواهر الثمين، ج ٢، ص ٢٦٥. والمقرئزي، المقضى الكبير، ج ١، ص ٥٩٤.

(٥) المقرئزي، السلوك، ج ٣، ق ٢، ص ٥٥١. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ١٤٠.

(٦) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٢، ص ٤١٦. والحنبلي، شذرات الذهب، ج ٢، ص ٢٩٩.

(٧) ابن الفرات، تاريخ، ٩م، ج ٢، ص ٤٢٧. وعبد الرحمن زكي، القاهرة، ص ١٧٧. ومصطفى السقا، الحياة الأدبية، ج ٣، ص ١٢٧٣.

(٨) المقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٣٩٤.

٣- المدرسة الحمودية: أنشأها الأمير جمال الدين محمود بن علي الإستادار سنة ٧٩٧هـ / ١٣٩٤م بين خط الموازين خارج باب زويلة تجاه دار القرومية. وقد اقتصت المدرسة بتدريس الفقه والحديث وغير ذلك من العلوم. كما زودت المدرسة بخزانة للكتب (مكتبة خاصة)، وكان «لا يخرج لأحد منها كتاب إلا أن يكون في المدرسة». وقد احتوت المكتبة على أنواع مختلفة من الكتب الإسلامية كالفقه والحديث. ويذكر المقرئزي «وعمل فيها (المدرسة الحمودية) خزانة كتب لا يعرف بديار مصر ولا الشام مثلها وهي باقية إلى اليوم»<sup>(١)</sup>.

ومن الذين أشرفوا على خزن الكتب في هذه المكتبة ابن حجر العسقلاني المؤرخ. حيث عمل لها فهرستاً على الحروف في أسماء التصانيف وآخر على الفنون، وكان يقيم في المكتبة في أغلب الأحيان يوماً واحداً في الأسبوع. وقد أعاد إليها عدداً كبيراً من الكتب التي فقدت منها. كما كان يزودها بكتبه<sup>(٢)</sup>.

٤- المدرسة الأيتمشية: تقع خارج القاهرة، داخل باب الوزير تحت قلعة الجبل برأس التبانة. أنشأها الأمير الكبير سيف الدين أيتمش البجاسي الظاهري برقوق سنة ٧٨٥هـ / ١٣٨٣م، وجعل فيها درس فقه للمذهب الحنفي، وأنشأ بجانبها فندقاً كبيراً يعلوه عدة دور. كما أنشأ من الجهة الخلفية للمدرسة خارج باب الوزير حوض ماء للسبيل<sup>(٣)</sup>.

(١) المقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٣٩٤.

(٢) ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ٢، ص ٢٩٣-٢٩٤. وابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة، ج ١، ص ٣٩.

(٣) المقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٤٠٠.

٥- مدرسة إينال: أوصى بعمارها الأمير الكبير إينال اليوسفي أحد المماليك اليلبغاوية<sup>(١)</sup> سنة ٧٩٤هـ / ١٣٩١م خارج باب زويلة بالقرب من باب حارث الهلالية بخط القماحين. وعندما تم الانتهاء من عمارتها لم يعين فيها سوى قراء يتناوبون قراءة القرآن على قبره<sup>(٢)</sup>.

#### ب- المساجد:

لم تكن المدارس هي المؤسسات الوحيدة التي ساهمت في نشر العلوم الدينية، بل كان للمساجد إلى جانب كونها دوراً للعبادة دور مهم في الحياة الثقافية. فقد كان في كل مدينة وقرية مسجد أو أكثر. ذكر القلقشندي قال: «وأما مساجد الصلوات الخمس فأكثر من أن تحصى وأعز من أن تستقصى، بكل خط منها مسجد أو مساجد لكل منها إمام راتب ومصلون»<sup>(٣)</sup>. ولكن ثمة فرق بين المدارس والمساجد في هذه الفترة. فقد ساهمت المدارس بنشر العلوم الدينية والعلوم الأخرى، في حين اقتصرَت المساجد على نشر العلوم الدينية.

ويبدو أن المساجد التي شيدت في فترة حكم السلطان برقوق قليلة جداً حسبما وردت في المصادر التاريخية. وقد يعود السبب في ذلك إلى كثرة المساجد التي شيدت في الفترات السابقة لحكم السلطان برقوق واستمرار العناية بها من قبل سلاطين المماليك.

(١) الأمير سيف الدين إينال اليوسفي، أحد المماليك اليلبغاوية، ولي نيابة حلب، وصار في أواخر حياته أتاك للعساكر في مصر (ت ٧٩٤هـ / ١٣٩١م) دفن خارج باب النصر حتى انتهت عمارة مدرسته ونُقلت جثته إليها. المقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٤٠١. وابن حجر العسقلاني، أنباء الفهر، ج ٢، ص ١٢٧. والسخاوي، وجيز الكلام، ج ١، ص ٤٠٤.

(٢) المقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ١٠٤. وابن حجر العسقلاني، أنباء الفهر، ج ٢، ص ١٢٧.

(٣) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٣، ص ٤١٧.



أما المساجد التي شيّدت في فترة حكم السلطان برقوق فهي:

١- مسجد ابن الشيخ:

أنشأه المهتار ناصر الدين محمد بن علي الشيخ<sup>(١)</sup>، بخط الكافوري مما يلي القنطرة باتجاه النيل بالقرب من داره، وعين فيه الشيخ تقي الدين محمد بن حاتم، الذي جعل فيه موعداً يجتمع فيه الناس لسماع وعظه<sup>(٢)</sup>.

٢- جامع الظاهر والحاج كمال التاجر وجامع سويقة الجميزة:

كانت هذه الجوامع موجودة قبل تولي السلطان برقوق السلطنة ويبدو أنها تعرضت للخراب ثم جُددت في فترة حكم السلطان برقوق. إذ يذكر المقرئزي: «جامع الظاهر وجامع الحاج كمال التاجر تجدد هو وجامع سويقة الجميزة في أيام الظاهر برقوق»<sup>(٣)</sup>.

٣- مسجد تغري بردي:

أنشأه الأمير تغري بردي نائب حلب سنة ٧٩٦-٨٠٠هـ / ١٢٩٣-١٢٩٧م في حلب لتدريس المذهبين الشافعي والحنفي. ويبدو أن اقتصار هذا المسجد على تدريس المذهبين الشافعي والحنفي دون العلوم الأخرى يعود إلى رغبة الأمير تغري بردي في تدريس هذين المذهبين. وقد ذكر ابن خطيب الناصرية أن عدد طلاب هذا المسجد ستة عشر طالباً: ثمانية منهم شافعية، يشرف على تدريسهم مدرس شافعي، وثمانية حنفية، يشرف على تدريسهم مدرس حنفي<sup>(٤)</sup>.

(١) كان مسؤولاً عن الاسطبلات السلطانية للسلطان برقوق (ت ٧٩٣هـ / ١٣٩٠م). المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٢٥٩.

والمقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٤١١.

(٢) المقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٤١١.

(٣) المصدر ذاته، ج ٢، ص ٢٤٥.

(٤) ابن خطيب الناصرية، الدر المنتجب، ج ١، ص ٢٤٢.

## ٤- الجامع الأحمر:

وهو من الجوامع التي أنشئت في الدولة الفاطمية في عهد الخليفة الأمر بأحكام الله أبي علي منصور المستعلي بالله سنة ٥٩٥هـ/ ١١٩٨م في القاهرة<sup>(١)</sup>، ثم جدده السلطان الظاهر بيبرس<sup>(٢)</sup>، ثم جدده الأمير يلبيغا السالمي<sup>(٣)</sup> سنة ٧٩٩هـ/ ١٣٩٦م وأنشأ حوله عدة حوانيت، وجعل في صحن الجامع بركة ماء للوضوء، وأنشأ فيه منبراً يخطب عليه يوم الجمعة، ومنذنة، وطلّى الجامع من الداخل باللون الأبيض والواجهة الأمامية منه باللآزرد والذهب<sup>(٤)</sup>.

## ج- الخوانق:

## ١- خانقاه الظاهرية برقوق:

أنشأها السلطان الظاهر برقوق سنة ٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م بخط بين القصرين بين المدرسة الناصرية ودار الحديث الكاملية بجوار المدرسة الظاهرية (البرقوقية)<sup>(٥)</sup>.

## ٢- خانقاه ابن غراب:

أنشأها القاضي الأمير سعد الدين إبراهيم بن عبد الرزاق بن غراب الإسكندراني خارج القاهرة على خليج النيل من جهة البر الشرقي بالقرب من جامع بشتاك<sup>(٦)</sup>.

(١) ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ٥، ص ١٧٢. والمقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٢٩٠.

(٢) المقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٢٩٠.

(٣) الأمير يلبيغا السالمي الظاهري، تولى عدة وظائف في الدولة كالاستادارية، ونظر الشيخونية قتل سنة ٨١١هـ/ ١٤٠٨م. ابن حجر العسقلاني، أنباء الغمر، ج ٦، ص ١٢٣. والسخاوي، وجيز الكلام، ج ٢، ص ٤٠٠. والسخاوي، الضوء اللامع، ج ١، ص ٢٨٩.

(٤) المقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ٢٩٠. والقاضي عبد الباسط، نيل الأمل، ورقة ١٧١ أ.

(٥) المصدر ذاته، ج ٢، ص ٤١٨.

(٦) المصدر ذاته، ج ٢، ص ٤١٩.

أنشأت سنة ٧٩٠هـ / ١٢٨٨م. وكانت تحتوي على حمام للنساء. كما كان يقدم فيها الطعام للفقراء. ويذكر المقرئزي: «وما برحت على ما ذكرنا إلى سنة ست وثمانمئة فبطل الطعام»<sup>(١)</sup>. بسبب الفتن والاضطرابات وسوء الأحوال الاقتصادية التي سادت في فترة حكم السلطان الناصر فرج بن برقوق.

وقد أشار المقرئزي في موضع آخر إلى وجود خوانق وأربطة خصصت لإقامة النساء والأرامل والمطلقات<sup>(٢)</sup>. وهي أشبه ما تكون بالملاجئ بالمفهوم الحالي، وتعد من مفاخر المجتمع الإسلامي. لأنها كانت تؤدي دوراً اجتماعياً إلى جانب دورها الديني.

أنشأها شرف الدين الطواويس للأمير يونس الدوادار في دمشق سنة ٧٨٥هـ / ١٢٨٣م بالقرب من تربته التي أنشأها سنة ٧٨٤هـ / ١٢٨٢م<sup>(٣)</sup>. وقد وقف عليها عدداً من الدكاكين، واشترط في كتاب الوقف أن يكون الشيخ من الخانقاه والصوفية على المذهب الحنفي<sup>(٤)</sup>. وقد اقتصر دور هذه الخانقاه على تدريس المذهب الحنفي حسب رغبة الأمير يونس الدوادار.

(١) المقرئزي، الخطط، ج٢، ص٤٢٣.

(٢) المصدر ذاته، ج٢، ص٤٢٨.

(٣) ابن قاضي شهبة، تاريخ، ج٣، ص٩٣.

(٤) التعميمي، المدارس في تاريخ المدارس، ج٢، ص١٨٩-١٩٠.

## ٢- العمائر العامة:

اهتمت دولة المماليك بإنشاء العمائر العامة المختلفة. ففي سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م بدأ الأمير جركس الخليلي أمير أخور السلطان برفقوق بإنشاء جسر على رأس الخور المعروف بزقاق القناديل فيما بين جزيرة الروضة وجزيرة أروى المعروفة بالجزيرة الوسطى، من خشب السنط وأفلاق النخيل، لإعادة جريان مياه النيل تحت أدر منشية المهراني وزريبيتي بكتمر وقسيون وما حولهما<sup>(١)</sup>. ولتحويل الماء إلى بر القاهرة لري الأراضي الزراعية طوال العام، وتوفير مياه الشرب للسكان وخفض أسعار المياه المحمولة بالروايا (القرب الكبيرة)<sup>(٢)</sup> على الجمال. حيث بلغ طول الجسر نحو ثمانمائة قصبية (٣١٩٢ متر)، وعرضه عشر قصبات (٣٩,٩ متر)، وارتفاعه نحو ثمانية أذرع (٥,٣٢ متر)<sup>(٣)</sup>.

كما أنشأ حوض ماء للسبيل سنة ٧٨٥هـ/ ١٣٨٣م عند باب المعلا بمكة باسم السلطان برفقوق من أجل سقاية الحجاج، وأوصل الماء إلى القدس عبر قناة تعرف باسم «قناة العروب»<sup>(٤)</sup>. كما أمر السلطان برفقوق بإنشاء برج ثغر دمياط، وجسر السبيل البنهاوي<sup>(٥)</sup>.

(١) القلقشندي، مآثر الإنافة، ص ١٤٨. والمقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ١٦٩. والعيني، عقد الجمان، ورقة ٢٠ ب.

(٢) المقرئزي، الخطط، ج ٢، ص ١٦٩.

(٣) المصدر ذاته، ج ٢، ص ١٦٩. والقصبية = ٣,٩٩ متر. منتس، المكاييل، ص ٩٤. والذراع (ذراع العمل = ٦٦,٥ سم). منتس، المكاييل، ص ٨٩.

(٤) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٥١٠. والعيني، عقد الجمان، ورقة ٢٠ ب.

(٥) المصدر ذاته، ج ٢، ق ٢، ص ٥١٢. وابن تغري بردي، المنهل الصافي، ج ٣، ص ٢٤١.

وقد ذكر المقرئزي (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م) عدد من العمائر العامة التي شيدت أثناء فترة حكم السلطان برقوق مثل صهريج السبيل بقلعة الجبل في القاهرة، وصهريج السبيل تجاه إيوان بقلعة الجبل، والطاحونة. كما أنشأ جسر الشريعة على نهر الأردن- في منطقة الأغوار الشمالية-، حيث بلغ طوله نحو مائة وعشرين ذراعاً في عرض عشرين ذراعاً. وأنشأ سور دمنهور بالبحيرة، وعمر الجبال الشرقية بالفيوم من خلال زراعتها بالأشجار، وأنشأ بحيرة برأس بني سالم، قريباً من المدينة المنورة<sup>(١)</sup> على طريق الحج.

كما أنشأ السلطان برقوق مركز للبريد سنة ٧٩٧هـ / ١٣٩٤م وزودها بعدد كبير من الخيول والأكاديش. حيث أُلزم كلُّ من الأمراء المقدمين بعشرة أكاديش، وكلُّ من الوزير والاستادار وبقية أرباب الوظائف وأمراء الطبليخانة إكديشان وأمراء العشرات والعشرينات إكديش واحد<sup>(٢)</sup>.

(١) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٦١٧. وابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج ١٢، ص ١١٣-١١٥. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٥٠١-٥٠٢. وابن إياس، بدائع الزهور، ج ١، ق ٢، ص ٢٤٤.

(٢) المقرئزي، السلوك، ج ٢، ق ٢، ص ٨٢٢. وابن الصيرفي، نزهة النفوس، ج ١، ص ٤٠٦.

## ملحق (١)

## مكاتبة بمنع العربان من الدخول إلى البلاد الشامية قبل فراغ الزرع

القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٧، ص ٢٢٣.

يمنع العربان من الدخول إلى البلاد قبل فراغ الزرع. وتبدي لعلمه الكريم أن المراسيم الشريفة تقضي بعدم دخول أحد من العربان إلى البلاد الشامية المحروسة: كبيرهم وصغيرهم، جليلهم وحقييرهم، إلى أن يشال الزرع على العادة. ومتى والعياذ بالله- حصل منهم مخالفة لذلك حل بهم من الانتقام الشريف ما لا مزيد عليه. ومرسومنا للمقر الكريم أن يتقدم أمره العالي باعتماد ما اقتضته المراسيم الشريفة من ذلك، مع الاهتمام به، والاحتفال والاجتهاد فيه، قولاً واحداً، وأمرأً جازماً، على عادة همته العالية، وتقدّماته المرضية، فيحيط علمه ذلك.

## قائمة المصادر والمراجع

- ١- المصادر.
- ١- المصادر المخطوطة:
- ابن إياس، محمد بن أحمد (ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٤م).
- \* جوهر السلوك في أخبار الخلفاء والملوك، نسخة مصورة عن نسخة كمبريدج، مركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الأردنية، رقم ٧٤.
- ابن تغري بردي، أبو الحسن يوسف (ت ٨٣٤هـ / ١٤٦٠م).
- \* مورد اللطافة، نسخة مصورة في مركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الأردنية، رقم ١٠٠.
- ابن حبيب، عز الدين بن طاهر بن حسن الحلبي (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م).
- \* ذيل درة الأسلاك في دولة الأتراك، مكتبة بودليان، أكسفورد، مجموعة (Mansh)، رقم ٢٨، ٢٢٣، ٣١٥. نسخة مصورة في مركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الأردنية، رقم ٥٣٩.
- ✓ الخالدي، بهاء الدين محمد بن لطف الله العمري (ألفه حوالي سنة ٨٢٥هـ / ١٤٢١م)
- \* المقصد الرفيع المنشأ الهادي لديوان الإنشاء، نسخة مصورة عن المكتبة الأهلية في باريس، مركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الأردنية، رقم ٤٤٣٩.
- ابن الخطيب الناصرية، الحسن علاء الدين (ت ٨٤٣هـ / ١٤٣٩م).
- \* الدر المنتخب في تاريخ حلب، نسخة مصورة في مركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الأردنية، رقم ٨٢٢.
- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م).
- \* ذيل دول الإسلام، نسخة مصورة في مركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الأردنية، رقم ٥٤٦.

- العيني، بدر الدين محمود (ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م).
- \* عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان (حوادث ٧٩٩-٨٢٠هـ)، نسخة مصورة في مركز الوثائق والمخطوطات الجامعة الأردنية عن المكتبة الوطنية، باريس، رقم ١٥٤٤.
- القاضي عبد الباسط بن الفرسي خليل بن شاهين الصفوي الحنفي (ت ٩٢٠هـ / ١٥١٤م).
- \* نيل الأمل في ذيل الدول، جزءان، نسخة مصورة في مركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الأردنية عن نسخة بودليان، أكسفورد، رقم ٦١.
- ابن ناظر الجيش، تقي الدين بن محب الدين عبد الرحمن بن محمد بن يوسف الحلبي (ت ٧٨٦هـ / ١٣٨٤م).
- \* تثقيف التعريف بالمصطلح الشريف، نسخة مصورة في مركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الأردنية، عن نسخة المكتبة الأهلية، باريس، رقم ٤٤٣٩.
- ابن مكنس، فخر الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن إبراهيم القبطي (ت ٧٩٤هـ / ١٣٩١م).
- \* ديوان ابن مكنس، مخطوط في مركز الوثائق والمخطوطات، الجامعة الأردنية، رقم ١٣٩٤.

## ٢- المصادر المطبوعة:

- الاسحاقي، محمد بن عبد المعطي (ت ١٠٦٠هـ / ١٦٥٠م).
- \* أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول، دط، القاهرة، ١٣١٠هـ.
- الأسدي، محمد بن محمد بن خليل (ت ٨٨١هـ / ١٤٧٦م).
- \* التيسير والاعتبار والتحرير والأخبار فيما يجب من حسن التدبير والتصرف والاختيار، تحقيق عبد القادر طليمات، ط١، دار الفكر العربي، ١٩٦٨م.



- البدرى، أبو البقاء عبد الله محمد البدرى (وفيات القرن التاسع عشر الهجري).
- \* نزهة الأنام في محاسن الشام، نشر المكتبة العربية، بغداد، أوفست، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٤١هـ.
- بيبرس المنصوري (ت ٧٢٥هـ / ١٣٢٤م).
- \* التحفة المملوكية في الدولة التركية، تحقيق عبد الحميد صالح حمدان، ط٢، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ١٩٨٧م.
- ابن إياس، محمد بن أحمد (ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٤م).
- \* بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، ج ٥، ج ١، ق ١، ق ٢، ج ٢، ج ٤، ط ٢، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٢. ج ٣، ط ٢، دار إحياء التراث العربي، القاهرة، ١٩٦٣م.
- البصروي، علاء الدين علي بن يوسف بن أحمد الدمشقي (ت ٩٠٥هـ / ١٤٩٩م).
- \* تاريخ البصروي، تحقيق أكرم العلي، دار المأمون للتراث، دمشق، ١٩٨٨م.
- G ابن تغري بردي، جمال الدين أبو المحاسن يوسف (٨٧٤هـ / ١٤٦٠م).
- \* حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور، تحقيق محمد كمال الدين عزالدين، ج ٢، ط ١، عالم الكتب للنشر والتوزيع، ١٩٩٠.
- \* النجوم الزاهرة في أخبار مصر والقاهرة، ج ١٦. مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، د.ت.
- \* المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، ج ٤، تحقيق محمد أمين، القاهرة، ١٩٨٤م.
- ابن جماعة، بدر الدين (ت ٧٧٣هـ / ١٢٧١م).
- \* تحرير الأحكام في تدبير أهل الإسلام، ط ١، مطبعة الباكر، قطر، ١٩٨٥م.

- ابن الحاج، أبو عبد الله محمد بن محمد العبدري الفاسي (ت ٧٣٧هـ / ١٣٢٦م).
- \* المدخل، ٢ ج، ط ١، المطبعة المصرية، ١٩٢٩م.
- ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ / ١٤٨٤م).
- \* أنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق حسن جيشي، ٩ ج، ط ٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦م.
- \* الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق محمد سعيد جاد الحق، ٥ ج، ط ٤، مطبعة المدني، القاهرة، ١٩٦٦م.
- جان ليون الأفريقي، الحسن بن محمد الوزان المشهور بجان ليون الأفريقي (ت ٩٥٧هـ / ١٥٥٠م).
- \* وصف أفريقيا، ترجمة عبد الرحمن حميدة، الرياض، ١٣٩٩م.
- الحنبلي، عبد الحي بن العماد (ت ١٠٨٩هـ / ١٦٨٧م).
- \* شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ٨ ج، د. ط، دار المسيرة، بيروت، ١٩٧٩م.
- الخزرجي، أبو الحسن علي بن الحسن (ت ٨١٢هـ / ١٤٠٩م).
- \* العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، ٢ ج، تحقيق محمد بسيوني، مطبعة الهلال، القاهرة، ١٩١١-١٩١٤م.
- ابن خلدون، ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م).
- \* العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ٧ ج، د. ط، دار المسيرة، بيروت، ١٩٦٦-١٩٦٧م.
- \* المقدمة، دار الجيل، بيروت، د. ت.

- ابن دقماق، صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيذمر العلائي (ت ٨٠٩هـ / ١٤٠٦م).
- \* الانتصار بواسطة عقد الأمصار، ٢ج، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٨٥م.
- \* الجواهر الثمين في سيرة الملوك والسلاطين، تحقيق محمد كمال علي، ٢ج، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٥م.
- السبكي، تاج الدين نصر بن عبد الوهاب (ت ٧٧١هـ / ١٢٦٩م).
- \* معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق داوود ولهم وموهمن، ليدن، ١٩٠٨م.
- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن (ت ٩٠٢هـ / ١٤٩٦م).
- \* التبر المسبوك في ذيل السلوك، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، ١٩٨٦م.
- \* الذيل على رفع الأصر (بغية العلماء والرواة)، تحقيق جودة هلال، محمد صبحي، الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م.
- \* الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، ١٢ج، د.ط، مكتبة القدس، ١٩٥٤م.
- \* وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام، تحقيق بشار عواد، أحمد الخطيمي، عصام الحرساني، ٤ج، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٥م.
- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م).
- \* تاريخ الخلفاء، تحقيق محمد محي الدين، د.ط، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٥٢م.
- \* حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ٢ج، ط١، دار إحياء الكتب العربي، القاهرة، ١٩٦٧م.
- ابن شاهين، فرس الدين خليل الظاهري (ت ٨٧٣هـ / ١٤٦٨م).
- \* زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، تحقيق بولس راويس، باريس، ١٨٩٤م.

- ابن الشحنة، أبو الفضل محب الدين محمد بن محمد (ت ٨٩٠هـ / ١٤٨٥م).
- \* البدر الزاهر في نصرة الملك الناصر قايتباي، تحقيق عمر بن عبد السلام، د.ط، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٣م.
- الشوكاني، محمد بن علي (ت ١٢٥٠هـ / ١٨٣٤م).
- \* البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، ج٢، القاهرة، ١٩٢٩م.
- صالح بن يحيى (كان حياً سنة ٨٥٧هـ / ١٤٥٣م).
- \* تاريخ بيروت، تحقيق فرنسيس اليسوعي، كمال الصليبي، دار الشرق، بيروت، ١٩٦٧م.
- ابن نصري، محمد بن محمد (ت ٨٠٠هـ / ١٣٩٧م).
- \* الدرّة المضيئة في الدولة الظاهرية، تحقيق وليم برينز، بركلي، لوس أنجلوس، ١٩٦٣م.
- ابن الصيرفي، علي بن داوود (ت ٩٠٠هـ / ١٤٩٤م).
- \* أنباء الهصر بأبناء العصر، تحقيق حسن حبشي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٠م.
- ✓ \* نزهة النفوس والأبدان في تواريخ الزمان، تحقيق حسن حبشي، ج٣، د.ط، القاهرة، ١٩٧٤-١٩٧٠م.
- طافور، بيرو.
- \* رحلة طافور في عالم القرن الخامس عشر الميلادي، ترجمة حسن حبشي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨م.
- ابن طولون، شمس الدين محمد (ت ٩٥٣هـ / ١٥٤٦م).
- \* أعلام النوري بمن ولي نائباً من الأتراك بدمشق الكبرى، تحقيق محمد أحمد دهمان، د.ط، المطبعة والجريدة الرسمية، دمشق، ١٩٦٤م.
- \* مفاكهة الخلان في حوادث الزمان، تحقيق محمد مصطفى السقا، القاهرة، ١٩٦٢م.
- \* نقد الطالب لزعل المناصب، تحقيق محمد دهمان، خالد محمد دهمان، دار الفكر، بيروت، د.ت.

- ابن ظهيرة، محمد بن محمد (ت ٨٨٨هـ / ١٤٨٣م).
- \* الفضائل الباهرة في محاسن مصر والقاهرة، تحقيق مصطفى السقا، كامل المهندس، القاهرة، ١٩٦٩م.
- ابن عبد الظاهر، محي الدين أبو الفضل عبد الله (ت ٦٩٦هـ / ١٢٩٦م).
- \* تشریف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق مراد كامل، محمد النجار، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، ١٩٦٦م.
- العصامي، عبد الملك بن حسين (ت ١١٠هـ / ١٦٨٩م).
- \* سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، د.ط، المطبعة السلفية، القاهرة، د.ت.
- العمري، شهاب الدين، أبو العباس أحمد بن يحيى (ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨م).
- \* التعريف بالمصطلح الشريف، د.ط، مطبعة العاصمة، القاهرة، ١٣١٢هـ.
- \* مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، قبائل العرب في القرنين السابع والثامن الهجريين، تحقيق دوروتيا كرافولسكي، المركز الإسلامي للبحوث، ١٩٨٥م.
- \* مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، تحقيق أيمن فؤاد السيد، د.ط، المعهد العلمي الفرنسي لآثار الشرقية، القاهرة، ١٩٨٥م.
- العيني، بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى (ت ٨٥٥هـ / ١٤٥١م).
- \* السيف المهند في سيرة الملك المؤيد، تحقيق فهيم شلتوت، محمد مصطفى زيادة، د.ط، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٧م.
- \* عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، (حوادث ٨١٥-٨٥٠هـ) تحقيق عبد الرزاق القرموط، ط١، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٩٨٩م.
- الغياثي، عبد الله (ت ٨٩١هـ / ١٤٨٦م).
- \* تاريخ الغياثي، تحقيق طارق الحمداني، د.ط، مطبعة أسعد، بغداد، ١٩٧٥م.

- ابن الفرات، ناصر الدين محمد (ت ٨٠٧هـ / ١٤٠٤م).
- \* تاريخ الدول والملوك، تحقيق قسطنطين زريق، نجلاء عزالدين، المجلد التاسع، ج٢، بيروت، ١٩٣٩م.
- أبو الغداء، عماد الدين إسماعيل (ت ٧٣٢هـ / ١٣٣١م).
- \* المختصر في أخبار البشر، ٤ ج، ط١، المطبعة الحسنية المصرية، القاهرة، د.ت.
- ابن قاضي شهبة، أبو بكر أحمد بن محمد (ت ٨٥١هـ / ١٤٤٧م).
- \* تاريخ ابن قاضي شهبة (حوادث ٧٥١-٧٨٠هـ) و(حوادث ٧٨٠-٨٠٠هـ)، تحقيق عدنان درويش، المعهد الفرنسي للدراسات العربية، دمشق، ١٩٧٧، ١٩٩٤م.
- \* طبقات الشافعية، صححه وعلق عليه الحافظ عبد العليم خان، ٤ ج، دار المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند، ١٩٧٩-١٩٨٠م.
- القلقشندي، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م).
- \* صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تحقيق محمد حسين شمس الدين، ١٥ ج، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧م.
- \* مآثر الإنافة في معالم الخلافة، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، ٢ ج، د.ط، وزارة الإرشاد، دار الأنباء، الكويت، ١٩٦٤م.
- الكتبي محمد بن شاکر (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م).
- \* فوات الوفيات، ٥ ج، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٣م.
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر (ت ٧٧٤هـ / ١٣٧٢م).
- \* البداية والنهاية، ١٤ ج، ط٢، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٧٧م.
- ابن كنان محمد بن عيسى (ت ١١٥٣هـ / ١٧٤٠م).
- \* حدائق الياسمين في ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين، تحقيق عباس صباغ، دار التفاس.
- \* المواكب الإسلامية في الممالك والحاسن الشامية، تحقيق حكمت إسماعيل، قسمان، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٢م.

- المبرد، يوسف بن عبد الهادي (ت ٩٠٩هـ / ١٥٠٣م).
- \* الحسبة، نشر حبيب الزيات، مجلة المشرق، ١٩٣٧م.
- المقدسي، مجير الدين الحنبلي (ت ٩٢٨هـ / ١٥٢١م).
- \* الأانس الجليل بتاريخ القدس والخليل، ٢ ج، د. ط، مكتبة المحتسب، عمان، ١٩٧٣م.
- المقرئزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤١م).
- \* إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق محمد مصطفى زيادة، جمال الدين الشيال، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٥٥م.
- \* السلوك لمعرفة دول الملوك، ٤ ج، ١١ مجلد، (ج ١-٢)، تحقيق محمد مصطفى زيادة، (ج ٣-٤) تحقيق سعيد عاشور، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥٧-١٩٧٢م.
- \* شذور العقود في ذكر النقود، تحقيق محمد السيد، المكتبة الحيدرية، النجف، ١٩٦٧م.
- \* المقفى الكبير، تحقيق محمد العيلاوي، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٠م.
- \* المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ٢ ج، طبعة جديدة أوفست، مكتبة المثني، بغداد، د. ت.
- \* البيان والأعراب عما بأرض مصر من الأعراب، القاهرة، ١٩١٦م.
- مؤلف مجهول.
- \* خزائن السلاح، تحقيق نبيل عبد العزيز، مكتبة الأنجلو المصرية، ط ١، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٨م.
- النويري، أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ / ١٣٣٢م).
- \* نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق فوزي العنيقل، ٢٨ ج، د. ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥م.

- النعيمي، عبد القادر بن محمد الدمشقي (ت ٩٢٧هـ / ١٥٢٠م).
- \* المدارس في تاريخ المدارس، ٢ج، تحقيق جعفر الحسيني، مطبعة الترقى، دمشق، ١٩٤٨م.
- النهروالي، قطب الدين محمد بن أحمد (ت ٩٠٩هـ / ١٥٨٢م).
- \* الأعلام في إعلام بيت الله الحرام، مطبوع في هامش خلاصة الكلام لدحلان، د.ط، المطبعة الخيرية، القاهرة، ١٣٠٤هـ.
- ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م).
- \* مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق حسنين ربيع، ١٩٧٧م.
- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م).
- \* معجم البلدان، ٥ج، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٨٦.



## ب- المراجع

- ١- المراجع الحديثة/ باللغة العربية:
- إبراهيم طرخان.
- \* مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٦٠م.
- \* النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٨م.
- أحمد عبد الرزاق أحمد.
- \* البذل والبرطلة زمن سلاطين دولة المماليك، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٩م.
- أحمد صادق سعيد.
- \* تاريخ مصر الاجتماعي، مطابع الغد، بيروت، د.ت.
- أشتور الياهو.
- \* التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الأوسط في العصور الوسطى، ترجمة عبد الهادي عبلة، دار قتيبة، دمشق، ١٩٨٥م.
- أنس ترتون.
- \* أهل الذمة في الإسلام، ترجمة حسن حبشي، دار المعارف، ط٢، القاهرة، ١٩٦٧م.
- ايرا لابيدوس.
- \* مدن إسلامية في العهد المملوكي، ترجمة علي ماضي، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٨م.
- توماس أرنولد.
- \* الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم وآخرون، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٠م.

- حسن الباشا.
- \* الألقاب الإسلامية في التاريخ والوثائق والآثار، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٧٨م.
- حكيم أمين عبد السيد.
- \* قيام دولة المماليك الثانية، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٦٧م.
- حسين مؤنس.
- \* أطلس العالم الإسلامي، ط١، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٩٨٧م.
- \* سفارة بدور ماتير إنجلترا سفير الملكين الكاثوليكين إلى السلطان الغوري، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، ١٩٦٩م، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٧٠م.
- حياة ناصر الحجي.
- \* أحوال العامة في حكم المماليك، ط١، كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع، الكويت، ١٩٨٣م.
- دروتيا كرافولسكي.
- \* العرب وإيران، دراسات في التاريخ والأدب من منظور أيديولوجي، دار المنتخب للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٣م.
- ✓ سعيد عبد الفتاح عاشور.
- \* الأيوبيون والمماليك في دولة المماليك البحرية، النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٩م.
- \* المجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، ١٩٦٢م.
- \* نساء القاهرة في عصر سلاطين المماليك، أبحاث الندوة لتاريخ القاهرة، ١٩٦٩م، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٧١م.
- طه طراونة.
- \* مملكة صفد في عهد المماليك، دار الأفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٢م.

- عبد العزيز الدوري.
- \* تاريخ العراق الاقتصادي في القرن الرابع الهجري، ط٢، دار المشرق، بيروت، ١٩٣٤م.
- عبد الرحمن زكي.
- \* امتداد القاهرة من عصر الفاطميين إلى عصر المماليك، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، مارس، إبريل، ١٩٦٩م، الجزء الثاني، مطبعة دار الكتب، القاهرة، ١٩٧١م.
- عبد المنعم ماجد.
- \* نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر، ط٢، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٩م.
- علي إبراهيم حسن.
- \* دراسات في تاريخ المماليك البحرية، ط٢، مكتبة الشبيكسي، القاهرة، ١٩٤٨م.
- \* مصر في العصور الوسطى، ط٢، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٤٩م.
- علي باشا مبارك.
- \* الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٠م.
- علي السيد علي.
- \* القدس في العصر المملوكي، ط٢، دار الفكر للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٨٦م.
- فالتر هنتس.
- \* المكاييل والأوزان الإسلامية وما يقابلها في النظام المتري، ترجمة كامل العسلي، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٨٢م.

- قاسم عبده قاسم.
- \* أهل الذمة في مصر في العصور الوسطى، ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٧م.
- \* دراسات في تاريخ مصر الاجتماعي عصر سلاطين المماليك، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٩م.
- \* النيل والمجتمع المصري في عصر سلاطين المماليك، ط١، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٨م.
- كمال سليمان الصليبي.
- \* منطلق تاريخ لبنان (٦٣٤-١٥١٦م) منشورات كارفان، نيويورك، بيروت، ١٩٧٩م.
- محمد أحمد دهمان.
- \* ولاية دمشق في عهد المماليك، دار الفكر للنشر والتوزيع، دمشق، ١٩٨٤م.
- محمد عدنان البخيت.
- \* مملكة الكرك في العهد المملوكي، ط١، ١٩٧٦م.
- محمد قنديل البقلي.
- \* التعريف بمصطلحات صبح الأعشى، الهيئة المصرية للكتاب، ١٩٨٤م.
- \* الطرب في العصر المملوكي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٤م.
- مصطفى الحيارى.
- \* الإمارة النطائية في بلاد الشام، ط١، وزارة الثقافة والشباب، عمان، ١٩٧٧م.
- مصطفى السقا.
- \* الحياة الأدبية في القاهرة، أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة، ١٩٦٩م، الجزء الثالث، مطبعة دار الكتب، ١٩٧١م.

- وليم ماير. \*  
 تاريخ دولة المماليك في مصر، ترجمة محمود عابدين، القاهرة، ١٩٤٢م. \*  
 الملابس المملوكية، ترجمة صالح الشيتي، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة. \*  
 يوسف عزت باشا. -  
 تاريخ القوقاز، تعريب خوستوقه عبد الحميد غالب بك، اسطنبول، ١٩٢م. \*  
 يوسف غوانمة. -  
 التاريخ الحضاري لشرق الأردن في العصر المملوكي، ط٢، دار الفكر للنشر والتوزيع، عمان، ١٩٧٩م. \*  
 تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي، دار الحياة، عمان، ١٩٨٢م. \*

## -٢- المراجع الأجنبية:

- Ashtor, Elyahu, "Levanantine weights and standard parcels". In East-West trade in the Medieval Mediterranean. London. 1986.
- Ayalon, David, The system of payment in Mamluk Military Society, Journal of the Economic and Social history of the Orient. Vol. 1, Leiden. E.J. 1958.
- Bacharch, Jere Lehman, A study of the correlation between Textual Sources and Numismatic Evidence for Mamluk Egypt and Syria, Michigan, 1967.
- Breman, Ariel, Islamic coins, L.A. Mayer Memorial, Institue of Islamic Art. Exhibition winter, 1976.
- Baloq, Paul, The coinage of the Mamluk Sultans of Egypt and Syria. Numismatic studies, No., 12. The American Numismatic society, New York, 1964.
- Fischel, Wlater, J. Ascensus Barcoch, part. 1, 2, Alatin Biography of the Mamluk Sultan Barquq of Egypt (D 1399), written by B.DE Mignanelli in 1416.  
Rendered into English with an introduction and commentary.
- Gucci, Frescobaldi, and Sigoli, Visit to the Holy places of Egypt, Sinai, Palestine and Syria in 1384. Translated from the Italian by Bellorini and Hoade, Printed by Franciscan Press. Jerusalem, 1949.
- Holt. P.M., The structure of government in the Mamluk Sultanate. The Eastern Mediterranean lands in the period of Crusades.
- Mones, Hussain, Djamakiyaa, The Encyclopaedia of Islam, Leiden, London, vol. 2.

- Lane- Pools. S.:
- \* A history of Egypt in the Middle Ages Frank Cass, London, 1968.
- \* Catalogue of Oriental Coins in the British Museum, vol. 4, Forni Editore, Bologna, 1967.
- \* Muhammadan Dynasties, Paris, 1925.
- Petry, Carl, Geographic Origins of Diwan Officials in Cairo During the Fifteenth Century, vol. 21, part. 2.
- Petry, Carl and Stanly Mendenhall, Geographic Origins of the Civil Judiciary of Cairo in The Fifteenth Century, vol. 21, part.1.
- Poliak, N., The Influence of Chigizkan's Yesa- upon the General Organization of the Mamluk State, Bulletin of the School of Oriental and African Studies, University of London, vol. x, 1939-1942.
- Popper, William, Egypt and Syria under The Circassian Sultans. 1382-1468 A.D, 2 vol., University of California Press, Berkeley and Los Angeles, 1955-1957.

## ٣- الرسائل الجامعية:

- حسام محمد إسماعيل الناطور.
- \* السلطنة ونيابة السلطنة في دولة المماليك الثاني، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩١م.
- حسين خصاونه.
- \* طبقات المجتمع في بلاد الشام في العصر المملوكي، رسالة ماجستير، جامعة اليرموك، إربد، ١٩٩٢م.
- زياد مدني.
- \* مملكة حلب في العصر المملوكي الثاني، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٨٣م.
- سعيد صالح.
- \* التجارة الداخلية لدولة المماليك الثانية، رسالة دكتوراة، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٢م.
- سليمان خرابشة.
- \* مملكة طرابلس في العهد المملوكي، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان.
- فريال بدوي الزربا.
- \* الحياة الاجتماعية في دمشق في العهد المملوكي، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٨٠م.
- محمد عمایرة.
- \* الجيش في العصر المملوكي الثاني، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩٤م.



## ج- بحوث منشورة في:

## ١- دائرة المعارف:

- أدر، جراكسة، دائرة المعارف الإسلامية، ج٦.
- سوبرنهيم، برجي، دائرة المعارف الإسلامية، ج٣.
- سوبرنهيم، برقوق، دائرة المعارف الإسلامية، ج٣.

## ٢- الدوريات:

- إبراهيم بك جلال.
- \* الخلافة العباسية ببغداد ثم بمصر، مجلة الهلال، ج٧، السنة ٢٨، ١٩٣٠م.
- أحمد عبد الرزاق.
- \* عقد زواج أحد ممالك دولة بني الكنوز الإسلامية، مجلة كلية الآداب، جامعة الإمارات العربية، العدد الرابع، سنة ١٩٨٨م.
- حياة ناصر الحجي.
- \* الأوضاع السياسية والاقتصادية في حكم المؤيد شيخ في سلطنة الممالك،  
المجلة العربية للعلوم الإنسانية، مجلس النشر العلمي، الكويت، العدد ٣٦،  
المجلد التاسع، سنة ١٩٨٨م.
- سعيد عبد الفتاح عاشور.
- \* الحياة الاجتماعية في المدينة الإسلامية، مجلة عالم الفكر، الكويت، إبريل،  
مايو، يوليو، العدد الأول، المجلد ١١، سنة ١٩٨٠م.
- السيد الباز العريني.
- \* الفارس المملوكي، المجلة التاريخية المصرية، المجلد الخامس، سنة ١٩٥٦م.

- عبد اللطيف إبراهيم.
- \* من وثائق دير سانت كاترين، ثلاثة وثائق فقهية، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، أيار، مجلد ٢٥، الجزء الأول، سنة ١٣٩٦٣م.
- كامل العسلي.
- \* وثائق مقدسية تاريخية، الجزء الثاني، رقم ٦٣٦ (جمادى الأولى ٧٩٦هـ/ ١٣٩٣م) سنة ١٩٨٥م. دراسة محمد عيسى صالحية. من وثائق الحرم القدسي الشريف المملوكي، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، ١٩٨٥م.
- محمد مصطفى زيادة.
- \* بعض ملاحظات في تاريخ دولة المماليك، الجامعة المصرية، مجلة كلية الآداب، المجلد الرابع، الجزء الأول، سنة ١٩٣٦م.
- نقولا زيادة.
- رواد الشرق العربي في العصور الوسطى، مجلة المقتطف، بيروت، ١٩٤٣م.
- يوسف غوانمة.
- \* ابن خلدون وعلاقته بالأوضاع السياسية بالمشرق الإسلامي في العصر المملوكي، مجلة المؤرخ العربي، العدد ٤٤، السنة ١٦، ١٩٩١م.

**Abstract****The State of Mamlukes in the Era of Sultan  
Al-Dahir Barquq****(784-801 A.H / 1382-1398 A.D)*****Student: Hussam Mohammad Ismael Al-Natour******Supervisor: Dr. Mustafa Hayyari***

The study topic, the state of Mamlukes in the era of Sultan Al-Dahir Barquq 784-801 A.H/ 1382-1398 A.d, represents an important aspect of the history of the Mamlukes rule in Egypt and the Levant. This significance may be traced to the fact that the state of Circassian Mamlukes was based on foundations that were different from those of the Turk Mamlukes. Sultan Barquq relied on Circassian Mamlukes in carrying out his internal policy. Moreover, the study stresses variables produced by the transition of power from Turk into Circassian Mamlukes, and affect of these variables on political, economical, social, cultural and architectural aspects.

Another element that may contribute to the significance of this study is that it addresses the external policy of Sultan Barquq, a policy that led into making the Mamluke state the leader of the Islamic world throughout the period in question. Furthermore, the study investigates changes that affected administrative and military systems during that period which was characterized by extreme changes in more than one dimension in Egypt and the levant.

Objective of selecting this topic in particular is to explain the extent in which political life carries out its continuity. There were riots and uprisings during the rule of the first mamluke state and changes that took effect during the era of Sultan Barquq. The study attempts to illuminate Sultan Barquq's role in producing these extreme changes and transformations that affected the military institution. It also seeks to explain influence of these changes on internal and external condition and provide a comprehensive account of political, economical and social aspects of life at that time.

The study comes out in six chapters (each one with a conclusion), an analysis of reference, an appendix and a bibliography.

Chapter one addresses the following issues; the state before Sultan Barquq taking power, Sultan Barquq and the struggle for power, first term of Barquq's rule, riots and uprisings, such as Al-Tanbu'a, Al-Ashrafi's uprising, the attempt by the Caliph Al-Mutawaqel Ala Allah to take power, movement of Ahmad Ibn Al-Burhan, and Mantash and Yalbigha Al-Nasiri's uprising, deposing Sultan Barquq, Prince Haji's rule, Mantash and Al-Nasiri dispute over power, Sultan Barquq back into power, internal uprising such as that of Al-Arban, external relations of the Mamluke state (in the era of Barquq) with other states such as Tunis, Morocco, Algeria, Genoa, Venice, Tabriz and others.

Chapter two tackles the development of the administrative system of the state. It points out changes and developments that affected various institutions of the state including the military one such as introducing the

Sultan deputyship and Head of Nawba, the civil administration such the ministry, Diwan Al-Insha, Nazir Al-Khas, Nazirr Al-Jeyoush, the local administration of Sultan's deputyships in Egypt such as Welayet Al-Qahera, Welayet Al-Qarafah and Welayet Al-Qal'a, the Sultan's deputyships such as Neyabet Al-Iskandareya, Neyabet the seaside, and Neyabet the landside, and finally the religious administration such as magistrate office, Al-Mufti office, the treasury, and Al-Hasbeh. Local administrations of the Sultan's deputyships in the Levant is also discussed. There is also some explanation of the issue of selling positions (by bribery). The chapter concludes with a general summary that points out those developments and changes.

Chapter three is about the military institution. It discusses various issues related to this institution such as personell, sources of recruiting Mamlukes, elements of the army, divisions of the army, military ranks, system of promotion, financial and material provisions of the army and military administration. This chapter's summary presents developments and changes that took place in relation to the military institution.

Economical life is discussed in chapter four. This chapter deals with several economical facts such as agriculture, industry, trade, markets, prices and factors affecting them, taxes, money, weight and measures.

٤٩٢٩١٤

Chapter five is about social life. It discusses classes of inhabitants, means of entertainment, woman's position in the Mamluk state, parties of marriage, and feasts.

Finally, Chapter six is devoted for culture life. It addresses linguistic and religious disciplines such as Al-Hadith (Prophet Mohammad's sayings), reading of the Holy Quran, jurisprudence, Sufism (misticism), the judiciary. The chapter also discusses literary movement and rational sciences such as medicine, mathematics, Meqat, engineering and history. It stresses that Sultan Barquq tended to support all sciences.

The chapter classifies architectural constructions into religious ones such as schools, mosques and Khawaniq, and public ones such as bridges, channels, water basins and mail posts. Sultan Barquq's interest in these constructions is also discussed.